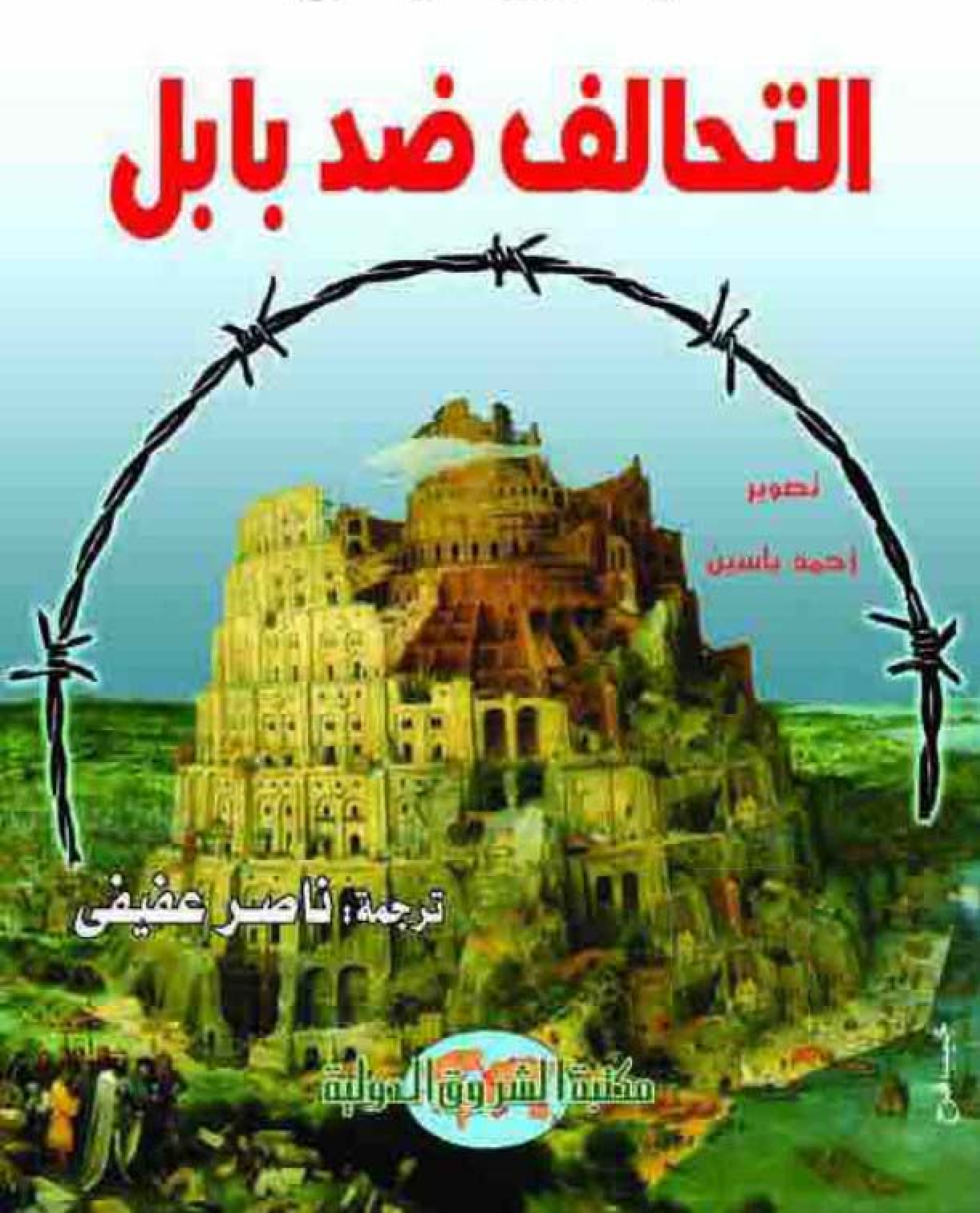
# چون كولي

# التحالف ضد بابل




ترجمة: ناصر عفيفي

مكتبة الشروق الدولية




# التحالف ضد بابل

## الولايات المتحدة وإسرائيل والعراق

الطبعـــة الأولى

١٤٢٧ هـ ـــ يناير ٢٠٠٦ م




٩ شارع السعادة ـ أبراج عثمان ـ روكسى ـ القاهرة

تليفون وفاكس: ٤٥٠١٢٢٨ ـ ٤٥٠١٢٢٩ ـ ٢٥٦٥٩٣٩

Email: < shoroukintl @ hotmail. com >

< shoroukintl @ yahoo.com >



# المحتويات

**الفصل السابع : حقبة صدام الأولى:**



**الفصل الثامن : حقبة صدام الثانية:**



**الفصل التاسع : حقبة صدام الثالثة:**



# تقديم

هل يمكن فهم صراع الشرق الأوسط دون العودة إلى قصة بابل القديمة؟

قد يبدو السؤال غريبًا ومثيراً لأول وهلة، ومع ذلك فالسؤال مطروح على بساط البحث فى هذا الكتاب.

يرى المؤلف أن أسباب هذا الصراع تعددت وتنوعت. . . . لكنه يرى أيضًا أن سبر أغوار صراع الشرق الأوسط لا يمكن أن يتم دون الرجوع إلى التاريخ القديم وامتدادته فى الحاضر. ولكى نقرأ الكتاب قراءة جيدة علينا أن نتذكر أيضًا أحداث هامة فى تاريخ صراع الشرق الأوسط.

لقد حاربت أوروبا العالم العربى فى سبيل القدس فى مطلع الألفية الثانية، فجاءت الحملة الصليبية الأولى فى عام ١٠٩٥م، استمرت الحروب ولمدة تقرب من قرنين من الزمان حتى انتهت بالفشل. وبعد النهضة الأوروبية وتقدم العلم الغربى، ومن ثم ازدياد قوة أوروبا العسكرية، وإنتاجها وتجارتها واقتصادها، وبالتالى أطماعها التوسعية، أضيف سبب ثان فى مطلع القرن التاسع عشر، وهو الموقع الاستراتيجى لذلك الشرق الأوسط فى الطَّريق بين تجارة الشرق والغرب، ثم زاد على ذلك بعد ظهور الرأسمالية التجارية فى أوروبا، إغراء فتح أسواق لتصريف المنتجات، مع التحكم فى مصادر المواد الخام.

ولم يقتصر الأمر على ذلك، فقد ظهر البترول فى الشرق الأوسط فى مطلع القرن العشرين، وتزامن ذلك مع التضاعف المتسارع للحاجة للقوى المحركة فى أوروبا وأمريكا، مع تقدم الصناعة بها، خصوصًا مع ظهور السيارات والمصانع الكبرى، فجمع الشرق الأوسط إغراءً خماسيًا تصعب مقاومته.

وفى مطلع القرن العشرين، كانت البلاد العربية فى الشرق الأوسط، فى منطقة شرق البحر المتوسط، هى الشام وفلسطين والعراق وبلاد العرب (الجزيرة العربية) ومصر، ووقعت تلك البلاد تحت احتلال وسيطرة تركيا وبريطانيا وفرنسا.

نشبت الحرب العالمية الأولى بسبب تصارع مصالح وأطماع أوروبا الغربية، وتحالفت تركيا مع ألمانيا والنمسا والمجر، ضد انجلترا وفرنسا وروسيا وإيطاليا، وانضمت إليهم الولايات المتحدة قبل نهاية الحرب.

مع هزيمة الجانب الأول، والقضاء على رجل أوروبا المريض ـ الإمبراطورية التركية ـ تقاسمت بريطانيا وفرنسا منطقة الشرق الأوسط، وظهرت خريطة جديدة له على أساس اتفاقية سايكس پيكو عام ١٩١٦.

أصبح هناك سوريا ولبنان بدلاً من الشام، وأصبحت فلسطين تحت الانتداب البريطانى، مع صدور وعد بلفور عام ١٩١٧م. بإقامة وطن قومى لليهود. وظهرت الأردن كتعويض لعائلة الشريف حسين الذى رفضت سوريا ـ وفرنسا ـ تنصيب ابنه ملكًا عليها، فكان الحل البريطانى صناعة الأردن. وفى أواسط القرن ظهرت دولة إسرائيل، ثم ظهرت دول الخليج، البحرين والكويت وقطر والإمارات وسلطنة عمان.

ما زالت عوامل الإغراء الخمسة قائمة حتى اليوم ـ القدس، الموقع الاستراتيجى، الأسواق، الخامات، البترول. وإن زاد فى تعقيد الأمر صعود قوتين عظميين فى منتصف القرن العشرين، أمريكا والاتحاد السوڤييتى.

انهار الاتحاد السوڤييتى قبل مرور نصف القرن على صعوده، بينما لا زال نجم الولايات المتحدة فى صعود، مع اضمحلال فرنسا النسبى، وتذبذب بريطانيا صعودًا وهبوطًا، ولكن انفردت الولايات المتحدة بمسمى القوة العظمى.

وظهرت إسرائيل كقوة إقليمية جديدة فى المنطقة خاصة بعد حرب ٦٧، وانكسرت فى أكتوبر عام ٧٣، ثم عاودت الصعود بعد ذلك، وزاد تحالفها مع الولايات المتحدة.

هل نشاهد الآن محاولة رسم خريطة جديدة للشرق الأوسط؟

من يحاول ذلك؟... ولماذا؟... وكيف؟...

نقدم هذا الكتاب الذى يهم كل من يريد أن يفهم ماذا يحدث، وأكثر أهمية لمن يريد أن يشارك فى صناعة ماذا يحدث، فى الحاضر والمستقبل.

**عادل المعلم**

**يناير ٢٠٠٦م**

# تقديم

**بقلم: ويليام پولك**

چون كولى هو صحفى بمعنى الكلمة . وهو ذلك النوع من الأشخاص الذين بمجرد وصولهم إلى منطقة الشرق الأوسط فإنهم سرعان ما يسعون إلى البحث عن قصة كبيرة، للقيام بتغطيتها . لقد كان هناك ويعلم من فعل هذا؟ ولمن وكيف ومتى؟ وهو يفعل ذلك منذ خمسينيات القرن العشرين . إن السنوات التى تزيد عن أربعين عاماً التى قضاها فى الشرق الأوسط وشمال أفريقيا هى سنوات فريدة بالنسبة للصحفيين الأمريكيين .

وقد تعامل مع قضايا ليس لها حدود فى كافة وسائل الإعلان، وفى الكتب التى نشرها من المغرب وحتى أفغانستان . وتتميز كتبه بالتفرد والتميز وكلٌ منها يثير قضية كبرى يقوم بالتصدى لها .

كان أول كتبه هو «البعل والمسيح ومحمد: الدين والثورة فى شمال أفريقيا» . ثم انتقل بعد ذلك إلى الجنوب؛ من أجل التصدى لموضوع «النفوذ الصينى فى أفريقيا السوداء» وذلك فى كتاب «الرياح الشرقية تهب على أفريقيا، الهجوم الصينى الأحمر» . وفى كتابه «مارس الأخضر وأيلول الأسود : قصة الفلسطينيين العرب»، والذى يتناول فيه التاريخ والحضارة والمحنة التى ألمت بالفلسطينيين، شرح فيه لماذا شعروا بأن عليهم اللجوء إلى «سلاح الضعيف» ألا وهو الإرهاب . عودة إلى البحر الأبيض المتوسط وأفريقيا، سعى إلى سبر أغوار كل زعماء الشرق الأوسط كما فى كتابه عن معمر القذافى «العاصفة الليبية : كشف حساب ثورة القذافى» .

أخذه موضوع الإرهاب إلى القصة الأفغانية، ومعركة ساكنى الجبال النابضة بالحياة ضد الروس وبعد ذلك ضد بعضهم البعض، وفى النهاية ضد الأمريكيين . وأدى

انغماس المقاتلين الإسلاميين فى حرب العصابات، التى ساندتهم فيها الولايات المتحدة بكل ثقلها كجزء من استراتيچيتها فى الحرب الباردة ، أدى بهم إلى الارتباط بأسامة بن لادن. وهذا هو موضوع كتاب كولى المسمى «الحروب غير المقدسة : أفغانستان وأمريكا والإرهاب العالمى» والذى صدرت منه ثلاث طبعات بثمانى لغات مختلفة. والطبعة الأخيرة من الكتاب نشرت بعد هجمات الحادى عشر من سبتمبر الإرهابية على الولايات المتحدة.

ولم يكن من السهل دائما نشر بحوثه المكثفة الاقتحامية. وإحدى هذه الدراسات عبارة عن دراسة للسوق العالمية لتزييف العملة الأمريكية من فئة مائة دولار، وتاريخ تزييف العملة كسلاح سياسى منذ العصور القديمة، والذى يبدو موضوعا حساسا للجمهور.

ولم يترك لنا كولى الفرصة لكى نصدر قائمة بمراسلاته الصحفية؛ حيث أنه «كان دائما فى موقع الحدث» يكتب عنه بحياد ونزاهة، وهو يعرف كيف يفعل ذلك.

التقيت و«كولى» للمرة الأولى حينما أصبح زميلاً لى فى مجلس العلاقات الخارجية فى الفترة من ٦٤ ـ ١٩٦٥م.

وقد عاد إلى مسقط رأسه فى نيويورك بعد جولة فى شمال أفريقيا، حيث وضع كتابه عن أسباب فشل المسيحية هناك واستبدالها بالإسلام؛ لأن المسيحية تم ربطها دائما بالاستعمار الأوروبى. وقد شاركنا معاً فى إحدى المجموعات الدراسية للمجلس التى تم تقديمه فيها باعتباره «رائداً» فيما أصبح يعرف بعد ذلك باسم «زمالات المراسلة الخارجية» لإدوارد مورو. وقمت فى وقت لاحق بالتخلى عن عملى فى الحكومة؛ حيث كنت مسئولاً عن تخطيط السياسة الأمريكية فى الشرق الأوسط، وأمضيت فترة مليئة بالمتاعب كرئيس «اللجنة الخاصة» بالحرب الجزائرية من أجل الاستقلال وعلى ذلك وجدت فى ملاحظاته أهمية بالغة.

بعد ذلك انغمست بالكامل فى تأسيس مركز دراسات الشرق الأوسط فى جامعة شيكاجو، وإنشاء معهد «أدلاى ستيڤنسون» للعلاقات الدولية، ولم أره ثانية لسنوات عديدة.

فى غضون ذلك، بدأ الدراسة التى أخذته إلى أعماق الانتفاضة الفلسطينية، وكذلك إلى العلاقات الليبية. ولكننا التقينا مرة أخرى فى لبنان حيث كان يعمل مراسلاً فى الشرق الأوسط لصحيفة «كريستان ساينس مونيتور». وافترقنا مرة أخرى، حيث أصبح هو مراسلاً لشبكة «إيه. بى. سى. نيوز» فى لندن، وأقمت أنا فى القاهرة. التقينا مرة أخرى فى العراق عام ١٩٨٧م، وقابلنا عدداً من مسئولى حزب البعث وشهدنا - على نحو مبكر - الأحداث التى وصفها فى هذا الكتاب، وهذا التحليل للأحداث المأساوية والخلفية التاريخية للحرب على العراق هو آخر غزاوته لحقل الألغام السيكولوچى والسياسى للشرق الأوسط. وهناك الكثير الواجب تعلمه من هذا الكتاب. علاوة على ذلك، هناك الكثير الذى يجب الاستمتاع والتأثر به.

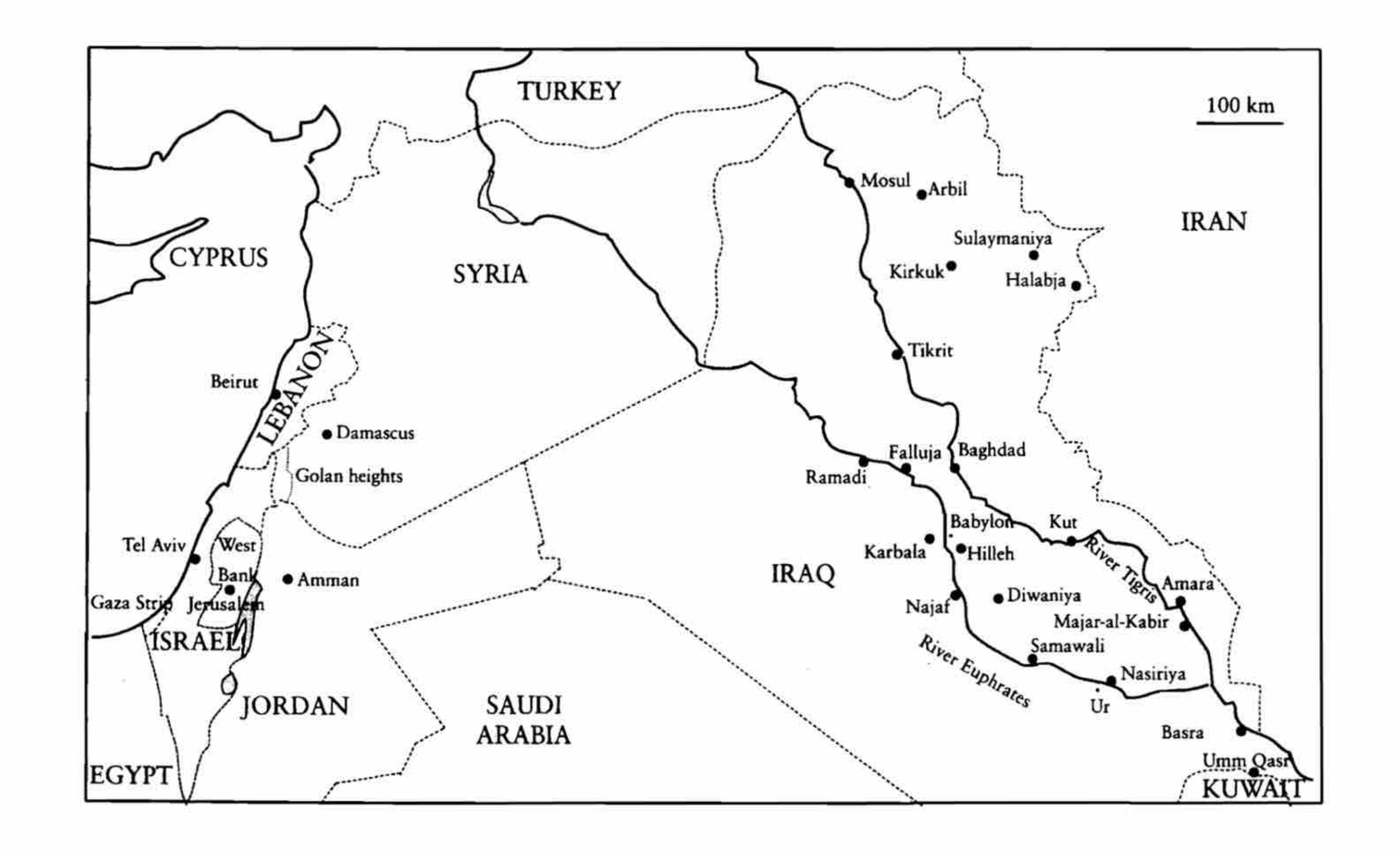
وكما سوف يبدو ذلك من الوهلة الأولى، إنها رؤية عن قرب، مستمدة من الملاحظة الشخصية واللقاءات المطولة والتأمل العميق.

***

## ويليام پولك

( قام الدكتور ويليام رو پولك بتدريس التاريخ العربى وشئون الشرق الأوسط فى جامعتى هارڤارد وشيكاجو. كما عمل مستشاراً للرئيسين چون كنيدى وليندون چونسون لشئون الشرق الأوسط. وفى عام ٢٠٠٤م أصبح مديراً لمؤسسة كارى، التى تمول المشروعات التعليمية والتنموية فى بقاع مختلفة من العالم. وكتابه الأخير «فهم العراق» نشر بواسطة هارپر كولينز فى عام ٢٠٠٥م ).

***


TURKEY
100 km
CYPRUS
SYRIA
IRAN
Mosul
Arbil
Sulaymaniya
Kirkuk
Halabja
Tikrit
Beirut
LEBANON
Damascus
Golan heights
Falluja
Baghdad
Ramadi
Babylon
Kut
Karbala
Hilleh
River Tigris
Tel Aviv
West
Bank
Amman
IRAQ
Amara
Gaza Strip
Jerusalem
Najaf
Diwaniya
Majar-al-Kabir
ISRAEL
River Euphrates
Samawali
Nasiriya
JORDAN
SAUDI
ARABIA
Ur
Basra
Umm Qasr
EGYPT
KUWAIT

# مقدمة

إن عمليات الحياة والتفكير والبحث، وفى النهاية الكتابة ـ والتى تؤدى إلى تأليف كتاب ـ لا تشبه العمليات الطبيعية التى تؤدى إلى نمو وازدهار الشجرة. وبعد ما يزيد عن أربعين عاماً من تغطية الحياة اليومية، والدراما والحروب والثورات فى شمال أفريقيا والشرق الأوسط، يبدو لى أن البذور والجذور المنبثقة منها أدت فى النهاية إلى خروج هذا الكتاب إلى النور.

وعند استعراض الذكريات، كان من قبيل حسن الحظ ومحاسن الصدف ـ وليس من قبيل التخطيط والتعمد ـ أنه فى الخمسينيات وبعد أداء الخدمة العسكرية والحكومية فى أوروبا فى أعقاب الحرب العالمية الثانية، أقمت فى جانب من العالم العربى فى شمال أفريقيا خلال السنوات الدامية للاستعمار الفرنسى هناك. ومن خلال سعيى إلى الهرب من الوظيفة الصغيرة فى وزارة الخارجية فى ڤيينا التى تحدث عنها جراهام جين وكارول ريد فى «الرجل الثانى»، فى عام ١٩٥٣م، والتى كانت لا تزال مقسمة بين قوى «التحرير» الأربع، الولايات المتحدة والاتحاد السوڤييتى وبريطانيا وفرنسا، انتقلت خلال الحرب الكورية إلى العمل فى إحدى شركات البناء، التى كانت تقوم ببناء قواعد جوية أمريكية فى المغرب؛ «لردع» الاتحاد السوڤييتى. وسرعان ما اجتاح الاحتلال الفرنسى للمغرب الصراع القومى العربى من أجل الاستقلال. وقد انتقل إلى الجزائر وتونس وتحول إلى حرب عصابات وإرهاب لمدة ثمانى سنوات؛ والذى أدى فى النهاية إلى استقلال الجزائر.

أولى خبراتى فى الإرهاب تمثلت فى رؤية الأصدقاء الفرنسيين والمغاربة من مسيحيين ويهود ومسلمين فى إحدى مقاهى كازابلانكا. تحولتُ إلى العمل كصحفى مستقل، وقمت بالكتابة لمدة ست سنوات عن الكفاح الدونكيشوتى للمستوطنين فى

الجزائر للتشبث بهيمنتهم التى استمرت قرناً كاملاً (والإطاحة بـ أو قتل بطل الحرب العالمية الثانية، الرئيس تشارل ديجول). وهذا الصراع كان موازيا لمحاولات الجيش الفرنسى للتعافى من الهزيمة المهينة فى دين بين فو وانسحابه من الهند ـ الصينية عام ١٩٥٤م وهو نفس العام التى بدأت فيها الانتفاضة فى الجزائر. وخلال الأعوام التالية، كان معظم أصدقائى وزملائى يكتبون إما عن الورطة الأمريكية فى ڤيتنام، التى أعقبت الهزيمة الفرنسية، أو الصراع الدموى للاحتلال البلچيكى والفرنسى باسم الأمم المتحدة فى الكونجو والمناطق المجاورة فى أفريقيا السوداء.

وبخلاف هؤلاء الزملاء، مكثت هناك لأكون شاهد عيان ولأقوم بتغطية تطورات الدراما الجزائرية وما أعقبها فى شمال أفريقيا وأوروپا.

وفى نيويورك وبينما كنت أعمل فى مجلس العلاقات الخارجية فى الفترة ٦٤ ـ ١٩٦٥م، أكتب كتبى الأولى، بدأت فى فهم كيف تظهر الأحداث الهامة من ساحل الأطلنطى للمغرب وحتى صحراء وجبال أفغانستان، وتأثير ذلك على المنطقة والعالم.

فالمجتمعات اليهودية الكبيرة والقديمة فى تونس والجزائر والاستعمار الإيطالى السابق لليبيا، وكذلك المغرب، تأثرت إلى حد بعيد بحروب الشمال الأفريقى من أجل الاستقلال ومن خلال إنشاء دولة إسرائيل فى فلسطين التى كان يحكمها العثمانيون ثم بعد ذلك البريطانيون عام ١٩٤٨م.

كانت إحدى عواقب ذلك هى الخروج اليهودى التدريجى من شمال أفريقيا. ومع ذلك، فى ليبيا فقط، عانى اليهود إلى جانب المستوطنين الإيطاليين الذين تم زرعهم هناك بواسطة الجيوش الغازية لموسولينى، من نزع الملكية والعزلة وذلك بعد انقلاب معمر القذافى على حكم الملك السنوسى عام ١٩٦٩م.

وفى الوقت الذى حصلت على عملى الأول كعضو فى صحيفة كبرى بالعمل كمراسل لصحيفة كريستيان ساينس مونيتور فى بيروت عام ١٩٥٦ م، كان الرئيس جمال عبد الناصر قد أطلق العنان لأحلام وطموحات العالم العربى من المغرب إلى العراق. وأدت أصداء الحرب الجزائرية الشرسة والناجحة فى نفس الوقت إلى إلهاب حماس ياسر عرفات وأبناء جيله من الفلسطينيين، حيث عقدوا العزم على استعادة

الوطن الذى فقدوه فيما أطلق عليه العرب حرب «النكبة» أو الكارثة وخروجهم على يد دولة إسرائيل الوليدة المنتصرة فى ٤٨ ـ ١٩٤٩م. وخلال الفترة من عام ١٩٦٧م وحتى الثمانينيات، التقيت و عرفات (والعديد من رفاقه) عدة مرات، على ذلك كنت شاهداً على صناعته للحرب وصناعته للسلام ونهايته الأخيرة. وكان كتابى الذى نشر عام ١٩٧٣م، «مارس الأخضر وأيلول الأسود»، من أوائل الكتب فى الغرب التى تسجل العديد من جوانب الشعب الفلسطينى وطموحاته ونكباته.

وانطلاقًا من بيروت فى الفترة ٦٥ ـ ١٩٧٨م (التى تخللها انسحابى الاستراتيجى إلى أثينا مع زوجتى اليونانية فى الفترة ٧٦ ـ ١٩٧٨ م، عند نشوب النزاع اللبنانى الطائفى وغير المدنى فى معظمه، حيث تعرضت مدرسة أطفال طفلنا البالغ من العمر أربع سنوات لإطلاق النار)، سافرت وكتبت عبر كل العالم العربى من المغرب إلى اليمن وأحياناً إلى إيران وتركيا وپاكستان. وكان واضحاً لى حينئذ، كما حدث خلال سنواتى الأولى فى شمال أفريقيا، أن الصراع الفلسطينى ـ الإسرائيلى كان محور اهتمام ومطمح أمال المسلمين والمسيحيين العرب فى كل مكان. ومن خلال رحلاتى إلى منطقة الخليج العربى وإيران والعراق أثناء فترة حكم صدام حسين وما قبلها أصبح واضحاً على نحو متزايد أن الصراع الفلسطينى ـ الإسرائيلى هو المشكلة التى تستحوذ على اهتمام الجميع من كافة الطبقات. انضممت إلى شبكة إيه. بى. سى نيوز عام ١٩٨١م وخلال الثمانينيات والتسعينيات كمراسل إذاعى للشبكة فى المنطقة، ووجدت نفس الهاجس المتصل بإسرائيل وفلسطين الذى شاهدته من قبل فى دول المغرب. وكانت هناك خلفية فلسطينية هامة لحرب التحالف التى قادتها أمريكا عام ١٩٩١م لرد الديكتاتور العراقى صدام حسين من آبار نفط الكويت، كما يبين هذا الكتاب.

كان الغزو والاحتلال الأمريكى للعراق فى مارس ٢٠٠٣م حافزاً على الإتمام النهائى لهذا الكتاب، كما أوضحت فى الصورة التى رسمتها للشجرة التى تضرب بجذورها فى الماضى. فبعد الغزو العسكرى السهل نسبياً للعراق عام ٢٠٠٣م بواسطة التحالف الذى تقوده الولايات المتحدة؛ شهد الاحتلال الذى لم يكن مخططاً له على نحو جيد، الكثير من المآسى. وادعاء اليمين الأمريكى بأنه المدافع الأول عن حقوق الإنسان فى العالم قد لطخته الفضيحة المدوية والمصورة للإساءة والتعذيب، وحتى

القتل للسجناء العراقيين المحتجزين بواسطة القوات الأمريكية فى العراق، والذى كان أسوأ مقدمة للانتقال المفترض «للسلطة» فى ١ يوليو ٢٠٠٤م إلى العراق الذى يواجه انقسامات سياسية واقتصادية واجتماعية حادة.

ومنذ بداية المغامرة الأمريكية السيئة الإعداد، كان واضحاً أن الحرب قد اندلعت واستمرت (واتسعت فى وقت لاحق كصراع استعمارى كلاسيكى ضد مقاومة على شاكلة حرب العصابات) لأسباب خاطئة. كانت هناك افتراضات قائمة على معلومات استخباراتية كاذبة أو حتى ملفقة بشأن أسلحة دمار شامل غير موجودة أو لم تعد موجودة، وربط بين عراق صدام حسين وشبكة القاعدة بزعامة أسامة بن لادن (من أجل التضليل المتعمد للرأى العام الأمريكى)، وجذور ذلك ـ التى قمت بالتفتيش ـ عنها فى الثلاث طبعات السابقة الناجحة لكتابى «الحروب غير المقدسة: أفغانستان وأمريكا والإرهاب العالمى» ١٩٩٩م ـ ٢٠٠٢م.

تجاهلت معظم القراءات المعاصرة لخلفية صراع الولايات المتحدة وحلفاءها الذين قاتلوا معها ضد العراق منذ عام ١٩٩١م ـ طوعاً أم كرهاً ـ عاملاً هاماً، وهذا العامل الهام هو الدور الذى قامت به إسرائيل، والعلاقات العدائية وغيرها بين الشعب اليهودى وبلاد ما بين النهرين، التى تعرف الآن باسم العراق، منذ زمن العهد القديم وحتى الآن.

إن الكشف عن هذا الدور هو أحد أهداف هذا الكتاب. لم تقم حكومة رئيس وزراء إسرائيل أرييل شارون بالطبع بحث حليفها الأمريكى على الهجوم على العراق والإطاحة بصدام حسين واحتلال بلده، كما أنها لم تجر المستعمر السابق للعراق بريطانيا إلى أتون الصراع. لقد تم اتخاذ قرار الحرب بشكل منفرد فى واشنطن العاصمة بواسطة الرئيس چورچ بوش ومستشاريه، قبل هجمات الحادى عشر من سبتمبر المأساوية عام ٢٠٠١م على الولايات المتحدة بواسطة انتحاريى أسامة بن لادن. وحظى قرار الحرب بدعم رئيس الوزراء البريطانى تونى بلير، وحكومة حزب العمال الجديدة فى لندن. ومع ذلك فإن الكثير من أصدقاء إسرائيل وأعضاء الحزبين الديموقراطى والجمهورى، وخاصة الحركة المسيحية الإيفانجليكية والأصولية الواسعة الانتشار فى الولايات المتحدة، وبعض المستشارين داخل منظومة السلطة فى واشنطن، قد ساهموا

فى ابتكار فكرة «تغيير النظام» فى العراق ومشروعات أخرى أكثر انغماساً فى الوهم على شاكلة إعادة صياغة المناطق العربية والإسلامية فى المستقبل.

ومنذ نشوب الحربين العالميتين فى القرن العشرين، اللتين غيرتا ـ على نحو جوهرى ـ منطقة الشرق الأوسط ، التى تتألف فى معظمها من دول عربية فى مرحلة ما بعد الاستعمار ودول إسلامية غير عربية مثل تركيا وإيران ودولة إسرائيل اليهودية ـ تغير الدور الأمريكى على نحو جذرى. ففى عام ١٩٤٨م سارع الرئيسى هارى ترومان (مثل الدكتاتور چوزيف ستالين ، ولكن لأسباب مختلفة تماماً ) إلى الاعتراف بدولة إسرائيل حديثة العهد. ومع ذلك ، فإن التحالف الأمريكى ـ الإسرائيلى اليوم الذى يؤدى ـ فى غمرة اجتياح العراق وفشل تجارب السلام الإسرائيلية ـ الفلسطينية فى التسعينات ـ إلى اكتساب عداوة العالم الإسلامى بأكمله ـ قد نما على نحو بطىء للغاية.

وأحد أهداف هذا الكتاب هو بيان أن المصالح الأمريكية والإسرائيلية ( مثل البترول والأمن الإقليمى ) فى عراق ما بعد الاستعمار بدت متناقضة فى البداية ثم بعد ذلك أدى التقاءها التدريجى إلى تعضيد التحالف الأمريكى ـ الإسرائيلى اليوم. وهذا التحالف تمحور حول موضوعين وثيقى الصلة ببعضهما البعض وهما : ٤٠ عاماً من الاحتلال والاستيطان الإسرائيلى للأراضى الفلسطينية وحكم الفلسطينيين العرب، وما يصل عند صدور هذا الكتاب إلى ثلاث سنوات من الاحتلال العسكرى للعراق بواسطة الولايات المتحدة وبريطانيا، وبعض الشركاء الصغار والشكليين. وقد قام بعض هؤلاء ، مثل إسپانيا وبعض دول أمريكا الوسطى ، بالانشقاق على ما تصر حكومتا بوش وبلير على أن تطلق عليه «التحالف».

ومن أجل سرد قصة التفاعل بين التشابكات الغربية والأمريكية والعربية والإسرائيلية فى تاريخ العراق ، يعالج الفصل الأول القصة التوراتية والتاريخية للأسرى اليهود فى بابل والميراث الثقافى لهذه الأجيال والقرون.

أما الفصل الثانى فإنه يصف كيف تشتت المسلمون واليهود وأشخاص آخرون فى الأقاليم التركية الثلاث لبلاد ما بين النهرين، مع تقسيم الإمبراطورية القديمة بعد الحرب العالمية الأولى، وكيف تحولت إلى عراق اليوم. فى الفصل الثالث نرى كيف

قام مؤسسو إسرائيل الوليدة والمقاتلون اليهود الأوائل وعملاء الاستخبارات ، حتى قبل رحيل البريطانيين عن فلسطين عام ١٩٤٨ ، بالتخطيط لجلب مئات الآلاف من اليهود العراقيين ودمجهم فى الدولة الجديدة . وأدت مشاعر العداء المختلطة بالولاء التى ولدها هذا الخروج إلى المساهمة فى تكوين أول حملة عسكرية فى بغداد للانضمام إلى مصر وسوريا والأردن ولبنان فى مشروعهم الذى لم يكتب له النجاح ٤٨ ـ ١٩٤٩م لتدمير الدولة اليهودية الجديدة، وهذا ما سوف تتم معالجته فى الفصل الرابع .

ويعالج الفصل الخامس دوافع وأنماط التحالف الإسرائيلى المبكر والمستمر مع أكراد شمال العراق . وهذا يوضح مدى التغلغل الأمريكى المتزايد للولايات المتحدة فى المنطقة إلى جانب تحالف أخر مؤقت مع أكراد إيران منذ الخمسينيات وحتى منتصف السبعينيات فى عهد الشاه محمد رضا بهلوى .

وفى عام ١٩٧٣م قام العراق بحشد أكبر حملة عسكرية مؤثرة وطموحة فى حرب أكتوبر ضد إسرائيل . وخلال نفس الفترة ، كما يحدثنا الفصل السادس ، استغل صدام حسين حزب البعث العربى الاشتراكى الوليد، ومساعدة وكالة الاستخبارات الأمريكية لكى يحقق طموحه فى أن يصبح ديكتاتوراً مطلقاً على العراق .

وفى الفصلين السابع والثامن يتناول المؤلف موضوع جاذبية ثروة البترول العراقى الضخمة والمتزايدة، والسوق الهائلة للاستثمار وبيع البضائع الاستهلاكية والسلاح بالنسبة للولايات المتحدة، والمصالح الغربية التجارية الأخرى والتطورات الموازية فى الحرب العراقية ـ الإيرانية المدمرة ٨٠ ـ ١٩٨٨م .

وبحلول عام ١٩٩٠م ، شعر صدام حسين الملىء بالثقة الزائدة والغرور بأنه قوى بما يكفى ؛ للمقامرة بغزو وسلب جارته المفرطة الثروة الكويت، وبذلك فإنه يستحوذ على نصيب أكبر من البترول العالمى . وقامت إسرائيل ـ كما جاء فى الفصلين الثامن والتاسع ـ بشن حرب خفية للحيلولة دون امتلاك صدام لأسلحة متطورة، بما فى ذلك وقف برنامجه النووى . ومع ذلك ، وبدون مساعدة إسرائيل، قام الرئيس الأمريكى چورچ هربرت ووكر بوش فى عامى ١٩٩٠م و ١٩٩١م بحشد تحالف ضخم بمساندة الأمم المتحدة أدى إلى طرد القوات العراقية من الكويت، ولكنه فشل فى مطاردتها والقضاء عليها أو الإطاحة بصدام .

ويصف الفصلان العاشر والحادى عشر كيف ألقت الولايات المتحدة وإسرائيل بشباكهما على صدام حسين، وضيقا عليه الخناق. وبدون المشاركة بشكل مباشر فى غزو مارس ٢٠٠٣م للعراق، والمخطط له حتى قبل هجمات الحادى عشر من سبتمبر على الولايات المتحدة، نظر الإسرائيليون إلى الحرب وعواقبها بمشاعر مختلطة. فعدوهم الاستراتيجى، القوات المسلحة العراقية، لم يعد قادراً على تهديد إسرائيل كما كان يحدث منذ عام ١٩٤٨. ومع ذلك، فإن أحلام بعض القادة الإسرائيليين فى الحصول على بترول رخيص من العراق سرعان ما أصبحت رماداً تذروه الرياح. فالفوضى والإرهاب والعلاقات الاجتماعية السياسية التى اجتاحت المنطقة من فلسطين إلى پاكستان كانت تمثل أخباراً سيئة للقدس وواشنطن وعواصم أخرى فى العالم. وأدت إعادة انتخاب الرئيس چورج بوش فى نوڤمبر ٢٠٠٤م لفترة رئاسة أخرى قدرها أربعة أعوام إلى تزايد التوقعات السيئة للكثير من النقاد على مستوى العالم لحرب العراق وسياسات بوش الأوسع فى الشرق الأوسط.

وآمل من خلال هذه الرواية، المأخوذة من تجربة عمرها أربعون عاماً فى تغطية أحداث الشرق الأوسط وجنوب آسيا، والمعتمدة على العديد من المصادر البحثية المنشورة وغير المنشورة، ومساعدة زملاء الصحافة، واللقاءات الشخصية مع العديد من اللاعبين الأساسيين مثل: ديڤيد بن جوريون وشاه إيران وجمال عبد الناصر وحافظ الأسد والملك حسين وصدام حسين، وهذا بعض من كثير - أن أقوم بإلقاء الضوء على هذه الحقبة الواسعة والملغزة من التاريخ.

ولا يفوتنى هنا أن أوجه الشكر إلى مئات المطبوعات والأشخاص والذين ذكرت معظمهم فى النص والهوامش؛ حيث أنه من الصعب ذكرهم جميعاً. وأنا أدين بالكثير إلى العديد من الأشخاص، وخاصة رفيقتى وزميلتى وزوجتى الصبورة «ڤانيا كاتيلانى كولى» وإلى ابننا «ألكسندر»، عالم السياسة بجامعة كولومبيا، ولابنتى «كاترين» آن كولى التى تعمل بالأخبار بإحدى قنوات التليفزيون الفرنسى الرئيسية. كابل تليفزيون فرنسا. واعتذر بالطبع عن أية أخطاء فى البحث أو التقدير.

**چون. كيه. كولى**

**أثينا - نوڤمبر ٢٠٠٤م**



# الفصل الأول

# تراث بابل



**«كنا فى منطقة تبعد عن شط العرب مسافة قليلة جهة الشمال، ورأينا بعض الأطلال فى الصحراء. كان المكان قد نُهبَ تمامًا وكانت هناك حفرًا فى كل مكان. وجدت حجرًا مخروطيًا مزدحمًا بالنقوش، وكذلك على تلك اللوحة التى دفنت فى الرمال. أخبرنا المترجم فيما بعد أنها ترجع إلى عام ٢٠٠٠م قبل الميلاد، وأنها جزء من معبد الملك. إننى أجهل تمامًا علم الآثار؛ فأنا رجل عسكرى. كل ما عرفته أنها قديمة تمامًا. كانت صفقة عظيمة تتمثل فى العثور على هذه القطع الأثرية؛ ولكننى فى نفس الوقت كنت متكدرًا قليلاً، فنحن لا نزال فى العراق».**

**تروى ميريل، الفرقة الخامسة عشرة مشاة البحرية الأمريكية، العراق، يونيه ٢٠٠٣.**

**(نيويورك تايمز، ١٦ يونيه، ٢٠٠٣)**

كصبى صغير نشأ فى الثلاثينيات فى مونت ڤيرنون بنيويورك بالقرب من ضاحية برونكس، كانت قصص التوراة، بما فيها تلك التى تتحدث عن اليهود وأعدائهم الشرق أوسطيين، لا تشكل اهتمامى الأكبر.

كان والداى يعملان بالصحافة؛ وكانا مغرمان بنشرات الأخبار. وكنا منومين مغناطيسيًا بسبب العاصفة التى تتجمع فى أوروپا. وقد بدأ أدولف هتلر فى ابتلاع جيران ألمانيا واحدًا بعد الآخر.

وكان يسوق يهود ألمانيا وأوروپا نحو مصيرهم المحتوم فى محارق الإبادة الجماعية. كان والداى يحضران جلسات مدرسة الأحد الأسبوعية حتى بلغتُ الثانية عشرة.

وقصص التوراة التى كانت تروى فى تلك الجلسات نادرًا ما كانت تعلق بذاكرتى، ولكن الموسيقى والتراتيل الخاصة بألحان پول روبيسون، والتى كان يعزفها أبى خاصة التى تبدأ بـ:

كان هناك ثلاثة فتيان من أرض إسرائيل شدرخ وميشخ وعبد نغو .

فى الأغنية ، قام نبوخذ نصر ، ملك بابل الشرير ، بالاحتفاظ بصفوة الشعب اليهودى من يهودا أسرى فى عاصمته، وصنع وثنًا من ذهب وأمر «الفتيان».

( الذين هم أمراء صغار من مملكة يهودا ) :

يجب أن تخروا سجوداً وأن تعبدوا التمثال يا شدرخ وميشخ وعبد نغو .

وعندما رفضوا أمره ، كما يخبرنا كتاب دانيال فى العهد القديم ، «طرحوا داخل الأتون المستعر» . ولكنهم لم يصبهم أى أذى ، كما يمكن أن يخبرك أى مسيحى أو يهودى مؤمن ، بعد أن حفظهم الله القدير.

و«خرجوا دون أن تؤذى النار أجسامهم ولم تحترق شعرة من روؤسهم ولم تعلق بهم رائحة النار» . ( ٣ دانيال : ١١ ـ ٢٥ ).

وفى دروس اللغة الإنجليزية ، قبل أن أنضم للخدمة العسكرية فى أوروپا المحتلة بعد الحرب ٤٦ ـ ١٩٤٧م، كلفت بدراسة «التوراة كأدب حى» .

## ذكريات غابرة

إن أمجاد وخطايا أشور وبابل وأسر يهود إسرائيل القديمة ويهودا هى بمثابة تاريخ حى للباحثين اليهود والمسيحيين الإيڤانجليكيين والأصوليين والمؤيدين لهم، الذين يلعبون دورًا هامًا فى منظومة الدعم الأيديولوچى والعاطفى فى الولايات المتحدة.

فلكل مائة أمريكى يحارب فى العراق منذ عام ٢٠٠٣م هناك ـ على الأرجح ـ عدد مساو أو يزيد من المسيحيين الإيڤانجليكيين الموالين للصهيونية، من أمثال القس پات روبرتسون وأعضاء الكونجرس من أمثال العضو الجمهورى توم ديلاى عن تكساس، وبالطبع الرئيس چورچ بوش الذى نظر ـ بالمصطلحات الثنائية للصليبية ـ إلى الحرب على الإرهاب باعتبارها صراع بين الخير والشر.

وبالنسبة لكل من يحاول سبر أغوار الشرق الأوسط، يرتكب خطأ فادحًا إذا تجاهل التاريخ القديم. فالأسباب الداعية إلى وجود أشد أنصار إسرائيل تعصبًا فى

الولايات المتحدة ـ بما فيهم بعض أقرب مستشارى چورچ بوش ـ وهم حلفاء متحمسون لساسة وچنرالات إسرائيل اليمينيين والمتدينين اليوم، موجودة فى هذه القصص الغابرة.

فهم ينطلقون من أعماق قصص التوراة والتاريخ والأساطير ، وخاصة دراما الإسرائيليات القديمة وأباطرة الشرق ، من الملك حامورابى ملك بابل إلى الإسكندر الأكبر ، الذى فتح العالم ثم توفى فى بابل عام ٣٢٣ قبل الميلاد. كان ذلك بعد قرنين من الزمان الذى عاش فيه الكثير من بنى إسرائيل فى الأسر البابلى، ثم عادوا إلى فلسطين تحت قيادة النبيين عزرا ونحميا.

وقام بعض مؤيدى إسرائيل وبعض الإسرائيليين المولودين فى العراق بادعاء ملكيتهم لممتلكات اليهود العراقيين المهاجرين فى العراق الحديثة. وهذه الدعاوى تعود إلى سنوات حكم صدام حسين المستبد ، وأيضًا تعود إلى حكام العراق السابقين، حتى قبل إنشاء إسرائيل عام ١٩٤٨م. والدراسة الإحيائية للعراق وبابل وبغداد فى التاريخ القديم ـ وخاصة التاريخ اليهودى ـ تساهم فى شرح، وفى نفس الوقت تعقيد، الصراع على مستقبل العراق.

وبلاد ما بين النهرين (دجلة والفرات) القديمة أو بلاد الرافدين ( ميزوپوتاميا ) تظهر فى قصص التوراة المثيرة للدهشة، وفى روايات المؤرخين، بدءًا من هيروديت باعتبارها «مهد» الحضارة. ومنذ الأزمنة القديمة ، سواء وافقت على نظريات التطور التاريخى، أو «الخلق» الذى أحياه بعض المسيحيين الأصوليين المتحمسين، أم لا ، فقد ارتبطت بلاد ما بين النهرين على نحو وثيق باليهود واليهودية. وتبعًا لسفر التكوين، أول كتب العهد القديم ، فإن جنة عدن كانت توجد بالقرب من السيل الذى انفصل ليكون ما أصبح يعرف اليوم بنهرى دجلة والفرات.

وقام السومريون القدامى ، وخاصة فى ملحمة جلجامش، بإبداع قصص الخلق الخاصة بهم. فقد تحدثوا عن الطوفان العظيم مقارنة بقصص التكوين فى طوفان الكتاب المقدس ونوح وفلكه، وأسطورة الخلق السومرية هذه تمثل أحداث طبيعية ليست نتاج أمر إلهى، ولكنها نتيجة للصراع بين الآلهة، وقد نجا نوح القاطن فى مدينة سومر ، والذى أطلق عليه اسم أوتناپشتيم من الطوفان العظيم من خلال قوته البدنية وليس بسبب فضائله الأخلاقية كما جاء فى التوراة[١].

بدأت الصراعات بين اليهود وأعدائهم فى عهد التوراة. فقد تحدت جيوش الإمبراطورية الآشورية سلطة السوريين من خلال الزحف انطلاقًا من بلاد ما بين النهرين على فلسطين. ومنذ عام ٩٥٠ قبل الميلاد والسوريون يتحركون داخل الأراضى الآشورية فى الشرق، بينما يحاربون فى الجنوب والغرب مملكة إسرائيل. ونحت سوريا وإسرائيل العداوة جانبًا من أجل صد الخطر الآشورى. ومعًا قاما بمواجهة الآشوريين وهزموهم فى معركة «قارقار» بسوريا. وسرعان ما تحول الحليفان المؤقتان إلى قتال بعضهما البعض.

## أسرى بابل

فى عام ٨٤١ قبل الميلاد استأنف الآشوريون عدوانهم مرة أخرى. وهذه المرة اختار ملك إسرائيل الخضوع لسوريا بدلاً من التحالف معها، والتى صمدت فى وجه هجمات الآشوريين لمدة أربع سنوات. وبعد ذلك شن الملك الآشورى المحارب تغلث فلاسر الثالث ( ٧٥٢ ـ ٧٤٢ قبل الميلاد) الحرب ضد الملك مناحيم. وقد حاول السوريون ، بلا جدوى تجديد التحالف القديم مع إسرائيل. بدلًا من ذلك ، قام الملك أحاز ملك يهودا ( ٧٣٢ ـ ٧١٦ قبل الميلاد ) بطلب مساعدة الآشوريين. وقام تغلث فلاسر بالهجوم على السوريين وحصار دمشق عاصمتهم، واستولى عليها عام ٧٣٢ قبل الميلاد. ثم تحول إلى إسرائيل، ومنع تقديم المزيد من الدعم إلى السوريين، وسبى قبائل جاد ورأوبين وعشيرة منسى ونقلهم إلى أشور ( كتاب الملوك الثانى ١٥ : ٢٩ ).

وحينما توفى تغلث فلاسر ، توقف اليهود عن دفع الجزية إلى الآشوريين وتحالفوا سراً مع مصر. وقامت أشور ، ردًا على ذلك ، بحصار السامرة (الضفة الغربية) حصاراً طويلًا والاستيلاء عليها فى النهاية. وتم أسر العشرة أسباط الشمالية الباقية فى إسرائيل إلى أشور وانهارت مملكتهم. وأطلق أنبياء اليهود على ذلك انتقام الرب من وثنية إسرائيل ونقضهم لعهودهم مع يهوا (الله) ( عاموس ٥ : ١ ـ ١٥ ). ولا يسجل التاريخ أن الأسباط العشرة المفقودة لإسرائيل قد عادوا أبدًا إلى الوطن.

وهدد حكام أشور العدوانيون والمحاربون بالتخلص من النفوذ المصرى فى سوريا وفلسطين. وقام أخزيا ملك يهودا ( ٧١٦ ـ ٦٨٦ قبل الميلاد ) بتأليب مصر وسوريا ، الأعداء بالفعل ، ضد بعضهما البعض ووقفت يهودا على الحياد.

وفى عام ٧٠١ قبل الميلاد قام الجيش الآشورى بقيادة الملك سيناشريب ، وهو ملك شرير آخر من بلاد الرافدين بغزو أورشليم . ومع ذلك فإن الهيمنة العسكرية الآشورية بدأت فى الانحسار . وانتزعت بابل حريتها من الاستبداد الآشورى . وبدءاً من عام ٦٢٦ قبل الميلاد، شنت بابل المستقلة الجديدة سلسلة من المعارك؛ أدت إلى الانهيار الكامل لما كان يعرف باسم الإمبراطورية الآشورية .

وفى ذلك الوقت قام نيخو ، فرعون مصر ، بالتدخل محاولاً حماية ممتلكاته من خلال التحالف مع فلول جيوش أشور . وأدى ذلك إلى لفت انتباه البابليين، الذين هزموا المصريين فى معركة كاركميش عام ٦٠٥ قبل الميلاد . كانت يهودا خاضعة فى ذلك الوقت وكان عليها أن تدفع الجزية، ولكن قام ملكها ياهوياكيم بالتمرد فيما بعد . وفى عام ٥٩٧ قبل الميلاد، قامت الجيوش البابلية والكلدانية بقهر المدافعين عن القدس وقامت بأسر ٣٠٢٣ يهودى وأخذتهم إلى بابل . وكان ذلك أول أسر جماعى لليهود . وكان الثانى عام ٥٨٧ قبل الميلاد والثالث عام ٥٨١ الذين اشتملا على ٨٣٢ و ٧٤٥ أسير على التوالى ( أرميا ٥٢ : ٢٩ ـ ٣٠ ) . كانت هذه هى النهاية المحتومة لمملكة يهودا[٢] .

إن إحدى النقاط التى يركز عليها باحثو التاريخ القديم اليوم، أيًا كانت معتقداتهم، والتى يبدوا أنهم يتفقون جميعًا عليها، هى قوة وثراء الملك نبوخذنصر الثانى ( ٦٠٤ ـ ٥٦٢ قبل الميلاد ) . وقد احتفظ بالأسرى اليهود، واستخدم رهائنه من أجل تضخيم وتوسيع حجم وثراء بابل طوال سبعين عامًا من الأسر .

وقبل نحو ثمانين عامًا من صدور أمر صدام حسين بإعادة بناء قصر نبوخذنصر فى بابل، وذلك كرمز للأنا المتضخمة، قام . دبليو . جريفث فى هولى وود عام ١٩١٦م بتصوير بابل على أنها تجسيد لكل الشرور فى العقل الأمريكى، وذلك من خلال رائعته الكلاسيكية «لا تسامح» .

ويبين الفيلم إعادة بناء بابل على نحو بالغ البذخ والإسراف، على مدى ١٧٨ دقيقة فى النسخة الأكثر انتشاراً . وقد شوهد على نحو موسع فى كل أنحاء أمريكا والعالم بنسخ مختلفة استغرق زمن عرض بعضها ٢٠٨ دقيقة . وقد لعبت ليليان جيش وروبرت هارون وماى مارش وكوكبة من نجوم السينما الصامتة أربعة قصص متشابكة

للظلم واللاإنسانية ( وهى موضوعات تطورت إلى حد ما بواسطة جريفث عام ١٩١٥ فى ملحمته العنصرية للحرب الأهلية بعنوان «مولد أمة »). واستمرت القصص منذ حقبة بابل وحتى الحرب العالمية الأولى .

## إعادة بناء بابل

كان أحد الأحلام التى تداعب مخيلة صدام حسين ، خلال فترة حكمه الاستبدادى الذى استمر ربع قرن ، إعادة بناء بابل كما كانت فى ذروة مجدها منذ ٢٥٠٠ عامًا من التاريخ البابلى . كانت رؤية صدام تشبه بعض صور هولى وود التى عرضها جريفث .

كان ما فى ذهن صدام مختلفًا فى مجمله عن بابل حمورابى القديمة ( ١٧٩٢ - ١٧٥٠ قبل الميلاد )، والذى وضع قانونًا تفصيليًا يحكم البشر . ولكنها بابل نبوخذنصر الثانى حيث اتسعت إمبراطورية بابل لتبتلع منطقة غرب آسيا . وقد استمرت فقط لمدة أربعين عامًا خلال سبعين عامًا لنبوءة إشعيا ، عندما احتفظت بابل باليهود الأسرى القادمين من فلسطين . وقد استخدم نبوخذنصر عقولهم وأجسادهم لبناء معابد بابل ومبانيها العظيمة ومنشآتها التى تزخر بالأبهة والمجد . كان ذلك هو الازدهار الأخير لذروة الحضارة البابلية .

وقد انتهت بمجىء الإمبراطور شورش إمبراطور فارس فى عام ٥٣٩ قبل الميلاد . وقد استمر الاحتلال الفارسى خلال أسرة ملكية فارسية أخرى هى أسرة أخمنيدس حتى استولى الإسكندر الأكبر على المدينة عام ٣٣١ قبل الميلاد .

وفى أحد الأيام فى منتصف ثمانينيات القرن الماضى ، صدرت الأوامر إلى دونى چورچ ، مساعد أمين متحف بغداد للآثار ( الذى تم نهب كنوزه بعد فترة قصيرة من دخول الجيش الأمريكى إلى بغداد فى أبريل ٢٠٠٣ م) ، للاستعداد لزيارة موقع بابل القديمة . وقام صدام حسين وطغاته من الحرس بالتوجه إلى أطلال المدينة ، وأمره بإعادة بناء أحد قصور نبوخذنصر الثلاثة ، وذلك فى أول مهرجان فنون بابل عام ١٩٨٧م .

وقام چورچ بجولة بمصاحبة الديكتاتور - كرهًا لا طواعية - أرشده فيها إلى أطلال القصور. وسأله صدام كيف علم بوقت بناء القصور الأصلية؛ فأراه چورچ قطعة أصلية من القرميد المستخدم فى البناء. وكان يوجد على القطعة اسم نبوخذنصر الثانى، وتاريخ البناء محفوراً بالخط المسمارى، حوالى عام ٦٠٥ قبل الميلاد. (وهذه القرميدات تم العثور عليها بواسطة القوات الأمريكية والبريطانية المحتلة فى عام ٢٠٠٣م كما عثر عليها من قبل الكثير من المستكشفين وعلماء الآثار، حيث كانت قصور ومعابد نبوخذنصر المشيدة للإله البابلى مردوخ).

وأمر صدام دونى چورچ بأنه عند إعادة بناء قصر نبوخذنصر فإن «اسم صدام حسين وتاريخ البناء يجب أن يظهرا بنقش مشابه على القرميدات الجديدة» . وكان أمرا خطيراً، وحتى مميتًا ، أن يقوم بإبداء أى اعتراض على ما أراده صدام ، كما أشار إلى العاملين معه الذين استبد بهم القلق. ولكن العديد من علماء الآثار خارج العراق اعترضوا بقوة على ما اعتبروه «مدينة ملاهى الطاغية» حسب وصف نيل ماكفاركور بجريدة النيويورك تايمز.

كان اقتراح صدام ينتهك مبدأ مقدسًا من مبادئ العلم، ألا وهو عدم إعادة بناء الآثار القديمة ولكن القيام بالحفاظ عليها كما هى.

وقد ذاع أمر المشروع فى كل أنحاء العراق، وفى أماكن أخرى من العالم العربى وخاصة فى الصحف ووسائل الإعلام الأخرى، التى كانت تتلقى رشاوى مستمرة من حصيلة مسروقات صدام. وأشادت وسائل الإعلام بأوامر صدام المجيدة لإحياء أمجاد الحضارة البابلية والآشورية فى العراق المعاصر. وقد واصلت فرق العمل الليل بالنهار فى ثلاث نوبتجيات من أجل تنفيذ النسخة التى أرادها صدام بتكلفة بلغت ٥ مليون دولار. فإذا قمت بزيارة بابل قبل حرب ٢٠٠٣م ونظرت إلى وحدات طوب الحوائط سوف تقرأ ما يلى على الكثير منها :

«فى عهد القائد المنتصر صدام حسين ، رئيس الجمهورية ، حفظه الله ، حامى حمى العراق، وباعث نهضته، وبانى حضارته العظيمة ، تمت إعادة بناء مدينة بابل العظيمة فى عام ١٩٨٧م» . وفى الأسفل ، يظهر اسم نبوخذنصر الذى يربط بين

الاثنين ( أو هكذا تخيل صدام حسين بذاته المريضة ) . كان القصر لا يزال تحت البناء فى يوم قائظ من أيام عام ١٩٨٧ م حينما قام المؤلف بالقدوم من بغداد فى ظل القصف الجوى الإيرانى . ( انتهت الحرب الإيرانية ـ العراقية ، التى بدأها صدام من خلال غزو إيران فى عهد آية الله الخومينى ، عام ١٩٨٨ م) .

وأثناء سيرى على الطريق الرئيسى القادم من بغداد ، لم أر سوى المتاريس والاستحكامات . وتحت لهيب الشمس المحرقة ، كان يجرى الحفر على قدم وساق تمهيدًا لإعادة البناء . وفجأة شاهدت طرق بابل المنخفضة العميقة حيث كانت توجد كل المبانى الرئيسية فى الأزمنة القديمة . ويبين المتحف الموجود بالموقع أن الأسوار كانت عالية ومزينة على نحو جميل . وعند المدخل الرئيسى ، كانت هناك نسخة مصغرة من بوابة عشتار مغطاة بالقرميد المطلى ومزخرفة بأشكال ثيران وأسود . ( قام علماء الآثار الألمان بنقل الكثير من القطع الأصلية إلى برلين بعد عام ١٩١٤ م ، ويجب عليك القيام برحلة إلى متحف پرجامون فى برلين لرؤيتها اليوم ) . والثيران والأسود تم وضعها بدلًا من الأسود والوحوش التى تشبه التنين على الواجهة .

وقد كشفت الحفريات ، التى قامت بها بعثة الآثار الألمانية من عام ١٨٩٩ م إلى عام ١٩١٧ على مساحة قدرها ٢١٠٠ أكر فى المدينة القديمة ، عن وجود الكثير من أطلال الحقبة الأخيرة ( بابل الجديدة ) . وإلى جانب بوابة عشتار ، قام الألمان بالتنقيب عن معابد بابل بما فيها إيساجيلا أو معبد مردوخ ، الإله الأعظم الذى كانوا يعبدونه ، والبرج الذى يعتقد بعض الباحثين أنه البرج التوراتى لبابل .

وكشفت الحفريات أيضًا عن أطلال المنازل القديمة . وفى شمال شرق بابل وجدوا مسرحًا ، بنى غالبًا فى عهد الإسكندر الأكبر ، وتم تجديده فى عصر ملوك فارس . وقامت هيئة آثار صدام حسين بترميم أو إعادة بناء أجزاء رئيسية من هذه المواقع إلى جانب قصر نبوخذنصر .

ومنذ الحرب والاحتلال فى ربيع وصيف عام ٢٠٠٣ م ، كانت القطع الوحيدة التى بقيت فى المتحف فى موقع بابل عبارة عن جزأين كبيرين مما بدا أنها الأسوار الأصلية . وقام طاقم العاملين مع دونى چورچ ، حينما واجهوا نهب متحف بغداد ، بنقل

الألواح الطينية الأثرية إلى غرف محصنة وآمنة فى بغداد للحفاظ عليها بعيداً عن أيدى اللصوص.

وعلى مدى القرون، كان اللصوص يعملون من خلال مدينة الهلال المجاورة، التى تم بناءها بواسطة القرميد المنهوب من أطلال بابل فى العصور الوسطى[٣]. وبدءاً من صيف عام ٢٠٠٣م فصاعداً، كانت ساحة للكمائن القاتلة المنصوبة للقوات الأمريكية.

## أم كل البغايا

قدم كل من مؤرخى الكتاب المقدس، والمؤرخين العلمانيين الوقود اللازم للجدل الدائر بين الإيڤانجليكيين الأمريكيين وغيرهم من «المولودين ثانياً»، مثل الرئيس چورچ بوش، بشأن عراق صدام حسين كبقعة لصناعة الشر. وهناك، مساندة واسعة من العهد القديم لرؤية بابل، على وجه الخصوص، كمركز للشرور والفساد والظلام.

فتبعاً لأحد التعليقات عن تاريخ بابل، والتى تم تداولها مع تجمع سحب حرب عام ٢٠٠٣ فى الأفق «كل الأنظمة الكاذبة للدين بدأت فى أرض بابل، وحققت اكتمالها عبر روح بابل فى الأيام الأخيرة». كما يشير التعليق إلى كيفية قيام «الله بتدمير برج بابل ومعاقبة استكبار الناس من خلال خلق تشوش اللغات المختلفة واختلاف الأعراق».

ويشير أحد الباحثين الألمان إلى السمعة السيئة لبابل بين اليهود باعتبارها «دولة معادية لله» نظر إليها الكثير من المسيحيين باعتبارها «أم كل البغايا» والشرور والآثام على الأرض. واعتبرت حقبة برج بابل (سفر التكوين ١١ : ١ ـ ٩)(*) مصدراً لتشوش اللغات وتشتت الناس حول العالم[٤].

---

(*) برج بابل: وكان أهل الأرض جميعاً يتكلمون أولاً بلسان واحد ولغة واحدة. وإذا ارتحلوا شرقا وجدوا سهلاً فى أرض شنعار فاستوطنوا هناك. فقال بعضهم لبعض: «هيا نصنع طوباً مشويا أحسن شيء». فاستبدلوا الحجارة بالطوب، والطين بالزفت. ثم قالوا: «هيا نشيد لأنفسنا مدينة وبرجا يبلغ رأسه السماء، فنخلد لنا اسما لئلا نتشتت على وجه الأرض كلها». ونزل الرب ليشهد المدينة والبرج اللذين شرع بنو البشر فى بنائهما. فقال الرب: «إن كانوا، كشعب واحد ينطقون بلغة واحدة، قد عملوا هذا منذ أول الأمر، فلن يمتنع إذاً عليهم أى شيء عزموا على فعله. هيا ننزل إليهم ونبلبل لسانهم، حتى لا يفهم بعضهم كلام بعض». وهكذا شتتهم الرب من هناك على سطح الأرض كلها، فكفوا عن بناء المدينة، لذلك سميت المدينة «بابل» لأن الرب بلبل لسان أهل كل الأرض، وبالتالى شتتهم من هناك فى أرجاء الأرض كلها.

قام المؤرخون والرحالة برسم صور متنوعة ومتناقضة أحيانًا لما حدث لبابل . ويبدو سقوطها ناجمًا عن تدهور تدريجى ، وليس تدمير مفاجئ بسبب انتقام الله . وعلى أى حال ، يبدو انحلال المدينة ، تبعًا للباحثين الإيڤانجليكيين والأصوليين ، قد جاء تحقيقًا لنبوءات لسفرى العهد القديم إشعياء وإرميا . وقد اعتبروا ذلك عقابًا إلهيًا للبابليين بسبب تدميرهم أورشليم وطرد مواطنى يهودا .

ويصف الرحالة الإغريق ، بدءًا من هيرودوت «أبو التاريخ» ( ٤٨٤ ـ ٤٢٥ ) ، بابل باعتبارها عاصمة مترامية الأطراف ذات أسوار تمتد لمسافة ٦٠ ميلًا . ومع ذلك فى عصر الرومان ، كانت بابل تختفى تدريجيًا من الخرائط وتتلاشى من الذاكرة .

ومع سقوط الإمبراطورية الرومانية وانسحاب جيوشها من الشرق الأوسط ، تحطمت أسوار بابل وسقطت أيضًا . وأدى الإشارة إلى مجدها القديم إلى التأكيد على أن المسيحية ، الدين الجديد والشرعى لروما وبيزنطة ، قد ربحت المعركة . كانت بابل رمزًا لخطايا الإنسان غضب الله ، كما حدث فى سدوم وعمورة .

وكتبت أرملة عالم الآثار كلودياس ريتش ، أول من قام فى العصر الحديث بدراسة موقع بابل ، كتبت تقول إن «الله لم يتحدث عن بابل إلا بكل سخط» . ونظر الآباء المسيحيون الأوّل إليها على أنها رمزًا للفساد . وقد استخدموا لفظ بابل كدلالة على روما الوثنية ، عدوة الكنيسة وذلك حتى حكم قسطنطين ( ٣٠٦ ـ ٣٣٧ ميلادية ) . وبحلول القرنين الحادى عشر والثانى عشر ، حينما بدأت الحملات الصليبية حربها ضد هيمنة العقيدة الجديدة ، الإسلام ، فى بداية العصور الوسطى ، بدت بابل بالنسبة للمسيحيين ظلال أسطورة ، تحجبها جيوش المسلمين[٥] .

## المنفيون اليهود

كان مئات الألوف من اليهود لا يزالون يعيشون فى ظل أطلال الإمبراطورية الفارسية . واشتمل ذلك على ذرية أولئك الذين اختاروا البقاء فى بابل بعد انتهاء الأسر وغادرهم من اختاروا العودة إلى فلسطين .

وبعد أن أدى الفتح العربى إلى القضاء على الدولة الفارسية ، تمتع اليهود فيما كان يطلق عليها بابل القديمة ، والذين تعرض مجتمعهم للقلاقل الاجتماعية فى ظل الحكم الفارسى ، تمتعوا بالاستقرار فى ظل حكم الخلفاء الأوائل عمر وعلى .

وتسجل سجلات التأريخ اليهودية أن الحكام العرب الجدد ، فى ظل اتباعهم لأوامر النبى محمد التى تنهى عن التدخل فى حياة اليهود والمسيحيين ( أهل الكتاب )، شجعوا التجديد والنهضة الثقافية بين اليهود والمسيحيين الذين كان يجب احترامهم . وفى ظل التعايش السلمى بين البيروقراطية الإسلامية والمؤسسات غير المسلمة المستقلة، أصبح اليهود قادرون على إعادة بناء نظام الحكم الذاتى القديم .

وكان رئيس الجزء العلمانى من الإدارة اليهودية المستقلة يدعى عميد المنفى . وهذا المنصب قد نشأ فى ظل الهيمنة القديمة للفارسيين والساسانيين . وكان يفترض أن يكون عميد المنفيين منحدراً من نسل الملك داوود ملك إسرائيل ( ١٠٠٠ ـ ٩٦١ قبل الميلاد ) وكان يتم توريث هذا المنصب لأبنائه . وكان أحد هؤلاء العمداء الذين اشتهر اسمهم فى التاريخ اليهودى يدعى بستانى . وقد ورّث منصبه إلى أبنائه من زوجته اليهودية، وزوجته الأميرة الفارسية، وقام الكثير من اليهود بالزواج من الفرس والإغريق المقدونيين فى زمن الاسكندر الأكبر . وقام الممثلون المنتخبون والوارثون لمناصبهم ليهود العراق بإدارة الضرائب المجنية من اليهود أمام الحكام المسلمين . وقد كانوا مكلفين بوظائف قضائية واجتماعية معينة لإدارة اليشيفوت ، المجتمع اليهودى فى المنفى .

وخلال ازدهار الحضارة والرخاء فى بغداد فى القرن الثانى عشر ، شهدت العاصمة الجديدة لبلاد الرافدين اتساعًا ضاهى بابل فى الحجم والحداثة ، حيث قام أحد الرحالة اليهود من إسپانيا ، ويدعى بنيامين من توديلا ، بزيارة المدينة فى عام ١١٦٨ ميلادية . وفى مذكراته يصف «الشرف والحظوة» التى كان يتمتع بها العميد اليهودى دانيال بن حاسداى ( ١١٥٠ ـ ٧٤ ميلادية ) فى بلاط الخليفة . ففى كل خميس كان يجتمع لدى الخليفة مشاهير الدولة، وكان من بينهم زعماء المجتمعين المسلم واليهودى . وكان عميد الطائفة اليهودية يجلس إلى جانب الخليفة بينما لم يكن يستطيع شرفاء المسلمين الجلوس فى حضرة الخليفة . ويكتب رحالة يهودى أخر ، بتاحيا من رجنسبرج، عن مديرى المجتمع اليهودى فى الموصل، شمال العراق ( المدينة التى يختلط فيها العرب

والأكراد والتركمان من الطوائف المسلمة والمسيحية، كما اكتشف المحتلون الأمريكيون للمدينة عام ٢٠٠٣م، ولكن دون وجود لليهود ) الذين كانوا يعاقبون الخارجين على القانون، حتى لو كانت القضية تضم مسلمين. وكانت تحتوى الموصل على سجن يهودى خاص بها.

ومنذ منتصف القرن الثالث عشر الميلادى، كان العراق لمدة قرن تقريبًا ، ساحة قتال بين السلاطين العثمانيين وملوك الفرس. وقد استمر ذلك على نحو متقطع حتى عام ١٦٣٨م حيث قام العثمانيون فى النهاية بضم بغداد وباقى العراق إلى إمبراطوريتهم. ومع ذلك، فقد تمتع الباشاوات فى بغداد والموصل بالمزيد من الاستقلال عن المناطق الأخرى فى العراق.

كان على المجتمعات اليهودية والمسيحية والأقليات الأخرى أن تعتاد على المعيشة فى أماكن منعزلة. لقد كانت بغداد فى يوم من الأيام مركزًا للثقافة والتجارة والتحضر، ولكنها الآن أنهكتها الحروب، وعزلت عن الطرق الرئيسية للتجارة العالمية. وقام زائر يهودى من اليمن، زار بغداد بعد عام ١٥٥٠م، بالإشارة إلى الأضرحة الشهيرة فى العراق لحزقيال وعزرا(٦).

## إعادة بناء المذبح

فى بدايات أغسطس ٢٠٠٣م، بينما كان هناك العديد من البقاع التاريخية القديمة فى العراق تتعرض للنهب والسلب، قامت كيت سيلى، ابنة الدبلوماسى الأمريكى السابق تالكوت سيلى، ومراسلة الإذاعة الوطنية الأمريكية، بالكشف عن مذبح يهودى قديم جنوب بغداد. ويعتقد أنه ضريح النبى حزقيال. وقد عثرت على المذبح ومعبده بالقرب من قرية الكيفى بواسطة أفراد من قبيلة بنى حسن المسلمة. وكان أفراد القبيلة يحرسون الموقع منذ رحيل الجالية اليهودية الصغيرة عام ١٩٤٨م بعد إقامة إسرائيل.

أعجبت سيلى بالمشهد الرائع المحيط بالمكان، حيث كانت أشجار النخيل تصطف على شاطئى نهر الفرات، والتى قد يعود تاريخها إلى آلاف السنين. وكان من الواضح

أن الكيفى ضاحية من ضواحى بابل القديمة على بعد ٢٠ ميلاً شمالاً. وفى عهد الملك نبوخذ نصر، كانت تأوى الكثير من اليهود الذين تم نفيهم إلى بابل من أورشليم فى القرن السادس قبل الميلاد.

ويقال بأن حزقيال عاش ودفن فى الكيفى بعد أن قام بإحياء الطقوس اليهودية بعد النفى البابلى. وقد تم تشييد هذا المعبد بعد وفاته. وقد شاهدت سيلى، من خلال إرشاد شيخ القبيلة وعمدة القرية الشيخ أحمد حبيب الحبوت كتابات عبرية على الحوائط. وفى إحدى الغرف العلوية، أخبرها العمدة بأنه يعتقد أن اليهود كتبوا فيها التلمود البابلى. كما أضاف أن الغرفة كانت تحتوى على مكتبة تضم نصوص عبرية قديمة، حتى أمر صدام حسين بنقلها إلى بغداد فى أواخر السبعينيات. وفى غرفة مجاورة ذات قبة، مع مزيد من النقوش العبرية، ومذبح خشبى، ومقبرة حجرية منخفضة يقال إنها لحزقيال. وبجوار المقبرة يوجد الكثير من أوراق النقد من العراق وإيران وپاكستان، تركها العديد من الزوار المسلمين عبر السنين. وقد أخبرها الدليل كيف يبجل المسلمون حزقيال باعتباره أحد رسل الله. وعندما قام حوالى ثلاثين يهوديًا كانوا يعيشون فى الكيفى فى الثلاثينيات والأربعينيات بالرحيل، قام والده بإتباع تعاليم القرآن لحراسة الأماكن المقدسة لأهل الكتاب. وقام نظام صدام باضطهاد والده بسبب حراسته للمذبح اليهودى، وقام بإعدامه فى الثمانينيات.

وصف مايكل جفوللر، أحد المسئولين المدنيين لسلطة الاحتلال الأمريكى للعراق، قبيلة بنى حسن بأنها «مذهلة فى نبلها».

وأضاف أن المذبح هو رمز للتعايش بين المسلمين واليهود و«أحد أهم المواقع التاريخية اليهودية فى الشرق الأوسط. ويظهر أنه كان هناك دائمًا معبد يهودى خلال الألفين وستمائة عام الأخيرة. وفى عام ١٩٤٨م، كان على الأرجح أحد أقدم المعابد فى العالم».

وقال جفوللر إنه كان يشجع الخبراء الدوليين على دراسة والحفاظ على الموقع. وقد أعلن العمدة موافقته على ذلك. وهو يستطيع أن يتخيل الوقت الذى يتم فيه ازدهار القرية بسبب السياحة إلى الموقع والوقت الذى يتم فيه الترحيب بيهود القرية مرة أخرى(٧).

كان هناك علماء عراقيون قليلون يهود فى القرن السادس عشر وما بعده. وقد دفع ذلك المجتمع اليهودى العراقى إلى إحالة المسائل الخاصة بالموضوعات الدينية إلى الحاخامات فى حلب بسوريا. وقد انتقل بعض علماء حلب إلى بغداد واستقروا هناك.

ومع ذلك، بينما كان اليهود العراقيون يستوردون العلماء، فإنهم مع حلول أواخر القرن الثامن عشر كانوا يصدرون التجار اليهود فى بغداد والبصرة. وقد هاجر الكثير منهم إلى الهند. ومع إحكام سيطرة البريطانيين هناك، تجمعت مستعمرة يهودية يحميها البريطانيون فى سورات بالهند. ومع حلول أوائل القرن التاسع عشر، كان التجار اليهود ينتقلون إلى كالكتا وبومباى وپونا. وكان من أبرز مؤسسى هذه التجمعات عشيرة ساسون، وأصلها من بغداد.

ساهم أعضاء هذه الجماعة المثقفون فى التنمية الدينية والحضارية للمجتمعات اليهودية فى الهند. وقد أقام التجار علاقات وثيقة مع تجار الشرق الأقصى ومع لندن، العاصمة التجارية والسياسية الصاعدة للإمبراطورية البريطانية. وتوطدت العلاقات الوثيقة فى الهند بين يهود بغداد وعمالقة التجارة، مثل شركة شرق الهند البريطانية التى كانت تمارس سلطات أشبه بسلطات الحكومة، وهذه العلاقات كان يمكن أن تؤثر على العلاقات والعقود داخل العراق نفسها فى ظل الانتداب البريطانى فى القرن العشرين، بعد الحرب العالمية الأولى[٨].

### «السعى وراء سلام المدينة»

ازدهرت الحياة اليهودية فى العراق حتى القرنين التاسع عشر والعشرين، كما لم يحدث فى أى مكان آخر للشتات اليهودى. وفى الكتاب المقدس قام النبى إرميا، بعد الاحتلال البابلى الأول لأورشليم عام ٥٩٧ قبل الميلاد وبعد أسر أفراد الطبقات العليا بالمدينة إلى بابل، قام بإرسال خطاب إلى المنفيين، ونصحهم بأن يسكنوا فى وطنهم الجديد وأن يقوموا «ببناء منازلهم والإقامة فيها وأن يزرعوا الحدائق ويأكلون منها الفاكهة»، وقد أمرهم بأن يتخذوا الزوجات وينجبون الصبيان والبنات وأن يزوجوا أبناءهم وبناتهم من أجل أن ينجبوا الفتيان والفتيات، وأن يزيدوا ولا يقلوا. وأن يسعوا وراء السلام فى المدينة».

وقد مثلت تعاليم إرميا نظرية سياسة للحياة اليهودية فى العراق، بما فى ذلك العمل على تحسين المجتمع من حولهم. وقد التزم اليهود فى العراق بهذه المبادئ خلال قرون الحكم الفارسى والعربى والعثمانى التركى بعد سقوط بابل. وخلال هذه القرون العشرين، لم توجد دولة عراقية مستقلة. وقد حكم الأتراك العثمانيون، بدءاً من القرن السابع عشر الميلادى، كل مجتمع مستقل فى بلاد الرافدين بطريقة مختلفة، وفضلوا أقرانهم من المسلمين السنيين العرب، والمسيحيين واليهود، على الفرس الشيعة لأن الإمبراطورية الفارسية كانت تمثل تهديداً دينيًا وسياسيًا للحكام العثمانيين فى القسطنطينية.

ولكن منذ القرن الثانى عشر الميلادى، حينما أشار بنيامين الذى جاء من توديلا إلى وجود ٤٠ ألف يهودى فى بغداد، يمارسون الطقوس الدينية فى ٢٨ معبداً و يتمتعون بالحظوة لدى الخليفة، بدأت الأمور فى التغير. وقد تدهور الحال باليهود العراقيين تدريجيًا. وبعد عام ١٥٠٠م لجأ اليهود العراقيون إلى العثمانيين المسلمين العام لحمايتهم من الضغط المتزايد للإسلام الشيعى فى الدولة الفارسية المجاورة. وقد احتفلوا بالانتصار العثمانى عام ١٦٧٨م على الفرس فى موقع «يوم نيس» أو «يوم المعجزة». ولكن تزايدت الهجرة اليهودية إلى الهند تدريجيًا وتناقص عدد اليهود العراقيين.

وبحلول عام ١٨٥٠م، وتبعًا لإحصاءات الجمعية اليهودية الأمريكية، كان يسكن بغداد حوالى ٣٠٠٠ يهودى فقط. فى عام ١٨٥٣م قاموا بالانضمام إلى الأغلبية العربية السنية للقتال ضد المتمردين الأكراد فى شمال العراق[٩].

## تدهور القوة العثمانية

ابتليت السيادة العثمانية فى بلاد الرافدين بالكثير من الحوادث غير السارة فى القرن التاسع عشر. ففى عام ١٨٣١م أدى انتشار وباء الطاعون إلى قتل ٣٠٠٠ شخص يوميًا ولمدة أسابيع فى بغداد. وكان نهر دجلة خلال الفيضان يجتاح شوارع بغداد؛ وأدى إلى إذابة المئات من المنازل والمساجد والمبانى العامة المصنوعة من الطين. وكان اختراع التلغراف والسفن النهرية فى نهر دجلة وافتتاح قناة السويس عام ١٨٦٩م، التى ربطت أوروبا بالمستعمرات العثمانية فى الشرق الأوسط والأقصى، قد جاء بعد فوات الأوان لمساعدة الحكام العثمانيين على إحكام قبضتهم الضعيفة على مناطق الرافدين[١٠].

ومع ذلك، مع تراجع النفوذ السياسى العثمانى، زادت ثروة ونفوذ التجار المسلمين والمسيحيين واليهود. وعلى الأرجح، خلال هذه الحقبة من النمو، غالبًا زرعت بذور العداء بين الصهاينة، الذين جاءوا من العالم الغربى، وخططوا وتآمروا لإقامة وطن قومى يهودى، وورثة يهود بابل الذين لم يهتموا كثيرًا بالهجرة إلى فلسطين أو إلى أى مكان آخر..

وبدأ التجار اليهود فى أواخر القرن التاسع عشر فى الحصول على نصيب فى الأجهزة الإدارية العثمانية، التى نشأت فى سبعينيات القرن التاسع عشر. ومع ذلك، فقد كانوا غير قادرين على وضع سياسة فى الأمور المحلية الجوهرية، مثل الضرائب أو الأشغال العامة أو الأنشطة الخيرية. وقد اعتاد معظم التجار أيًا كانت ديانتهم رشوة الموظفين العثمانيين والعرب المتتركين من أجل قضاء مصالحهم. ولكن هذه الوسيلة، كما يشير حنا بطاطو - أحد أشهر المؤرخين الاجتماعيين العراقيين - كانت مكلفة للغاية ولا يمكن الاعتماد عليها دائما. فالعديد من كبار التجار، الذين فاض الكيل بهم من البيروقراطية العثمانية القديمة المتصلبة، قاموا بالتعاطف مع ومساندة الثورة الإصلاحية لحركة تركيا الفتاة عام ١٩٠٨م وتمثيلها السياسى فى اللجان الإصلاحية للاتحاد والترقى.

تم استلهام حركة تركيا الفتاة بواسطة الدستور العثمانى المستنير لعام ١٨٧٦م. ونادى بذلك مدحت باشا ذو الاتجاه الإصلاحى، الذى كان يدير بغداد المزدهرة فى الفترة من ١٨٦٩ إلى ١٨٧٣م. وبالاستعانة بأقاربه، قام مدحت باشا بالإحاطة بالسلطان المستبد عبد العزيز ونصب ابن أخيه، مراد الخامس، سلطانًا. (وقد أمضى مراد أربعة أشهر فقط على العرش، قبل أن يطيح به النبلاء بعد أن اعتبروه فاقدًا لقواه العقلية).

الأمر الأكثر أهمية هو أن مدحت باشا كان هو المؤلف الرئيسى لدستور ١٨٧٦م المستنير. ويعتقد بعض المؤرخين أن هذا الدستور لو كان قد تم العمل به فلربما أدى إلى إطالة عمر تركيا العثمانية، التى أطلق عليها بواسطة رجال الدولة الغربيين لقب «رجل أوروبا المريض»؛ بسبب إدارتها المتخلفة والفاسدة. وربما شعر تحالف الاحتلال الأمريكى - البريطانى، الذى اعتبر الحكومة الفعلية فى العراق عامى ٢٠٠٣ و٢٠٠٤م، بالفخر بسبب تبنيه مبادئه فى الدستور الذى تم وضعه بعد سقوط صدام حسين. واشتمل الدستور الجديد على وحدة أراضى العراق، وعلى حرية الفرد وحرية

التعبير وحرية الصحافة، وحرية التعليم والمساواة فى الضرائب، وتأمين رواتب القضاة وقيام الحكومة البرلمانية على التمثيل الشعبى.

كان أعضاء تركيا الفتاة، الذين أرادوا تطبيق هذه المبادئ السامية، منفيين فى فرنسا وسويسرا وبريطانيا. وكانوا يأملون منع المزيد من التمزق الحادث للإمبراطورية التى فقدت بالفعل معظم أراضى اليونان والبلقان، وكذلك ليبيا. وقد رغبوا فى إعادة بناء الدولة على أساس ليبرالى وقومى.

وفى عام ١٩٠٣م، حاولوا تجربة بعض أشكال التعاون مع الأرمن (لم تكن الإبادة الجماعية التى حدثت للأرض عام ١٩١٥م قد جاءت بعد) والمقدونيين وتجمعات ثورية أخرى، على الرغم من أن ذلك لم يحدث مع العرب.

وقد ثبت أن عدم التعاون مع العرب كان خطئًا فادحًا خلال الثورة العربية، التى ساندها البريطانيون بالتحالف مع عرب الصحراء خلال الحرب العالمية الأولى.

كان لمحاولات إصلاح وإحياء الإمبراطورية التركية الآيلة للسقوط بعض الآثار الجانبية، ففى عام ١٩٠٩، قام نائب يهودى عن سالونيك فى اليونان المحتلة بواسطة تركيا (مسقط رأس مؤسس تركيا الحديثة مصطفى كمال أتاتورك) يسمى كاروزا بالتعبير عن حماسه المتقد. وقد رغب فى قيام مسيرة ضخمة إلى القسطنطينية والإطاحة بالسلطان المستبد عبد الحميد. كان كاروزا يتحدث باسم وفد أرسل إلى السلطان لكى يعلن أنه تمت الإطاحة به.

تم احتجاز السلطان فى ڤيلا يمتلكها صيارفة يهود لجمعية الاتحاد والترقى. وبعد وقت قليل أصبح نائب برلمانى يهودى آخر من سالونيك وزيرًا لمالية تركيا. وأعرب السفير البريطانى فى اسطنبول، السير جيرالد لوثر، فى حديث خاص إلى وزير الخارجية السير إدوارد جراى، عن أن العناصر اليهودية فى الأدميرالية التركية ومكتب الحرب، قد أصبحت «منيعة» لدرجة أن الديپلوماسيين الألمان بدأوا فى دفع «إتاوة خاصة» من أجل الحصول على الامتيازات وصفقات الأعمال[١١].

وفى نفس الوقت، قامت جماعة مساندة للصهيونية تدعى الاتحاد الاستعمارى اليهودى العام، بمحاولة إقناع حكام تركيا الفتاة الجدد بإحضار جماعات المستعمرين اليهود إلى العراق وفلسطين ومصر وقبرص وسوريا وشرق تركيا (الأناضول).

واقترحوا تمويل هذا المشروع الاستعمارى بالكامل باستخدام الأموال الشخصية للمستعمرين، والمساعدات القادمة من البنوك والجمعيات المؤسسة، بهدف تسهيل الهجرة. وفى المقابل، قام الاتحاد بالتعهد بأن «إخواننا فى الدين الذين يحتلون أرفع المناصب سوف يستخدمون كل نفوذهم من أجل التقدم السياسى والاقتصادى للحكومة العثمانية الدستورية». وفى خطاب يتحدث عن نقل العرض إلى لندن، أشار السفير لوثر إلى أن نفس الجماعة رغبت فى إقامة «دولة يهودية مستقلة فى بلاد الرافدين»؛ بحيث تكون: «إنسانية بحته وليست سياسية. وتم تحقيق نجاح جزئى فى هذه الخطة الأخيرة من خلال جماعة من اليهود متصلة بالأعمال الداخلية لجمعية الاتحاد والترقى. وبين هذه الجماعةچاك ميناش، الذى كان نسيبه سكرتيراً خاصًا للوزير الأعظم، وكان سحر زوجته له تأثير خاص على سموه»[١٢].

لم تسفر هذه المبادرة عن شيء، ولكن انفتاح طرق الاتصالات الدولية من خلال اختراع التلغراف وافتتاح قناة السويس أفاد التجار وأصحاب الأراضى العرب والأكراد.

وكان أحد هؤلاء هو محمد شلبى صابونى وهو ابن أحد باعة الصابون الجائلين. وقد أصبح ديكتاتورا للموصل من ثمانينيات القرن التاسع عشر حتى عام ١٩١١م. وقد حقق نفوذه السياسى من خلال كرم الضيافة العثمانى التقليدى تجاه الشخصيات البارزة فى مجتمع الموصل، والرشوة والعلاقات الطيبة مع الإكليروس أو رجال الدين المسيحى، تبادل المعلومات عن الأعداء المشتركين مع زعماء القبائل المحلية[١٣].

وحينما وصلوا إلى السلطة فى القسطنطينية، طالب أعضاء حركة تركيا الفتاة بإجراء انتخابات لبرلمان جديد يشارك فيه الشعب تبعًا لدستور ١٨٧٦م. وانتخبت الأقاليم الثلاثة لبلاد الرافدين (الولايات) - بغداد والبصرة والموصل - ١٧ نائبًا. ومع ذلك، جاءوا من خارج العائلات الشيعية والكردية واليهودية والمسيحية، ولكن فقط من عائلات سنية قديمة مثلت بعد ذلك قادة النظام البعثى العراقى لصدام حسين. وفى القسطنطينية اكتشفوا أنهم ليس لديهم الكثير من الأشياء المشتركة مع الأتراك الشباب أو العجائز، الذين يفترض أنهم يحكمونهم، ولكن يتوافر ذلك مع العرب فى الولايات العثمانية الحالية أو السابقة مثل سوريا أو مصر أو الجزيرة العربية أو اليمن.

وحينما عادوا إلى الوطن تبادلوا مع زعمائه أفكار ومبادئ القومية العربية العلمانية، التى ولدت خلال القرن التاسع عشر احتضنتها المؤسسات التعليمية المسيحية مثل الجامعة الأمريكية فى بيروت.

انتشرت مبادئ «النهضة العربية» (وهو عنوان كتاب رائد كتبه چورج أنطونياس، وهو مؤرخ فلسطينى مسيحى متميز) بجوانبها الثقافية واللغوية والتعليم الجامعى وحقوق المرأة وأمور أخرى - كالنار فى الهشيم فى معظم الولايات التركية. وفى الوقت الحالى لا تزال تلهم الكثير من محاولات النهضة العربية. كما أنها أيضًا دفعت بجهود الحكام العرب المعادين للديمقراطية لقمعها فى عالم اليوم. وراقت هذه المبادئ بشكل جوهرى للعرب المتعلمين فى المناطق الحضرية. ولكنها لم ترق كثيراً لسكان القرى والبدو فى بلاد الرافدين والمناطق العربية الأخرى؛ التى كانت تخضع للحكم التركى على الأقل ولو بالاسم فقط(١٤).

وقد استغرق الأمر حربين عالميتين، والصعود والسقوط السريع للاحتلال البريطانى والفرنسى للشرق الأوسط، وظهور دولة إسرائيل الجديدة، ونفوذ راعيها الرئيسى الولايات المتحدة الأمريكية؛ من أجل أن تتحول بلاد الرافدين إلى العراق الحديث. إن هذه العمليات المتصارعة عبر أحداث القرن العشرين المتلاطمة هى التى يجب علينا تناولها من أجل فهم العداء المتأصل فى العراق ومعظم الدول العربية والإسلامية فى وقتنا الحالى تجاه القوى الاستعمارية، ثم بعد ذلك إسرائيل، وأخيراً الولايات المتحدة.

***



# الفصل الثانى

# تقسيم الإمبراطورية العثمانية



**سألت توم سوير عما إذا كانت الدول تقدم اعتذارها حينما تفعل شيئاً خاطئاً فأجاب قائلاً «نعم الدول الصغرى تفعل ذلك» .**

**( مارك توين ، هاكلبيرى فين )**

كانت رحلتى من بيروت إلى بغداد فى ربيع عام ١٩٦٦م ، فى مهمتى الصحيفة الأولى إلى العراق ـ مغامرة عبر المجهول . شقت الطائرة فى الصباح الباكر السحب المتراكمة فوق قمم جبل لبنان المكسوة بالجليد والتلال الحمراء . بعد ذلك عبرنا فوق السهول الخضراء حول دمشق ثم اخترقنا الصحراء السورية .

أصابتنا الدهشة أنا وچو أليكس موريس ـ الصحفى بجريدة لوس أنچلوس تايمز ـ مما فعلناه بأنفسنا . قام چو بالسفر إلى العراق عدة مرات من قبل منذ ثورة يوليو ١٩٥٨م حينما قام الغوغاء باغتيال وتمزيق أوصال الملك فيصل الثانى البالغ من العمر ٢٣ عامًا ، وكبار مستشاريه ومن بينهم رئيس الوزراء الداهية نورى السعيد الموالى للغرب والبالغ من العمر ٧٠ عامًا ، والذى تم سحله فى الطرقات حيًا ، ثم ألقى به فى أحد القبور المجهولة على الطريق .

وقام اللواء عبد الكريم قاسم ، القائد العسكرى الذى كان معجبًا بمطالبة الزعيم المصرى جمال عبد الناصر بالوحدة العربية ، والوقوف فى وجه إسرائيل والغرب ، بالاستيلاء على الحكم وعاش فترة من القلاقل حتى تم اغتياله .

ما جرى بعد ذلك هو توالى الحكام العسكريين ، الذين جاءوا على رأس انقلابات عسكرية وفترة حكم قصيرة بواسطة حزب البعث المتمركز فى سوريا ، توجت فى النهاية بصعود سياسى مسلح يدعى صدام حسين التكريتى مع بعض المساعدة من وكالة الاستخبارات الأمريكية CIA .

بعد ذلك تم استئناف الحكم «المدنى» بواسطة اللواء عبد الرحمن عارف بعد مصرع أخيه اللواء عبد السلام عارف فى حادث طائرة هليكوپتر مشبوه.

( حوادث الطائرات فى الشرق الأوسط، التى تقل الديكتاتوريين أو كبار الضباط أو السياسيين هى غالباً ليست فوق مستوى الشبهات ).

وبعد الدوران فى عاصفة من الرمال والغبار، قمنا بهبوط عسير على أرض ما كان يطلق عليه فى ذلك الحين مطار بغداد الدولى، وذلك على الرغم من هيئته المتواضعة قبل حكم صدام حسين. داخل المبنى الذى كان يرثى له قابلنا «أحمق» ضخم الجثة من الخدمة السرية كان يستقبل الصحفيين أو رجال الأعمال أو الديپلوماسيين؛ لترويعهم ومراقبتهم.

ولحسن حظنا كان هذا القبضاى مصحوباً بديپلوماسى شاب حسن الهندام، يرتدى الملابس الغربية، أذكر أن اسمه كان عدنان، وهو الذى قام باستخراج تأشيرات الدخول وسلمها إلينا فى بيروت. وفى الوقت الذى قام مرافقنا باصطحابنا إلى أحد الفنادق الفاخرة بجانب شارع السعدون فى قلب بغداد، أخبرنا عدنان بأنه رتب لنا لقاءاً مع رئيس الوزراء الليبرالى عبد الرحمن البزاز.

قال لنا عدنان، وهو يناولنا أقداح القهوة العربية، التى رصها على صينية نحاسية فى بهو الفندق «سوف تكتشفون أن العراق الجديد سوف يصيبكم بالدهشة. ولسوف تكتشفون إننا لسنا جميعاً ذلك النوع من القتلة الذى تصوره وسائل إعلامكم».

كان البزاز رجلاً خجولاً لطيفاً أنيق الملبس، وكان أحد كبار المنظرين الأيديولوچيين فى حزب البعث. كان صديقاً شخصياً لاثنين من مؤسسيه السوريين، المسيحى ميشيل عفلق، والسنى المسلم صلاح البيطار. وحينما كان يشغل منصب رئيس وزراء سوريا فى حقبة ما قبل حافظ الأسد، استضافنى البيطار على الإفطار فى دمشق فى بداية رحلتى إلى الشرق الأوسط فى الخريف الماضى.

لم يكن البزاز يتحدث لغة ملتهبة، ولكنه كان يتحدث لغة رصينة خلال لقاءنا الذى قام عدنان بترجمته، فلم يشر إلى شعار البعث «حرية، اشتراكية، وحدة» وإنما تحدث على نحو روتينى عن إسرائيل كعدو يهدد العرب، وعن وقف إطلاق النار الأخير فى سلسلة الثورات الكردية التى لا تنتهى فى شمال العراق.

أعرب چو عن رغبتنا فى السفر إلى كردستان للتعرف على وضع الأكراد. وافق البزاز على الفكرة واستحسنها، ولكنه أشار إلى إنها تستغرق بعض الوقت للتنفيذ. قام عدنان بالإشارة إلينا سراً لتجاهل الموضوع. أثناء خروجنا قال عدنان «إن الشخص الوحيد الذى يستطيع تدبير رحلة سريعة لكما إلى كردستان هو الرئيس. هل ترغبان فى تناول العشاء معه غداً؟».

تمتعنا بعشاء هادئ مع الرئيس عارف وعدنان وضباط الجيش فى زيهم الرسمى وبعض الأشخاص المجهولين، الذين افترضنا أنهم سوف يشاركون الرئيس رحلته إلى مقر إقامته المتواضع. ومع احتساء أقداح القهوة، أعلن الرئيس عارف أن طائرة هليكوپتر سوف تقلنا إلى كردستان فى الصباح.

وفى ساعة نحس، كانت تنتظرنا ثلاث حوامات ركاب روسية الصنع ومرافقينا فى ظلام الليل الذى يسبق طلوع الفجر على مهبط عسكرى لطائرات الهليكوپتر للإقلاع شمالاً، أولاً إلى السليمانية ثم بعد ذلك إلى كركوك ودهوك وأربيل. قضينا ساعتين وأجرينا بعض الأحاديث مع بعض المسئولين الأكراد المروضين من قبل النظام، وقصر المسئولون العراقيون الحديث على بعض العموميات الغامضة عن أن وقف إطلاق النار هو أمر جيد، وعن التوقعات المتفائلة بأنه أخيراً، وبعد أجيال عديدة، سوف يحصل الأكراد على «حقوقهم» (ولم يقل أحد شيئاً عن استقلال الأكراد). لم تكن هناك أى إشارة، بالطبع، إلى المستشارين والمدربين الإسرائيليين، الذين أرسلوا بالفعل من قبل تل أبيب، إلى جانب مقادير صغيرة من المال والسلاح، من أجل التعبير عن تقدير إسرائيل ودعمها لطموحات الأكراد، وكذلك للحفاظ على الضغط الكردى على نظام بغداد. وقد اكتشفنا ذلك فى وقت لاحق.

## إرهاصات الحرب

عند العودة إلى المركز فى بيروت، قمت بالتنقيب فى كتب التاريخ لدى، وتحدثت مع خبراء عن العالم العربى فى الجامعة الأمريكية ببيروت (AUB). كان هناك إدراك متزايد لقرب قدوم حرب عربية - إسرائيلية شاملة وهى الثالثة منذ قيام إسرائيل عام ١٩٤٨م. كما أنها الأولى بعد قيام الرئيس الأمريكى دوايت ايزنهاور بالضغط على إسرائيل وبريطانيا وفرنسا من أجل إنهاء حملتها العسكرية على السويس عام ١٩٥٦م

وسحب قواتها من مصر، الأمر الذى أعطى الرئيس جمال عبد الناصر وأتباعه المزيد من الدعم والقوة.

وفى نهاية عام ١٩٦٦م، تضاعفت إرهاصات الحرب. وكان أحد هذه الإرهاصات الغارة الإسرائيلية الانتقامية على مدينة صموا الأردنية انتقاماً من الهجمات التى كان يشنها الفدائيون الفلسطينيون على إسرائيل عبر حدود الأردن (الذين كانت تعتبرهم إسرائيل إرهابيين ويعتبرهم العرب أبطالاً للمقاومة). كانت هناك مناوشات بين إسرائيل والجيش السورى فى وبالقرب من المنطقة المنزوعة السلاح التى تشرف عليها الأمم المتحدة (DMZ) عبر نهر الأردن، والمنطقة المجاورة لبحر الجليل ومرتفعات الجولان. كان هناك الكثير من المشاحنات بين عبد الناصر وإسرائيل التى يحكمها ليفى أشكول رئيس الوزراء وحزب العمل. وكان القائد العسكرى الإسرائيلى الجنرال موشى ديان يضع السياسة العسكرية الإسرائيلية فى وزارة الدفاع. وكان العراق يقف على مسافة جغرافية معينة من ساحة المعركة المتوقعة. ومن أجل فهم لماذا وكيف تأثر العراق بالحرب الوقائية فى ٥ يونيو ١٩٦٧، والتى أدت إلى تغيير خريطة وتاريخ الشرق الأوسط، فإن الأمر يتطلب نظرة إلى الوراء فى المنطقة.

ففى مطلع القرن العشرين، كان لدى بريطانيا اهتمامين استعماريين رئيسيين: الأول هو تأمين منابع البترول التى تحتاج إليها، من أجل تشغيل أسطولها العالمى، ومن أجل الحفاظ على دوران عجلة الصناعة. الاهتمام الثانى هو حماية خطوط مواصلاتها البحرية (التى أصبحت بعد ذلك خطوط جوية أيضاً) إلى الهند، درة التاج البريطانى.

كان العراق عاملاً جوهرياً لكل من الاهتمامين. وبحلول عام ١٩١٠م، بدأ البترول فى التدفق من حقل مسجد سليمان بالقرب من إيران. كانت شركة البترول الأنجلو - إيرانية من الأصول البريطانية الهائلة، كما كانت شركة الهند الشرقية فى الماضى. وكان من الضرورى حماية الجناح الغربى وما كان يعتبر امتداداً لحقول البترول الإيرانية فى جنوب غرب بلاد الرافدين. كان ميناء البصرة بالفعل نقطة استراتيچية على تقاطع الطرق البرية والبحرية بين أوروپا والشرق الأوسط والهند وما وراءها.

وفى عام ١٩٠٣م، تحالفت حكومة القيصر الألمانية الإمپريالية مع الممولين الألمان وحصلت من الحكومة العثمانية فى اسطنبول على حق إقامة خط سكة حديدية بين

برلين وبغداد. وكان من المقدر لهذا الخط عند اكتماله أن يسمح لألمانيا بالوصول إلى البصرة وبذلك يمكنها الوصول إلى المحيط الهندى.

وفى عام ١٩١٤ م، انطلقت المدافع فى أغسطس فى أوروپا والشرق الأوسط، حيث قام التحالف الثلاثى المكوّن من بريطانيا وفرنسا وروسيا بشن الحرب على ألمانيا والنمسا والدولة العثمانية. وفى نوڤمبر ١٩١٤م، هبطت القوات الهندية التى تقودها بريطانيا فى نفس المكان الذى هبطت فيه قوات التحالف الذى تقوده الولايات المتحدة ومعها بريطانيا تونى بلير فى مارس ٢٠٠٣م، وذلك فى شبه جزيرة الفاو عند نهاية ممر شط العرب. وبعد التحرك نحو البصرة والاستيلاء على معظم الولاية العثمانية فى جنوب بلاد الرافدين، بدأ الجيش الذى يقوده الميچور چنرال البريطانى تشارلز تاوتاونسند فى خريف ١٩١٥م بالتحرك جهة الشمال نحو بغداد. وبالتدريج، اشتدت صلابة المقاومة التركية والعربية. وجدت القوات المتقدمة نفسها فى ورطة فى منطقة هوار الهاماهو، وهى منطقة مستنقعات شاسعة بالقرب من شط العرب. وهى مليئة بالذباب والناموس ومقاتلى العصابات العربية، الذين قاوموا البريطانيين والهنود، كما سوف يقاوم من انحدروا منهم جنود صدام حسين والشرطة السرية والبيروقراطية بعد نحو قرن من الزمان تقريبًا. وقام صدام بمعاقبتهم فى النهاية بتجفيف المستنقعات؛ وأدى ذلك إلى تدمير ثقافة عرب المستنقعات مع قواربهم ومنازلهم المصنوعة من البوص واعتمادهم المكثف على الصيد.

وفى عام ١٩١٥م، كان يقود القوات التركية الفيلد مارشال الألمانى كولمانى ڤان دير جولتز القائد الاستراتيچى المحنك. ومن خلال اشتداد عزمهم بواسطة الانهيار والمذبحة التى ألمت بالجيش البريطانى والاسترالى فى حملتهم الكارثية على شبه جزيرة غاليبولى بتركيا غرب القسطنطينية، والتى كانت تهدف إلى الاستيلاء على المدينة ومضيق الدرنيل الاستراتيچى، قام الأتراك بجلب التعزيزات، وقامت قواتهم بشن هجوم مضاد على البريطانيين جنوب بغداد. وبالقرب من ستيسيفون، التى تحتوى على النصب التذكارى القديم، الذى بناه الساسانيون فى حقبة ما بعد بابل، قام الأتراك بدفع القوات التى تقودها بريطانيا مسافة تزيد عن ١٠٠ ميل إلى منطقة كوت الأمارة، وهى قرية تقع على أحد منحنيات نهر دجلة.

وواجهت قوات الحلفاء الحصار وحرب استنزاف لمدة ١٤٠ يومًا. وفى النهاية، فى السادس والعشرين من أبريل عام ١٩١٦م، قام حوالى ١٣٠٠٠ جندى مستنزف

ومريض ومجرد من السلاح بالاستسلام للأتراك. وكان ذلك أعظم انتصار عسكرى للمسلمين على قوى عسكرية غربية على مدى قرون.

## بريطانيا تقتنص بغداد

قام وينستون تشرشل وداڤيد لويد چورچ وهيئة الأركان العسكرية الإمپريالية. مصرين على تحقيق النصر، بإرسال الميچور چنرال السير ستانلى مود على رأس قوة جديدة فى ديسمبر ١٩١٦م من أجل التقدم من جديد إلى بغداد. وعندما تناهى إلى علمهم من خلال جواسيسهم أن التمرد فى مدينة النجف الشيعية المقدسة أدى إلى طرد القوات التركية من المدينة ـ وهذا ما تكرر فى الاحتلال الأنجلو ـ أمريكى للعراق عام ٢٠٠٣ م ـ قام عملاء بريطانيا بالتحالف مع زعماء القبائل الشيعية لكسب المعركة. ومع ذلك، أبدى البريطانيون نفس النقص فى فهم العقلية العربية وهو نفس ما فعله الأمريكيون عام ٢٠٠٣م. فلم تبد القبائل العربية أو الأتراك أى استعداد للتعاون. فقد قام عرب المستنقعات، الذين أدركوا أن وجودهم فى المستنقعات مهدد بأكمله، بالهجوم على ونهب مخازن وأسلحة الجانبين. وفى النهاية، فى ١٠ مارس ١٩١٧م قامت القوات البريطانية بقيادة الچنرال مود بدخول بغداد. وقام القائد العام للقوات البريطانية ـ المريض مثل العديد من جنوده بالكوليرا؛ حيث لم تكن هناك عيادات أو مستشفيات أو تجهيزات طبية على مستوى جيد مثل تلك التى كانت تمتلكها القوات الأنجلو ـ أمريكية فى عام ٢٠٠٣م ـ بإعلان انتصاره. وربما كان ذلك أساس لبيان مشابه أعلنه القائد المدنى فى العراق پول بريمر فى عام ٢٠٠٣م. ومنذ ذلك الحين أصبح شعب بلاد الرافدين (التى تحولت إلى العراق) مسيطرا على حياته. فالحكم الاستبدادى والفردى الذى عاشوا فيه لأجيال عديدة قد وضعت له نهاية. وبعد أن بشر بالحقبة الموعودة من الديموقراطية والتنوير، توفى الچنرال مود بسبب الكوليرا[١].

فى غضون ذلك، قامت هيئة أركان الشرق الأوسط البريطانية فى القاهرة باستغلال المواهب العظيمة، وإيمان الكولونيل تى. إى. لورنس(*) بفكرة تحرير العرب من أجل

(*) عرف باسم «لورنس العرب» كما جاء فى الفيلم الذى قام ببطولته عمر الشريف ـ المترجم.

شن حرب عصابات ناجحة ضد تركيا فى شبه الجزيرة العربية. وقد اجتمع كبار الزعماء العرب فى دمشق عام ١٩١٥م لدعم الفكرة. وقاموا بتقرير الظروف التى فى ظلها يمكن للعرب القتال من أجل استقلالهم الكامل عن العثمانيين. وقد وضع ما سمى بروتوكول دمشق صورة عامة لدولة عربية كبرى حرة مستقلة، تشتمل على فلسطين وشبه الجزيرة العربية ( التى تضم مملكة اليمن المستقلة القديمة )، وكذلك ما أصبح يعرف باسم سوريا ولبنان والعراق.

ولم يناسب ذلك خطط البريطانيين والحلفاء؛ فقد أراد الحلفاء هزيمة تركيا فى أسرع وقت ممكن، ولكن ليس من أجل إقامة دولة عربية كبرى حرة.

لقد أرادوا فتح الطريق أمام الجنود البريطانيين والفرنسيين للوصول إلى روسيا ورومانيا، من أجل تطويق وحصار القوى المركزية. وكان يمكن لأى مملكة عربية مستقلة أن يكون مقرها ليس فى تركيا أو فى أى من الدول الشمالية التابعة لها، ولكن فى مكة والمدينة، الأماكن الإسلامية المقدسة.

كان السير پيرسى كوكس هو المسئول السياسى عن حملة الحلفاء التى استولت على البصرة. كان كوكس ومستشارته الداهية، المغامرة الإنجليزية التى تتحدث العربية ببراعة جيرترود بيل، على وعى بضرورة الحاجة إلى خطب ود شيخ القبيلة الوهابى العربى البارز، ابن سعود، من أجل ضمه إلى صف الحلفاء. وقد قاما بإرسال مبعوث خاص وهو الكابتن دبليو. إتش. أى. شكسپير، الصديق المقرب لابن سعود، من أجل القيام بهذه المهمة. ولكن مصرع شكسپير فى معركة مع قوات القبائل السعودية قضى على هذا الأمل. قرر المكتب البريطانى العربى، وهو مركز لتحليل للمعلومات وضباط الأركان فى القاهرة، بتنصيب الأسرة الهاشمية فى ولاية الحجاز ( التى تحتوى على الأماكن الإسلامية المقدسة ) من أجل مواجهة الدعوة التركية للجهاد ضد الحلفاء «الكفرة». وقد تفاوضت بريطانيا حول اتفاقية مع الشريف حسين الهاشمى حاكم مكة من أجل التمرد على الأتراك، وذلك فى خطابات تم تبادلها بدءاً من يوليو ١٩١٥م وحتى فبراير ١٩١٦م بين الشريف والسير هنرى ماكماهون، المندوب للسامى البريطانى فى مصر.

وقد تعهدت بريطانيا «بالاعتراف بـ - والحفاظ على - استقلال العرب داخل الحدود المقترحة بواسطة شريف مكة». اشتمل التحديد الأصلى لحسين للأراضى على كل الولايات العربية للدولة العثمانية بين «ميرسين» على الساحل الجنوبى التركى فى الشمال، وحدود شبه الجزيرة العربية فى الشرق، والبحر المتوسط فى الغرب، والبحر الأحمر والمحيط الهندى فى الجنوب، باستثناء عدن فى اليمن الجنوبية، التى كانت بالفعل تحت السيطرة البريطانية.

ما حصل عليه الشريف، وخاصة فيما يتعلق بالعراق، كان أقل كثيراً. وقد كتب ماكماهون يقول «فيما يتعلق بولايتى بغداد والبصرة فإن العرب أدركوا حقيقة موقف بريطانيا العظمى ومصالحها هناك» والتى تطلبت «اتفاقيات إدارية خاصة». وكان هناك غموض يلف الطموحات الفرنسية لحكم سوريا ولبنان، وحتى فيما يتصل بمستقبل فلسطين، التى كانت ثلثا مساحتها تدار بواسطة السنجق التركى أو منطقة القدس.

قام الشريف حسين يقرع طبول الحرب يوم ١٦ يونيو ١٩١٦م وانتزاع مكة من براثن الحامية التركية. كانت الثورة العربية فى البداية مقتصرة على منطقة الحجاز، غرب شبهة الجزيرة العربية، بسبب أن بريطانيا كانت تدافع عن حقوق حليفتها الفرنسية. وقد أرادت فرنسا سوريا ولبنان، وعلى ذلك لم تهبط قوات بريطانيا هناك.

وتبع ذلك شهور طويلة من المدوالات والمعاملات والكر والفر بين بريطانيا وفرنسا والزعماء العرب. وقد حاول أولئك الذين فى العراق الحفاظ على استقلالهم. وقام السير مارك سايكس من بريطانيا وچورچ پيكو من فرنسا بالتفاوض حول اتفاقيات سايكس - پيكو الشهيرة (وغير الشهيرة بالنسبة للعرب). وقد قاما بتقسيم سوريا والعراق وجانب كبير من جنوب تركيا إلى دوائر نفوذ بريطانى وفرنسى. وقد حصلت فرنسا على ما يعرف اليوم باسم سوريا ولبنان، وحصلت بريطانيا على الأردن(*) والعراق، وسيطرت بريطانيا على ولايتى بغداد والبصرة التركيتين، وكذلك على مينائى حيفا وعكا الفلسطينيين، أما بقية فلسطين فقد خضعت لنوع من السيطرة الدولية

---

(*) كان ذلك بدء تقسيم الشام إلى سوريا ولبنان، ثم بعد ذلك فلسطين، ولم يكن هناك أردن قبل ذلك - المترجم.

الفضفاضة. كما أن هناك مناطق نائية أصبحت، فى ظل النفوذ البريطانى والفرنسى، دولة عربية «مستقلة» أو اتحاد كونفيدرالى فى ظل «سلطان عربى» وذلك على نحو قدر من الغموض. فقط المنطقة التى يطلق عليها اليوم المملكة العربية السعودية واليمن أصبحت مستقلة تماماً، مع احتفاظ بريطانيا بعدن وما يشبه المحميات ومشيخات الخليج العربى(*).

قامت الثورة العربية، التى قادها الثائر العبقرى المتحمس الأمير فيصل، بمساعدة الزعامة العربية وضباط الدائرة العربية البريطانية مثل لورنس (المعروف باسم لورنس العرب) بطرد القوات التركية المنهكة نحو الشمال عبر شبه الجزيرة العربية وذلك فى ربيع ١٩١٧م.

وفى غزة، تمت إزاحة قائد بريطانى غير ناجح، تم دحر قواته بواسطة القوات التركية، التى كانت تستعين بمستشارين ألمان، فى نهاية يونيو ١٩١٧م وجىء بالجنرال اللنبى، القائد اللامع والعبقرى. وقام اللنبى بنقل مقر قيادته من القاهرة إلى فلسطين، وبدأ فى التقدم نحو القدس، ودخلت قواته المدينة المقدسة فى التاسع من ديسمبر ١٩١٧م(**).

## خيانة فى الشرق

فى غضون ذلك، أطلقت الثورة البولشفية فى روسيا سلسلة من الأحداث السياسية، التى أثرت على مستقبل الشرق الأوسط بأكمله، بما فى ذلك العراق وإسرائيل. وقام لينين وتروتسكى ورفاقهما الثوار بالكشف فى السجلات الروسية الإمبريالية عن وثائق عن اتفاقيات سايكس ـ پيكو السرية ووعود تم قطعها للعرب. وقد فقد قادة البلاشفة الجدد القليل من الوقت فى إخطار الأتراك، الذين قاموا فى المقابل بإزاحة القادة العرب. وحينئذ أخبر العثمانيون العرب أن هناك دليل على قيام الغرب المسيحى الخائن بالضلوع فى مؤامرة بشعة ضد مسلمى الإمبراطورية العثمانية.

(*) التى أصبحت بعد ذلك البحرين، الكويت، قطر، الإمارات، سلطنة عمان ـ المترجم.

(**) وهناك أصدر تصريحه الشهير: ها قد عدنا يا صلاح الدين وقد قالها وهو يضع قدمه على قبر صلاح الدين ـ المترجم.

وحين قام الشريف حسين بطلب تفسير من البريطانيين، أخبره البريطانيون أن اتفاقيات سايكس بيكو هى مجرد تبادلات ديپلوماسية، وليست اتفاقيات ملزمة.

لم يقتنع الزعماء العرب. وقد زاد اهتزاز ثقتهم فى مصداقية القوى الغربية بالنسبة للوعود التى قطعتها للعرب أثناء الحرب، وذلك فى ٢ نوڤمبر ١٩١٧م، قبل علم الشريف حسين باتفاقيات سايكس ـ پيكو مباشرة، عندما تم نشر خطاب صادر من وزير الخارجية البريطانى آرثر بلفور إلى زعيم الحركة الصهيونية لورد روتشيلد. كان هذا الخطاب يحتوى على وعد بلفور (أو تصريح بلفور). وفيه أكد روتشيلد، أن «تنظر حكومة جلالة الملكة بعين العطف إلى إقامة وطن قومى لليهود فى فلسطين». ومع ذلك، فقد أضاف الخطاب أنه لن يتم القيام بما من شأنه أن يمس بالحقوق المدنية والدينية لغير اليهود فى فلسطين، أو الحقوق والمكانة السياسية التى يتمتع بها اليهود فى أى مكان آخر فى العالم.

## الدخول الأمريكى

استمرت أصداء هذه الوثيقة ذات المغزى الكبير والغامض فى نفس الوقت ـ والتى تمت مناقشتها بإسهاب فى آلاف المقالات والعديد من الكتب طوال كافة الحروب العربية ـ الإسرائيلية ووقف إطلاق النار واتفاقيات الهدنة و«عمليات السلام» الفاشلة حتى اليوم. والأمر الأكثر أهمية هنا، هو كيف تبع الوعود المتضاربة لليهود والعرب دخول لاعب رئيسى جديد إلى الساحة، ألا وهو الولايات المتحدة الأمريكية.

قام وودرو ويلسون، الزعيم الأمريكى المثالى، الذى جر الولايات المتحدة إلى «الحرب لإنقاذ الديموقراطية» إلى جانب الحلفاء فى عام ١٩١٧م، بوضع المبادئ السامية «النقاطه الأربعة عشر» بشأن الديموقراطية وحق تقرير المصير للشعوب. وقد قام بمناقشتها فى مؤتمر باريس للسلام الذى عقد فى يناير ١٩١٩م.

وقد واجه ويلسون معركة شرسة. فبالإضافة إلى المئات من الديپلوماسيين والسياسيين ورجال البترول والمال والبعثات التبشيرية والتكتلات الصهيونية الذين قاتلوا بشراسة من أجل مصالحهم، واجه ويلسون ورجاله رئيس الوزراء الفرنسى

چورچ كليمنسو ونظيره البريطانى ديڤيد لويد چورچ. وبدا أن كليمنسو قد أدرك أن فرنسا سوف تتحول إلى شريك أصغر لبريطانيا فى اقتسام الممتلكات البريطانية، ولكنه أصر على وجوب احتفاظ فرنسا بسوريا ولبنان وجنوب الأناضول. وأصر لويد چورچ على أن الإمبراطورية البريطانية يجب أن تكون القوة المهيمنة فى الشرق الأوسط، وأن تسيطر على مصر والجزيرة العربية وفلسطين وبلاد الرافدين. وسمح لفيصل، الذى كان يرتدى الملابس العربية، بالتحدث مرة واحدة لمدة ٢٠ دقيقة، وكان لورنس يقف إلى جانبه فى صمت. والتمس فيصل أن يتم تطبيق مبادئ ويلسون للاستقلال وتقرير المصير من أجل إنشاء ـ والاعتراف ـ بدولة عربية مستقلة ذات حدود واضحة.

ولكن كل ذلك كان هباءً منثوراً. فقد كان رسامو الخرائط والدبلوماسيون البريطانيون والفرنسيون، فى غرفة مجاورة يقومون برسم حدود ما أصبح اليوم يعرف باسم دول الشرق الأوسط. كانت إسرائيل هى الاستثناء، حيث كانت لا تزال دولة فقط فى ذهن زعماء الصهيونية. وقام البريطانيون، فيما عرف باسم الانتداب على العراق، باستبعاد الموصل، وتركها مؤقتا تحت النفوذ السورى (وعلى ذلك الفرنسى).

وقد أكد البريطانيون على ضرورة الحفاظ على ولايتى بغداد والبصرة. ومن خلال المسطرة قاموا برسم خط مستقيم على خريطة الصحراء العربية الشمالية، مما أدى إلى وضع حدود جنوبية صناعية. ولم يقم عرب الصحراء البدو باحترام هذه الحدود أبداً.

وقد تم تقديم قرار الانتداب على العراق بأكمله، فى بلاد الرافدين، مع تجمعاته المختلفة من: الأغلبية الشيعية والأقليات السنية والكردية واليهودية والآشورية والمسيحية (الكلدانية) والتركمانية واليزيدية وطوائف أخرى أصغر، إلى عصبة الأمم حديثة العهد التى حلت محلها بعد ذلك منظمة الأمم المتحدة اليوم. ساهم وودرو ويلسون فى إنشاء عصبة الأمم وعمل كقابلة فى ميلادها، ليكتشف فى النهاية أن الكونجرس الأمريكى الانعزالى يرفض الانضمام إليها. وقامت العصبة، بدون الولايات المتحدة، بتقسيم غنائم الحرب على المنتصرين. وتركت بلاد الرافدين، بالطبع، لبريطانيا. وأكدت العصبة ذلك رسمياً فى مؤتمر «سان ريمو» فى إبريل ١٩٢٠م.

ومن خلال العمل عبر نماذج مستعارة من الهند البريطانية، بما فى ذلك كل شىء بدءاً من القوانين وحتى طوابع البريد، قام مسئولو الانتداب البريطانى بالهبوط إلى بغداد

والبصرة «المحررتين» مع قواتهم. ومثل «المحررين» الأمريكيين والبريطانيين عام ٢٠٠٣م، واجهوا العديد من الأعداء.

كان هناك الآلاف من الجنود والموظفين العثمانيين السابقين الذين أصبحوا بلا عمل. وجميعاً أصابهم الضرر، كما حدث بعد ذلك للنظام السابق لصدام حسين بعد وقوع الغزو الذى تقوده أمريكا عام ٢٠٠٣م. وفى عام ١٩٠٢م كما فى عام م٢٠٠٣، بغض رجال الدين الشيعة فى كربلاء والنجف ومراكز شيعية أخرى الحكام المسيحيين الجدد. وقام القوميون العرب، الذين كان فى حلقهم غصة، بسبب حنث الحلفاء بوعودهم، بتكوين جمعيات سرية فى بغداد. وتجمع رجال الدين الشيعة فى النجف فى «جمعية النهضة الإسلامية» . وكون الزعماء الدينيون المسلمون فى بغداد، مع أصحاب الأراضى والتجار والصحفيون والموظفون، حرس الاستقلال. كانت هذه التجمعات ذات وجهات نظر متنوعة إلى حد كبير ولكنها كانت تتفق جميعاً على وجوب طرد البريطانيين[٣].

واندلعت ثورة قبلية، وليست ثورة سياسية حضرية، اختبرت صبر البريطانيين وقوتهم فى العراق. وقام البريطانيون على الفور بلا رحمة بقمع المتمردين، باستخدام سلاح الجو الملكى والأسلحة الكيماوية - فى معظمها قنابل غاز الخردل - ضد رجال القبائل، كما فعلوا فى الهند قبل عام ضد رجال القبائل فى إقليم البنجاب. وقام وينستون تشرشل باتخاذ هذا القرار. وكان من رأيه أن العراق «يمكن تأديبه بتكلفة زهيدة من خلال الطائرات المسلحة بقنابل الغاز بمساندة ٤٠٠٠ جندى بريطانى وعشرة آلاف جندى هندى» على الأرض.

وهذه التكتيكات، التى كانت مستخدمة بالفعل على أرض الواقع، تم تبنيها رسميًا فى مؤتمر إمبريالى فى القاهرة عام ١٩٢١م.

وعلى نحو مشابه - لما حدث بعد بضعة عقود، عندما شعر وزير الخارجية الأمريكى كولين باول، مع السياسات أحادية الجانب فى البيت الأبيض، بالحاجة إلى كسب احترام وتأييد العالم لحرب التحالف الأمريكى - البريطانى ضد عراق صدام حسين عام ٢٠٠٣م - قرر وزير الخارجية البريطانية لورد كيرزون التعبير عن المسئولية السياسية. كتب كيرزون يقول إن بريطانيا أرادت فى العراق:

«واجهة عربية تحكم وتدار فى ظل الإشراف البريطانى، وعلى قدر الإمكان، بواسطة طاقم عربى. ولا يجب أن يكون هناك دمج فعلى لأراض يسيطر عليها «محمديون ـ Mohammedan» ـ [هكذا فى النص] وبقدر الإمكان يديرها عرب من أهل البلاد. ويجب ألا يكون هناك دمج فعلى للأراضى المحتلة فى ممتلكات المحتل، ولكن يكون هناك احتواء على شكل حماية، أو دائرة نفوذ، أو دولة ممتصة للصدمات، وما إلى ذلك»(٤).

## وصول الهاشميين

أعلن السير پيرسى كوكس، بموافقة اللورد كيرزون، العراق دولة ملكية. قام البريطانيون بتنصيب بطل الحرب العالمية الأمير فيصل ملكاً على العراق، وهو من العائلة الهاشمية التى كانت تقطن مكة، والتى قام الفرنسيون بطردها من منطقة الانتداب الفرنسى بعد أن كان ملكاً على العرب فى دمشق.

وسرعان ما قام فيصل بتوقيع معاهدة تحالف مع البريطانيين. وكانت بنود المعاهدة تشبه على نحو ملحوظ بنود انتداب عصبة الأمم. احتجت الجماعات الوطنية والدينية بعنف، وأعلنت وجوب استقالة الوزارة الملكية. وقام المندوب السامى البريطانى بتبنى سلطات ديكتايورية، وقام البريطانيون بعمليات طرد جماعية للزعماء الوطنيين الفعليين أو المشتبه بهم، ومنح دستور بريطانى جديد للملك فيصل الأول سلطة كاملة على المشروع البريطانى. وفى عام ١٩٢٥م اجتاحت مظاهرات ضخمة بغداد. وأدى ذلك إلى تأخير موافقة المجلس التشريعى على المعاهدة الأنجلو ـ عراقية.

وأرغم المندوب السامى البريطانى المجلس التشريعى على اعتماد المعاهدة من خلال التهديد بحله.

وفى عام ٢٠٠٣م، قام أمير هاشمى آخر، وهو الأمير الحسن بن طلال، شقيق ملك الأردن الراحل حسين بن طلال، وابن عمه الشريف على، عضو مجلس الحكم المؤقت فى العراق برئاسة پول بريمر، بمحاولة لعب دور على الساحة السياسية فى عراق ما بعد صدام حسين. وفى يوليو ٢٠٠٣م، فى مقال بجريدة «نيويورك تايمز»، قام الأمير الحسن بالثناء على إنجازات ما اعتبره الوطنيون العرب النظام العميل للبريطانيين، للملك

فيصل الأول. ووصفه بأنه «رجل الحكمة وبعد النظر» الذى قام بلم شمل المجتمعات العربية المتناثرة بروح الود والائتلاف، على الرغم من قيود القوة البريطانية المهيمنة.

وأضاف الأمير الحسن أنه فى ظل فيصل الأول كان العراق «بلداً يشارك مواطنوه فى بناء الأمة بصرف النظر عن الولاء أو الانتماء للشيعة أو السنة أو الكلدانيين أو الصابئة (وهى طائفة عربية مسيحية أخرى) أو للعرب أو الأكراد أو الجراكسة أو التركمان». وذهب الحسن إلى أبعد من ذلك حيث أكد على أن العراق، باعتباره كان أول عضو عربى فى عصبة الأمم، «أصبح نموذجاً يحتذى للبلدان الأخرى فى الشرق الأوسط وفى العالم».

وبدلاً من المطالبة بإعادة الملكية الهاشمية إلى بغداد (الأمر الذى حظى ببعض الأصداء الطيبة فى وسائل الإعلام الإسرائيلية)، غلف الحسن أماله بالإعلان عن رغبته فى أن:

«يكون العراق نموذجاً لدولة متطورة من خلال قدرته على الدمج الإنسانى بين الاقتصاد والسياسة وجعل رفاهية مواطنيه فى قلب العملية السياسية. فالميراث التاريخى للملك فيصل الأول هو الذى مكن العراقيين من المشاركة فى مستقبلهم السياسى. فتطوير - وليس فرض - الديمقراطية فى العراق هو الأمر الجوهرى»[٥].

وهناك معلقون ومؤرخون لديهم رؤية أقل وردية بالنسبة لميراث فيصل الأول. ومع ذلك، فإن معظمهم يتفقون على أن حكمه، الذى استمر حتى وفاته المفاجئة عام ١٩٣٣م وتولية ابنه غازى الحكم، شهد أكثر الفترات نجاحًا خلال حقبة النفوذ البريطانى.

تضاءل، وعلى نحو تدريجى، النفوذ البريطانى الاستعمارى المباشر فى العراق. وفى مقال هام وصف تى. إى. لورنس بجريدة «صانداى تايمز» اللندنية فى ٢٢ أغسطس ١٩٢٠م، وصف العراق بأنه:

«فخ سوف يكون من الصعب على بريطانيا الخروج منه وهى تحتفظ بماء وجهها... وعلى نحو أسوأ من الحكم التركى القديم. لقد احتفظوا بأربعة عشرة ألفاً من المجندين المحليين، وقتلوا مائتين من العرب سنوياً للحفاظ على السلام. إننا نحتفظ بتسعين

ألف رجل وطائرات وعربات مدرعة وسفن حربية وقطارات مصفحة. قتلنا حوالى عشرة آلاف عربى فى انتفاضة هذا الصيف. فإلى متى سوف نسمح بإنفاق ملايين الجنيهات والتضحية بآلاف الجنود من القوات الإمبريالية وعشرات الآلاف من العرب لصالح الإدارة الاستعمارية، وهو الأمر الذى لا يستفيد منه سوى القائمون بالإدارة ؟»

وافقت الجمعية التشريعية عامى ١٩٢٤، و١٩٢٥م على المعاهدة الأنجلو ـ عراقية، وعلى قانون شبه دستورى، يجعل الوزراء العراقيين مسئولين أمام برلمان مكون من مجلسين. وبعد تأخير مطول بسبب المعارضة العربية للوصاية البريطانية وإصرار فرنسا وآخرين على أن العراق غير مستعد للاستقلال التام، وضعت المعاهدة الأنجلو ـ عراقية عام ١٩٣٠م أسس تحالف لمدة ٢٥ عامًا. وكان من المقترح أن تقوم الحكومتان باستشارة بعضهما البعض بخصوص السياسة الخارجية، وقامت بريطانيا بالحصول على قواعد جوية والتحكم فى طرق المواصلات وتوفير قوة عسكرية لتدريب الجيش العراقى.

## تقسيم غنائم البترول

قام النظام الاستعمارى، باستخدام الجيش البريطانى وسلاح الجو الملكى تدريجياً بإخضاع الثورات الكردية والبدوية، كما عمل على السيطرة على رجال الدين الشيعة فى بغداد والنجف وكربلاء، والذين كانوا فى معظمهم من أصل فارسى. وتفاقمت نزاعات الحدود عبر الخط الذى رسمه المنتصرون فى الحرب العالمية الأولى من خلال الصراع الناتج عن الحرب الأهلية بين الهاشميين المنهزمين والسعوديين المنتصرين فى شبه الجزيرة العربية.

كانت أعقد المشاكل، التى تواجه فيصل الأول والبريطانيين، هى علاقتهما بالحكام الأتراك السابقين فى العراق. وقام مؤتمر سلام لوزان عام ١٩٢٣م بتنظيم ( دون حل محدد ) النزاعات، وخاصة النزاعات اليونانية ـ التركية، الناشئة عن الحرب العالمية الأولى وما بعدها. وطالبت الجمهورية التركية الجديدة بقيادة مصطفى كمال أتاتورك بعودة معظم ولاية الموصل التى كان يعلم العالمون ببواطن الأمور بها أنه غنية بالبترول. وفى عام ١٩٢٥م، وبعد عامين من الجهود الدبلوماسية المضنية، والتى اشتملت على الكثير من التعاملات المزدوجة وجهود شركات البترول العالمية الكبرى للحصول على

نصيبها من البترول، خضعت تركيا للضغوط البريطانية، ووافقت ـ على مضض ـ على التوقيع على اتفاقية منح الموصل للعراق(٦).

ومنذ معاهدة ١٩٢٥م تلك وحتى خريف ٢٠٠٣م حينما أحبطت قوات «حفظ السلام» التركية بواسطة المعارضة العراقية، عندما دعيت بواسطة إدارة بوش، وظمأ العالم الصناعى للبترول وطموحات الشركات المتنافسة والدول، بما فى ذلك أطماع دولة إسرائيل الفقيرة فى البترول، للوصول إلى البترول العراقى، كانت خلف الكثير من التاريخ المضطرب لمنطقة الشرق الأوسط.

مع اندلاع حرب ١٩١٤م كانت مصفاة تكرير البترول لشركة البترول الأنجلو ـ فارسية فى عبدان، بالقرب من الحدود العراقية تُصدّر ربع مليون طن من البترول سنوياً. وبعد تشجيع وينستون تشرشل، الذى كان فى عام ١٩١١م أول لورد للبحرية البريطانية (حيث كان اسمه الحركى فى الحرب العالمية الثانية فى الرسائل التى بعث بها إلى الرئيسى فرانكلين روزفلت هو «رجل البحرية السابق»)، والذى حث على وجوب قيام الأسطول البريطانى بنقل البترول، حصلت بريطانيا عشية اندلاع الحرب العالمية الأولى عام ١٩١٤م على ٥١٪ من أسهم شركة البترول الأنجلو ـ إيرانية. وقامت ألمانيا أيضاً بالعديد من المحاولات للوصول إلى بترول بلاد الرافدين. وفى اتفاقيتها المبرمة مع الإمبراطورية العثمانية عام ١٩٠٣م لبناء سكة حديد برلين ـ بغداد، وهو مشروع طموح قام به البنك الألمانى «دويتش بنك»، منح الألمان حقوق استغلال الأراضى الواقعة على جانبى مسار القطار فى نطاق ٢٠ كم.

وفى عامى ١٩١١م و ١٩١٢م، تم إنشاء شركة البترول التركية. كانت تركية بالاسم فقط، لأن ماليكها اشتملوا على شركة «رويال دتش شل» و«ناشونال بنك أوف تركيا» المملوك لبريطانيا ورجل أعمال أرمنى واسع الخيال وعدوانى يسمى سى. أس. جولبنكيان. وقد أصبح معروفًا باسم «السيد خمسة بالمائة» لأنه كان يمتلك هذه النسبة فى هذه الشركة، وفى شركات بترولية كبرى أخرى. وفى عام ١٩١٣ م اندمجت شركة البترول التركية مع شركة البترول الأنجلو ـ إيرانية، وكانت أسهمها موزعة على أنصبة بريطانية وألمانية وهولندية ورجل الخمسة بالمائة؛ وقد منح ذلك لبريطانيا نصيبًا

ضخماً من بترول الشرق الأوسط، بينما كانت تقف على عتبة الحرب العالمية الأولى وقواتها تهبط فى بلاد الرافدين[٧].

وقبل اندلاع الحرب، منحت الحكومة العثمانية الامتياز لهذه الشركة البترولية العملاقة. وقد تعهد أعضاؤها بعدم القيام بإنتاج أو معالجة البترول فى أراضى الإمبراطورية العثمانية فى أوروبا وآسيا إلا من خلال هذه الشركة باستثناء مناطق معينة حددها خط أحمر على الخريطة؛ وأصبح ذلك معروفاً باسم «اتفاقية الخط الأحمر». وحينما انتهت الحرب عام ١٩١٨م، قام البريطانيون باحتلال الموصل وصادروا الأنصبة الألمانية فى الشركة. ومع ذلك، بسبب اتفاقيات زمن الحرب بين الحلفاء مثل سايكس ـ پيكو، كان من المفترض أن تكون الموصل خاضعة لدائرة النفوذ الفرنسى وليس البريطانى.

وفى عام ١٩١٩م، نجحت بريطانيا فى إقناع الحكومة الفرنسية بنقل الموصل إلى السيطرة السياسية البريطانية مقابل دور آمن ومضمون لشركة البترول الفرنسية فى تطوير حقول البترول بالموصل. وافقت فرنسا أيضاً على مد خطين لأنابيب البترول؛ لنقل البترول الخام من بلاد الرافدين وإيران إلى الموانى السورية على البحر المتوسط[٨].

وعلى الرغم من أن أمريكا ما بعد الحرب كانت تعود إلى عزلتها السياسية، فإن دورها الاستراتيچى والاقتصادى والتجارى الطويل الأمد فى الشرق الأوسط كان فى سبيله إلى الميلاد. وكان البترول قوة أساسية للعب هذا الدور. وحتى نهاية الحرب، كان ما يزيد عن ٨٠٪ من بترول بريطانيا يأتى من الولايات المتحدة. وكانت إيران هى المنتج الهام الوحيد للبترول فى الشرق الأوسط، وكانت تشارك بنسبة مميزة فى الإنتاج العالمى للبترول. وفى عام ١٩١٣م كانت الولايات المتحدة (وبشكل أساسى تكساس وأوكلاهوما) تنتج ١٤٠ ضعفاً من البترول الذى تنتجه إيران[٩].

## ويلسون يفتح الأبواب

كان وودرو ويلسون، ابن القس المشيخى، أستاذا للقانون والحكم، ورئيسًا الجامعة پرنستون، وحاكماً لولاية نيوچيرسى قبل أن ينتخب كرئيس للولايات المتحدة عام ١٩١٢م (أعيد انتخابه عام ١٩١٦ م).

كان رجلاً حكيمًا يؤمن بالمثل العليا والمبادئ الدينية، ولم يكن متحمسًا بشأن مساندة الحلفاء الأوروپيين فى الحرب العالمية الأولى. وبناءً على طلب ألمانيا، حاول عام ١٩١٦م التوسط ووضع حد للحرب. فقط بعد أن بدأت الغواصات الألمانية فى إغراق السفن التجارية الأمريكية فى المحيط الأطلنطى، قام بإشراك الولايات المتحدة فى الحرب وأرسل حوالى مليون جندى أمريكى للقتال إلى جانب أوروپا. وفى مؤتمر السلام الذى أعقب الحرب، قام - ولكن بلا جدوى - بالاعتراض على الاتفاقيات السرية بين بريطانيا وفرنسا لاقتسام الشرق الأوسط فيما بينهما. وقام بالدفاع عن - وتشجيع - قيام دولة مستقلة لكل من الأكراد والأرمن، الذين فقد الملايين منهم حياتهم فى صراعهم مع الأتراك.

ومع ذلك فإن الشيء الذى أصر عليه ويلسون ومبعوثوه من الأمريكيين هو سياسة «الباب المفتوح» التجارية فى أراضى الانتداب، بما فى ذلك العراق. كان البترول يحتل جانباً كبيراً من تفكير وزارة الخارجية. وقد انخرطت فى مجادلات طويلة مع مكتب الخارجية البريطانية، الذى أحس بأن تكساس وأوكلاهوما بهما ما يزيد عن احتياجات أمريكا من البترول. وقد قامت شركات البترول الأمريكية باقتحام سوق البترول فى الشرق الأوسط. وحينما تحولت شركة البترول التركية إلى شركة بترول العراق (IPC) بعد اتفاقية عام ١٩٢٥م، ضم ملاكها بنسبة ٢٣,٧٥٪ لكل منهم الشركة الأنجلو - إيرانية (التى أصبحت بعد ذلك شركة البترول البريطانية BP) وشركة رويال دتش شل، مجموعة أمريكية، تقلصت بعد ذلك إلى شركة بترول نيوچيرسى وسكونى ڤاكيوم (ثم أصبحت تعرف باسم موبيل) وشركة البترول الفرنسية (CFP) إلى جانب جولبنكيان ونسبة الخمسة بالمائة المعتادة.

كان ذلك يمثل فتحًا جديدًا لوزارة الخارجية الأمريكية فى مجال البترول. وقد قامت سراً بالموافقة على خريطة الخط الأحمر، التى اعتبرتها بريطانيا لا تزال سارية واستبعدت كل المشاركين من خارج شركة البترول العراقية[١٠]. وأدت الاكتشافات البترولية الكبرى فى المناطق الكردية بالقرب من كركوك عام ١٩٢٧م إلى المزيد من ازدهار شركة بترول العراق. وبحلول الثلاثينيات، قدم إنتاج بترول الشركة جانبًا كبيراً من الدخل القومى للعراق. وفى نفس الوقت، كانت شركات البترول الأمريكية تمتلك امتيازات رئيسية فى المملكة العربية السعودية والكويت وبعثة منطقة شرق الخليج.

وفى غضون ذلك، انتهى الانتداب البريطانى فى عام ١٩٣٢م وانضم العراق إلى عصبة الأمم كدولة ذات سيادة. ولكن كانت هناك جماعات دينية ووطنية قوية، لا تزال تشمئز من النفوذ البريطانى المستمر فى العراق، وكذلك النفوذ المتعاظم لشركة بترول العراق.

وفى أغسطس ١٩٣٣م، قامت وحدة تنتمى للجيش العراقى بذبح ٣٠٠ قروى مسيحى أشورى فى شمال العراق. وهذه المذبحة المروعة حظيت باستحسان واسع النطاق من جانب الرأى العام الإسلامى. وحينما لم يتم عقاب المذنبين، هاجر الكثير من الآشوريين إلى سوريا، والتى كان من المفترض أن تظل مع لبنان تحت الانتداب الفرنسى حتى الحرب العالمية الثانية.

## فلسطين تتوسط المشهد

بعد الرحيل المفاجئ للملك فيصل فى عام ١٩٣٣م وخلافته بواسطة ابنه المحبوب والذكى غازى، والذى فى نفس الوقت لم يكن رجل دولة على المستوى المطلوب، بدأ العراق انغماسه فى مشاكل دولة أخرى واقعة تحت الانتداب البريطانى، ألا وهى فلسطين. وهذه المشاكل قد تصاعدت بدرجة خطيرة، قادت فى النهاية أولاً إسرائيل فى أعوام ١٩٤٨ و ١٩٦٧ و ١٩٧٣ و ١٩٩١م، وبعد ذلك الولايات المتحدة وبريطانيا، التى تعتبر الآن حليفاً أصغر لواشنطن، فى عام ٢٠٠٣م، قادتهم جميعاً للانخراط فى حرب مع العراق.

كافحت الدولة والمجتمع العراقى من أجل إنشاء نظام سياسى حديث وله ثقله. كانت هناك شخصية سياسية مهيمنة خلال فترة ما بين الحربين تم القضاء عليها بواسطة الدهماء الغاضبين فى شوارع بغداد أثناء الثورة العراقية عام ١٩٥٨م، وهذه الشخصية هى نورى السعيد.

وقد أصبح شخصية محورية فى التفاعل الحادث بين صناع الصهيونية ومؤسسى إسرائيل والعرب فى العراق. ولد نورى عام ١٨٨٨م ( من الناحية الرسمية فى بغداد ولكن من الناحية الواقعية فى إحدى القرى، التى تحمل اسماً له صدى تركيًا وهى قرية توسكرمتو ) وكان نتاجًا للإمبراطورية العثمانية الآيلة للسقوط - حيث كان أبوه موظفًا

فى البيروقراطية العثمانية ـ وممثلاً للعرب الذين انشقوا عنها. ومن خلال قدراته التاريخية والسياسية، تنبأ بالثورة العربية القادمة. وحينما كان ضابطاً صغيراً أصبح المستشار العسكرى للشريف فيصل عام ١٩١٨م. وقاتل مع لورنس والعرب شمال الجزيرة العربية وحتى دمشق. وحينما قام الجيش الاستعمارى الفرنسى بطرد «الملك» فيصل، الذى نصب نفسه ملكاً، إلى خارج سوريا، سافر معه إلى بغداد لينضم إلى النظام الجديد الذى تهيمن عليه بريطانيا.

ومثل لاعب ماهر فى لعبة الكراسى الموسيقية، وحتى انتهاء حكمه الطويل باغتياله فى ثورة ١٩٥٨م، تنقل نورى بين العديد من الوظائف العليا فى المملكة العراقية: رئيسًا للوزراء ووزيراً للدفاع وتقلد العديد من المناصب الديپلوماسية فى الخارج. وكانت إحدى المشاكل الرئيسية التى واجهته فى مجال السياسة الخارجية ـ كما حدث لمن جاء بعده مثل صدام حسين ـ مشكلة فلسطين والحركات العربية والصهيونية فى ظل الإدارة البريطانية المتزايدة الاضطراب.

كانت مقدمة نزاع بغداد الطويل الأمد مع الصهاينة، وبعد ذلك مع الدولة الإسرائيلية، يتم الإعداد لها بواسطة رجال الدولة البريطانيين، وخاصة وينستون تشرشل. وباعتباره أحد أعضاء وزارة داڤيد لويد چورچ، لعب تشرشل دوراً محوريًا فى الشرق الأوسط يشبه مزيج من دورى كولين پاول ودونالد رامسفيلد فى إدارة الرئيس چورچ بوش منذ عام ٢٠٠١م فصاعداً. كانت أمريكا ويلسون وما بعد ويلسون تقف على الحياد. وكانت أكثر اهتماماً بالسباق المحموم المتصاعد على بترول الشرق الأوسط من اهتمامها بالصراع بين القوميتين العربية واليهودية. وكان الاهتمام الأول لتشرشل بعد نهاية الحرب العالمية الأولى هو إبقاء فرنسا، المهيمنة بالفعل على سوريا ولبنان، بعيداً عن فلسطين وكذلك العراق. وكانت وسيلته لتحقيق ذلك هى تقديم عرش الدولة المصنوعة الجديدة، ألا وهى إمارة شرقى الأردن إلى الملك عبد الله الأول، الجد الهاشمى للملك حسين والجد الكبير للملك عبد الله الثانى ملك الأردن اليوم. وسعى تشرشل إلى إقناع عبد الله، مقابل منحه عرش إمارة شرقى الأردن، بأن يتجنب الهجوم على الفرنسيين فى سوريا وبذلك لا يستفزهم للدخول إلى فلسطين،

أو للإصرار على الاحتفاظ بالموصل. ويكتب المؤرخ داڤيد فرومكين قائلاً «توصل مستشارو تشرشل إلى أن بريطانيا يمكنها الوفاء بتعهداتها التى قطعتها أثناء الحرب [بشكل أساسى وعد بلفور واتفاقيات سايكس - پيكو المتناقضين] من خلال إقامة وطن قومى لليهود فى فلسطين غرب الأردن، وكيان عربى مستقل فى فلسطين شرق نهر الأردن، يحكمها الملك عبد الله»[11].

آمن تشرشل ومستشاروه، وأخبروا ديڤيد لويد چورچ رئيس الوزراء البريطانى بذلك، بأن عبد الله يمكنه كبح جماح الحركات العربية المناوئة للفرنسيين وللصهيونية التى يمكن أن تنشأ فى إمارة شرق الأردن، شرقى نهر الأردن. وفى مارس ١٩٢١، بعد أن قام تشرشل بتجسيد سياسته من خلال سلسلة من الاجتماعات فى القاهرة، استقل القطار إلى القدس. وقد التقى عبد الله، الذى وجده معتدلاً وودوداً وعلى استعداد إبرام معاهدات مع البريطانيين. وقد سمح عبد الله لهم بحكم الأردن دون وجود قوات بريطانية على الأرض، ولكنه سمح لسلاح الجو الملكى بالبقاء فى القواعد الجوية وهو وسيلة فعالة للسيطرة.

وسرعان ما أصبح السير چون فيلبى، المستشرق والمستكشف البريطانى والمغامر، مستشاراً رسمياً لعبد الله. وبدأ المسئولون البريطانيون فى تشكيل وتدريب جيش بدوى سمى بعد ذلك بالفيلق العربى، وكان يقوده السير چون جلوب، والذى أصبح يعرف بعد ذلك باسم «جلوب باشا».

إن فكرة إقامة دولة يهودية فى فلسطين قد نشأت بالطبع قبل وقت طويل من اندلاع الحرب العالمية الأولى، خلال سنوات اضمحلال الإمبراطورية العثمانية. وقد حاول ثيودور هرتزل، المعروف بأنه مؤسس الصهيونية (والتى تعرف بأنها عودة اليهود إلى جبل صهيون وإقامة دولتهم التى جاء ذكرها فى الكتاب المقدس)، إقناع السلطان العثمانى والإمبراطور الألمانى قبل الحرب بمنح اليهود تصريحاً بالاستيطان، ولكنه لم ينجح فى ذلك. وقد تم سحب بديل بريطانى لهذا الميثاق، بعد رفض المؤسسين اليهود. وحينما قامت بريطانيا عام ١٩١٧م بإصدار وعد بلفور لكسب - والحفاظ على - الدعم اليهودى ضد أعدائها فى الحرب العالمية الأولى، وجد داڤيد بن جوريون والزعماء الصهاينة الآخرون الفرصة سانحة لتحقيق حلمهم.

اعتبر وعد بلفور، كما يؤمن بذلك معظم المؤرخين اليهود وبعض المؤرخين العرب، شرعياً حينما جعلت عصبة الأمم من بريطانيا سلطة انتداب فى فلسطين والعراق والأردن. وأكد قرار الانتداب على الدعم البريطانى لإنشاء «وطن قومى» لليهود فى فلسطين. وكان الصهاينة متيقنين من قيام دولة يهودية، حتى على الرغم من أن السكان العرب فى فلسطين عام ١٩١٧م (كما كان نورى السعيد فى العراق والكثير من الزعماء العرب مغرمين بالإشارة إلى ذلك) يفوقون اليهود عدداً بنسبة عشرة إلى واحد[١٢].

واجه تشرشل ولويد چورچ، من خلال تنصيب الحكام الهاشميين العرب فى العراق والأردن، تناقضاً جوهرياً. فعلى الرغم من أن العراق كان لديه مجتمعاً يهودياً كبيراً وآمناً ومزدهراً، يعتبر نفسه امتداداً للمجتمع اليهودى القديم فى بابل، كان هناك القليل من اليهود فى إمارة شرقى الأردن. وإذا كان يجب الإبقاء على إمارة شرقى الأردن قاصرة على العرب فقط، دون أى وجود لليهود، فإن سياسة بلفور الخاصة بإنشاء وطن قومى لليهود لم تكن لتراعى جيداً ـ وخاصة بما أن بريطانيا كانت مطالبة بإعداد فلسطين تحت الانتداب لتكون دولة يحكمها اليهود، وتمثل الأردن ٧٥٪ مما اعتبره اليهود فلسطين التاريخية ـ وعلى ذلك، بما أن تشرشل قد أصدر قراره الخاص بإقامة وطن قومى لليهود غرب وليس شرق نهر الأردن، كان على تشرشل الإشارة إلى أن بريطانيا ليست مضطرة إلى تطبيق وعد بلفور شرق النهر[١٣].

الآن أصبح المنتصرون فى الحرب العالمية الأولى وارثين لتركة الإمبراطورية العثمانية القديمة. وأدت وعودهم وأهدافهم المتناقضة إلى تهيئة الساحة للصراع العربى ـ اليهودى الجبار على نفس الأرض. وهذا الصراع ألقى بظلاله الكثيبة على منطقة الشرق الأوسط. وفى أواخر القرن العشرين، جر الولايات المتحدة الأمريكية، التى خرجت ظافرة من الحرب الباردة مع الاتحاد السوڤييتى، إلى أكبر صراع فيما وراء البحار فى تاريخها: حرب لقتال أعدائها الإرهابيين وبناء شبكة عسكرية عالمية للدفاع عن مصالحها ومصالح بعض حلفاءها القلائل. وضمن هؤلاء كانت إسرائيل. ويجب علينا أن نتناول فيما يلى كيف أن المراحل المبكرة من هذا الصراع قد غيرت كلاً من العراق وإسرائيل.

# الفصل الثالث

## « عملية عزرا ونحميا »
## الرحلة الحلوة المرة إلى صهيون



**«بينما نستجمع قوانا ونقوى أنفسنا ونستعد للعودة إلى فلسطين ـ دعونا نُرى العالم أجمع أننا نصلح كأى شعب آخر للمعيشة فى مجتمع سياسى مستقل».**

**(حاييم وايزمان ـ ١٩١٤ )**

فى أحد الأيام المقبضة فى أواخر يناير ١٩٦٩م، احتشد ١٥ صحفيًا غير عربى ودليلنا المعين أمام فندق بغداد القديم. وقد تم إرسالنا إلى العراق من أجل الكتابة عن عواقب الإعدامات العلنية المروعة فى ٢٧ يناير ١٩٦٩، والتى نقلها التليفزيون، لأربعة عشر عراقيًا، تسعة منهم من اليهود، بينهم أطفال يتراوح عمرهم بين ١٥ و١٦ عاماً. وقد تم شنقهم أمام الجماهير المحتشدة التى تم حشها على المشاهدة فى ميدان التحرير ببغداد وسط المدينة.

وكان الأربعة عشر شخصًا الذين تم إعدامهم متهمين جميعًا بالتجسس لحساب «الكيان الصهيونى»، وهذا اسم دعائى عربى يستخدم غالبًا للإشارة إلى إسرائيل. وفى بعض وسائل الإعلام تمت إضافة عبارة «والولايات المتحدة» باعتبارها فكرة ثانية.

وقد أدى ذلك إلى تأكيد حزب البعث على الشعار الذى يسمع غالبًا منذ الهزيمة العربية فى يونيو ١٩٦٧، بأن واشنطن متهمة دائمًا فى أى مؤامرة ضد العرب تقوم بها تل أبيب.

وعلى الرغم من أن الضحايا المشنوقين، الذين ظلوا معلقين أمام آلاف المشاهدين الذين شاهدوهم وهو يلفظون أنفاسهم الأخيرة، تم إنزالهم فى النهاية ولم يصبح بالإمكان تصويرهم، فإننا كنا نطمح إلى ملاحظة ردود الفعل فيما نرى أو نسمع. وقد ذكر مرافقنا من خلال مكبر للصوت فى مقدمة الحافلة بأننا يمكننا الذهاب إلى «أى مكان» والتحدث إلى «أى شخص» نرغب فى التحدث إليه.

وكانت استجابتنا سريعة : الحى اليهودى من فضلك. (فى ذلك الوقت ، وطبقًا للتقديرات الإسرائيلية اللاحقة بقى فقط ٣٣٠٠ يهودى[1] من ٥٠٠٠ غادروا من خلال «الإنقاذ» الذى تم بواسطة إسرائيل للغالبية العظمى من الجالية اليهودية والتى بلغت وقت ميلاد إسرائيل وصعود نورى السعيد فى عهد الملكية السابق، ٣٠٠ ألف يهودى).

## جولة موجهة

بدأت حملتنا الاستكشافية فى حى تكتنفه الشوارع الضيقة والأزقة الملتفة بالقرب من وسط المدينة. وكان بعض زملائنا من مراسلى الصحف يطلقون عليه «الجيتو». توقفت الحافلة إلى جانب تقاطع مظلم وقام مرشدنا بإرشادنا عبر المعبد. وداخل المعبد الذى يلفه الظلام والذى ليس به من وسائل الإضاءة سوى مصباحين معتمين بشدة ١٠ أو ٢٥ وات ، التقينا ، حاخام محنى الظهر ، فى الثمانينيات أو التسعينيات من عمره ، قام بإخراج مخطوط ضخم مطوى عدة طيات من التوراة. وكان يتحدث العربية وقام مرشدنا بالترجمة حيث قال لنا حاخام أصغر سنًا «انظروا إننا نحتفظ بالتوراة فى أمان. هناك حرية لكل الأديان فى العراق». وحينما سألناه كم عدد المصلين الذين يترددون على المعبد، تمتم بإجابة لم تترجم لنا ولكنها فيما يبدو أسعدت مرشدنا.

كان هناك مجموعة من رجال الشرطة، يرتدون الملابس السوداء اللامعة الضيقة، ينتظرون فى الخارج. وكان أحدهم يعلق سلاحه فى مكان ظاهر أسفل الكتف. اعتقدنا جميعًا ـ بما فى ذلك مرافقنا من وزارة المعلومات ـ أنه سوف يقبض علينا فى الحال أو ربما يحدث لنا ما هو أسوأ من ذلك.

استجمع مرافقنا شجاعته وبعد التأكيد على المجموعة التى تشبه الجستابو أننا جميعًا لدينا موافقة رسمية للقيام بهذه المهمة، قام بالتحدث فى جهاز لاسلكى كان يعتبر علامة رسمية فى عراق عام ١٩٦٩م.

وبعد محادثة قصيرة قام بتقديم جهاز اللاسلكى إلى قائد المجموعة الذى قام بترديد عبارة: «نعم سيدى، نعم سيدى» على نحو آلى. بعد ذلك قام بتوجيه كلمة أو كلمتين

لنا ثم أومأ لنا بالانصراف وعلى وجهه علامات الكبر والاشمئزاز. وقام فريق محطة آي. تي. ڤي. بالتقاط لقطة سريعة ثم صعدنا إلى الحافلة. قام السائق بقيادة الحافلة بسرعة حيث إنه فيما يبدو، كان سعيداً بمغادرة المكان.

ومع اقترابنا من جسر نهر دجلة، وبالقرب من إحدى المناطق الشيعية، تذكرت بفخر أننى أحمل كاميرا جديدة من طراز كانون. وعلى الرغم من وجود فيلم بداخلها فإننى لم أكن قد قمت بتجربتها بعد. وقمت برفعها عبر نافذة الحافلة لالتقاط صورة للنهر.

كان ذلك خطأ فادحًا. قامت سيارتان ذواتا لون أسود، من طراز پيچو على ما أذكر باعتراض الحافلة. وقفت إحداهما أمام الحافلة والأخرى خلفها لقطع الطريق علينا.

قام الشرطى الذى يعلق مسدسه على نحو ظاهر، والذى تبعه رجال شرطة آخرون لم نرهم فى المعبد بسحب سلاحه الذى يعلقه أسفل الكتف، ومد ذراعه الأخرى نحوى وتحدث إلى قائلاً «آلة التصوير، آلة التصوير».

علق زميلى إريك پاس بصحيفة «النيويورك تايمز» على ذلك قائلاً بسخرية «إنه يعتقد أننا جواسيس وأنك تقوم بتصوير الجسر». بينما كنت أقوم بتسليمه آلة التصوير على مضض، قام فريق آي. تي. ڤي. بدس آلة التصوير الخاصة بهم وجهاز التسجيل تحت أحد مقاعد الحافلة.

قام رجال الشرطة باستخدام جهاز اللاسلكى الخاص بهم للتحدث إلى رئاستهم. وجاء الإفراج عنا هذه المرة أسرع من ذى قبل ولكن ليس قبل أن يقوم قائدهم بإخراج الفيلم وتعريضه للضوء فى شماتة واضحة ثم أعاد إلىّ آلة التصوير خاوية على عروشها.

بعد ذلك قضينا دقائق قليلة نتطلع بإعجاب إلى منطقة السوق المكتظة بالبشر ومسجد الشيعة ذى القبة الذهبية فى حى الكاظمية الذى يحتوى على مقبرتى الإمامين السابع والتاسع من أئمة الشيعة الاثنى عشر، وكان لعدة قرون تسكنه أغلبية شيعية فى العراق. بدا مرافقنا، الذى ينتمى للسنة، منزعجاً بعض الشيء. فى وقت لاحق، نجح طاقم محطة آي. تي. ڤي. فى إقناعه والسائق بركن الحافلة فى منطقة تظللها أشجار

النخيل، حيث أراد مراسلها تغيير إحدى قطع الكاميرا. ولكننا تعرضنا لهجوم مباغت آخر. فقد قامت فرقة من رجال الشرطة الذين يرتدون الپيريهات بالهبوط من سيارتين لنقل الجنود وكان بصحبتهم رجلان من رجال الشرطة يرتديان البزات السوداء اللامعة.

هذه المرة بدت الأمور أكثر قتامة. قال لنا مرافقنا: «إنهم سوف يأخذوننا إلى محطة التليفزيون».

«سوف نظهر على الهواء لمدة عشرين دقيقة لكى ندلى باعترافاتنا» هذا ما أضافه إريك پاس لكى يخفف عنا بعض الشيء بواسطة سخريته اللاذعة. ولكن عندما وصلت الحافلة إلى مبنى التليفزيون، قال مرافقنا بابتسامة باهتة «نأمل ألا نمكث هنا مدة طويلة».

وعلى مدى ساعتين قدموا لنا أقداح الشاى العربى وأكواب الماء. لم يوجهوا لنا أية أسئلة على الرغم من أنهم كانوا يستجوبون مرافقنا فى غرفة أخرى. أشار مصور محطة آى. تى. ڤى. إلى اختفاء ضوء النهار.

وحينما جاء الفرج بعد طول انتظار، كانت الشمس تنحدر سريعًا جهة الغرب. ومع إرخاء الليل سدوله فى تلك الليلة الشتوية المظلمة على بغداد، كنا قد عدنا إلى وسط المدينة وتوقفنا بالقرب من ساحة الإعدام إلى جانب قطعة نحتية تنتمى للمدرسة الطليعية فى الفن فى ميدان التحرير. كان بعضنا لا يزال يخاطر بالتقاط الصور وكان طاقم محطة آى. تى. ڤى يحمل كاميرته الضخمة ويقوم بتصوير الميدان.

ربما أصبحت أيها القارئ العزيز تتوقع ما حدث هنا أيضًا، فبينما حدث الاعتراض الأخير لنا فى هذا اليوم العاصف كانت كاميرا محطة آى. تى. ڤى. لا تزال تدور لكى تصور لحظات القبض علينا. فى هذه المرة قام مرافقنا بتقمص دور الشرير وصرخ فى رجال الشرطة الذين قاموا بالانصراف دون تدخل خارجى. وبعد أن أيقنا بانتهاء المغامرة أملنا أن ننجح فى كتابة قصة خالية من مقص الرقيب، أو أن نقوم، كما فعل مراسل وكالة الأسوشيتدپرس، بإرسال صور لاسلكية مباشرة. ( ففى حالة إرسال القصص أو الصور، كان يتحتم علينا إرسالها من غرفة الصحافة فى وزارة المعلومات، كما حدث مؤخرًا طوال معظم فترة حكم صدام حسين ).

## الناجون اليهود

بعد مرور ٣٤ عامًا، وبعد أن قامت قوات الرئيس جورج بوش و «تحالف الإرادة» بغزو العراق والإطاحة بصدام حسين، سعى المراسلون الأوروپيون إلى البحث عن المجموعة الضئيلة من اليهود التى لا تزال تعيش فى بغداد. وقام فيليپ بروسارد بكتابة مقال فى صحيفة «لوموند» الفرنسية فى ٨ مايو ٢٠٠٣م يصف فيه حياة العزلة لهؤلاء الناجون الستة والعشرين الباقين من ٣٢ يهوديًا كانوا موجودين قبل حرب ٢٠٠٣م. وضمن مئات المعابد اليهودية التى كانت فى يوم ما متناثرة حول المدينة بقى واحدًا منها فقط مفتوح الأبواب.

كان المعبد موجودًا فى الجزء البدوى من ضاحية الحبيبية الفقيرة. كان هناك عدد قليل من اليهود العجائز، الذين يتجاوز عمرهم جميعا السبعين عامًا، يصلون فى المعبد. وحينما توجهت ديبورا پارمنتير، مراسلة شبكة الأنباء الفرنسية إلى المعبد فى وقت لاحق فى أكتوبر ٢٠٠٣م، وجدته مغلقًا. كان الرابى عماد ليڤى، الذى يبلغ من العمر ٣٨ عامًا وابن الرابى الأخير - والذى تم نقله مع خمسة أو ستة يهود آخرين إلى إسرائيل فى رحلات خاصة خلال الصيف - يخدم مجموعة مكونة من عشرة رجال وهو أقل من العدد المطلوب لتلاوة التراتيل اليهودية أو للصلاة على الموتى. وباستثناء أحد المراهقين وطبيب شاب فى الخمسين، فإن الباقين كانوا فى السبعينيات من العمر. وقد حدث آخر زواج دينى يهودى فى عام ١٩٧٨م، وأحدث طقوس «البار ميتسڤاه» فى عام ١٩٧٩م.

وفى يوم كيپور، عيد الغفران، فى أكتوبر ٢٠٠٣م، مكث الرابى ليڤى بمنزله للصلاة مع أحد أصدقائه. وكانت تتم حراسة المعبد المغلق بواسطة رجل مسلم تستخدمه الجالية اليهودية الضئيلة. وأعلن الرابى ليڤى «إننا ربما نستطيع إعادة فتح المعبد حينما تكون هناك حكومة حقيقية. وإن لم يحدث ذلك فقد يتعرض للهجوم». وأضاف أن جيراننا اعتادوا العمل لحساب استخبارات صدام حسين واليوم يصفون الحارس بأنه صهيونى.

وأضاف أن الجالية قليلة العدد قد أصابها الرعب، حينما قرأوا فى الجرائد المحلية، التى زاد عددها فى ظل حرية وسائل الإعلام الممنوحة بواسطة سلطة الاحتلال الأمريكية «أن هناك يهودًا من الخارج يشترون سرًا ممتلكات عراقية».

وقد دفعت الضغوط الحقيقية أو المتخيلة الجماعة إلى ممارسة أقل قدر ممكن من النشاط . وفى يونيه ٢٠٠٣ م ، قام أحد مسئولى وزارة الدفاع الأمريكية بزيارة سرية إلى لكى يعرض عليه توفير حماية خاصة لهم . وقد رفض الرابى العرض خوفاً من أن يثير ذلك الاستفزاز .

وقد بدأ الصراع الفاجع بين إسرائيل / فلسطين والعراق ، على نحو بطىء ، فى العشرينيات والثلاثينيات . وكانت فلسطين فى ذلك الوقت تحت سيطرة الإنجليز وكانت العراق ملكية تحت الحماية البريطانية .

ومن أجل فهم ماذا حدث حينئذ وفيما بعد ، يجب علينا العودة إلى حياة يهود العراق فى الأزمنة التى كان فيها عددهم كبيراً . ويصر بعض المؤرخين على أنه فى القرن التاسع عشر ، فاق ـ من آن لآخر ـ عدد الجالية اليهودية فى بغداد ( وليس البصرة أو مراكز أخرى للحياة اليهودية ) عدد المسلمين وبالطبع المسيحيين . ومثل الجاليات الأخرى ، الآشورية أو الكلدانية المسيحية ، والتركمانية واليزيدية ، عاش اليهود داخل الأحياء العربية أو الكردية فى بلاد الرافدين . وكانت هناك عائلات أو عشائر ذات نفوذ كبير وتمتعت باستقلال دينى واجتماعى كبير . وهذا ما فعلته مجتمعات أقليات أكبر من اليهود والمسيحيين ، كانت تسمى «الملل»[٢] .

ومن خلال إيمانهم بأنهم الورثة الشرعيون ليهود بابل القديمة وامتداد لحضارتهم الراقية ، كان اليهود العراقيون غالباً رواداً فى التجارة والمهن والمجتمعات . وبالإضافة إلى كونهم تجاراً ورجال أعمال ، فقد كانوا أيضًا صيارفة ومحامين وأطباء وفى بعض الأحيان فى غاية الثراء . وفى عام ١٩٢٧م ، حينما تم إنشاء غرفة تجارة بغداد فى عهد الملكية ، يقول المؤرخ حنا بطاطو إن الشركات البريطانية أو ذات رءوس الأموال المختلطة من بريطانية وفرنسية أمريكية ، كانت تمثل الغالبية العظمى لصفوة الشركات التجارية . وكان لكل شركة من هذه الشركات رأس مال يزيد على ٢٢,٥ ألف دينار عراقى ( وهو مبلغ هائل بمقاييس تلك الأيام ، حيث كانت العملة العراقية تتمتع بغطاء ذهبى وكانت قويه للغاية ) . وكان لهذه الشركات معاملات ضخمة للغاية ، كانت هناك شركة واحدة عربية إسلامية وكان مديرها ابنًا لمالك شركة بريطانية تسمى «ألين بروس أوف أبردين» باسكتلندا . وفى وقت لاحق فى الفترة ٣٨ ـ ١٩٣٩ ، قبل أن تجتاح

الحرب العالمية الثانية منطقة الشرق الأوسط، كانت هناك ٢١٥ شركة يهودية من أصل ٤٩٨ شركة «درجة أولى» فى الغرفة التجارية الملكية.

ويستشهد بطاطو بتقرير قنصل بريطانى كتبه عام ١٨٧٩ م، خلال الحقبة العثمانية. ففى ذلك الوقت كان اليهود «أهم مجموعة تعمل بالتجارة» وكانت المجتمعات الشيعية والسلفية أو المسيحية تحتل هامشًا ضئيلاً فى هذا المجال. وفى عام ١٩١٠م، كان اليهود يحتكرون مجالات تجارية معنية ولم يكن أىٌ من المسلمين أو المسيحيين يستطيع أن ينافسها، وخاصة فى البصرة. وبحلول عام ١٩٢٠م، كان اليهود يوسعون من نفوذهم حتى امتد إلى إيران.

وقد تنافس التجارة اليهود مع تجار المستعمرات البريطانية الذين ثبتوا أقدامهم فى العراق. وكان اليهود يستوردون البضائع البريطانية من الهند وبريطانيا، مما يؤدى إلى حرمان التجار البريطانيين المقيمين من العمولات العراقية(٣). ومع بداية القرن العشرين، كان معظم كبار التجار اليهود فى بغداد لديهم شركاتهم الخاصة فى الهند أو فى انجلترا. وكان أحد هؤلاء عزرا ساسون سحايق الذى بلغت ثروته حوالى ٢ مليون دولار عام ١٩١٩م، وكان يمتلك شركة چى. إس. سايكس فى مانشستر، بانجلترا. وكان صهيون بيكور وعزرا إسحاق صالح، وهما تاجران من بغداد، يمتلكان شركات فى بومباى ولندن.

وكان ضمن العائلات التجارية الأكبر والأكثر ثراءً وقوة فى المجتمع اليهودى العراقى عائلة ساسون التى كان يطلق عليها «عائلة روتشيلد الشرق»، والتى تعود جذورها إلى الأزمنة العثمانية. ومثل كل رجال الأعمال الناجحين فى كل الأزمنة والعقائد، فهموا كيف يركبون موجة الحروب وكيف يستثمرون فترات الازدهار وكيف يتعاملون مع الكساد.

وقد قام مؤسس الإمبراطورية التجارية، ديڤيد ساسون، الذى كان فى عام ١٨٥٠م نشطاً فى الصين واليابان وكذلك فى الهند وأوروبا، باستغلال حاجة مصانع لانكشاير إلى القطن عام ١٨٦١م بسبب الحرب الأهلية الأمريكية حينما نقصت صادرات القطن الأمريكية، فقام ساسون باستبدال القطن الهندى بالقطن الأمريكى بأسعار باهظة. وقد توفى عام ١٨٦٤م، وامتلك ورثته البنوك والشركات التجارية وشركات أخرى من

لندن إلى سنغافورة و طوكيو. وتشتهر إمبراطورية ساسون حتى اليوم بمنتجات «ڤيدال ساسون» للتجميل. وهناك ما يزيد على ٢٥٠ ألف يهودى مولود فى العراق من الذين هاجروا عام ١٩٤٨م، معظمهم إلى إسرائيل ولكن أيضاً إلى الأمريكات وأوروبا، كثر بينهم اسم ساسون، خاصة فى صفوتهم الاجتماعية بما فى ذلك الديپلوماسى الإسرائيلى الذى يشغل حاليًا منصب سفير إسرائيل فى اليونان، داڤيد ساسون.

وفى العراق، ازدهرت الطبقات العليا من التجار اليهود خلال فترة النفوذ والحكم البريطانى (١٧ ـ ١٩٣٢م) على نحو متناغم مع المسلمين والمواطنين الآخرين. وقد تجنبوا السياسة. ومثل الصيارفة أو أصحاب البنوك فى عهد نورى السعيد، عائلة زيلخا، فقد قدموا الكثير من الخدمات إلى الحكام (فى إحدى المناسبات قدموا منزلاً ريفيّا وخيولاً إلى نورى السعيد عند زيارته لمصر فى عهد الملك فاروق). كما قامت عائلة لاوى اليهودية التى كان بها الكثير من تجار ووكلاء السيارات، بتقديم سيارات مخفضة إلى كبار المسئولين العراقيين. ومع ذلك، حينما اندلعت الاضطرابات العربية ـ اليهودية، كما كان يحدث بشكل دورى فى فلسطين تحت الانتداب البريطانى، لم يشارك اليهود الأقوياء ماليًا وغير النشطين سياسيّا فيها، حيث كانوا غير متأثرين بالحركة الصهيونية. كان الجانب الأعظم من المناصب العليا فى الحكومة يذهب إلى المسلمين[٤].

لم يقم اليهود العراقيون على مدار التاريخ بالتبرؤ من دينهم، ولكنهم تبنوا اللغة العربية والثقافة العربية والطعام العربى والأمثال العربية. وفى عام ١٩٥١م، حينما أصدر الإصلاحيون العثمانيون مانيفستو ثوريًا، طالبوا فيه العرب من مسيحيين ويهود بأن ينضموا إلى إخوانهم المسلمين لمكافحة الحكم التركى.

ومن المرجح أن هذا الامتزاج الثقافى الجزئى مع المجتمع العربى هو الذى أبعد معظم اليهود العراقيين قبل الحرب العالمية الثانية، وأولئك الذين كانوا لا يزالون فى العراق بعدها، عن اعتناق الصهيونية. ومع ذلك، فإن اليهود العراقيين بدأوا بالفعل يشعرون بالضغوط، فى ١٩٢٩ و ١٩٣٦م، حينما اندلعت الثورات والتمردات العربية ضد المستوطنين اليهود والحكام البريطانيين فى فلسطين. وقد بدأ بعض المقربين من نورى

السعيد بتهريب السلاح إلى العرب خلال الثورة العربية فى فلسطين ٣٦ ـ ١٩٣٧ م، والتى كانت تقودها الجماعات الفلسطينية المسلحة المنتمية إلى عز الدين القسام.

## الاستقلال .. نوعًا ما

أصبح العراق فى عام ١٩٣٢م أول منطقة عربية تحقق نوعًا ما من الاستقلال عن الإمبراطورية العثمانية الغابرة. ومع تصاعد الصراع فى فلسطين فى الثلاثينيات، وصل ضباط عراقيون يتمتعون بحس وطنى قوى إلى السلطة فى بغداد. ويشير بطاطو إلى أنه كان هناك انشقاق بين صفوف ضباط الجيش الملكى العراقى. وهذا الانشقاق احتوى على ثلاث طوائف رئيسية وهى الأكراد والوحدويون العرب (المناوئون للصهيونية) والوطنيون العراقيون (أو أصحاب التوجه العراقى) الذين ركزوا على بلدهم وليس على أحلام الوحدة العربية.

ويقال بأن اللواء بكر صدقى، الذى قاد انقلابًا عام ١٩٣٦ مع اندلاع الثورة العربية ضد بريطانيا فى فلسطين، ترك وراءه وثائق تعبر عن الديكتاتورية العسكرية والإطاحة بالملك. قاد انقلاب صدقى أكراد وعراقيون، بينما الأدوار الرئيسية فى الانقلابات المضادة بواسطة ضباط آخرين عامى ١٩٣٧ و ١٩٣٨ م، وفى الانقلاب المناصر للألمان بقيادة رشيد علّى خلال الحرب العالمية الثانية، قام بها دعاة الوحدة العربية. وخلال هذا الجيشان، تأخرت ألمانيا كثيرًا فى إرسال الدعم الجوى له، بينما كانت تشجعه فى البداية. وقد قتل ما يزيد على مائة يهودى عراقى، ولكن بدأ برنامج القتل فى ١١ يونيو ١٩٤١م. وقد أعطى ذلك لبن جوريون ولزعماء يهود آخرين فى الغرب قوة دافعة هائلة من أجل «إنقاذ» اليهود العراقيين وإخراجهم إلى فلسطين.

برز الوحدويون العرب والقومية المناوئة للصهيونية بين المسلمين (وبعض المسيحيين) فى العراق من خلال وصول الحاج أمين الحسينى القائد الفلسطينى الشهير والمناصر للنازى قبل الحرب العالمية الثانية ومفتى القدس، إلى بغداد. واعتبرت السلطات البريطانية فى فلسطين الحاج أمين الحسينى، حينما اندلعت ثورة ١٩٣٦م، زعيمًا روحيًا أو أيديولوجيًا للثورة. وقد قاموا بفصله من منصبه الرسمى كمفتى للقدس ورحلوه إلى سوريا، وذلك من أجل إزعاج السلطات الفرنسية فى دمشق.

ابتهج الفرنسيون، بعد أن توفى الملك غازى فى إبريل ١٩٣٩م وحل محله ابنه فيصل الثانى، حينما شوهد الحاج أمين فى بغداد فى أكتوبر ١٩٣٩م، بدعوة من الوحدويين والمؤيدين للقضية الفلسطينية وتشجيع من حكومة نورى السعيد والديبلوماسيين البريطانيين الذين وقفوا من خلفه. وقام المفتى السابق بجذب الآلاف من المؤيدين. وقام بتوثيق صلاته بضباط فى الجيش العراقى وظهر ذلك بوضوح حينما قام رشيد على ولواءاته المتمردون فى «الميدان الذهبى» بطرد نورى السعيد والعميل البريطانى عبد الله خارج العراق. وقد هبطت قوات بريطانية فى البصرة وقامت قوات أخرى بالهجوم من جهة الغرب. ومنيت الجماعات المؤيدة للمحور والمؤيدة للوحدة العربية والمؤيدة للقضية الفلسطينية بالهزيمة وتمت إعادة النظام القديم[٥]. ومع ذلك فإن المجتمع اليهودى، باعتباره عميلاً صهيونيًا سريًا مهمته إحضار العملاء الصهاينة إلى إسرائيل، كما يشير شلومو هليل فى مذكراته، قد أصبح أكثر وعيًا بمشاكل فلسطين وأكثر قلقًا على مصيرها المنتظر، ولم تؤد عودة الحكم الذى تناصره بريطانيا إلى التخلص من هذا القلق. كما أدى ذلك أيضًا إلى توليد اهتمام متجدد بين اليهود فى فلسطين بشأن مصير إخوانهم فى العراق.

## العنف والإنقاذ

لم يكن العنف بين الطوائف المختلفة غريبًا على النظام الملكى العراقى فى الثلاثينيات. ففى السابع عشر من سبتمبر ١٩٣٦م أعلنت الحكومة فى بغداد، من أجل تمجيد اندلاع الثورة العربية فى فلسطين، أعلنت «يوم فلسطين» حيث قتل العديد من المارة اليهود فى الشارع بسبب انفجار قنبلة. ويتذكر شلومو هليل أنه خلال ذلك العقد، طرد معلمو اللغة العبرية الذين أرسلهم «اليشوف» أو المجتمع اليهودى فى فلسطين إلى العراق. وكانت هناك ضغوط تمارس على المجتمع العراقى من أجل وضع حد للأنشطة والحركات الثقافية اليهودية. وعلى الرغم من ذلك، يشير هليل إلى قيام اليهود من الأجيال الشابة فى العراق بدراسة الأدب والثقافة العربية. وحتى الوصول إلى هذه الفترة من التوتر الطائفى، كان معظم اليهود العراقيين يتحدثون اللغة العربية بلهجتهم الخاصة، ويكتبونها بالحروف العبرية فى منازلهم أو مدارسهم. ومع ذلك،

فقد سعى الكتاب والشعراء إلى السباحة فى نهر الثقافة العربية للمسلمين والمسيحيين العراقيين من خلال الكتابة بلغة عربية معاصرة. ومقابل ذلك كانوا يكسبون السمة العراقية بدلاً من أن يكونوا مجرد يهود[٦].

ويشير بينى موريس، وهو أحد أشهر المؤرخين الإسرائيليين لأنشطة المخابرات الإسرائيلية، فى كتاب وضعه بالاشتراك مع إيان بلاك، الصحفى بجريدة «الجارديان» الذى عاش طويلاً فى القدس، إلى التاريخ المتقلب «للإنقاذ» الصهيونى لليهود العراقيين.

ومن خلال الرد على الأنشطة المتصاعدة لحقبة رشيد على عام ١٩٤١م، قامت ميليشيا الهاجاناه فى فلسطين عام ١٩٤٢م بتنظيم وتدريب قوة سرية صغيرة تسمى شورا ( الخط ) أو حركة بابل الرائدة وقامت بتهريب العملاء والمواد إلى داخل العراق لتشكيل خلايا «دفاع ذاتى» عن اليهود العراقيين.

وقام مبعوثو الهاجاناه، ومن أبرزهم ثلاثة رجال هم شاؤول أفيجور وانزو سرينى (صهيونى إيطالى ) وسماريا جوتمان، بالتسلل إلى العراق عبر فلسطين التى تسيطر عليها بريطانيا. وفى العراق قاموا بانتخاب شباب يميلون للصهيونية كزعماء مستقلين. وقد أقاموا أنفاقًا لتهريب الأسلحة والإمدادات عبر إمارة شرق الأردن أو تركيا أو إيران، وبدءاً من عام ١٩٤٧م قاموا بذلك جواً من فلسطين. كما بدأوا أيضًا برامج للتدريب. وبدءاً من عام ١٩٤٣م فصاعداً قاموا باستخدام اتصالات الراديو ذات الموجة القصيرة، والتى كان معظمها مرمزاً أو مشفراً، للاتصال بقيادتهم «الموساد B» فى تل أبيب وهذه منظمة سبقت الموساد الحالى، جهاز الاستخبارات الإسرائيلى. وكان جهاز الموساد B مكلفًا بتسهيل الهجرة اليهودية غير الشرعية والتغلب على القيود البريطانية وتكوين قوة عمل يهودية للمجتمع اليهودى فى فلسطين «اليشوف» كقاعدة عسكرية ومدنية للدولة اليهودية القادمة. وكانت خلايا «الشورا» السرية المسلحة فى العراق حلقة الوصل بين الرحلات السرية الأولى لليهود من العراق إلى فلسطين قبل استقلال إسرائيل والفترة بدءاً من عام ١٩٤٨م فصاعداً، حينما سعى ديفيد بن جوريون ومؤسسون آخرون للدولة إلى انتهاج سياسة منظمة «لجمع اليهود» من الخارج، وخاصة من الدول العربية والإسلامية، وكذلك المجتمعات ذات الأقليات اليهودية

الصغيرة، مثل تركيا وإيران والهند. وخلال حروبها مع جيرانها العرب عام ١٩٤٨ م، واصلت خلايا «الشورا» فى العراق إخراج المجتمع اليهودى من العراق. وبحلول عام ١٩٥١ كان لتنظيم «الشورا» ١٦ فرعًا و ٢٠٠٠ عضو داخل العراق، ٣٠٠ منهم حصلوا على تدريب عسكرى.

وصف شلومو هليل بالتفصيل دوره الرئيسى فى «عملية عزرا ونحميا»، حيث استخدمت هذه الأسماء من الكتاب المقدس كاسم حركى. كان هليل، الذى كان اسمه الحركى فى الموساد هو «إميل» و«شاماى»، يهوديًا ولد عام ١٩٢٣م فى فلسطين (يُسمى اليهودى الذى ولد فى فلسطين صابرا) وتعلم هناك. وقبل استقلال إسرائيل عام ١٩٤٨م، قام هليل برحلات مكوكية بين فلسطين والعراق، مستقلاً الطائرات البريطانية والخاصة، مرتدياً الزى العربى ومتنقلاً باستخدام سيارات الأجرة المحلية ووسائل النقل الأخرى إلى ومن العراق وإيران وتركيا وفلسطين. وقامت قيادة الموساد B السرية فى بغداد، التى كان اسمها الحركى «برمان» و«ديكل» و «أورين»، بتنظيم نقل «الشحنات» كما كان يشار إليها فى الرسائل المشفرة المتبادلة مع تل أبيب.

أما ثانى أكبر مقر للموساد B فكان فى طهران وكان اسمه الحركى هو «جولدمان» و«نورى» و«ألون» فى الرسائل اللاسلكية وفى الرسائل المكتوبة التى حملها مبعوثوه.

وفى أول الأمر، كان الكثير من اليهود العراقيين يعبرون ممر شط العرب المائى من العراق إلى إيران، أو يسافرون عبر مناطق الأكراد فى الشمال. ( أدى اشتراك بعض الأكراد العراقيين فى هذه العمليات المبكرة إلى إقامة علاقات سرية، ولكنها قوية، بين دولة إسرائيل والأكراد العراقيين ). وداخل إيران، كان يتم نقل المهاجرين، باستخدام الرشوة والعلاقات القبلية والدفع للمهربين ووسائل أخرى، عبر عبدان وخور مشهر والأهواز، أو فى مناطق أكثر بعداً نحو الشمال عبر ديزفول وكيرمن شاه، وإلى طهران من هناك، إما بواسطة الجو أو البر إلى تركيا ثم إلى تل أبيب.

كان شلومو هليل يقيم فى بغداد فى الفترة ٤٧ ـ ١٩٤٨ و ١٩٥٠م وفى طهران عام ١٩٤٩م. وفى عام ١٩٤٧م قام بالإعداد لاستخدام الأموال والطائرات والأشخاص، بما فى ذلك الطيارين المرتزقة الأوروبيين والأمريكيين، من أجل القيام بأول رحلات مباشرة من العراق إلى أماكن فى فلسطين مثل «بيت شين»، حيث كانت الرقابة

البريطانية متراخية أو غير موجودة. وفى الفترة ٤٩ - ١٩٥٠م انتحل شخصية استخباراتية جديدة وهى شخصية «تشارلز أرمسترونج» بشركة الشرق الأدنى للطيران وذلك كاسم حركى لعملية النقل التى يقوم بها.

## الصفقات والتلاعب والحوادث المؤسفة

فى كتابه «عملية بابل»، يصف هليل كيف قام «تشارلز أرمسترونج» بعمل صفقات ناجحة مع النظام العراقى فى عهد نورى السعيد من أجل ما أصبح جسراً جوياً شرعياً لنقل اليهود العراقيين طوال عامين إلى دولة إسرائيل. وبخلاف الأنظمة العربية الأخرى فى الشرق الأوسط، كان نورى، بموافقة الملك فيصل، يرغب فى سن قانون عبر البرلمان العراقى يسمح لليهود العراقيين بالهجرة بشكل قانونى إذا أرادوا ذلك - ولكن يتم حرمانهم بشكل تلقائى من جنسيتهم العراقية إذا فعلوا ذلك، كما يتم تجريدهم من معظم ممتلكاتهم وأعمالهم وأموالهم وأشياء أخرى. وقد انتهى هذا العرض فى مارس ١٩٥١.

تمنى مؤسسو إسرائيل «تجميع» ما يزيد على مائة ألف يهودى، الكثير منهم رفيعو الثقافة وذوو مهارات تحتاجها الدولة. ومع ذلك، فقد أدى الخروج اليهودى إلى إحباط آمال المؤسسين الإسرائيليين فى الحصول على مزيد من الثروة لدولة إسرائيل[٧].

وفى عام ١٩٥٠م بدأت العملية ككل فى التعثر. ففى مايو ١٩٤٨، بدأ الصراع بين العراق ودولة إسرائيل الوليدة. كان التحرك الأول هو إرسال نورى السعيد قوات عراقية للانضمام إلى القوات العربية الأخرى التى تقاتل الإسرائيليين غرب نهر الأردن، ومثل الحملات العراقية الأخرى ضد إسرائيل، سوف يتم الحديث عن ذلك بالتفصيل فى هذا الكتاب. وأدى القتال ضد إسرائيل إلى تفاقم وضع المجتمع اليهودى الباقى فى العراق، وتقلصت الهجرة السرية إلى فلسطين إلى الثلث.

نعيم جلعادى وهو يهودى ولد فى العراق، هاجر إلى الولايات المتحدة وأجرى لقاءً فى نيويورك مع جريدة تختص بشئون الشرق الأوسط هى جريدة «لينك»، عام ١٩٩٨م، وهو ينحدر من عائلة هارون، وهى إحدى أكبر العائلات وتنحدر ممن قاموا ببناء ضريح النبى حزقيال بالقرب من أطلال بابل. وقد عمل جلعادى لحساب الموساد

B فى الخلفية العراقية اليهودية. وفى عام ١٩٤٧م فى عمر الثامنة عشرة قبضت عليه الشرطة السرية العراقية بينما كان يقوم بمساعدة يهود عراقيين على الهجرة السرية. ومن أجل معرفة أسماء رفاقه الآخرين، قام الزبانية بخلع أظافره وتركوه عاريًا فى البرد القارص فى شهر يناير وألقوا على جسده الماء المثلج. بعد ذلك تم نقله إلى سجن أبو غريب بالقرب من بغداد، وهو السجن الذى قام رجال صدام حسين فيما بعد باستخدامه فى سجن وتعذيب وإعدام المساجين، واستولت عليه القوات الأمريكية فى ربيع ٢٠٠٣م واستخدمته كمعتقل. وقد تم أيضًا قهر وتعذيب رجال البعث السابقين ومؤيدى صدام وأسرى آخرين فى نفس السجن، الأمر الذى انكشف للعالم بأسره فى ربيع ٢٠٠٤م، وكان فضيحة مدوية.

تمت محاكمة جلعادى بواسطة محكمة عسكرية عراقية وكذلك الكثير من رفاقه. استاء نظام نورى السعيد والعديد من المواطنين العرب من الانتصارات الإسرائيلية وجهود وساطة الأمم المتحدة العقيمة فى فلسطين. وحينما حكم عليه بالإعدام، قام جلعادى بالإسراع فى الانتهاء من الخطط التى سبق أن قام بالإعداد لها قبيل محاكمته. قام بتسليح نفسه بالخبز لكى يصبح بدينًا حيث إنه عند إدانته يتم تعليق كرة من الحديد زنة ٥٠ رطلاً فى إحدى قدميه بواسطة سلسلة. وبمجرد أن أحيطت قدمه بالأصفاد، قام جلعادى بالدخول فى مرحلة التجويع لكى يصبح نحيفًا وتستطيع قدمه الانزلاق والهروب من القيد بعد دهنها بالزبدة التى خطط لسرقتها. وقام أحد أصدقائه بإحضار بعض ملابس الجيش - معطف أخضر طويل وكاب يخفى جزءًا من وجهه. وقام بالهرب من خلال الاختلاط بمجموعة من الجنود كانوا يغادرون السجن. وكان هناك صديق ينتظره بسيارة وقامت خلية يهودية سرية بتهريبه إلى إسرائيل التى وصل إليها فى مايو ١٩٥٠م.

مثل الكثير من المهاجرين الذين تم إجلاؤهم من العراق واليمن وبلدان عربية أخرى، فقد بدأ جلعادى بداية سيئة. فقد كان مسئول مكتب الهجرة غير قادر على نطق حرف «العين» فى اسمه وغيره إلى هالاسكى. وأدى ذلك إلى جعله يشبه أسماء اليهود الأشكيناز وهم اليهود من أصل أوروبى. وهذا الخطأ بيّن له كيف يعمل النظام فى المجتمع الإسرائيلى. وبما أنه يجيد الزراعة فقد أرسل إلى «دافناه» وهو كيبوتز زراعى فى أعالى الجليل. ويتذكر أن تكيف المهاجرين كان أسوأ الأشياء. وقد وجد

نفسه بعد ذلك فى أشكلون (التى لا تزال تحمل الاسم العربى المجدل). كان السكان العرب تحت سلطة الحاكم العسكرى الإسرائيلى. واكتشف رؤساء جلعاد الجدد إنه يتحدث العربية والعبرية ولذلك طلبوا منه أن يقوم بجعل المواطنين العرب يقومون بتوقيع «التماسات» إلى الأمم المتحدة من أجل نقلهم من إسرائيل إلى قطاع غزة. وهو يزعم أن السلطات الإسرائيلية كانت تمنع المزارعين المحليين من رى أشجار البرتقال أو رعايتها، وتقوم بأشياء أخرى للضغط عليهم حتى تجبرهم على الرحيل. وعلى ذلك رفض القيام بهذه المهمة.

**ويضيف قائلاً:**

«الفلسطينيون الذين رفضوا التوقيع لنقلهم تم نقلهم بالقوة ـ حيث وضعوا فى الشاحنات وألقى بهم فى غزة. وتم ترحيل ٤٠٠٠ مواطن عربى من المجدال بطريقة أو بأخرى. أما القليلون الذين بقوا فقد كانوا من المتعاونين مع السلطات الإسرائيلية.

وحينما تقدم جلعادى للحصول على وظيفة حكومية جديدة، اكتشف المسئولون عند لقائه أن وجهه لا يتماشى مع اسمه الأشكينازى. وعندما سألوه ما إذا كان يتحدث البولندية أو اليديشية، كان عليه أن يعترف بأنه لا يفعل. وفى النهاية قام بتغيير اسمه رسميّا إلى جلعادى. وحينما تقدم إلى الحزب الاجتماعى الصهيونى للعمل فى صحيفته العربية، تم إرساله إلى «إدارة اليهود القادمين من الدول العربية». علق على ذلك بالقول «إنه تمييز عنصرى، كما لو كانت إدارة للزنوج. ذهبت هنا وهناك ـ وفى ذلك العام نظمتُ مظاهرة فى أشكلون ضد سياسات بن جوريون العنصرية وحضرها عشرة آلاف شخص». وقد قام بالخدمة فى جيش الدفاع الإسرائيلى بعد حرب ١٩٦٧م فى سيناء، وخلال حرب الاستنزاف بعد عام ١٩٦٧م على حافة قناة السويس. وبعد وقف إطلاق النار عام ١٩٧٠م، قام جلعادى بتنظيم المظاهرات من أجل حصول اليهود العراقيين على حقوق متساوية، وكذلك المهاجرين «الشرقيين» أو «العرب» (السفارديم) الآخرين. وشبه الصراع الذى قاده، والذى أطلقت عليه السلطات الإسرائيلية اسم «الفهود السود»، بصراع «السود» فى الولايات المتحدة ضد التمييز والتفرقة العنصرية والمعاملة غير الكريمة. وبدلاً من أن يرفض هذا التشبيه «الفهد

الأسود»، قبله بكل فخر. وأضاف «إننى لدى صور مارتن لوثر كينج، ومالكولم أكس، ونيلسون مانديلا وزعماء الحقوق المدنية الآخرين على جدران غرفة مكتبى».

ويقول جلعادى إنه استاء من أحداث ١٩٨٢م، حينما قام آرييل شارون، وزير الدفاع فى ذلك الوقت، بقيادة الغزو الإسرائيلى للبنان من أجل سحق منظمة التحرير الفلسطينية. وقد وجدت لجنة تحقيق إسرائيلية أنه كان مسئولاً (على نحو غير مباشر) عن المذبحة التى قامت بها الميليشيات اللبنانية المسيحية لمئات الفلسطينيين فى معسكرات صبرا وشاتيلا خارج بيروت فى خريف ١٩٨٢م. قام جلعادى بعد ذلك بالهجرة إلى الولايات المتحدة: وقد تخلى عن جنسيته الإسرائيلية وحصل على الجنسية الأمريكية واستخدم حصيلة بيع منزله فى إسرائيل من أجل دفع تكاليف نشر كتابه "فضائح بن جوريون: كيف قامت الهاجاناه والموساد باقتلاع اليهود»، والذى يتحدث عن العنف الذى مارسته الخلايا السرية الصهيونية ضد اليهود فى العراق لإجبارهم على الهجرة. ومنذ عام ١٩٨٨م أقام جلعادى فى مدينة نيويورك مع أسرته. ويقول جون ماهونى، أحد محررى جريدة «لينك» بأن جلعادى قال له: «أنا عراقى، ولدت فى العراق، ثقافتى لا تزال عربية عراقية وديانتى يهودية وجنسيتى أمريكية»[٨].

## اليهود العرب الذين نجحوا فى الهجرة لإسرائيل

هناك روايات أخرى ليهود عراقيين وعرب آخرين اكتشفوا أنهم فى إسرائيل قد واجهوا أشكالاً مختلفة من التمييز الاجتماعى والوظيفى. ومع ذلك، فإن حالة الچنرال شاؤول موفاز تمثل الكثير من «اليهود العرب» الذين قرروا التكيف مع النظام ونجحوا فى الوصول إلى أعلى المناصب فى الدولة الإسرائيلية.

وموفاز هو مهاجر يهودى ولد فى العراق، ترقى فى جيش الدفاع الإسرائيلى حتى وصل إلى منصب وزير الدفاع فى حكومة آرييل شارون عام ٢٠٠٢م.

وحينما كنت أقيم فى الدار البيضاء بالمغرب، فى أواخر الخمسينيات وأوائل الستينيات، التقيت والشاب ديڤيد ليڤى، الذى ولد فى المغرب، وأصبح فى النهاية وزيرا للخارجية الإسرائيلية. وحينما التقيت به للمرة الأولى (فى عام ١٩٦٠م، على قدر ما أذكر)، لم يكن قد تجاوز العشرين من العمر. كان مترجمًا قديرًا وصديقًا حميمًا

لشاب مسلم ينتمى لعائلة تجار يدعى العربى. وحينما هاجر ليفى إلى إسرائيل للمرة الأولى بدا محبطًا للغاية بسبب الظروف القاسية التى واجهها اليهود العرب من أمثال جلعاد مما دفعه إلى العودة إلى المغرب. ولكنه عاد إلى إسرائيل وشق طريقه فى عالم البناء بادئًا من القاع. وقد خاض عالم السياسة وأصبح عضواً فى الكنيست وفى النهاية أصبح وزيراً للخارجية. وفى عام ٢٠٠٣م وأوائل عام ٢٠٠٤م قام بالعمل فى لجنة للكنيست تقوم بالتحقيق فى قيام الاستخبارات الإسرائيلية بالمبالغة فى تقدير أسلحة الدمار الشامل العراقية وأغفلت القيام بذلك بالنسبة لليبيا، والتى أعلن عنها معمر القذافى للأمريكيين.

وقد قام الدكتور يهودا شنهاف، الحاصل على شهادات علمية وخبرة عملية من جامعات إسرائيلية وأمريكية بالكتابة عن مشكلة اليهود السفارديم فى إسرائيل وخاصة العراقيين. وفى كتابه «اليهود العرب: القومية والدين والعرق (باللغة العبرية والذى نشرته دار نشر أم عوفيد، تل أبيب) ربط بين معاملة المزراحيم، وهو المصطلح الإسرائيلى لليهود الذين ولدوا فى العراق والدول العربية الأخرى، بمعاملة العرب الفلسطينيين.

ولد الدكتور شنهاف فى بيتاح تيكفاح، بالقرب من تل أبيب، عام ١٩٥٢م باسم يهودا شبانى. وصلت والدته، إسپارانت معلم والتى تنحدر من عائلة عراقية ثرية، إلى إسرائيل فى عمر الثامنة عشرة قادمة من بغداد. كانت ووالداها جزءاً من الخروج المنظم لليهود بواسطة عملية عزرا ونحميا التى أحضرت ١٢٠ ألف يهودى عراقى إلى إسرائيل فيما بين مارس ١٩٥٠ ويوليو ١٩٥١م. وفى معسكر استقبال المهاجرين فى شعار ألياح ومعسكر الانتقال للمهاجرين الجدد، التقت إسپارانت وإلياهو شاهاربرانى. وقد تزوجا عام ١٩٥١م. ومثل العديد من اليهود العراقيين، ظلا فى أول الأمر على هامش المجتمع الأشكينازى فى إسرائيل، حيث أقاما فى إحدى قواعد استخبارات الجيش فى بير سبع.

وكان صلاح شنهاف، والد يهودا، واحدًا من أكثر التجار العراقيين حركة، حيث كان قادراً على التحرك بشكل منتظم بين العراق وفلسطين فى الثلاثينيات. وخلال إحدى زياراته قام بشراء قطعة من الأرض فى بتاح تيكفاح. واستقر شلومو، ابنهما

الأكبر فى فلسطين وأصبح من كبار رجال لصناعة. فى عام ١٩٤٦م، حينما كان بن جوريون والرعاة الآخرون لليشوف يبدأون التخطيط لـ«التجميع» لليهود العرب، قام بالانضمام إلى كيبوتز ألونيم وأصبح عضواً فى جماعة من اليهود ذوى أصل عراقى يبلغ عددها ٤٠ شخصًا تسمى جماعة بابل. وأصبح والد الدكتور شنهاف مستوطناً فى كيبوتز بيرى فى غرب صحراء النقب. وقد أنشأت هذا الكيبوتز على أنقاض قرية عربية.

وترك والد يهودا الكيبوتز للانضمام إلى الهاجاناه، جيش إسرائيل قبل إنشاء الدولة. ومع حلول عام ١٩٥٠م، ودون أن يخبر ابنه، تم تجنيده فى «أمان»، الاسم العبرى للاستخبارات العسكرية الإسرائيلية. وفى أحد الأيام تقابل رجل عجوز ذو لكنة عراقية ثقيلة مع إلياهو بن شنهاف فى إحدى مقاهى تل أبيب وعرفه بنفسه على أنه من جند جده فى مجتمع الاستخبارات الإسرائيلى. وحينما أعطى لإلياهو صورتين لوالده مع شباب آخرين فى العشرينيات، أدرك شنهاف أنهم جميعًا مزراحيم، يهود عرب. وقال شنهاف إنه تعرف على والده فى الصور «من خلال شعره الطويل المنسدل». (أضاف شنهاف أنه ذكره بشخصية كرامر فى العرض التليفزيونى الشهير سينفيلد).

وبعد خدمة الاستخبارات العسكرية الإسرائيلية فى كثير من المهام بالخارج، عمل إلياهو كحارس أمن فى سوبر ماركت. والأمر المثير للتهكم أنه لقى مصرعه فى الثانية والستين من عمره ـ بسبب سقوط أحد صواريخ السكود التسعة والعشرين التى أطلقها الديكتاتور العراقى صدام حسين خلال حرب الخليج عام ١٩٩١م.

وبعد سنواته الأولى فى إدارة الأعمال بالجامعة، بدأ الدكتور شنهاف السعى نحو منزلة أكثر رقيّا فى المجتمع الإسرائيلى. وقد فجَّر مناقشات ساخنة فى إسرائيل من خلال مقاله الذى نشر فى مجلة «هاآرتس» فى ديسمبر ١٩٩٦م، وأطلق عليه «مؤامرة الصمت» حيث زعم فيه أن اليسار السياسى فى إسرائيل، فى غمرة انغماسه فى المشاكل المأساوية للفلسطينيين، تجاهل أو أغفل ما اعتبره «مشاكل المزراحيم» الخطيرة، اليهود العرب؛ لأن اليسار لم يتعامل معهم على النحو الملائم أو يتركهم يشقون طريقه.

وهناك مقال آخر لشنهاف، يتمحور حول العداء الإسرائيلى - العراقى، ظهر فى نفس المجلة فى أبريل ١٩٩٨، وكان عنوانه «جريمة السرقة الكاملة». وشن شنهاف هجوماً حاداً على المؤسسة الإسرائيلية بسبب «الاحتيال» على اليهود المولودين فى العراق واستخدام ممتلكاتهم المصادرة أو المجمدة فى بغداد كذريعة (وفى عام ٢٠٠٣ بعد الاحتلال الأمريكى، الذى كان موضوعاً لمئات الدعاوى اليهودية ضد الدولة العراقية) للهروب من مسئولية تعويض الفلسطينيين الذين أصبحوا لاجئين بسبب الصراع العربى الإسرائيلى عام ١٩٤٨. (فى عام ١٩٤٩، طلب من إسرائيل - المنتصرة فى الصراع - التوقيع على پروتوكولات لوزان، التى تلزمها بدفع تعويض إلى اللاجئين الفلسطينيين قبل قبولها فى الأمم المتحدة).

وفى عام ٢٠٠٣، اكتشف شنهاف أن المجتمع الإسرائيلى مجتمع فى مضيق حزن؛ لأنه كان يمكن أن يكون الجنة الموعودة. فقد تراكمت كل أنواع الفوبيا (المخاوف والهلع) الممكنة، من معاداة السامية إلى الشذوذ، وبشأن الفلسطينيين، وبشأن المزراحيم. وبدلاً من أن يكون السياسيون المزراحيم، فى الأحزاب، حساسين لهذه القضايا وقضايا المعاناة والعدالة الاجتماعية، فقد أصبحوا هم أنفسهم من يمارسون الظلم والاضطهاد. وبالنسبة لحزب الليكود الحاكم بقيادة أريل شارون، كان له الطلقة الأخيرة: الآن ضمن كل الأزمنة، فإن المعاملة السيئة للطبقات المستضعفة [والتى من بينها المزراحيم] والذين يصوتون لصالح الليكود، تأتى من الليكود نفسه(٩).

## من الذى يمارس الإرهاب؟

إن القصة الأكثر شيوعاً والأكثر مثاراً للخلاف والجدل ضمن العديد من روايات الخروج اليهودى من العراق فى الفترة ٤٩ - ١٩٥٢ هى - إذا كنت تؤمن بالروايات المنشورة فى إسرائيل، أو الأسطورة، إذا كنت تؤمن بنتائج تحقيق الحكومة الإسرائيلية الذى أمر به ديڤيد بن جوريون - قصة التفجيرات الإرهابية، التى وقع معظمها فى المجتمع اليهودى فى بغداد، خلال فترة الهجرة. وروايات شهود العيان من اليهود تزعم أن هذه التفجيرات قام بها عملاء سريون إسرائيليون من أجل الإسراع بالترحيل

القانونى لليهود. ومع ذلك إذا كنت تصدق نتائج التحقيق الإسرائيلى الرسمى والمنطق الإسرائيلى الرسمى السائد ـ فإن هذه الأعمال الإرهابية كانت من تدبير مسئولين عراقيين.

إحدى القصص رواها نعيم جلعادى فى الولايات المتحدة. والتقارير التى جاء بها وآخرون فى مجلة «الفهد الأسود» التى تصدر بالعبرية، وفى كتب نقاد آخرين لإسرائيل مثل الرباى الأمريكى الراحل إلمر بيرجر تتفق فى الأسماء والتواريخ، إن لم يكن الأفعال مع ما رواه موردخاى بن پورات. قام الموساد B بإرسال بن پورات، وهو يهودى عراقى إلى العراق مرة أخرى لمراقبة العملية. إن الفرق الأساسى بين الروايتين لا يقع فى الحقائق الخاصة بالتفجيرات فى حد ذاتها ولكن فى السؤال القائل: مَنْ هم المذنبون؟

فى التاسع عشر من مارس ١٩٥٠، أدى انفجار قنبلة إلى إحداث خسائر مادية وجرح العديد من الأشخاص فى المركز الثقافى الأمريكى ومكتبته فى بغداد.

وكان ذلك مكاناً مفضلاً للشباب وخاصة الطلاب وللكثير من اليهود. وفى الثامن من أبريل ١٩٥٠، اليوم الأخير من عيد الفصح اليهودى، حدث أول هجوم إرهابى موجه بشكل خاص إلى اليهود. فقد قامت سيارة بها ثلاثة ركاب من الشباب بإلقاء قنبلة يدوية على «الدار البيضاء» فى شارع أبو نواس فى بغداد. كان هناك الكثير من اليهود يتنزهون على ضفاف نهر دجلة احتفالاً بالعيد اليهودى تبعًا للتقليد القديم المسمى «أغنية البحر» وتجمعوا بعد ذلك فى المقهى. وتبعًا لروايات «الفهد الأسود» لم يصب أحد. ومع ذلك قد أكد بن پورات على إصابة ستة يهود، أحدهم كانت حالته حرجة. وقد أرسل برقية بذلك إلى تل أبيب ذكر فيها أنه «كانت هناك استفزازات أخرى وإلقاء للحجارة على مواطنين يهود فى أماكن مختلفة من العاصمة»[١٠]. وفى تلك الليلة واليوم التالى تم توزيع منشورات فى الأحياء اليهودية تطلب من اليهود مغادرة العراق على الفور. وقد خضع الكثير من اليهود لذلك ولمخاوفهم الخاصة من خلال التدفق على مكاتب الهجرة، المقامة فى المدارس والمعابد، لملء طلبات التنازل عن جنسيتهم العراقية وترك العراق. كان الأمل يحدو الجمع الغفير، وخاصة من

اليهود العراقيين الفقراء الذين ليس لديهم ما يخسرونه، فى أن يحيوا حياة أفضل فى إسرائيل وزاد العدد لدرجة أن السلطات العراقية اضطرت إلى إنشاء مراكز تسجيل جديدة[١١].

فى ١٠ مايو، ١٩٥٠م، فى الساعة الثالثة بعد منتصف الليل، ألقيت قنبلة يدوية على نافذة عرض سيارات شركة «بيت لاوى» أحدثت خسائر فى المبنى وليس فى الأفراد.

وفى ٣ يونيه، ١٩٥٠م، ألقى أحدهم قنبلة أخرى من سيارة مسرعة فى منطقة التباوين ذات السوق اليهودى، والسكان اليهود الأثرياء والطبقة المتوسطة من المسلمين، وأيضًا لم يُصب أحد. سأل نشطاء التهجير الصهاينة تل أبيب أن ترفع حصة اليهود العراقيين فى الهجرة.

وفى ٥ يونيه، انفجرت قنبلة بجوار مبنى يهودى فى شارع الرشيد بوسط بغداد (حيث شن الإرهابيون كثيراً من هجماتهم على القوات الأمريكية عام ٢٠٠٣م)، وحدثت خسائر فى الممتلكات، ولا خسائر بشرية[١٢].

آمن معظم أعضاء المجتمع اليهودى فى بغداد أن المتطرفين العراقيين، الذين هم غالباً من المسلمين، يرغبون فى قتلهم أو طردهم من أجل مصادرة ممتلكاتهم وأموالهم. وقد اعترفت حكومة نورى السعيد بحقهم فى الهجرة. وقد ظهر ضباط الشرطة العراقيين فى المعابد ساعين إلى إقناع اليهود بملء الاستمارات الخاصة بالهجرة. كان بعض اليهود مترددين، معتقدين بأن العملية بأكملها مجرد مصيدة من أجل كشف الصهاينة بينهم. فقد كانت الصهيونية، تبعاً للقانون العراقى، جريمة خطيرة[١٣].

كانت من أوسع الروايات الخاصة بالتفجيرات انتشاراً، بما فى ذلك الرواية الرسمية الخاصة بموردخاى بن پورات، تلك التى تتصل بمعبد «مسعودا شيمتوف» فى بغداد وكان نقطة تجميع أساسية للمهاجرين. فقد أشار بن پورات إلى أن المهاجرين كانوا يقومون بالإجراءات النهائية هناك. فكانوا يملأون طلبات الرحيل ويستعدون للنقل إلى المطار والرحلات التى تغادر إلى نيقوسيا، وفى بعض الأحيان تتجه مباشرة إلى تل أبيب. وكان الطابق الأول من المعبد يحتوى على قاعات ومكاتب وكان الموظفون

يجلسون فى الطابق الثانى . وكان هناك فناء يحيط بالمعبد مكتظ بالناس من اليهود والعراقيين المتصلين بالعملية، أو الذين لديهم محال قريبة .

وفى مساء الرابع عشر من يناير ١٩٥١ ، كان المعبد مكتظًا باليهود الأكراد من السليمانية . وكانت ليا كوهين، تقف بالقرب من الحافلة التى كانت على وشك نقل المهاجرين إلى مطار بغداد، تمسك بيدها طفلها أيلى البالغ من العمر خمسة أعوام، عندما ألقيت قنبلة يدوية . قامت بالتوجه إلى طبيب مسلم حيث قام بإزالة شظية من يد الطفل النازفة، وقتل ثلاثة أشخاص بسبب القنبلة، وهما طفلان يدعيان ساسون إسحاق وصالح شابا ورجل يدعى موشيه باغنو . أصيب ستة أشخاص إصابات خطيرة وجرح تسعة عشر جروحًا طفيفة . ويؤكد بن پورات أنه عندما انفجرت القنبلة، كان فى منزل فلورا حاييم شاماش. وهما والدا إيتان شاماش، أحد المنظمين الرواد لحملة الهجرة . وقد هرع بن پورات إلى المعبد حيث أخطر رئيس الجمعية العامة لشئون الهجرة، ساسون عابد . وقام موشيه باغنو، قبل أن يموت، بالقول بأنه شاهد «مسلمًا يرتدى الكاكى» ألقى قنبلة يدوية من شرفة أحد المنازل المواجهة للمعبد .

بعد ذلك، اجتاح الرعب يهود بغداد ظنًا منهم أن هناك تنظيمًا مناوئًا لليهود يخطط لإيذائهم أو اغتيالهم وأن كل من باستطاعته الإفلات عليه أن يهرب بجلده فى الحال . واصطفت الطوابير عند معبد عزرا داود، الذى كان نقطة تسجيل أخرى لمن يرغب فى الرحيل . وقبل انقضاء الليلة الأخيرة من انتهاء المهلة القانونية التى قدمتها الحكومة العراقية للرحيل (فى ١٩ مارس ١٩٥١م) كان هناك بعض المسافرين الموسرين يدفعون ما يوازى ٢٠٠ جنيه استرلينى، وهو مبلغ ضخم بمعايير تلك الأيام، لضمان وجود أسمائهم على القائمة «القانونية» . وقبل نهاية مارس، أصدر البرلمان العراقى قانونًا ينص على مصادرة كل ممتلكات اليهود الذين تخلوا عن جنسيتهم . وتم تحديد أقصى مبلغ يمكن حمله خارج البلاد بمقدار ٧٠ جنيه استرلينى . وتصاعد عدد رحلات الخروج إلى ثلاث أو أربع رحلات فى اليوم . وفى أول الأمر، كان يجب أن يقوم ضابط شرطة عراقى بمصاحبة كل رحلة إلى مطار نيقوسيا فى قبرص . ويصف بن پورات، كيف كان يجب على الضابط الانتظار حتى يرى الطائرة وهى تقلع إلى مطار اللد فى تل أبيب (الذى أصبح الآن يعرف باسم مطار بن جوريون) حيث كان يُمنح «جولة سياحية

كبرى» فى قبرص أو يستمتع بوقته فى أحد المقاهى أو المطاعم حتى يرحل المسافرون إلى إسرائيل، فى بعض الأحيان فى طائرة تختلف عن التى جاءوا فيها.

وبعد ذلك يعود إلى بغداد على نفس الطائرة أو على طائرة أخرى. وكما يشير ديڤيد هيرست «إن إجمالى من غادروا ديارهم وممتلكاتهم وتراثهم القديم ضمن ١٣٠ ألف يهودى عراقى، على مدى فترة طويلة، كان فقط ٥٠٠٠ عراقى يهودى»[١٤].

ولم يمض وقت طويل حتى بدأت الاتهامات بشأن المسئولين عن الحملة الإرهابية. ويدعى جيلعادى وآخرون أن الهجمات كانت من تدبير عملاء الموساد B الذين يعملون فى الخفاء وما كان يطلق عليها «حركة» تشجيع الهجرة وتثبيط عزيمة أولئك اليهود الذين أرادوا البقاء فى العراق. وقد أخبر أحد الفلسطينيين الذى كان يعمل كبائع فى أحد متاجر بغداد الكبرى ويسمى «أوروذى بيك» الشرطة بأنه شاهد شخصًا يدعى يهودا تاچار، سبق أن شاهده فى أحد مقاهى عكا.

وقامت الشرطة بالقبض على تاچار، الذى اعترف بهويته وادعى أنه جاء إلى بغداد للزواج من حبيبته اليهودية. وقدم للشرطة أسماء إسرائيليين آخرين تم القبض عليهم جميعًا وبلغ عددهم ١٥ شخصًا. كان أحدهم يدعى شالوم صالح الذى زُعم أنه قام بالتخطيط للتمويل السرى لسلاح الهاجاناه من أموال بالعراق، ويقال بأنه أرشد الشرطة إلى هذه الأموال والتى يعود بعضها إلى الحرب العالمية الثانية. وخلال المحاكمة العراقية التى أجريت لمن تم القبض عليهم، ادعى ممثل الادعاء بأنهم عملاء صهاينة يقومون بعمليات سرية لارهاب اليهود وحملهم على مغادرة العراق بأسرع وقت ممكن.

وقام تاچار بالتحول إلى شاهد ملك ضد زملائه اليهود وعوقب بالسجن مدى الحياة، حيث أطلق سراحه بعد أن قضى عشرة أعوام بالسجن. وفى ٢٩ مارس ١٩٦٦م، نشرت الصحيفة الإسرائيلية اليسارية المسماة «هاعولام هازيب» ما اعتبر القصة الكاملة للخروج اليهودى بناءً على ما رواه تاچار. وفى يوم التاسع من نوڤمبر ١٩٧٢م، نشرت مجلة «الفهد الإسود» روايات تفصيلية أخرى لهذه الأحداث، تشتمل على المحاكمة، وذلك بناءً على شهادة اثنين من شهود الوقائع عاصرا الأحداث فى بغداد فى ذلك الزمان. وكان أحد هؤلاء من ضحايا القنبلة التى ألقيت على معبد

شيمتوف ويدعى قدورى سالم. وحينما وصل إلى إسرائيل حاول دون جدوى الحصول على تعويض عما أصابه من الدولة الإسرائيلية، وذلك مستشهداً بقرار المحكمة العراقية القائل بأن «الحركة» هى من قامت بإلقاء القنبلة. وهناك رواية أخرى، رواها محام من أصل عراقى، وصفت الآراء المتعارضة لقاضيين عراقيين من جنوب وشمال بغداد، قاما فى أول الأمر بالإفراج عن العديد من اليهود العراقيين المشتبه بهم بعد التفجيرات الأولى، ثم بعد ذلك تم الضغط حتى استجابا لضغوط الشرطة والادعاء، وفى النهاية أدانا المشتبه بهم الآخرين بالحكم عليهم بالإعدام(١٥).

وتبعًا لموردخاى بن پورات، فإن التفجيرات بعد هجوم المعبد استمرت فى مواقع أخرى: فى مركز المعلومات الأمريكية فى مارس ١٩٥١ (بينما قالت رواية «الفهد الأسود» إنها كانت فى مارس ١٩٥١»). وفى يوم ٦ يونيه تم وضع خطاب مفخخ فى منزل محام يهودى هو جمال بابان، وفى ١٩ أغسطس فى مكتب صحيفة اليقظة بالبصرة.

ويعترف بن پورات بمدى شيوع وانتشار الرأى القائل بأن أولئك اليهود الذين اتهموا وأدينوا كانوا فى الواقع مذنبين بارتكاب الهجمات، وأن حتى ديڤيد بن جوريون رئيس الوزراء اليهودى آمن بذلك لردح من الزمان، وهذا هو سبب إصدار أوامره بالقيام بتحقيق رسمى. ومع ذلك، يرى بن پورات أن اليهود العراقيين كانوا، على أية حال، يغادرون العراق بأعداد كبيرة، قبل أن تصرح السلطات الرسمية فى العراق بخروجهم، هربًا من خطر داهم يتهددهم. وقام الكثير من أولئك اليهود بالاتصال بحركة «هالوتز» السرية للمساعدة فى الرحيل، حيث كان يجب على طالب الهجرة الانتظار لمدة عامين، كما يقول بن پورات. ويقدر أن حوالى ١٢ ألف يهودى عراقى هربوا عبر إيران وحدها وهم يمثلون حوالى ١٠٪ من المجتمع اليهودى العراقى. وفى ملحق كتابه المسمى «إلى بغداد ثم العودة»، يرفق بن پورات الوثائق التى تتصل بالتحقيق الرسمى الذى برأ ساحة اليهود (أو دحض حجة المناوئين المتشككين).

وهناك سلسلة من الخطابات والشهادات، مرفقة بالنتائج الرسمية الإسرائيلية، يبدو أنها تبين أن اليهود الثلاثة الذين أعدموا كانوا أبرياء وليست لهم أية صلة بالموضوع وأن الهجمات كانت من صنع يد الحكومة العراقية. وعلى الرغم من أن معظم من يسجل

هذه الأحداث كانوا صغار السن، حيث لم يكن باستطاعتهم رؤية الخروج اليهودى رأى العين، فإن الأمر حى فى الضمير اليهودى نتيجة سقوط صدام حسين. وهناك عدد ضخم من دعاوى الملكية الى أقيمت ضد الدولة العراقية بعد سقوط صدام من قبل يهود مهاجرين. وقد سعى بعضهم إلى استعادة أو حيازة عقارات أو أعمال فى الدولة العراقية «الديمقراطية» المقبلة، وفى ربيع عام ٢٠٠٤م أصبحت وزارة العدل العراقية تمنحهم أذنًا صاغية. وهذه الدعاوى تتصل على نحو وثيق فى بعض أذهان الإسرائيليين بالقضية المتفجرة الخاصة «بالتطبيع» المستقبلى للعلاقات مع إسرائيل. إن الكيفية التى أصبحت بها هذه العلاقات حالة دائمة من الحرب منذ عام ١٩٤٨م فصاعداً هو موضوعنا القادم.

***



# الفصل الرابع

# العراق يدخل الساحة الفلسطينية



**إن من يعمل من أجل السلام فى الشرق الأوسط سوف يقع بين شقى رحى.**

**(دين راسك وزير الخارجية الأمريكية الأسبق)**

جاء أول انخراط للعراق فى سلسلة طويلة من الصراعات العربية الإسرائيلية المسلحة، من أجل فلسطين، والذى استمر حتى هذا اليوم، متزامناً مع خروج اليهود من العراق.

كان قدر الحرب العالمية الثانية وما تلاها حتى نشوب الحرب العربية الإسرائيلية عام ١٩٤٨ التى شهدت ميلاد المخابرات الإسرائيلية وخدماتها الأمنية، أن تحمل على عاتقها تبعة المواجهات المستقبلية مع العراق والدول العربية الأخرى. وتعود جذور الصراع إلى المقاومة السرية اليهودية للحكم البريطانى بالإضافة إلى أنشطة تهجير اليهود من الدول العربية. وقد أدرك مؤسسو الصهيونية أنه قبل إقامة دولة، يتعين عليهم الانضمام للحلفاء فى الحرب العالمية الثانية ضد النازية عدوهم المشترك. فقد عقد هتلر العزم على استئصال شأفة اليهود من كل أنحاء أوروپا. وعلى ذلك سعى الحلفاء إلى الحصول على مساعدة العرب فى الشرق الأوسط من أجل إلحاق الهزيمة به.

وقامت الوكالة اليهودية بفلسطين، التى تأسست عام ١٩٢٩، بتنسيق عمليات تهجير واستيطان اليهود، اليشوف، فى منطقة الانتداب. وقام القسم السياسى بمراقبة حذرة للمجتمعات والدول العربية داخل فلسطين وخارجها. وكانت ميليشيات الهاجاناه، التى كانت تمثل إرهاصاً لقيام جيش الدفاع الإسرائيلى بعد ١٩٤٨، وثيقة الصلة بمكتب العمل فى الهستدروت. فكانت تعمل عبر الأراضى الفلسطينية مع

عملائها السريين ومخبريها. إلا أن «الخبراء» العرب فى الوكالة اليهودية فشلوا تمامًا فى التنبؤ بانفجار التمرد العربى المعادى لليهود والمعادى للبريطانيين فى يافا والناجم عن إضرابات العمال العرب عام ١٩٣٥، لتكون النتيجة ثورة عربية شاملة بين عامى ١٩٣٦ ـ ١٩٣٩. واختار قادة اليشوف أفرادًا من اليهود وثيقى الصلة بالمجتمع العربى، للإبلاغ عن أنشطة العرب ونواياهم. أحدهم قدم ميزة انتمائه للشرطة البريطانية فى تل أبيب. وكان الآخر من حيفا وهو عالم الآثار إيمانويل ويلسنسكى، الذى حاول أن ينظم أنشطة المخابرات الإسرائيلية على أساس «علمى». وتمت الاستعانة بالمخبرين العرب، والذين كانوا فى معظمهم عملاء مأجورين ولكن ليس على نحو نظامى، ولكنهم كانت لديهم العديد من الخلافات مع مواطنيهم العرب حول العقارات وأمور أخرى.

فى كتابهما الذى يؤرخ للمخابرات الإسرائيلية، الحروب السرية لإسرائيل، يقوم إيان بلاك وبينى موريس بتعريف الشخصيات الرئيسة التى شاركت فى العمليات فى حرب ١٩٣٦ ـ ١٩٣٩ مع العرب. من بين هؤلاء روفين زاسلانى وكان يعمل مدرساً ودارساً للعبرية والعربية، وكان نشيطاً وقوياً متفرغاً للعمل فى المخابرات التى تولى إدارتها عام ١٩٣٧ لمصلحة الهاجاناه، وقد ولد فى القدس لحاخام روسى. وكان شديد التكتم والحذر لدرجة أن أطلق عليه تيدى كولك، أحد الرواد المؤسسين لإسرائيل والذى شغل منصب عمدة القدس وتذكرته الناس لفترة طويلة، مزحة تقول إن أحد سائقى سيارة الأجرة سأله أين تريد الذهاب، فأجابه زاسلانى قائلاً «لا داعى لأن تعرف»[١].

كوَّن زاسلانى مع أشخاص آخرين على شاكلته فريقاً قوياً حاول العمل مع المخابرات البريطانية ضد الحركات العربية. وفى أوائل عام ١٩٣٩، أعد الجيش البريطانى العدة لقتل قائد الثورة العربية عبد الرحيم حاج محمد وأسرع الكثير من المقاتلين العرب بالهرب إلى سوريا، وخفت حدة الثورة مع الانقسام الحاد للمجتمع الفلسطينى. وقضى الكتاب الأبيض، الذى أصدرته الحكومة البريطانية عام ١٩٣٩، على آمال التقسيم التى طرحتها لجنة پيل فى صيف ١٩٣٨، وهى مجموعة بريطانية ـ يهودية ـ عربية. وقد أحبط الكتاب الأبيض زعماء الصهيونية عندما حظر بيع الأرض

لليهود ووضع تصوراً لإنشاء دولة فلسطينية مستقلة فى غضون عشرة أعوام. وسرعان ما قيد البريطانيون أنشطة الهاجاناه وحاصروا عملاءها.

## جذور الاستخبارات الإسرائيلية

كانت إحدى المنظمات اليمينية المسلحة التى عارضت الهاجاناه تدعى إرجون زڤاى لومى أو المنظمة العسكرية الوطنية (IZL) وقد أسسها إبراهام تيهومى عام ١٩٣١ ولكنها انقسمت على نفسها فى عام ١٩٣٧ بسبب اعتراض أحد قادتها، وهو المنظر اليهودى زائيف چابوتنسكى، على الانتقام بلا تمييز من العرب. وأدى انقسام المنظمة إلى تأسيس جماعة إرهابية سرية جديدة وهى جماعة «المقاتلون من أجل حرية إسرائيل أو ليحى» واشتهرت باسم «عصابة شتيرن» نسبة إلى زعيمها إبراهام شتيرن. كوّن شتيرن جماعة سرية معادية للبريطانيين، تثير وتحرض على العنف والأعمال الإرهابية، مثل التفجير وإطلاق النار وأسر الجنود البريطانيين وإعدامهم. وفى عام ١٩٤٤، قام مناحم بيجن ـ الزعيم الصهيونى الذى وقع عام ١٩٧٩ كرئيس للوزراء اتفاقية سلام مع الرئيس المصرى أنور السادات ـ بإعادة تشكيل إرجون. وسريعًا ما نافست عصابة شتيرن فى عنفها. وأعلنت جماعة بن جوريون الحرب على إرجون وكاد الأمر يتحول إلى حرب أهلية. وتأزم الموقف عندما قام مسلحو ليحى باغتيال اللورد موين، المندوب السامى للشرق الأوسط، بالقاهرة[٢].

وفى غمرة انغماس بريطانيا فى الحرب عام ١٩٤٠، أعدت الهاجاناه قسم استخبارات يدعى (ريجول نجدى)، كانت وظيفته الأساسية مراقبة اليهود المتعاونين مع المحتلين البريطانيين والناشطين من إرجون. وفى الفترة المتلاطمة الأحداث من يونيه ١٩٤٠ حتى مارس ١٩٤٢، التى شملت دراما رشيد على حيث اندفعت القوات البريطانية إلى العراق لإحباط خطط المحور هناك، أقام موشيه شرتوك (الذى سمى بعد ذلك موشيه شاريت) وآخرون أول جهاز استخبارات يهودى على مستوى الدولة، تحت سمع وبصر السلطات البريطانية. وأطلق عليه بالعبرية اسم شيروت يديعوت، أو (شاى)، وكان مقره فى تل أبيب متخفياً وراء لجنة إعانة الجنود اليهود فى الجيش البريطانى. وضم جهاز الاستخبارات قسماً «داخلياً» لمكافحة التجسس يتعامل مع الشئون اليهودية، وقسماً بريطانياً أو «سياسياً» مختصاً بالتسلل إلى المنشآت البريطانية

العسكرية والحكومية، وقسمًا عربيًا رأسه متخصصون فى اللغة العربية. كما كان يقوم الجهاز بشراء الأسلحة الألمانية والإيطالية التى كان يتم الاستيلاء عليها بواسطة القوات الأسترالية، التى كانت تقاتل قوات المحور بقيادة الچنرال روميل فى شمال أفريقيا، عند تهريبها إلى فلسطين. وتم حشد السلاح من أجل ما أدرك الزعماء الصهاينة أنه سيكون معركة فاصلة مع العرب. وانتقل جهاز الاستخبارات الإسرائيلى تدريجيًا إلى مقار أكثر استقراراً فى تل أبيب. وتحت قيادة شاب قوى يدعى إيسر هالپيرين (أطلق عليه فيما بعد هاريل، حيث تولى بعد ذلك رئاسة جهاز الموساد الإسرائيلى بعد الاستقلال فى الخمسينيات)، جمع الجهاز معلومات فى ملفات اشتملت على أسماء آلاف العرب.

بعد أن سقطت فرنسا فى قبضة النازى عام ١٩٤٠، بدأت القيادة الصهيونية وجهاز الاستخبارات (شاى) التعاون مع قوات الحلفاء من أجل اكتساب الخبرة العملية فى عمليات خارج فلسطين. وإلى جانب القيام بعملية «عزرا ونحميا» لإخراج اليهود العراقيين، تعاونت الهاجاناه مع بريطانيا وقوات فرنسا الحرة لغزو سوريا ولبنان اللتين كان يسيطر عليهما نظام فيشى العميل للنازى وذلك فى يونيه ١٩٤١. وشمل ذلك التعاون عمليات تخريب معامل تكرير البترول فى ميناء طرابلس شمالى لبنان لمنع توفير الوقود لطائرات سلاح الجو الألمانى «لوفتواف»، والتى كانت تنطلق من أراضى سوريا التى تسيطر عليها فرنسا وذلك بعد سقوطها فى يد النازى. وعلى ذلك، شرع الألمان فى مساعدة رشيد على للقيام بانقلابه فى مايو ١٩٤١ فى بغداد. وأثناء إحدى عمليات الاستطلاع المشتركة مع قوات الحلفاء للمواقع التى يسيطر عليها نظام فيشى العميل جنوبى لبنان، فقد ضابط شاب من الهاجاناه يدعى الكابتن موشيه ديان عينه اليُسرى عندما أطلقت القوات السنغالية [التابعة لفرنسا] النار على نظارته المعظمة، فأصبحت عصابة العين التى وضعها طوال حياته رمزاً للمقاتل وعالم الآثار، وقائد القوات العسكرية الإسرائيلية فى الحروب التالية.

وفى أثناء هجوم الحلفاء لتحرير سوريا ولبنان من سيطرة فرنسا فيشى والنفوذ الألمانى، نشرت الهاجاناه وحدة عسكرية واستخباراتية جديدة عرفت باسم پلوجوت ماهاتز (السرايا الضاربة أو الپالماخ؛ وعرفت أيضًا باسم الپالما)، وضمت وحدة بارزة أطلق عليها الفصيلة السورية. وكان معظم أعضائها من المزراحيم أو اليهود العرب

الذين يجيدون أو تعلموا اللهجات العربية المحلية السورية واللبنانية مثلما كان اليهود العراقيون يعرفون اللغة العربية باللهجة العراقية ويستخدمونها .

بعد هزيمة فيالق أفريقيا بقيادة روميل فى موقعة العلمين فى صيف عام ١٩٤٢ ، قامت منظمة تنفيذ العمليات الخاصة (SOE) بتدريب حوالى مائة من عملاء البالماخ . وقاد موشيه ديان المتدربين اليهود الذين استفادوا من مهارات العملاء الذين تعاونوا مع الضابط البريطانى المناصر للصهيونية أورد وينجات ، المعروف لدى اليشوف والذى نال ثقتهم بسبب الأعمال البارزة التى قام بها من خلال «الفرق الليلية الخاصة» ضد العرب فى فلسطين فى الثلاثينيات .

وبحلول عام ١٩٤٣ ، بدأت الخلافات تدب بين البريطانيين والصهاينة حلفائهم المؤقتين . فقد بدأت فرق البالماخ فى سرقة أسلحة البريطانيين . وقد أصبحت سوريا ولبنان فى قبضة الحلفاء القوية ، وعلى ذلك أنشأت البالماخ فصيلتهم العربية لخدمة مصالحهم فى مايو عام ١٩٤٣ ، كما أعدوا فصيلة ألمانية تضم اليهود الناطقين بالألمانية[٣] .

## مقاومة البريطانيين

بعد فترة قصيرة ، تحولت الجماعات السرية الصهيونية وشبه العسكرية إلى ضرب الاحتلال البريطانى ، وذلك تمهيداً لقتال العرب . وكان للحرب العالمية الثانية أثر كبير فى الإسراع بذلك . وأدى أحد حوادث المقاومة الإرهابية اليهودية المعادية للبريطانيين أثراً بارزاً فى لفت انتباه العالم إلى القضية الصهيونية مما عجل برحيل البريطانيين ، وتمثل ذلك فى تفجير المقر البريطانى فى فندق الملك داود الشهير فى ٢٢ يوليو ١٩٤٦ . ويعد هذا الفندق أحد المعالم البارزة فى فلسطين ويقع فى الضواحى الغربية للقدس ، وهو مشيد من حجارة منحوتة ذهبية اللون ، وكان يعتبر الجهاز العصبى للقوات العسكرية البريطانية فى فلسطين . ويذكر المؤلف لحظات وقوفه على درجات الفندق فى نوفمبر ١٩٧٧ أثناء هتاف الحشد الكبير من المتفرجين والصحفيين والضباط الإسرائيليين مع وصول الرئيس المصرى أنور السادات إلى القدس ليعلن عن دعوته التاريخية «لا مزيد من الحروب» . وقد وجه نداءه هذا إلى مناحم بيجن - رئيس

الوزراء الإسرائيلى الذى خطط عام ١٩٤٦ لتدمير فندق الملك داود ـ والذى قام فى النهاية بالتوقيع على معاهدة السلام مع السادات فى ظل رعاية الرئيس چيمى كارتر فى واشنطن عام ١٩٧٩ .

فى عام ١٩٤٦ كانت هناك دفاعات تحيط فندق الملك داود، تعتبر بالنظر إلى تكنولوچيا ذلك الوقت، أفضل من تلك الموجودة فى فندق الرشيد ومراكز القيادة الأخرى الأمريكية الأخرى فى بغداد المحتلة عام ٢٠٠٣ . وافقت القيادة الصهيونية والهاجاناه على خطة إرجون، التى خطط لها وقدمها مناحم بيجن، لزعزعة أركان الحكم البريطانى فى فلسطين. وقامت وحدة الهجوم فى إرجون بإعداد مجموعة من قرَب اللبن من النوع الذى يسلم بانتظام للفندق، وكان بها ٥٠٠ رطل من الجلجانيت وتى. إن. تى، ومتصل بها ملحق مفجر زمنى، وتم تسليمها إلى ريجينس كافيه بجوار المطبخ. وتنكر مهاجمو بيجن فى زى العرب واحتجزوا العاملين بالكافيتريا، وبعد تجهيز أوانى اللبن أطلقوا سراح الرهائن قائلين لهم اهربوا بحياتكم. دمر الانفجار الهائل جناح الفندق الذى يستخدمه الجيش البريطانى وأحدث دويًا رهيبًا هز مدينة القدس بأكملها. ولقى حوالى ٩٠ شخصاً مصرعهم فى الهجوم، كان من بينهم شخصيات بريطانية، وعرب و١٥ يهوديًا. وفى كتابه «الثورة» الذى سجل فيه مذكراته، كتب بيجن يقول إنه ورجاله لفتوا انتباه العالم إلى أن هناك «جيلاً جديداً» من المقاتلين اليهود جاءوا ليحلوا محل الأجيال المرتعشة التى عانت الاضطهاد: «لقد تخلينا عن سلاحنا عند طردنا من وطننا. ومع عودتنا إلى أرض آبائنا عادت لنا قوتنا»(٤).

وفى أبريل ١٩٤٧، قامت بريطانيا بإحالة القضية الفلسطينية إلى الأمم المتحدة التى أنشأت لجنة الأونيسكوپ، لجنة الأمم المتحدة الخاصة بفلسطين، لمحاولة التوصل إلى تسوية عربية ـ إسرائيلية قبل رحيل بريطانيا. وفى الأول من أبريل أعلن بن جوريون أن الوكالة اليهودية تسعى إلى إقامة دولة يهودية يليها «تحالف يهودى ـ عربى». ونتج عن هذا خطة لتقسيم فلسطين إلى دولتين مستقلتين، إحداهما يهودية والأخرى عربية. وشرع بن جوريون ومستشاروه فى دراسة قوة العرب العسكرية. وتوصلوا إلى أن القوتين العربيتين الرئيسيتين هما المصرية (قوامها ٣٥ ألف مقاتل) والعراقية (حوالى ٣٠ ألف). وكانت معظم القوات العربية فقيرة التدريب والتسليح، عدا الجيش الأردنى الذى كان يدربه ويقوده البريطانيون. وكان مجموع القوات المصرية والعراقية

والسـورية والأردنيـة واللبنانيـة حـوالى ١٥٠ ألف مـقـاتل، رغم الشك فى إمكانيـة وصـولهم جـمـيعـاً إلى فلسطين على نحو فـورى. ولم يعـول اليـهـود على المسـاعـدة البريطانية نظراً لقتلهم الضباط البريطانيين.

## العرب يستعدون للحرب

فى ١٨ يونيه ١٩٤٧، عندما أمر بن جوريون أن تستعد الهاجاناه لقتال الدول العربية بأكملها، أنذر عزام باشا، المصرى وأمين عام جامعة الدول العربية التى أنشأتها بريطانيا حديثاً، القيادة اليهودية بأن العرب سيقاتلون بضراوة ضدهم مثلما قاتلوا الحملات الصليبية «وتولى فوزى القاوقجى، الضابط السابق فى الجيش العثمانى، قيادة جيش الإنقاذ» المكون من المتطوعين العرب. كما حصل مفتى القدس الحاج أمين الحسينى - الذى ساند قوات المحور فى الحرب العالمية الثانية - وعوداً بتمويل قوات الميليشيات التابعة له ومنحها حرية الحركة. وقررت جامعة الدول العربية فى اجتماعها فى عاليا بلبنان، أنه بمجرد انسحاب بريطانيا تقوم الجيوش العربية النظامية باحتلال فلسطين. وبشكل عام، كان المفترض أن يشارك فى الحرب ٤١ ألف جندى من القوات العربية، تشـمـل ٧ آلاف جندى من الجـيش المصـرى التـابع للملك فـاروق. ودعـا قـرار عـاليـا المصريين أن يعملوا فقط كدعم فى المؤخرة وألا يدخلوا فلسطين بسبب انتشار وباء الكوليرا فى مصر. وتخلى الملك عبد الله ملك الأردن عن المشروع برمته، وكانت له اتصالات سرية مع القادة اليهود ومن بينهم جولدا مايرسون (التى أصبحت فيما بعد جولدا مـائير رئيسـة وزراء إسـرائيل). وأثنى بن جـوريون على عبـد الله ووصـفـه بأنه «صوت السلام الوحيد» بين القادة العرب. راودت الهواجس بن جوريون بسبب قوة الفيلق العربى ونواياه المحتملة[٥].

فى ٢٩ نوفمبر ١٩٤٧، صدر قرار الجمعية العامة للأمم المتحدة بتقسيم فلسطين، والذى أيدته الولايات المتحدة والاتحاد السـوفـيتى. واقـترح القـرار رقم ١٨١ إقـامـة دولتين فى فلسطين، إحداهما عربية والأخرى يهودية. أما القدس فتخضع للسيطرة الدولية. ووافق الزعماء الصهاينة على قرار التقسيم. أما العرب، فقد رفضوا قبول التقسيم، كما رفضوا من قبل العرض الذى قدمته بريطانيا لإقامة دولتين وطالبوا

بالسيطرة التامة على كامل فلسطين . وعلى الفور ، وعقب تبنى القرار مباشرة ، اندلع أول قتال عربى يهودى ، بين الهاجاناه والقوات الفلسطينية غير النظامية .

أما الأسباب التى تدعو المحللين الاستراتيچيين الإسرائيليين ، حتى غزو الولايات المتحدة للعراق عام ٢٠٠٣ ، إلى اعتبار العراق واحداً من أكبر أعداء إسرائيل على مدى الزمن - بل أكبرهم على الإطلاق - فإنها تعود إلى الفترة الحرجة لميلاد دولة إسرائيل . فاليهود العراقيون كانوا يواجهون ضغوطاً فى وطنهم فبدءوا الرحيل إلى فلسطين ، فى حين اعتبرت الحكومات الملكية العراقية فلسطين العربية قضية «مقدسة» . كما تعود رؤية العراق لإسرائيل كعدو أساسى إلى الفترة الزمنية نفسها ، والذى تفاقم بسبب خروج اليهود فى منتصف القرن العشرين ، مما جعل العراقيين الذين لا يزالون متمسكين بمبادئ الوحدة العربية متعاطفين مع الفلسطينيين ( وازدادت الأمور سوءاً بسبب الحرب التى قادتها الولايات المتحدة عام ٢٠٠٣ ) .

وفى العراق ، ساهمت قوات الحلفاء والبضائع والخدمات التى اشتروها خلال الحرب العالمية الثانية فى نمو السكان وثراء المواطنين الذين تضاعف عددهم فى بغداد بين عامى ١٩٢٢ و ١٩٤٧ . وتولد عن تنامى التصنيع الجزئى قوة عمالية هائلة . وانتشرت الأفكار الماركسية مع التعليم الغربى ونشأت أحزاب شيوعية ووطنية . ومنحت السلطات البريطانية ترخيصاً للكثير منها مثل الحزب الوطنى الديمقراطى وحزب الاستقلال . وبدأت تظهر قوى معارضة للأسرة الملكية والبريطانيين كما حدث فى فلسطين وأجزاء أخرى من العالم العربى . وتكونت ١٦ نقابة عمالية من بينها اثنتا عشرة نقابة كان يهيمن عليها الشيوعيون ، وذلك فى عهد حكومتى حمدى الباشاشى وتوفيق السويدى بين عامى ١٩٤٤ و١٩٤٦ (حين تمت تنحية نورى السعيد مؤقتاً بعد أن ملّ الأمير عبد الإله ، الوصى على العرش ، أوامره ونواهيه) . وسريعاً ما هيمنت النقابات على ميناء البصرة وخطوط السكة الحديد التى يديرها البريطانيون . واندلعت الإضرابات ، لتصل إلى شركة البترول العراقية الخاضعة للبريطانيين ولقى عشرة أشخاص مصرعهم فى مصادمات بين أعضاء النقابات والشرطة .

كانت هذه الأحداث مقدمة لانتفاضة قومية واسعة أطلق عليها الوثبة . وكان السبب الرئيس للانتفاضة هو المعاهدة الأنجلو - العراقية التى وُقِّعت بالأحرف الأولى فى

بورتسماوث بانجلترا فى ١٥ يناير ١٩٤٨ بعد مفاوضات طويلة. وفى حال تطبيقها كانت ستؤدى إلى مد الحماية البريطانية على العراق لمدة عشرين عامًا أخرى. وبدأ أنصار الاستقلال والشيوعيون فى تأليب أتباعهم ضد المعاهدة وضد السياسة البريطانية المنحازة للصهاينة فى فلسطين حتى قبل وصول الوفد العراقى إلى بورتسماوث. وفى يوم ٢٠ يناير أطلقت الشرطة النار على عدد من عمال السكة الحديد والمواطنين الذين سقط عدد منهم صرعى. وفى اليوم التالى، أعلن عبد الإله أنه لن يقر معاهدة بورتسماوث، واستدعى رئيس الوزراء صالح جبر من بريطانيا، وهو أول مسلم شيعى يتولى هذا المنصب. وسقط المئات من الضحايا نتيجة المصادمات الدامية التى كانت تدور بين الشرطة والجيش. وكانت أعمال العنف هذه مقدمة لثورة ١٩٥٨. وقد أوضحت هذه الأحداث مدى قوة وعنف وغضب حشود بغداد التى اكتوى بنيرانها الأمريكيون والمتحالفون معهم، فى احتلالهم العراق عامى ٢٠٠٣ و٢٠٠٤. وطالبت المعارضة بإلغاء المعاهدة الأنجلو- عراقية وحل البرلمان وعقد انتخابات حرة وتوفير الطعام. واستقالت حكومة جبر وحلت محلها حكومة مؤقتة من يناير إلى يونيه ١٩٤٨ يرأسها شيعى آخر ذو سجل حافل بمعاداة البريطانيين هو محمد الصدر، وكان على هذه الحكومة أن تعد العدة لانتخابات جديدة فى صيف ,١٩٤٨ كان ذلك أيضاً يصب لمصلحة «العصابة القديمة»، ألا وهى المؤسسة السياسية المؤيدة للبريطانيين. واندلعت أعمال مقاومة جديدة فى شكل إضرابات ومسيرات طافت الشوارع. وتبع ذلك تمرد عظيم عندما أدى إضراب نظمه الشيوعيون، للمطالبة بزيادة كبيرة فى الأجور، إلى تعطيل محطة ضخ البترول التابعة لشركة البترول العراقية بالقرب من حديثة (قامت المقاومة المعادية للأمريكيين بتدميرها عام ٢٠٠٣). وبعد أسابيع من المصادمات الدامية، قطعت الحكومة وإدارة شركة البترول العراقية الطعام والماء عن المضربين الذين نظموا بعدها مسيرة إلى بغداد. وفى الفلوجة أوقفتهم قوات الأمن وقبضت عليهم[٦]. وكان لهذه الأحداث دور كبير فى التهاب أجواء انتخابات ١٩٤٨، وبداية العراق عقوداً من الحرب استمرت حتى القرن الحادى والعشرين ضد إسرائيل فى فلسطين.

## العراق يقاتل الدولة الإسرائيلية الوليدة

بدأ انغماس العراق فى حرب ١٩٤٨ ـ ١٩٤٩ فى مايو ١٩٤٨ ، عندما رحل آخر جندى بريطانى عن فلسطين وظهرت الراية التى تحمل نجمة داود فى مناطق اليهود. بدأت بعض المناوشات فى ديسمبر ١٩٤٧ ، مع انقسام تدريجى للدولة بين تجمعات عربية ويهودية. وعندما بدأت القوات البريطانية انسحابها البطىء، بدأت أعمال الاغتيال والإرهاب تتصاعد إلى حرب عصابات بين العرب واليهود فى الريف والحضر. وبحلول مايو ١٩٤٨ سيطرت القوات اليهودية المكونة من البالماخ وإرجون وجماعة أخرى يطلق عليها الهيش، على القطاع الساحلى ومعظم شرق الجليل. من جانبهم، أحكم العرب قبضتهم على الضفة الغربية وغرب الجليل. وتم تقسيم القدس، ولأن بها سُدس السكان اليهود بفلسطين، قاتلت الهاجاناه بيأس لاختراق صفوف القوات البريطانية وجيش الإنقاذ العربى لفوزى القاوقجى المكون من ٤٠ ألف رجل تسللوا إلى فلسطين عن طريق سوريا وكانوا يحاصرون المدينة.

بدءاً من شتاء عام ١٩٤٨ وحتى الربيع، تكبدت القوات اليهودية، التى تحاول فتح طريق إلى القدس، خسائر فادحة على يد مقاتلين من قبل متمردى القاوقجى العرب. وفى أبريل ١٩٤٨ ، بدأت القيادة اليهودية العليا، بعد أن أدركت استحالة الحصول على مساعدة بريطانيا، أول عملية عسكرية كبرى، وهى عملية ناخسون، وذلك كجزء من الخطة D وكان الهدف من هذه العملية هو السيطرة على المناطق التى تحتوى على سكان ومستوطنات يهودية والنقاط القوية على الطرق المؤدية للقدس. وأخيراً استطاعت القوات اليهودية تأمين معظم القدس الغربية والأجزاء القريبة منها، إلا أن قوات البالماخ وإرجون تم صدها عن القدس العتيقة على يد الفيلق العربى الجيد التدريب والتنظيم، تحت قيادة السير چون جلوب بمساعدة بعض الضباط البريطانيين تحت إمرته. ومع ذلك، فى الوقت الذى أعلن فيه بن جوريون كرئيس للوزراء ووزير للدفاع، قيام دولة إسرائيل فى الخامس عشر من مايو، كان قد تم تنفيذ معظم أهداف الخطة D ، باستثناء الاستيلاء على القدس الشرقية وغرب الجليل ومرتفعات الضفة الغربية والمرتفعات المطلة على القدس.

ويشير المؤرخون العرب دائماً إلى أن الحرب العربية ضد الدولة اليهودية الوليدة، بما فى ذلك مشاركة العراق، حُكم عليها بالفشل منذ انطلاقها، نظراً لعدم وجود خطة

عمليات عربية مشتركة حقيقية. فبدلاً من مشاركة ٤١ ألف من القوات العربية فى الحرب، كان إجمالى عدد جنود الجيوش العربية المشاركة فى المرحلة الأولى من الحرب (١٥مايو إلى ١١ يونيو ١٩٤٨) ٢١ ألف جندى فقط. على النقيض تمكنت إسرائيل من حشد ٦٥ ألف رجل من الهاجاناه والميليشيات المتعددة. وكانت القوات العربية عند بدء القتال أفضل تسليحاً وتجهيزاً. ولكن بعد ذلك قامت تشيكوسلوفاكيا، مع مساندة الاتحاد السوفييتى والمتطوعين من الجماعات اليهودية فى أمريكا وأوروبا الغربية، بإرسال كميات كبيرة من السلاح والعتاد إلى القوات الإسرائيلية. فبينما بدأ العرب الحرب بحوالى ١٥٠ سيارة مدرعة، و٢٠ دبابة وبعض قطع المدفعية، لم يكن الإسرائيليون فى البداية من الناحية العملية يمتلكون مثل هذه المعدات. ولكن لم يكن ينقص العرب الخطط والتنسيق فقط، بل كان هناك خطأ استراتيجى هائل فى الإمدادات عبر الخطوط الخارجية. فالقواعد اللوجستية العربية كانت فى أماكن نائية: بالنسبة للمصريين، كانت على بعد ٢٥٠ ميلاً عبر صحراء سيناء وحتى دلتا النيل؛ وتبعد من ٨٠ إلى ٩٠ ميلاً عن قواعد الفيلق العربى.

وكان على العراقيين قطع ٧٠٠ ميل للوصول إلى قواعدهم الرئيسية فى بغداد. كان هدف الخطة العسكرية العربية، التى أعدت على عجل فى ١٣ مايو ١٩٤٨، هو الهجوم عبر محاور متعددة انطلاقاً من لبنان وسوريا وشرق الأردن وسيناء. وكانت ترمى إلى القضاء على الهاجاناه واحتلال كل المناطق الفلسطينية التى كانت خاضعة للانتداب. وكان على جيش لبنان ـ الذى كان يدرك الإسرائيليون أنه الأقل تهديداً لهم ـ بمساعدة جيش الإنقاذ العربى بقيادة فوزى القاوقجى، أن يحتل شمال إسرائيل من ميناء حيفا جهة الغرب حتى الناصرية فى الشرق.

وكان من المفترض أن يسيطر الجيش السورى على منطقة الجليل، والجيش العراقى على السهل الساحلى حول تل أبيب. أما من جهة الجنوب، كان على القوات المصرية، التى لم تعد تحمل وباء الكوليرا الذى اجتاح مصر، أن تقوم بالهجوم على محورين: من غزة حتى تل أبيب، ومن وسط صحراء النقب إلى بئر سبع. وبمجرد وقوع بئر سبع وتل أبيب فى أيدى العرب، يكون المصريون قد سيطروا على محور أبيب ـ القدس، وبذلك يلتحمون بالفيلق العربى فى القدس وما حولها. كان فيلق التحالف قد سيطر على الجزء الشرقى من المدينة قبل الخامس عشر من مايو. وكان على القوات العربية،

التى تقاتل عبر خمسة محاور، أن تنتشر عبر جبهة على شكل قوس بزاوية ١٨٠ درجة لتصل من عكا على البحر إلى الجليل ثم المرتفعات الوسطى إلى غزة وبئر سبع. وكان المفترض أن تقضى هذه التحركات على المقاومة الإسرائيلية نهائيًا.

وفى البداية أرسلت القوات العربية ألف لبنانى (كتيبة) و٣ آلاف إلى ٤ آلاف من مقاتلى القاوقجى؛ ولواءً سوريًا مكونًا من ٣ ألاف مقاتل؛ ولواءين من الفيلق العربى الجيد التنظيم والتدريب ليصل الإجمالى إلى ١٠ آلاف رجل إلى جانب وحدة مدرعة وسريّة سعودية صغيرة. أما المساهمة العراقية، التى جمعتها فى عجالة حكومة صلاح جبر فى بغداد مساء ١٥ مايو، فتكونت من حوالى كتيبتين، وسيارة مدرعة واحدة. وكانت مهمتها عبور شرق الأردن إلى الضفة الغربية عند بيسان؛ والاستيلاء على مدينة نابلس بالتنسيق مع قوات الفيلق العربى فى قطاعى القدس وبيت لحم(٧).

وتمكن اللواء العراقى القوى من عبور الأردن بنجاح؛ حيث إنه فى ذلك الوقت لم تكن هناك قوات جوية إسرائيلية تسبب لها الإزعاج، بخلاف ما حدث خلال التحرك العراقى فى حربى ١٩٦٧ و١٩٧٣. وقد عبرت إحدى الكتيبتين الأردن بالقرب من بيسان والتحمت بالفيلق العربى لاحتلال القدس العتيقة ونابلس والحصن الاستراتيجى للشرطة الذى شيده البريطانيون وأطلقوا عليه «عين النمر» فى اللطرون. وفى الطريق، استولى العراقيون على اثنين من المزارع الجماعية اليهودية (الكيبوتز) ومحطة طاقة يديرها يهود. أما حصن اللطرون فكان موقعاً استراتيجيًا هاماً حيث يتحكم فى الطرف الغربى من ممر باب الوعد. ويؤدى الطريق عبر تل أبيب إلى مرتفعات القدس التى يصل ارتفاعها إلى ٢٧٠٠ قدم. وعند التوقيع على الهدنة الأولى فى الحادى عشر من يونيه، عبر وساطة الأمم المتحدة بقيادة الكونت السويدى فولك برنادوت ( اغتاله مسلحون إسرائيليون فى ١٧ سبتمبر ١٩٤٨)، كان الفيلق العربى مع القوات العراقية قد احتلوا منطقة تمتد من القدس العتيقة، غرباً عبر طريق تل أبيب - القدس المؤدى إلى اللطرون، وحتى المنطقة الشمالية الغربية المؤدية إلى اللد والرملة. ومن هناك المنطقة الممتدة شمالاً بمحاذاة خط السكة الحديد إلى قلقيلية وطولكرم، ثم شرقاً إلى الناصرة وبحر الجليل (بحيرة طبرية) فى سمخ.

أما الكتيبة العراقية الأخرى فقد واجهت مقاومة إسرائيلية عنيفة عبر نهر الأردن. وعند محاولة العبور تكبدت خسائر فادحة من قبل الإسرائيليين المتحصنين فى تلال

الضفة الغربية والمسيطرين على وادى الأردن . بعد ذلك نجح العراقيون فى صد هجوم إسرائيلى مضاد من قبل قوات كارميلى أو جولانى والتى كانت تستهدف القوات العراقية حول چنين . وفى هذه المرة تكبد الإسرائيليون خسائر فادحة، فتقهقروا إلى منطقة مجدو الأثرية، هرمجدون فى نبوءة الكتاب المقدس . وعلى الرغم من ذلك صعد الإسرائيليون من ضغوطهم على القدس . وغادر الفيلق العربى نابلس متجهاً إلى القدس العتيقة لتعزيز مواقعه هناك فى ٢٢ مايو ١٩٤٨ ، تاركاً القوات العراقية وحيدة فى نابلس . وفشل الإسرائيليون فى الهجوم على اللطرون وفى الاستيلاء على القدس العتيقة، حيث فقدوا مئات الأسرى وظلت اللطرون فى أيدى العرب حتى حرب يونيو ١٩٦٧ . أما فى قطاع قلقيلية ـ طولكرم فقد كانت القوات العربية تبعد اثنى عشر ميلاً عن البحر المتوسط وستة أميال عن الطريق الساحلى الاستراتيجى بين تل أبيب وحيفا(٨) .

## الورطة والانتصار الإسرائيلى

بحلول الأول من يوليه، أى بعد أسبوعين فقط من بداية الحرب، فقد الهجوم العربى زخمه وقوته الدافعة . فكانت القوات العراقية مقيدة فى شريط يمتد من چنين إلى طولكرم وقلقيلية . وقامت الطائرات المقاتلة الإسرائيلية، المرسلة حديثاً من تشيكوسلوفاكيا والتى يقودها طيارون إسرائيليون، بقصف القوات العربية بوابل من النيران . أما على الأرض، فكان هناك جيش الدفاع الإسرائيلى المشكل حديثاً تحت قيادة الچنرال إيجال آلون ويتكون من خمسة ألوية، ثلاثة منها كانت على أعلى مستوى وهى هاريل ويافتح وهانيجيف . وكان إسحاق رابين، الذى شغل منصب رئيس الأركان ووزير الدفاع ورئيس الوزراء ومفاوض السلام، كان يقود اللواء هاريل . وكانت هناك فجوة مقدارها ١٥ ميلاً بين قوات الفيلق العربى، الذى كان معظم قادته من الإنجليز، والقوات العراقية فى قاعدتها بمجدل يابا . وهذه الفجوة ضمت المدينتين العربيتين اللد والرملة، اللتان لا تزالان فى يد العرب، والمعسكر فيه، بصفة غير مؤكدة، بدو التحالف العربى من الحدود الأردنية . وتلقى عبد الله ملك الأردن، القائد الأعلى الأسمى للتحالف العربى، والجنرال سير چون جلوب، القائد الحقيقى، أوامر مشددة من الحكومة البريطانية ألا يعبروا الحدود التى رسمها على الخريطة قرار التقسيم الصادر من الجمعية العامة للأمم المتحدة فى نوفمبر ١٩٤٧ ، فقد وضع القرار اللد

والرملة ضمن الدولة العربية وليست اليهودية . ورغم ذلك وبحلول العاشر من يوليه قامت قوات إسرائيلية بحركة التفاف لتستولى على هاتين المدينتين العربيتين وأحاطت بالأردنيين فى اللطرون والعراقيين فى مجدل يابا .

منذ ذلك الحين ، بدأ التدهور العراقى . وتم تعزيز العراقيين بخط إمدادات عبر الأردن . وبحلول الأول من أكتوبر ١٩٤٨ ، عندما شن الإسرائيليون هجومهم الناجح على القوات المصرية فى النقب ، كان هناك لواءان عراقيان ، بكامل قوتهما بإجمالى ١٥ ألف رجل ، يستوليان على نابلس وضواحيها . وعندما بات جلياً أن القوات المصرية والسودانية فى النقب ( التى كان يقودها ضابطان مصريان أصبحا رئيسين لمصر هما جمال عبد الناصر ومحمد نجيب) تحت ضغط مستمر فى الفلوجه شمالى النقب ، فكرت القيادة العربية العليا فى استدعاء العراقيين لتقديم يد العون .

وفى مؤتمر القمة العربى المنعقد يوم ٢٣ أكتوبر اقترحت القيادة العليا أن تقوم القوات العراقية بتوسيع جبهتها لتشمل المواقع العربية فى اللطرون . وكان من المفترض أن يؤدى ذلك إلى تحرير ست فصائل عربية فى منطقة الخليل . كما كان يمكن أن يؤدى إلى رفع الحصار الإسرائيلى للقوات السودانية والمصرية ، التى كان يوجد بها ناصر ورجاله . رفض المؤتمر هذا الاقتراح . وكانت النتيجة رفض القوات اللبنانية والسورية والعراقية التحرك من المواقع التى استولت عليها . وكانت النتيجة إلقاء العبء بأكمله على الفيلق العربى الذى كان عليه حماية مواقعه الأصلية بالإضافة إلى الانتشار على هيئة شريط رفيع لتأمين منطقة الخليل بأكملها ومحاولة مساعدة المصريين والسودانيين فى جيب الفلوجه . وقد عبر مؤرخ عسكرى پاكستانى عن الموقف قائلاً : «ما منع الملك عبد الله من فقدان أعصابه مع المجتمعين الأفاضل هو ضبط النفس الملكى ومسئوليته كمضيف رسمى للمؤتمر»[٩] .

وتبعًا لمذكرات السير چون جلوب ، بلغ عدد القوات العراقية فى ذلك الوقت ١٩ ألف رجل . وكانت تمثل القوة الفعّالة الوحيدة فى ميدان المعركة . ورغم ذلك كانت تنقصها التغطية الجوية أو الدفاعات الأرضية ضد القوة الجوية الإسرائيلية المتنامية . ولذلك كانت تنجز القليل وتتعرض إلى خسائر فادحة . وفى العراق تصاعد استياء الجماهير الذين تعلموا ألا يصدقوا الادعاءات الكاذبة للانتصارات العربية والتى نشرتها إذاعة الحكومة فى بغداد .

وفى محاولة لإحباط محاولات القوات المصرية كسر الحصار فى عدة مناطق فى غزة والنقب، بدأ الچنرال إيجال آلون ـ قائد يقود الجبهة الجنوبية ـ عملية حوريف ـ الهجوم الإسرائيلى الكبير فى حرب ١٩٤٨ ـ وذلك فى ٢٢ ديسمبر ١٩٤٨. وكان هدف هذه العملية هو الإبادة الكاملة للقوات العربية فى النقب وشمال سيناء. ولم يشارك العراقيون والسوريون واللبنانيون فى تلك المعركة. بدأ آلون بلواءين من الپالماخ (هاريل وهاجينيف) ولواء من الهاجاناه (جولانى) واللواء الثامن المدرع. وتم تخصيص لواء آخر لمواصلة الضغط على السودانيين فى جيب الفلوجه. وقام جيش الدفاع الإسرائيلى بالهجوم على المحور الشرقى ـ الغربى عبر الساحل وتقدم نحو شبه جزيرة سيناء المصرية، مكتسحاً المواقع المصرية عبر الطريق. وكان الهدف من الغارات العميقة داخل سيناء هو إرباك القيادة المصرية وبث الذعر، إن أمكن، فى الصفوف المصرية.

وبعد أسبوع من التقدمات الإسرائيلية، تدخلت الحكومة البريطانية. فمن خلال تهديد الحكومة البريطانية بالتدخل العسكرى، اضطر بن جوريون إلى إصدار أوامره بوقف إطلاق النار والانسحاب وذلك فى ٨ يناير ١٩٤٩. كان الإنذار البريطانى، الصادر تبعاً للإطار القانونى لمعاهدة ١٩٣٦ البريطانية مع مصر، بمثابة صدمة ومفاجأة للمصريين والإسرائيليين. فقد أخطأت حكومة بن جوريون عندما اعتقدت أن الرئيس الأمريكى هارى ترومان والدعم الدولى للدولة الجديدة سيمنع أى تدخل بريطانى. كانت الحكومةُ المصرية للملك فاروق قد قامت بإلغاء معاهدة ١٩٣٦ ولم تطلب التدخل البريطانى أو رغبت فيه. وفى ٧ يناير ١٩٤٩، وهو اليوم الذى أوقف فيه الإسرائيليون تقدمهم، كانت القوات المصرية تطارد فى كل فلسطين السابقة كلها باستثناء قطاع غزة. ومع ذلك، كان عزاء المصريين أن الإنذار البريطانى أنقذ الجيش المصرى من كارثة مؤكدة، وبقى ليقاتل فى يوم آخر.

انتهت حرب استقلال إسرائيل، كما يطلق عليها المؤرخون الإسرائيليون، بالاستيلاء على ٣٠ بالمائة من الأرض أزيد من المساحة التى حددها قرار التقسيم الصادر عن الأمم المتحدة. وبسبب فرار ٣٠٠ ألف فلسطينى أو إجبارهم على الفرار من جراء التجاوزات الإسرائيلية مثل المذبحة المشينة فى قرية دير ياسين العربية فى ٩ أبريل

١٩٤٨ ، حيث قامت منظمتا إرجون وليحى بقتل ٢٥٤ فلسطينى ، أصبحت الآن هناك أغلبية إسرائيلية فى المنطقة التى يسيطر عليها جيش الدفاع الإسرائيلى . ويشير المؤرخ الإسرائيلى مايكل بى . أورين فى كتابه التاريخى عن صراع ١٩٦٧ وما سبقه من أحداث «حرب الأيام الستة» ، إلى أن ما منع جيش الدفاع الإسرائيلى من اجتياح الضفة الغربية وغزة ، هو فقدان الأغلبية اليهودية وشبح الحرب مع بريطانيا التى كانت تحمى مصر فاروق وأردن عبد الله[١٠] .

تدفق على غزة ، التى يسيطر عليها المصريون ، سيل من اللاجئين الفلسطينيين . وسريعاً ما تكدسوا فى تلك المنطقة ضئيلة المساحة ، «مثل علبة سردين» على حسب وصف أحد مواطنى غزة (صبحى الطرازى ، مدير كلية غزة) ، مما يذكر المؤلف بما حدث فى صيف ١٩٦٧ . فى عملية أخيرة ، نفذت بعد توقيع اتفاقية الهدنة مع الأردن تحت رعاية الأمم المتحدة وبعد زوال التهديد البريطانى الذى تمثل فى إنزال قوة صغيرة فى العقبة فى أكتوبر ١٩٤٨ طبقاً لشروط اتفاقية الدفاع المشترك بين بريطانيا والأردن ، استولت القوات الإسرائيلية على قرية أم الرشراش العربية على البحر الأحمر ، وكانت على خريطة التقسيم تابعة للدولة اليهودية . وأصبحت الميناء الإسرائيلى الوحيد المطل على البحر الأحمر بعد إطلاق اسم «إيلات» عليها ، وهو شريان الحياة لدولة إسرائيل عبر خليج العقبة وجزر تيران الذى يربطها بالموانى والأسواق الأفريقية والآسيوية[١١] .

### اتفاقيات الهدنة ـ باستثناء العراق

فى منتصف فبراير ١٩٤٩ ، قام الدكتور رالف بانش ، وهو رجل دولة أمريكى أفريقى برز كأحد أهم شخصيات الأمم المتحدة الساعية إلى السلام ، بعد الاغتيال الإسرائيلى للكونت برنادوت ، بدعوة حكومة الملك عبد الله إلى إرسال وفد لجزيرة رودس اليونانية من أجل التفاوض حول التوصل إلى اتفاق للهدنة مع إسرائيل تحت رعاية الأمم المتحدة . ووصل الوفد الأردنى إلى رودس فى يوم ٢٨ فبراير . وكان الوفد المصرى قد وصل بالفعل إلى هناك ، وسريعاً ما وقّع على اتفاق الهدنة مع إسرائيل يوم ٢٤ فبراير . وتبعته لبنان فى يوم ٢٣ مارس . وأخيراً وقّع الوفد السورى على اتفاقية الهدنة فى يوم ٢٠ يوليه ، بعد أن ساهمت وكالة الاستخبارات الأمريكية الوليدة فى

تدبير انقلاب عسكرى فى سوريا بقيادة الكولونيل سهل الانقياد حسنى الزعيم والذى لقى مصرعه بعد ستة أشهر فقط فى انقلاب آخر . أدى ذلك إلى فترة طويلة من الفوضى والاضطراب فى سوريا لم تنته إلا بتولى قائد القوات الجوية ووزير الدفاع حافظ الأسد السلطة فى عام ١٩٧٠[١٢].

لم يؤد توقيع اتفاقيات الهدنة إلى إسدال الستار على الضغط السياسى الإسرائيلى على الأردن. فمن خلال قوات لا يزيد عددها الإجمالى عن ١١ ألف مقاتل، بالإضافة إلى ١٩ ألف عراقى، كانت الأردن تواجه جيش الدفاع الإسرائيلى الذى بلغ عدده ١٢٠ ألف مقاتل. ورغم ما أطلقت عليه وسائل الإعلام فى ذلك الوقت وقف إطلاق نار «حقيقى»، وقعه فى القدس الكولونيل الأردنى عبد الله التل والكولونيل موشيه ديان فى ٢٨ نوفمبر ١٩٤٩، فقد استمر ضغط جيش الدفاع الإسرائيلى فى الجنوب. وبعد توقيع اتفاقات هدنة وقف النار الأردنية ـ الإسرائيلية، والمصرية ـ الإسرائيلية، كانت إمارة شرق الأردن وفيلقها العربى الذى يديره ضباط بريطانيون لا تزال تملك ورقة رابحة ألا وهى السيطرة على مثلث ممتد فى صحراء النقب، رأسه عند العقبة وقاعدته البالغ مساحتها ٥٥ ميلاً عند بير ابن عودة.

آثر الإسرائيليون التراجع عوضاً عن التصادم مرة أخرى مع الأردنيين الأمر الذى قد يستفز البريطانيين. لكن بعد ذلك، قاموا بطرد الفيلق العربى واحتلوا صحراء النقب. رداً على ذلك، وفى قرار مصيرى بالنسبة إلى مستقبل الشرق الأوسط، قامت حكومة الملك عبد الله فى ١ ديسمبر ١٩٤٨ وبناءً على طلب الزعماء الفلسطينيين، بضم الضفة الغربية لنهر الأردن إلى المملكة الأردنية الهاشمية. ومنذ ذلك الحين، تطلق عمّان على الضفة الغربية، حتى بعد أن استولى عليها الإسرائيليون فى يونيو ١٩٦٧ ـ اسم «الأردن الغربية» ـ فى حين تطلق على إمارة شرق الأردن اسم «الأردن الشرقية». ومنذ ذلك الحين يطلق الصحفيون ورجال الدولة عليهما اسم «الضفة الغربية» و«الضفة الشرقية». وقامت الجامعة العربية فى القاهرة بشجب ذلك بقوة. وبناءً على إصرار مصر، التى كانت ولا تزال أقوى أعضاء الجامعة، تم الإعلان عن «حكومة فلسطين» فى غزة الخاضعة للإدارة المصرية، ولم تعترف بها إلا القليل من دول العالم. استناداً إلى أبجديات السياسة الواقعية، يرجع المؤرخون العرب قيام الأردن فى عام ١٩٤٨

بضم الضفة الغربية رسميًا إلى حقيقة أن الفيلق العربى فى ذلك الوقت كان يمثل القوة العسكرية العربية الوحيدة القادرة على مواجهة جيش الدفاع الإسرائيلى(١٣).

أما القوات العراقية المشاركة فى الحرب فلم تعد عنصراً عسكرياً مؤثراً. وقد تناقصت أهميتها بعد ذلك فى نظر الأعداء الإسرائيليين والحلفاء العرب، وذلك نتيجة أعمال حكومة بن جوريون فى عام ١٩٤٩. فقد بدأ الوفد الإسرائيلى المشارك فى رودس يوم ١١ مارس، أى بعد يوم من استيلاء الإسرائيليين على إيلات، فى ممارسة الضغوط النفسية على الدول العربية الخاسرة للحرب، وخاصة الأردن والعراق. وهدد الإسرائيليون باحتلال نابلس بمجرد انسحاب الجيش العراقى، وواصلوا الاستيلاء على أجزاء من منطقة الخليل، التى شهدت أحداث عنف يهودى ـ عربى أثناء الانتداب البريطانى. ويشير السير چون جلوب فى مذكراته إلى أنه:

«كان هناك مستوى من التوتر والإثارة غير مسبوق، فقد كانت هناك أنباء دائمة عن هجمات إسرائيلية جديدة، وكان العراقيون ينسحبون تدريجياً (من مواقعهم فى الضفة الغربية)، وكان الفيلق العربى المكون من ١١ ألف مقاتل (بلا ذخيرة) يواجه جيشاً يبلغ عشرة أضعاف عدده»(١٤).

وأعلنت إسرائيل تهديدًا مباشراً باستئناف مواجهة الفيلق العربى ما لم يوافق الأردنيون على الخروج من شريط من الأرض يتراوح عرضه بين ميل إلى ميلين وطوله ١١٠ ميلاً، على طول خط وقف إطلاق النار فى الشمال. كان إجمالى مساحة المنطقة التى تريدها إسرائيل حوالى ٤٠٠ ميل مربع. وكان الهدف من ذلك سيطرة جيش الدفاع الإسرائيلى على سلسلة من التلال التى تطل على السهل الساحلى بالقرب من چنين وطولكرم وقلقيلية وكفر قاسم ومجدل يابا. وفى المقابل عرضت إسرائيل أن تسمح للفيلق العربى بأن يحل مكان القوات العراقية فى منطقة نابلس. واستسلمت الأردن على مضض، حيث بدت الأمم المتحدة غير قادرة والولايات المتحدة غير راغبة فى منع الإسرائيليين من اجتياح الضفة الغربية كلها واحتلالها. وعلى ذلك، وقّع الأردنيون والإسرائيليون فى يوم ٣ أبريل ١٩٤٩ اتفاقية الهدنة. وبعد تسعة أيام حلت قوة من الفيلق العربى قوامها ألفا رجل محل العراقيين فى نابلس. وتقهقر العراقيون عبر الأردن وعادوا لوطنهم. وهناك وجدوا حالة من الغضب والسخط بسبب الحرب

وأدائهم فيها. وكان لذلك أثره الواضح على المواطنين اليهود وعلاقتهم بالمواطنين المسلمين والحكومة، خاصة فى بغداد والبصرة.

سمحت اتفاقيات الهدنة للفيلق العربى بالبقاء فى نابلس والقدس الشرقية والخليل. واحتفظ الجيش المصرى بقطاع غزة ومدينة غزة بالإضافة إلى معسكرات اللاجئين الفلسطينيين المتنامى عددهم والنازحين من إسرائيل. وتكونت فى القدس لجنة مشتركة للهدنة (MAC) تحت إشراف الأمم المتحدة من عضوين أردنيين وعضوين عراقيين وكان يرأسها مندوب عن الأمم المتحدة. وأثناء سنوات الاضطراب من عام ١٩٤٩ وحتى حرب يونيو ١٩٦٧، حققت اللجنة القليل من النجاح فى المهمة الموكلة إليها والمتمثلة فى تنظيم النزاعات الحدودية ومنع الاشتباكات عبر الحدود.

هناك نقطة ضرورية يجب أن نتذكرها دائماً وهى تتصل باتفاقيات الهدنة ١٩٤٨ - ١٩٤٩، وكل اتفاقيات وقف إطلاق النار الكثيرة التالية بين العرب وإسرائيل. وهى تتصل أيضاً بمعاهدات السلام الرسمية التى تمكنت إدارتا كارتر وكلينتون من التوصل إليها فى الولايات المتحدة بين مصر وإسرائيل عام ١٩٧٩، وبين الأردن وإسرائيل عام ١٩٩٤. فقد ظل العراق، الذى شعر بالمهانة بسبب أدائه فى حرب ١٩٤٨ - ١٩٤٩، رافضاً لكل هذه الاتفاقيات. فلم يشارك فى أى مؤتمر سلام من أى نوع قط، ولم يوقع على أى اتفاق للهدنة أو على معاهدة سلام.

حتى قبل حكم صدام حسين بمدة طويلة، كانت الحكومات العراقية تعف عن إبرام أى اتفاق مع ما تطلق عليه «الكيان اليهودى». ومع سعى الولايات المتحدة وبريطانيا إلى استراتيجية تخرجهما من المستنقع العراقى الذى وقعا فيه بسبب سوء التخطيط بعد شن حرب ٢٠٠٣، كانت هناك بارقة أمل لدى المحافظين الجدد فى واشنطن فى أن يقوم «العراق الديمقراطى الجديد» الذى يحاولون صنعه بتغيير موقفه تجاه إسرائيل. ولكن طالما ظلت قضايا جوهرية مثل حرية الفلسطينيين وإنشاء دولة فلسطينية مستقلة دون حل، فلن يجرؤ أى سياسى أو مفكر عراقى - باستثناء بعض المنبوذين المؤيدين لأمريكا على شاكلة أحمد الجلبى وكنعان مكية - على إعلان مساندته لإسرائيل أو إجراء أى «تطبيع» من أى نوع مع الدولة اليهودية.

## بن جوريون يتكلم

فى أوائل عـام ١٩٦٨ ، بعد عامـين من قيـامى بتغطيـة الموقف فى الشرق الأوسط لحساب صحيفة كريستيان ساينس مونيتور ، نجحتُ فى إقناع المكتب الصحفى للحكومة الإسرائيلية بأن يرتب لى لقاءً مع دافيد بن جوريون . كان قد تقاعد منذ مدة طويلة فى كيبوتز سد بوكير فى النقب . وفى أثناء إحدى زياراته لتل أبيب فى مارس ١٩٦٨ ، أخذنى المرافق الحكومى للقائه فى مقهى فى الهواء الطلق فى شارع تظلله الأشجار ، فى تل أبيب بالقرب من مسكن بن جوريون هناك . كان من السهل علىّ أن ألمح العجوز ، الذى وقف شعره الأبيض فى جزء من رأسه الأصلع ، يجلس وحيداً مع حفنة من الأقران المتشابهين على طاولات قريبة منه .

كان محور حديثنا ، الذى استمر لما يزيد عن ساعة ، على الرغم من إشارة مرافقى إلى أن أى مقابلة مع سياسى طاعن فى السن ، يجب ألا تتجاوز عشرين دقيقة ، هو علاقة إسرائيل بالأردن والحاكمين اللذين تعامل معهما : الملك عبد الله وحفيده الملك حسين ، الذى شهد فى سن المراهقة اغتيال جده على يد فلسطينى غاضب فى المسجد الأقصى بالقدس . وكان العراق ، حتى المملكة الهاشمية الثانية عام ١٩٥٨ ، موضوعاً ثانوياً .

بعد ارتشاف القليل من القهوة العربية القوية الداكنة ، ذكر بن جوريون أنه فى عامى ١٩٤٨ و١٩٤٩ ، وحتى بعد انتصار إسرائيل فى حرب الأيام الستة ، أى حرب يونيو١٩٦٧ ، كان بإمكان جيش الدفاع الإسرائيلى اجتياح الضفة الشرقية ، بعد الاستيلاء على الضفة الغربية بأكملها . وأكد بن جوريون لى أن جيش الدفاع الإسرائيلى ، امتنع عن ذلك إكراماً لخاطر الاتصالات والعلاقات الودية وغيرها مع الهاشميين فى الأردن ثم «التفاهم» (أذكر أنه استخدم هذه الكلمة) اللاحق مع الملك حسين . وربما تذكر بن جوريون ، دون أن يقولها بصوت عال ، أن الضغط البريطانى على الجانبين فى عامى ١٩٤٨ ـ ١٩٤٩ منع اتساع نطاق الحَرب واحتلال إسرائيل للأردن . ولا بد أن بن جوريون كان على ثقة من أن الملك عبد الله كان يقاتل من أجل بقائه السياسى ، وليس من أجل قضية الوحدة العربية ، أو من أجل الفلسطينيين[١٥] .

بالنسبة للعراق، كرر بن جوريون المقولة التى يرددها عادةً القادة والمحللون الإسرائيليون والتى ربما قام بالكثير من أجل دعم ركائزها: إن أى تحرك للقوات العراقية تجاه الأردن أو سوريا سيعتبر تهديداً لإسرائيل. وهذا التحرك يعد بمثابة إعلان حرب من قبل أى حكومة إسرائيلية وسوف ترد عليه بالمثل. وهذا أحد ركائز السياسة الإسرائيلية، تقبل به واشنطن، وأحد أسس التعاون الأمريكى مع إسرائيل عبر السنين.

وتراقب إسرائيل دائمًا أية بادرة تدل على قيام جيرانها فى الشرق، الأردن وسوريا والعراق، بتنحية خلافاتها الفكرية وتكوين «جبهة شرقية» موحدة ضد عدوهم اليهودى. لذلك ترى إسرائيل دائماً أن العراق عدو استراتيجى. وهذا بالطبع سبب قيام الولايات المتحدة وبريطانيا عام ٢٠٠٣ بالإطاحة بصدام حسين التكريتى الدكتاتور العراقى الذى هدد إسرائيل، لا سيما فى السنوات الأخيرة من حكمه فى التسعينيات، وعندها تنفس الإسرائيليون الصعداء. ولفترة قصيرة على الأقل، أصابتهم حالة من النشوة بسبب الانتصار العسكرى الذى أدى لحل الجيش العراقى بأكمله بأمر من الولايات المتحدة، وجهود الولايات المتحدة لإقامة عراق ديمقراطى جديد سهل الانقياد. وأدى إدراك بن جوريون للتهديدات العربية إلى دفع الدولة الإسرائيلية إلى البحث عن حلفاء جدد من غير العرب. وقبل جيل كامل من الأكراد العراقيين بالقتال إلى جانب الولايات المتحدة كشركاء فى حرب ٢٠٠٣، كانوا قد أصبحوا الحليف العراقى الأساسى لإسرائيل، وهذا هو موضوعنا التالى.

***



# الفصل الخامس

## علاقة رباعية:
## الولايات المتحدة وإسرائيل
## وإيران والأكراد العراقيون



**الجبال هى الصديق الوحيد للأكراد.**

**(مقولة كردية)**

بعد سقوط بغداد فى أيدى القوات الأمريكية فى ربيع ٢٠٠٣ بفترة قصيرة، أخرج أحد قيادات الحزب الديمقراطى الكردستانى من جعبته مفاجأة مثيرة فى أثناء حديثه مع أحد الصحفيين الأوروپيين. وأدى ذلك إلى غبطة مستشارى الرئيس بوش فى البنتاجون من المحافظين الجدد. فقد أيد وجهة النظر التى تقول بأن هناك خططًا أمريكية لإضافة العراق إلى ما يزيد عن ١٠٠ دولة أخرى تحتفظ فيها بقواعد عسكرية فيما يسمى «الإمبراطورية الأمريكية الجديدة».

وكان رئيس الحزب الديمقراطى الكردستانى فى عام ٢٠٠٣، حينما تم الإعلان عن هذه المفاجأة مسعود برزانى، ابن الزعيم الراحل الملا مصطفى برزانى. وقد أخبرنى مصطفى برزانى فى أثناء زيارتى له فى الجبال الكردية عام ١٩٧٢ عن مدى الترحيب الذى سيقابل به «نفوذ ووجود» الولايات المتحدة إذا مدت الولايات المتحدة يدها القوية إلى كردستان.

أما مساعد مسعود، بروسيق نورى شوايس، وهو مهندس تعلم فى ألمانيا، فقد كان أكثر تحديداً. وكان لكلماته وقع الموسيقى فى أذن إدارة بوش، حيث أعلن شوايس أنه:

«يجب أن يبقى الأمريكيون لإعادة الأمن، وإعادة إدارة المنشآت الإدارية والعامة وإعادة التعمير. وبعد فترة قدرها عام، يجب أن ترحل قوات التحالف عن العراق، لكننا سنفكر فى وجود قواعد عسكرية للولايات المتحدة هنا فى وقت لاحق. فنحن نحتاج إلى تحالف قوى مع الأمريكيين»[1].

وأدى انتشار وأصداء وجود قواعد أمريكية دائمة فى العراق إلى غبطة إسرائيل، أثبت حلفاء الولايات المتحدة فى الشرق الأوسط والأكراد العراقيين فى الماضى. وفى عام ١٩٧٣ صرح الچنرال عزرا فايتسمان، أحد الزعماء الإسرائيليين البارزين، والطيار المقاتل، والقائد السابق للقوات الجوية الإسرائيلية، الذى أصبح رئيساً لإسرائيل، للمسئولين عن أمله فى أن: «تملك إسرائيل قواعد عسكرية على نهر الفرات»[٢].

وفى مارس ٢٠٠٣ رفض البرلمان التركى بشدة طلب الولايات المتحدة للسماح لها بالمرور عبر الأراضى التركية لغزو العراق، حيث قدم پول وولفويتز مساعد وزير الدفاع دونالد رامسفيلد طلباً بذلك، فى مقابل عرض بضعة مليارات دولار كقرض من الولايات المتحدة. وكانت القوات الأمريكية لا تزال فى حاجة ملحة إلى منفذ لها فى شمال العراق، عن طريق الجو ما لم يكن عن طريق الأرض. ورحب الحزب الديمقراطى الكردستانى بالفكرة وكذلك الجماعة الكردية الرئيسية الأخرى التى تدير الإقليم الكردى الشمالى، الاتحاد الوطنى الكردستانى لجلال طالبانى. ومن خلال العمل مع مهندسين وفنيين وبمعدات أمريكية، قاموا بإعداد عدة ممرات جوية مؤقتة تتسع لطائرات مروحية تحمل قوات هائلة قادمة من تركيا، وناقلات جنود من طراز سى ١٣٠ من أماكن أبعد، إذا اقتضى الأمر. (تباطأت تركيا فى ربيع ٢٠٠٣، حتى فى ضمان حقوق الطيران، وقد انتظرت فرقة المشاة الأمريكية الرابعة بأكملها فى سفن حربية على سواحل تركيا، للوصول إلى الخليج ودخول العراق من الكويت.)

أما الموقع الدائم للقوات الأمريكية فى كردستان العراقية، فكان قاعدة كبيرة سابقة للقوات الجوية لصدام فى باشور، فى سهل مستو شمال أربيل. كما وضع فى الاعتبار مناطق أخرى مثل: مطار بغداد الدولى؛ وطليل بالقرب من مدينة الناصرية الشيعية؛ وحقل بالقرب من الموقع الذى أطلق عليه H-1 وهذا البرنامج كان الهدف منه أن يحل محل القواعد الموجودة فى السعودية. وكانت القيادة المركزية الأمريكية قد نقلت مقرها الرئيسى إلى إمارة قطر فى الخليج والكويت؛ منذ عملية عاصفة الصحراء عام ١٩٩١ لطرد قوات صدام من الكويت، وظلت هذه الوحدات قابعة فى قاعدة الأمير سلطان الجوية فى صحراء السعودية.

تم النظر إلى القواعد العسكرية الأمريكية فى العراق كخطوة أخرى ـ عملاقة بالتعبير الاستراتيجى ـ فى التوسع السريع والمستمر للتسهيلات العسكرية الأمريكية التى بدأت فى الشرق الأوسط بإسرائيل، وآسيا الوسطى فى العامين الأخيرين(٣).

ومهدت إسرائيل وبعدها الولايات المتحدة الأرض لعلاقات طويلة الأجل مع الأكراد. وانضم شاه إيران مؤقتاً إلى التحالف، ليتحول الثلاثى إلى رباعى بعد الإطاحة بالحكم الملكى فى العراق عام ١٩٥٨ . واستمر الشاه داخل اللعبة إلى أن خان الأكراد عام ١٩٧٥ .

## أحلام الأكراد الضائعة

تدور بين الأكراد قصة مبنية على أمل لم يتحقق للاستقلال بدولتهم، وأملهم الأكثر تواضعًا، الذى لم يتحقق إلا شمالى العراق منذ ١٩٩١، فى بعض الحرية الحقيقية والحكم الذاتى داخل حدود تركيا والعراق وإيران وسوريا والاتحاد السوفييتى السابق.

ففى أوائل القرن العشرين، خلال عقود موت عدة إمبراطوريات ـ البريطانية والفرنسية والعثمانية وإمبراطورية القياصرة الروس ـ كانت المنطقة الجغرافية المعروفة بكردستان تقع على حدود أماكن متعددة اشتبكت وتصادمت فيها هذه الإمبراطوريات. كانت هذه المنطقة عبارة عن أودية جبلية، تجتاز الحدود التركية والسورية والعراقية والإيرانية. وفى أثناء فترة المقايضة على الأراضى فى إبان الحرب العالمية الأولى مباشرة، نظر رجال الدولة البريطانيون ومن بينهم وينستون تشرشل إلى كردستان كدولة يحتمل أن تقع تحت الحماية البريطانية مثل مصر أو العراق أو فلسطين. إلا أن اتفاق سايكس ـ پيكو كان قد وعد فرنسا بمعظم كردستان، لذلك أعاد المخططون البريطانيون التفكير فى المسألة. وتساءل البعض، «لمَ لا ننشئ عدة دول كردية ذاتية الحكم؟ ويمكن أن «يقود» المستشارون السياسيون البريطانيون شيوخ القبائل». وطُلب من حكومة كليمنصو الفرنسية أن توافق على ذلك من منطلق التحالف الأخوى. وبدأت القوات البريطانية محاولات عقيمة لتنظيم الأكراد العراقيين والسيطرة عليهم عام ١٩١٩ . وعبر ثلاث انتفاضات، انقلب الأكراد عليهم، واضطر البريطانيون

للانسحاب[٤]، ليعودوا بعد ذلك لإخضاعهم، مستخدمين» أسلحة الدمار الشامل، عبر السلاح الجوى الملكى.

وعندما وقَّع الحلفاء والإمبراطورية العثمانية المهزومة على معاهدة «سيفر» عام ١٩٢٠، كان الرئيس الأمريكى المثالى وودرو ويلسون يمضى فى نهجه الخاص به فى أول الأمر. نصت المعاهدة على منح الاستقلال للأكراد فى تركيا وفى الإمبراطورية الروسية، ولكردستان فى المناطق المجاورة لسوريا وتركيا وإيران وفى العراق ـ حيث يعيش ١٨ مليون كردى. وقوبل ذلك المشروع بمعارضة ضارية من قبل الوطنيين الأتراك ولا مبالاة من قبل الحلفاء. وسرعان ما أدار ويلسون ظهره ـ والذى كان يعانى من مرض عضال حطم إرادته ـ لآرائه العظيمة عن حكم شعوب المستعمرات السابقة لأنفسها. فلم تر حرية كردستان ضوء النهار قط.

وبعد محادثات مرهقة تناولت فرض انتداب أمريكى على فلسطين، اقترحت بريطانيا صدور قرارات من عصبة الأمم لغرض الانتداب على أجزاء من شرق تركيا والقسطنطينية (إسطنبول) ومضيق الدردنيل والقوقاز وأرمينيا. وتلاشت معظم هذه الأفكار باستثناء ما يخص أرمينيا. وعندما اقترح ويلسون انتداباً أمريكياً، رفض مجلس الشيوخ الفكرة[٥]. وسرعان ما انهارت أرمينيا «المستقلة» قصيرة العمر، فى ظل التخريب وخروج اللاجئين بسبب المذابح العثمانية عام ١٩١٥ والقتال الذى نشب بعد ذلك، وبعد انضمام بعض الأكراد الأتراك إلى القوات الروسية والتركية.

وانسحقت انتفاضات الفصائل الكردية، وبخاصة التى قامت بها عشيرة فصيلة برزان الهامة ـ والتى قادها فى البداية الشيخ أحمد برزانى، العدو المرعب للقوات التركية والبريطانية، ثم أخوه الملا مصطفى برزانى ـ فى العشرينيات والثلاثينيات. وكان هناك فى الغالب تعاون بين الشاه رضا من إيران وحكام الجمهورية التركية بعد أتاتورك، وعراق نورى السعيد مع دعم البريطانيين. وتغير الموقف الكردى على نحو جذرى بمجرد أن قامت ثورة يوليو ١٩٥٨ بالقضاء على نورى السعيد والحكم الملكى فى العراق وحل محله حكام عسكرين (جاء بعدهم صدام حسين).

انسحب برزانى إلى الاتحاد السوفييتى قبل الحرب العالمية الأولى، وعاد للظهور بالجيش الأحمر لقيادة جمهورية مها أباد الكردية قصيرة الأجل تحت رعاية السوفييت

عام ١٩٤٦ (كان القضاء على الوجود العسكرى السوفييتى فى مقاطعات كردستان وأذربيجان واحداً من انتصارات الرئيس هارى إس. ترومان فى الحرب الباردة الأولى). وبعد عام ١٩٥٨، تعايش برزانى بصعوبة ولفترة مع الحكام العسكريين فى بغداد. وقد قام المقاتلون الأكراد بمديد العون للواءات العراق لذبح معارضيهم البعثيين فى الفترة التى سبقت تولى البعثيين الحكم.

## الأصدقاء الجدد للأكراد: دولة إسرائيل

تراوحت العلاقات بين الفصائل الكردية والقادة العراقيين، فى ظل الأنظمة المتتابعة فى بغداد، بين المواجهة العسكرية وتبادل الأحضان والمصالح. كان العنصر الرئيسى المشترك بينهما هو العداء المتصاعد من جانب الإمبراطورية الإيرانية. فمنذ ١٩٤٧، كانت إيران ترزح تحت القبضة الحديدية لابن الشاه رضا، محمد رضا بهلوى. وقد عاد الشاه للحكم عام ١٩٥٣ على يد وكالة الاستخبارات الأمريكية بناء على طلب حكومتى الولايات المتحدة وبريطانيا وشركات البترول، بعد فاصل قصير من الحكم شبه الديمقراطى لرئيس الوزراء محمد مصدق. تخلى الشاه الجديد عن سياسات أبيه من العمل مع الحكام فى بغداد ضد الأكراد. وبدلاً من ذلك، لجأ إلى استخدام الأكراد كأداة لإضعاف السلطة المركزية فى العراق، التى اعتبرها الشاه تمثل تهديداً له، تماماً كما فعلت إسرائيل الحليف السرى الذى ازداد قرباً منه.

وسريعاً ما بدأت العلاقات الإسرائيلية ـ الكردية. وعانى مؤسسو الموساد من آثار خروج اليهود العراقيين فى الفترة ١٩٤٨ ـ ١٩٥١، وفى مايو ١٩٥١، بعد تسعة أسابيع فقط من توقيع بن جوريون أمر إنشاء الموساد كوكالة مخابرات كاملة، اتخذ الأمن العراقى إجراءاته للرد على ذلك، حيث قبض على جاسوسين إسرائيليين وعشرات العراقيين اليهود والمسلمين الذين تم رشوتهم لإدارة شبكات الهروب. وفى النهاية تم اتهام ٢٨ شخصاً بالتجسس. وتم إعدام عميلين، والحكم بالسجن المؤبد على ١٧ عراقياً، وإطلاق سراح آخرين. ثم تم إطلاق سراح الباقين بعد تعذيبهم تعذيباً مبرحاً. وقد تم إيداع مبلغ محترم من النقود فى حساب وزير الداخلية العراقى فى أحد بنوك سويسرا مقابل إطلاق سراحهم[٦].

واعتقد بن جوريون ومستشاروه، أنه يجب تعويض هذا التراجع فى العراق وعدد من الإخفاقات المخابراتية فى مصر وأماكن أخرى، ووضع قدم لهم فى كردستان، أصبح ذو قيمة عظيمة لإسرائيل فى المستقبل. وقد نظر مؤسسو إسرائيل إلى غير العرب من الأكراد والأتراك والأثيوبيين وغيرهم من الشعوب الأفريقية كرهان ناجح داخل الشرق الأوسط، وفئات خارجة على العرب المسلمين المحيطين بإسرائيل.

قويت هذه النزعة بعد حرب السويس عام ١٩٥٦. فقد أجبرت الضغوط التى مارسها الرئيس أيزنهاور ووزير الخارجية الأمريكى فوستر دالاس على بريطانيا وفرنسا وإسرائيل، أجبرت الدول الثلاث على سحب قواتها من مصر جمال عبد الناصر. وقد جاء ناصر نفسه إلى الحكم عام ١٩٥٢ بمعرفة وكالة الاستخبارات الأمريكية فى القاهرة وموافقتها. وذاع صيته كقائد إقليمى للأغلبية العربية المسلمة الكبيرة. ومن أجل مناوءة ناصر، كان أعداؤه فى الغرب والإسرائيليون يقيمون علاقات مع الدول غير العربية، (بما فيها دول مسلمة مثل تركيا وإيران)، والتى كانت تملك أسبابها الخاصة لمقاومة الناصرية والاتحاد السوفييتى، الذى كان يقوم بتسليح جيش ناصر ويساعد فى تدريبه. كان الموساد هو مهندس هذه الاستراتيجية فى ظل قيادة واحد من أكثر رؤسائه نشاطاً، وهو إيسر هاريل. وأعلن هاريل لاحقًا أنه كان يهدف إلى بناء سد لمواجهة طوفان الناصرية ـ السوفييتية. وبرئاسة نورى السعيد، كانت الحكومة العراقية، المنظمة مع تركيا وإيران وباكستان حلف بغداد تحت رعاية الغرب عام ١٩٥٥، جزءاً من هذا التحالف حتى اندلاع ثورة ١٩٥٨.

أسس الموساد قسماً خاصاً بالعلاقات الخارجية قبل تلك الثورة مباشرة. ورأسه يعقوب كاروز، العميل الذى نُقل من الشين بيت وجهاز الأمن الداخلى للدولة عام ١٩٥٤، ثم خدم فى الموساد فى باريس. وسرعان ما أصبحت إيران الشاه محوراً أساسياً لما أطلق عليه الإسرائيليون الاستراتيجية «الخارجية». وقد اعترفت إيران رسمياً بإسرائيل عام ١٩٥٠، على غرار ما فعلت تركيا. وتم إرسال أحد عملاء «أمان»، المخابرات العسكرية الإسرائيلية، ماكس بينيت، إلى طهران فى أوائل الخمسينيات. ومن هناك أدار عمليات المخابرات ضد العراق ودَعَمَ خروج اليهود العراقيين المستمر إلى إسرائيل. وكان هناك عميل آخر عراقى المولد يدعى يعقوب نمرودى، والذى قضى

أكثر من عقدين، على مدى ثلاث فترات مختلفة بين عامى ١٩٥٥ و١٩٧٨، فى طهران فى ظل حكم الشاه، كممثل للوكالة اليهودية والموساد، وكملحق عسكرى إسرائيلى، وأخيراً كرجل أعمال ناجح كوّن ثروة طائلة من تجارة السلاح.

وبعد حرب السويس، تحسنت العلاقات السرية بين إسرائيل والشاه بسرعة كبيرة. ففى سپتمبر ١٩٥٧، التقى الجنرال تيمور بختيار، وهو أول رئيس للمخابرات الإيرانية المنشأة حديثاً، الساڤاك، والأمن الداخلى، بيعقوب كاروز فى پاريس. وحث إيسر هاريل رئيسة وزراء إسرائيل جولدا مائير بتطوير هذه العلاقة. ونمت بين بختيار وهاريل صداقة شخصية حميمة. وتابع بختيار ذلك، بالإضافة إلى العلاقات الوثيقة بوكالة الاستخبارات الأمريكية، إلى أن أقاله الشاه عام ١٩٦١ (اغتالته الساڤاك فيما بعد أثناء رحلة صيد فى العراق). وضع الشاه ـ مكان بختيار، الجنرال نعمة الله نصيرى، القوى الفاسد، والذى عمل مع الإسرائيليين حتى إقالته عام ١٩٧٨، عندما بدأ نظام الشاه فى الترنح. وفى ربيع عام ١٩٥٩، كان حاييم هرتزوج، رئيس عمليات عمّان، ضيفاً فى إيران على رئيس المخابرات العسكرية الإيرانية الجنرال ألاڤى كيا. وبموافقة شخصية من الشاه وبن جوريون، اتفقا على استمرار التعاون العسكرى والمخابراتى. وأكد تقرير لوكالة الاستخبارات الأمريكية أن إسرائيل «ساهمت فى أنشطة الساڤاك ودعمت الأكراد فى العراق»، وهذه الوثيقة تمت سرقتها من السفارة الأمريكية فى طهران مع غيرها من الوثائق الكثيرة عبر «الطلاب» الثائرين الذين اقتحموا السفارة واتخذوا من العاملين بها رهائن عام ١٩٧٩[٧].

## قاسم ضد الأكراد

بعد إحكام قبضته على السلطة بعد ثورة يوليو ١٩٥٨، دعا اللواء العراقى عبد الكريم قاسم الملا مصطفى برزانى إلى مغادرة منفاه فى الاتحاد السوڤييتى والعودة إلى العراق. لم يستمر شهر العسل بين السلطة والأكراد سوى فترة قصيرة، وحدثت المواجهة الطاحنة بين قوات برزانى والقبائل الكردية المؤيدة للحكومة. وقدمت تلك القبائل للرئيس قاسم، ومن جاء بعده من الحكام مقاتلين أكراد مرتزقة (أطلق عليهم

لقب الجحوش أو الحمير إزدراءً وتهكمًا، وهو تلاعب بالكلمة العربية «جيش»).
وخلال العام الأول من القتال، دمرت قوات قاسم حوالى ٥٠٠ قرية كردية عن طريق القصف الجوى. وفى شتاء عام ١٩٥٨ ـ ١٩٥٩، تحول ٨٠ ألف كردى إلى لاجئين بلا منازل. وفى الوقت نفسه، واصلت بغداد عملية «تعريب» منطقة كركوك الغنية بالبترول. وقد بدأ ذلك بعد اكتشاف احتياطى كبير من البترول هناك أثناء الانتداب البريطانى فى العشرينيات. وبدأت صناعة البترول التى تسيطر عليها الحكومة محاولة «تعريب» الصناعة عن طريق استخدام أعداد كبيرة من العمال العرب بدلاً من الأكراد المحليين. وتدريجيًا، قام البريطانيون والأنظمة العراقية المتتابعة بتحويل كركوك إلى منطقة زراعية خصبة. وبدءًا من الثلاثينيات، أقامت مشاريع رى هائلة فى حاوچية وقراج وقارى تبة حول كركوك. وتم توطين عدة قبائل عرب بدو كبيرة من جنوبى العراق فى الأراضى الخصبة الجديدة[٨].

فى الثامن من فبراير أطاح اللواء عبد السلام عارف بقاسم وقتله فى بغداد. وقد ساهمت وكالة الاستخبارات الأمريكية فى هذه العملية لأسباب تتعلق بالحرب الباردة السوڤييتية ـ الأمريكية، والتى سنتناولها فيما بعد.

حاول عارف أن يحسن علاقته بناصر، الذى كان الشاه يكرهه مثلما تفعل إسرائيل. فأبدى الشاه اهتماماً جديداً بإضعاف العراق. وقام الأكراد العراقيون بقيادة برزانى بعمليات تمرد فى عام ١٩٦١، وهو ما اعتبرته إسرائيل والشاه فكرة جيدة، وقام عارف بتشديد قبضته على البلاد. وشن حربًا متقطعة ولكنها شرسة على الأكراد[٩].

بدأ دعم إسرائيلى جاد للأكراد العراقيين فى قتالهم فى عام ١٩٦٤، حيث أن مائير أميت، الذى حل مكان هاريل فى الموساد، كان أكثر عدوانية تجاه الأنظمة العربية المعادية. والتقى وزير الدفاع الإسرائيلى، شيمون بيريز، سراً بزعيم كردى كبير، وهو خومران على بدير خان، الذى عمل لحساب الموساد فى السنوات الأولى لاستقلال إسرائيل. وفى أغسطس ١٩٦٥، نظم الموساد دورة تدريبية مدتها ثلاثة أشهر ـ وكانت الأولى من نوعها تبعتها أخريات ـ لضباط برزانى من مقاتلى «البيش ميرجا» (وتعنى بالكردية «الذين يواجهون الموت» أو المضحين). وكان الاسم الحركى للعملية هو «مرڤاد» أو (السجادة).

فى أواخر صيف ١٩٦٦، طبقًا لبلاك وموريس، قام رئيس الوزراء الإسرائيلى ليڤى إشكول بتكليف أرييه (ليوڤا) علياف، سكرتير عام حزب العمل الذى كان فى ذلك الوقت عضواً فى الكنيست ونائبًا لوزير مساعد التصنيع والتنمية، بأن يقوم بعمل مسح لكردستان العراق، وأن يتصل ببرزانى. وقام حاييم ليڤاكوف، المقاتل السابق فى الپالماخ والخبير فى الشئون العربية، بإعداد برنامج مساعدة إسرائيلى، وتم إرسال وفد إسرائيلى مصحوباً بمستشفى ميدانى إسرائيلى كامل وفريق إسرائيلى من الأطباء والممرضات إلى قوات برزانى عبر سيارات الجيب والنقل، ربما عن طريق إيران. (حيث قام إشكول ووزير الخارجية أبا إيبان بزيارة طهران سراً فى يونيو ١٩٦٦). وكشف علياف عن تلك المهمة السرية فى مقال له نشر عام ١٩٧٨ بعنوان «مهمة سرية إلى مصطفى برزانى - فى وكر فى كردستان». وقال: إنه عندما وصل الموكب الإسرائيلى للقاء قوات برزانى (ربما فى مكان ما بالقرب من منطقة الحاج عمران، والتى دخلتها وحدى فى زيارتى لكردستان، التى رتبها لى أحمد الجلبى عام ١٩٧٢)، كان فى انتظارهم رجال برزانى وقوة صغيرة من مقاتلى الپيش ميرجا المسلحين. وبعد أن حل الليل، امتطى الزوار الإسرائيليون الأحصنة إلى المقر السرى لبرزانى. وهناك التقوا الزعيم الكردى فى لقاء «ودى». وكانوا يتحدثون اللغة الروسية، التى يجيدها علياف والإسرائيليون المرافقون له، والتى كان يجيدها برزانى بطلاقة بعد نفيه مدة طويلة فى الاتحاد السوڤييتى.

## شهر العسل الإسرائيلى - الكردى

قام علياف بتحية برزانى باسم حكومة إسرائيل، كما قدم تحيات الكنيست إلى برزانى فى صورة ميدالية ذهبية خاصة، تم سكها احتفالاً بافتتاح الكنيست المنتخب حديثاً. وتمت مناقشة الأشكال التى يمكن أن تتخذها المساعدة الإسرائيلية، بجانب الأسلحة والتدريب العسكرى. وتم إعداد المستشفى الميدانى الذى وصفه علياف بأنه «هدية عظيمة» لبرزانى. وقام أحد أعضاء الوفد وكان طبيباً للأسنان، بمعالجة أسنان برزانى التى كانت تسبب له «ألمًا مبرحًا». وقبل رحيل الإسرائيليين، طلب برزانى من علياف أن يخبر «رئيس الوزراء والوزراء أننا أخوة ولن ننسى أنكم - اليهود - كنتم

الشعب والبلد الوحيد الذى ساعدنا وقت الشدة». بعد ذلك، سحب خنجره الكردى المزين بالنقوش وقدمه إلى علياف وأعطاه آخر ليقدمه لرئيس الكنيست.

وعندما ظهر مقال الياف فى إسرائيل فى مايو ١٩٧٨، كان برزانى قد أصبح رجلاً مريضاً منهزماً ومنكسراً، يقضى شهوره الأخيرة على معاش وكالة الاستخبارات الأمريكية فى فنادق واشنطن وغرف المستشفيات. وعلق علياف على ذلك قائلاً:

«يقترب برزانى الآن من نهاية حياته... منذ أشهر قليلة ماضية، تلقيت تحيات دافئة منه عن طريق ستيفن سولارز عضو الكونجرس، يهودى وأحد أفضل أصدقاء إسرائيل فى الكونجرس... آمل واعتقد أن الأمر لم ينته بالنسبة للأكراد، كما أن الفصل الأخير، المتصل بالأعمال والبطولات الشجاعة لإلحاق الهزيمة بأعدائهم لكى يحيوا حياة الحرية لم يكتب بعد»[١٠].

وخلال شهر العسل السرى الكردى ـ الإسرائيلى، قام برزانى بعدة رحلات سرية لإسرائيل. وتم اصطحابه فى جولات إلى الكيبوتزات (المزارع الجماعية) مع صحفيين وسياسيين، من ضمنهم مناحم بيجين، حيث أقسموا جميعاً على التزام الصمت. ويبدو أن الموساد والساڤاك ساعدوا الأكراد فى إنشاء تأسيس مخابرات كردية، أطلق عليها اسم «الپاراستين». وذكرت التقارير أن الچنرال موردخاى هود، والذى تولى فيما بعد رئاسة أركان جيش الدفاع الإسرائيلى، كان المسئول عن التنسيق مع برزانى. أما الضابط الإسرائيلى الذى أرسل إلى مقر برزانى ليكون همزة الوصل فكان الميجور إلياهو كوهين.

كان چاك أندرسون ـ الصحفى الأمريكى وكاتب الأعمدة ـ واحداً من أكثر المراقبين الأمريكيين المعاصرين اهتمامًا بتطورات العلاقة الإسرائيلية ـ الكردية، وذلك قبل أن تقطعها بوقاحة صفقة الشاه مع صدام حسين عام ١٩٧٥. وفى يوم ١٧ سبتمبر ١٩٧٢، أعلن أندرسون أن هناك مبعوثًا إسرائيليًا سيظهر فى جبال برزانى كل شهر حاملاً ٥٠ ألف دولار أمريكى نقدًا لبرزانى، وهو ما تم إنكاره بشدة فيما بعد. ومن خلال أحد تقارير وكالة الاستخبارات الأمريكية، أشار أندرسون إلى أن برزانى فى المقابل «يواصل جمع الرجال والمعدات» للهجوم على الجيش العراقى. وأضاف

أندرسون أن الچنرال زيفى زامير، رئيس الموساد، قام بزيارة برزانى مرة واحدة على الأقل لمناقشة تجديد أو استمرار المساعدات الكردية من أجل تهريب اليهود العراقيين الذين كانوا لا يزالون يرحلون إلى إسرائيل[١١].

وكان لى دينسمور، مسئول الخارجية الأمريكية، الذى عمل كقنصل أمريكى فى كركوك فى بداية التقارب الإسرائيلى ـ الكردى، كان مراقباً سلبياً. فقبل عام ١٩٧٢، كانت الولايات المتحدة مجرد شريك صامت أكثر منها معارضة للعلاقة الإسرائيلية ـ الكردية. وقد كتب دينسمور عام ١٩٧٧ يقول بأن «إسرائيل قامت بتدريب المتمردين الأكراد فى إحدى مناطق إيران» وهى عملية أعدها سافاك الشاه[١٢].

وعلى ضوء الروابط الأمريكية ـ الإسرائيلية ـ الكردية الوثيقة، التى قويت بعد سقوط صدام حسين عام ٢٠٠٣، يزعم بعض الأكاديميين المتعاطفين مع قضايا الأكراد واليهود أن معظم اليهود فى العالم أقرب وراثياً إلى الأكراد (الذين ليسوا من الناحية الأنثروپولوچية ساميين) عنهم إلى العرب الساميين. ففى تقرير صدر عام ٢٠٠١ لفريق من العلماء الإسرائيليين والألمان واليهود أجروا بحثاً على ٥٢٦ كروموسوم واى من ست مجموعات ـ اليهود الأكراد والأكراد المسلمون والعرب الفلسطينيون واليهود السفارديم واليهود الأشكناز والبدو من منطقة النقب جنوبى إسرائيل ـ أشار إلى أن اليهود الأكراد واليهود السفارديم «هم الأقرب إلى بعضهما البعض». ووجد الباحثون أنفسهم أن:

«الشعب اليهودى بدأ وجوده فى منطقة فى كردستان أو بالقرب منها، قبل الهجرة نحو الجنوب الشرقى إلى إسرائيل. وهذا البحث المثير، الذى يوضح أن الأكراد واليهود ربما كان لهم أجداد مشتركون منذ عدة مئات من السنين، يشجع الأكراد واليهود على استكشاف ثقافة بعضهما البعض والاحتفاظ بالصداقة التى يتمتع بها الأكراد واليهود الآن شمالى العراق فى الوقت الحاضر»[١٣].

وفى مناقشة صريحة لقيمة العلاقة الكردية بالنسبة لإسرائيل، يقول الكاتب إليعازر تسافرير، مؤلف كتاب «أنا كردى»، إن المشروع كان «فرصة لإلهاء القوات العراقية عن إسرائيل، حيث مكننا من تهريب ألفى يهودى كانوا لا يزالون يعيشون فى العراق،

ومنحنا الفرصة لكى نقوى علاقتنا بشاه إيران محمد رضا بهلوى». ونظرت إسرائيل إلى الشاه على أنه حليف مقرب، وإلى طهران «كموقع قيادة خلفى للعمليات الإسرائيلية فى كردستان».

ويفخر المعلقون الإسرائيليون بواحد من الانتصارات العراقية ـ الكردية الأولى الكبرى لدولتهم على قوات الحكومة العراقية برئاسة اللواء عبد الرحمن عارف. فالإسرائيليون يزعمون، وهذا لم ينشر فى ذلك الوقت، لكن الولايات المتحدة وديبلوماسيين آخرين قريبين من المشهد عرفوا به، أنه فى ١٢ مايو ١٩٦٦، قاد ضابط إسرائيلى شاب من قوات المظلات، اسمه تسورى ساجوى، مقاتلى برزانى فى كمين أطاح بلواء كامل من الجيش العراقى [١٤].

## دور العم سام

تطور الدور الأمريكى فى العلاقة الثلاثية الأمريكية ـ الإسرائيلية ـ الكردية تدريجياً من المراقبة الأكثر أو الأقل تعاطفاً التى تم تبنيها فى البداية، إلى مشاركة أكثر فعالية. وفى أغسطس ١٩٦٩، نُشر أن برزانى استقبل فى مقره مسئولين أمريكيين من القيادة المركزية الأمريكية «السنتو ـ CENTO»، التى نشأت عن حلف بغداد ١٩٥٥، وهما الجنرال الأمريكى أنتونى ديڤيرى هانتر وضابط آخر عرف باسم پيركينز. وهبطت طائرتهما فى مهبط طائرات فى مكان ما بالقرب من مقر برزانى (ربما يكون أحد الممرات التى تم توسيعها ليتحول إلى قاعدة أمريكية بحلول ٢٠٠٣)، ورحلا بعد مداولات طويلة. وعاد پيركينز بعد يومين بصحبة أربع شخصيات أمريكية أخرى لتوقيع اتفاق سرى، يمنح بمقتضاه الملا مصطفى برزانى ١٤ مليون دولار أمريكى.

وكان الاتفاق، كنوع من الوثائق التى تضع ركائز تحالف أمريكى كردى راسخ، ينص على السرية التامة. وقيل إن الغرض من التمرد هو الإطاحة بالنظام البعثى (الذى ساهمت وكالة الاستخبارات الأمريكى فية وصوله إلى السلطة). وبمجرد الانتهاء من ذلك، تصبح الولايات المتحدة صاحب القرار الوحيد فى وجوب استمرار حركة التمرد الكردى من عدمه. وكان يمكن أن تواصل الولايات المتحدة دعم هذه الحركة فقط فى

حالة عدم تجاوز الأكراد حدود الحكم الذاتى باحثين عن دولة كردية مستقلة ( فقد كان هذا كفيل بإثارة غضب كل من فى المنطقة، ربما باستثناء إسرائيل). وكان على الأكراد الإذعان للأوامر الأمريكية المجازفة بخسارة المساعدات الأمريكية. ولم يكن مسموحاً للأكراد العراقيين بفعل شىء، خاصة فى ظل دعم الأكراد الإيرانيين، يضر بحكومة إيران أو استقرارها. وفى المقابل، كان على الشاه تحمل مسئولية ألا يصيب الأكراد العراقيين أى ضرر. واستوجب ذلك استبعاد الشيوعيين من الحركة (الذين كانوا من أهم مناصرى الأكراد إلى أن تم ذبحهم بواسطة البعثيين بمساعدة وكالة الاستخبارات الأمريكية)، حيث لا يقعون تحت حمايتها. وكان ذلك يعنى أيضاً عدم وجود أى دعم من الحليف والمضيف السابق لبرزانى ـ الاتحاد السوڤييتى. وفى حالة قيام موسكو بتقديم أى عروض للمساعدة، كان على الأكراد أن يبلغوا الولايات المتحدة على الفور. وكان على واشنطن تحديد كميات ومستويات المساعدة العسكرية والمالية(١٥).

كان هنرى إيه. كيسنجر، الذى شغل منصب وزير خارجية الولايات المتحدة من سپتمبر ١٩٧٣ حتى يناير ١٩٧٧، ومستشاراً للأمن القومى من يناير ١٩٦٩ حتى نوڤمبر ١٩٧٥، يقرر معظم السياسات الخارجية للولايات المتحدة خلال تلك السنوات، وبالتالى كان يتمتع بنفوذ عظيم كمستشار للحكومات والمؤسسات التى تدير شئون العالم. وفى الجزء الثالث والأخير من مذكراته، سنوات التجديد (دار نشر سيمون شوستر ١٩٩٩)، أفرد كيسنجر فصلاً بأكمله للتراجيديا الأمريكية ـ الإسرائيلية ـ الإيرانية ـ الكردية التى عُرضت فى السبعينيات. ويجب على من يسعى لفهم أسس سياسات إدارة بوش تجاه العراق منذ ٢٠٠٣ وما بعدها أن يعيد قراءة ذلك الكتاب.

أوضح كيسنجر أن «إنقاذ» الأكراد العراقيين من قبضة نظام بغداد كان يتطلب إمدادات هائلة من جانب الولايات المتحدة على الحدود السوڤييتية، فى حجم يماثل ما أرسلته فى الحرب الخاسرة فى الهند الصينية. ونسب صعوبة ذلك إلى «ضعف» العلاقات بين الشرق والغرب وعدم تحسن مفاوضات السلام العربية ـ الإسرائيلية. ووقعت إدارة نيكسون تحت وابل من النقد اللاذع بسبب حرب ڤيتنام وعمليات وكالة الاستخبارات الأمريكية «المتهورة». فكان يجب تقييم الرغبة فى دعم الأكراد على

ضوء الصعوبات العسكرية الخاصة بإعاشتهم فى جبالهم البعيدة، والمخاطرة بمعاداة الأصدقاء والحلفاء العرب أباطرة البترول.

ويشير كيسنجر إلى أنه فى ظل توجيهاته، أصبحت إدارتا نيكسون وفورد حليفتين وثيقتى الصلة بإسرائيل والشاه الإيرانى، وأول من يقدم دعماً أمريكياً مباشراً لهما. ونشأ تحالف عام ١٩٧٢ من خلال زيارة نيكسون لشاه إيران فى مايو من ذلك العام، بعد اجتماع القمة الذى عقده مع الرئيس السوڤييتى ليونيد بريجينيف فى موسكو. وحسب رؤية نيكسون وكيسنجر، كان صدام حسين ـ نائب الرئيس العراقى القومى، يزداد اقتراباً من موسكو. وفى الوقت نفسه كان الرئيس المصرى أنور السادات، إبان وفاة ناصر عام ١٩٧٠، يواجه مشكلة إخراج آلاف المستشارين العسكريين والمدربين والخبراء السوڤييت (بما فى ذلك الطيارين العسكريين) والذين يشكلون وجوداً استراتيجيًا سوڤييتيًا متناميًا فى الشرق الأوسط.

## محور نيكسون ـ كيسنجر ـ الشاه

بحلول خريف عام ١٩٧١، انهارت اتفاقية الحكم الذاتى بين نظام صدام حسين والأكراد العراقيين، والتى تم توقيعها فى ١١ مارس ١٩٧٠. وبعد أن فشل القاتل الذى أرسله صدام لاغتيال مصطفى برزانى، استأنف أكراد برزانى القتال، كما رأينا، بمساعدة إسرائيلية وإيرانية. وحث الشاه نيكسون ـ على الأقل مرتين، واحدة فى نوڤمبر ١٩٧١ والأخرى فى مارس ١٩٧٢ ـ على الانضمام إليه فى مساعدة برزانى. وفى يوم ٢٨ مارس ١٩٧٢، مرر الملك حسين عاهل الأردن، وأحد الشركاء الصامتين الآخرين للأكراد العراقيين، طلباً موجهاً من برزانى إلى نيكسون لنيل مساعدته. وامتنع كيسنجر عن إرسال دعم أمريكى مباشر إلى أن وقَّع الزعيم السوڤييتى إليكسى كوسيجن معاهدة الصداقة مع العراق فى ٩ أبريل ١٩٧٢، والتى وفرت لصدام حسين كميات هائلة من الأسلحة السوڤييتية. وفى تلك الأثناء، استقبل الشاه نيكسون وكيسنجر على نحو يليق بالأبهة الملكية فى طهران، في الفترة من ٣٠ إلى ٣١ مايو ١٩٧٢، وذكّرهما الشاه بأن هناك تحالفًا سوڤييتيّا ـ بعثيًا حميمًا يلوح فى الأفق. وقد

طلب المزيد من الأسلحة الأمريكية الجديدة، وبخاصة الطائرات، لمواكبة الإمدادات السوفييتية للعراق. وقد حصل على تفويض باختيار ما يريد من طائرات إف ـ ١٥ التابعة للسلاح الجوى الأمريكى، أو إف ـ ١٤ التابعة للأسطول، وأدى ذلك إلى أن أصبحت الأسلحة المباعة للشاه مثل مثيلتها التى تمنحها واشنطن لحليفتها الرئيسية الأخيرة فى الشرق الأوسط، إسرائيل.

بعد تفكير عميق والكثير من الجدل بين الإدارة والكونجرس، وافق نيكسون أخيراً على البرنامج السرى لمساعدة الأكراد، المشار إليه آنفاً، فى ١ أغسطس ١٩٧٢. وبلغ إجمالى المساعدات الإسرائيلية والإيرانية وبعض المساعدة البريطانية للأكراد ـ حوالى مليون دولار شهرياً.

وفى يوليو ١٩٧٢ صعَّد الرئيس السادات من تأجج الحرب الباردة فى الشرق الأوسط، الأمر الذى حاز رضا واشنطن الهائل، وذلك عندما طرد القوات السوفييتية والمستشارين السوفييت من مصر. وعلى الفور، مارس الكرملين، ممثلاً فى ميخائيل سوسلوف عضو المكتب السياسى للحزب الشيوعى، المزيد من الضغوط على برزانى لمصالحة نظام بغداد، لكى يزداد اقتراباً من موسكو.

وقد استمر القتال الكردى ضد الجيش العراقى، حتى قطعه وقف إطلاق نار قصير. وبمساعدة أحمد جلبى، والذى كان يدرس الرياضيات فى بيروت، سافرتُ إلى طهران وكردستان للقاء ريتشارد هلمز (المدير السابق لوكالة الاستخبارات الأمريكية والذى كان يشغل منصب سفير للولايات المتحدة فى إيران) وبرزانى وأخيراً الشاه ـ فى طريق عودتى من مقر برزانى ـ والذى سلمت له المزيد من طلبات برزانى للمساعدة. ولم يكن لدىّ أدنى فكرة عن معظم الجهود المشتركة التى يبذلها كيسنجر والمدير الجديد لوكالة الاستخبارات الأمريكية، جيمس شليسنجر، التى راقت لنيكسون، لتقديم المزيد من المساعدات الأمريكية للأكراد. وكان من رأى كيسنجر أن عراق البعث قد أصبح العميل الوحيد للسوفييت فى المنطقة. علاوة على ذلك كان صدام حسين يدعم المحاربين الفلسطينيين إلى جانب جهود «الرافضين» من الدول العربية المناوئة للسادات لتدمير مبادرة السلام العربى ـ الإسرائيلى التى يقودها السادات. أما الشاه

فكان يتفوق على الجهود الأمريكية والإسرائيلية المستمرة المتمثلة فى الدعم المادى والعسكرى للأكراد عبر الحدود الإيرانية .

وتدخلت إسرائيل بصورة أكثر فعالية فى اللعبة الكردية بعد اشتعال حرب أكتوبر ١٩٧٣ فى الشرق الأوسط ، عبر هجوم عربى مفاجئ، من أجل استعادة سيناء والجولان من إسرائيل التى كانت تحتلهما ، ومن أجل جذب الولايات المتحدة، من منظور السادات إلى المشاركة فى عملية السلام فى الشرق الأوسط . واقترح الضباط الإسرائيليون المتصلون بالأكراد أن يقوم التحالف، الذى تقوده الولايات المتحدة، بتشجيع المعارضة الكردية الرئيسية فى العراق على زعزعة نظام صدام حسين والإطاحة به إن أمكن ، الأمر الذى رفضه نيكسون وكيسنجر . واعتبر بعض النقاد ذلك أول فرصة كبيرة تضيع للتخلص من البعثيين .

وفى كتابه «سنوات التجديد» ، أبدى كيسنجر رؤية غير صائبة حول مشاركة الجيش العراقى فى حرب أكتوبر ١٩٧٣ ، والتى سنتناولها باستفاضة فى الفصل التالى . وقد أشار على نحو صحيح إلى نجاح القوات الكردية فى تقييد ثلثى قوات الجيش العراقى ، من أجل إبعاده عن الجبهة السورية . أما ما أخطأ فيه ، رغم ذلك ، فهو التقليل من أهمية الدور الذى قامت به ألوية الدبابات العراقية المشاركة فى القتال ، والتى جاءت متأخرة إلى الجبهة لصد الهجوم المضاد للقوات الإسرائيلية التى كانت تتقدم صوب دمشق . وقد رفض كل من ويليام كولبى ، الحديث العهد كمدير لوكالة الاستخبارات الأمريكية خلفاً لشليسنجر ، والشاه ، طلب برزانى الخاص بالقيام بهجوم خارج التلال الكردية . وكانت معدات مقاتلى برزانى عاجزة عن مواجهة القوات البرية والجوية العراقية فى التلال المنخفضة والأراضى المنبسطة . ويرى كيسنجر أن القيام بما يخالف ذلك «كان من شأنه القضاء على الأكراد دون مساعدة إسرائيل» . وفى اللحظة التى تلقى فيها برزانى فرمان كيسنجر ، كانت القوات الإسرائيلية ، بقيادة الچنرال أرييل شارون ، تعبر قناة السويس فى هجومها المضاد الناجح ضد السادات[١٦] .

## معادلة البترول

مع انتهاء حرب أكتوبر ١٩٧٣ ، كانت هناك أزمة بترولية طاحنة تعصف بالعالم

الغربى. وقد تفاقمت هذه الأزمة بسبب نقص البترول والحظر الذى فرضه العراق والسعودية وغيرهما من الدول العربية المنتجة للبترول. وقد ساهم فى خلق الغموض الذى أصبح سمة للعلاقات الأمريكية العراقية حتى المواجهة الأخيرة مع صدام حسين فى حرب ٢٠٠٣. وبينما كانت لدى إسرائيل، الحليف الأقرب لأمريكا، أسباب مبالغ فيها للنظر إلى العراق كعدو استراتيجى، بدأ صانعو السياسة الأمريكية إدراك أنه ربما يكون شريكاً مفيداً.

وفى الأول من يناير ٢٠٠٤، وفى ظل القانون الذى يسمح بالإفراج عن الوثائق السرية بعد مضى ثلاثين عاماً، نشرت حكومة تونى بلير، الحليف الوثيق للرئيس چورج دبليو بوش فى مغامرة العراق، بعض الوثائق غير العادية، والتى تحظى بالسرية حتى اليوم، حول الشرق الأوسط فى السبعينات.

وأظهرت الملفات المفرج عنها من ١٠ داونـنج ستريت أن حكومة رئيس الوزراء البريطانى تيد هيث كانت تخشى من قيام الرئيس نيكسون وهنرى كيسنجر بالتخطيط لغزو المملكة العربية السعودية ودول الخليج العربى للاستيلاء على مواردها البترولية من أجل تأمين تدفق البترول على الولايات المتحدة، حيث أثار ارتفاع سعر البترول العربى والعالمى بنسبة ١٠٠٪ ذعر رجال الصناعة والمستهلكين.

وقد تلقى رئيس الوزراء البريطانى تقريراً من پيرسى كرادوك - رئيس لجنة المخابرات البريطانية - مكوناً من ٢٢ صفحة، وذلك فى شهر ديسمبر، جاء فيه أنه من المتوقع قيام الأمريكيين بالاستيلاء على مناطق إنتاج البترول. وأضاف التقرير إلى احتمال أن يؤدى ذلك إلى نشوب حرب عربية - إسرائيلية جديدة، تقودها دول مثل العراق، وفرض حظر بترولى على الغرب. وحذر تقرير كرادوك من أن:

«ربما ترى الولايات المتحدة أنه لا يمكنها أن تتحمل وضعاً تكون فيه وحلفاؤها (بما فيهم إسرائيل) تحت رحمة دول غير عاقلة. ونعتقد أن الأمريكيين قد يلجأون إلى عملية خاطفة يقومون بها بأنفسهم للاستيلاء على حقول البترول».

ويدحض أحد كبار المسئولين فى وكالة الاستخبارات الأمريكية، والذى كان يعمل فى ذلك الوقت فى منطقة الشرق الأوسط، ولعب دوراً بارزاً فى هذه الأحداث، هذه

النظرية التى كان يراها بعض الإسرائيليين وكبار المحللين البريطانيين، والقائلة بأن الثنائى كيسنجر ونيكسون كانا يخططان بالفعل لتنفيذ هذه العملية. وقد رأى أن چيمس شليسنجر أصدر هذه «التصريحات المبالغ فيها إلى حد بعيد»، كما يطلق عليها المسئول السابق فى وكالة الاستخبارات الأمريكية، من أجل استفزاز مستمعيه وزيادة أهميته. وربما يرجع سبب ذلك إلى غيرته من منافسه فى لعبة القوى فى واشنطن، هنرى كيسنجر، ولجوئه إلى تلك التكتيكات عند الضرورة. وأكد محدثى أن مثل هذه الخطط الأمريكية - مثلها مثل التى تضعها الدول الكبرى لمواجهة هذه المواقف الاستراتيچية - للاستيلاء على حقول البترول العربية كانت موجودة بالتأكيد. والواقع أن بعض المعلقين الأمريكيين قد أعلنوا تأييدهم للسيطرة على حقول البترول من أجل توفير البترول بسعر معقول للمستهلكين الأمريكيين، والذى كان يأتى معظمه من السعودية وإيران والخليج العربى والعراق. ومع ذلك، يرى المسئول السابق فى وكالة الاستخبارات الأمريكية، أن مخاوف رئيس الوزراء البريطانى إدوارد هيث بشأن تصرف أهوج من قبل حليفه الأمريكى، لم يكن لها ما يبررها[١٧].

## العراق والأكراد فى غمار الحرب الباردة

فى الشهور والسنوات التى تلت حرب ١٩٧٣ فى الشرق الأوسط، تصاعد الاهتمام الإسرائيلى والأمريكى بالعراق بصورة عظيمة. وبالنسبة لواضعى السياسات فى القدس، كان العراق يمثل تهديداً متزايداً كعدو استراتيچى وتجب مراقبته بحذر. وعندما رأى السوڤييت المساعدات العسكرية الهائلة تتدفق على مصر، زادوا من مساعداتهم للرئيس العراقى حسن البكر شريكهم الأكثر قوة، ونائبه صدام حسين، فبدءوا فى إرسال المدفعية الروسية الثقيلة. وأدى ذلك إلى مساعدة القوات العراقية على وقف انسحابها من نقاطها القوية فى الجبال الكردية وتقوية هذه المواقع. ومنحهم ذلك مواقع أكثر تميزاً للهجوم منها فى صيف ١٩٧٤، حيث كانت قيادة نيكسون - كيسنجر مشلولة ومقيدة بسبب فضيحة ووترجيت والتى أدت إلى استقالة نيكسون.

قبل ذلك، فى ١١ مارس ١٩٧٤، وبعد أربع سنوات من الاقتراح البعثى بمنح الأكراد «حكمًا ذاتيا» إقليميا، عرضت بغداد على الأكراد مشروعاً جديداً جاء للحكم

الذاتى، ولكنه فى الواقع يفرض سيطرة مركزية أقوى على كردستان من قبل بغداد. ولأن رفض الملا مصطفى برزانى كان متوقعاً، انتهى الأمر إلى إنذار.

ودقت أجراس الخطر فى طهران وتل أبيب. وحذر الشاه واشنطن من أن هزيمة الأكراد ستزيد من قوة بغداد، بالإضافة إلى الحلفاء السوفيت، مما يهدد البترول الإيرانى والغربى ومصالح أخرى فى منطقة الخليج. وفى العديد من اللقاءات مع كيسنجر أثناء جولاته «المكوكية» بين القدس والقاهرة ودمشق، اقترحت رئيسة الوزراء الإسرائيلية جولدا مائير أن تزيد إسرائيل مساعداتها للأكراد. وعلى الفور رفع برزانى مطالبه المالية والسياسية. وفى ١٦ مارس ١٩٧٤، طلب من الولايات المتحدة ١٨٠ مليون دولار لدعم «الحكم الذاتى الكامل» أو تقديم ٣٦٠ مليون دولار لإنشاء ما أطلق عليه قاعدة مناسبة لإقامة دولة كردية مستقلة تماماً. وأعلن كيسنجر للمراسلين الذين صاحبوه فى جولاته المكوكية أنه يرى أن طلبات برزانى تتجاوز الحدود. وفى ظل ووترجيت، كان الكونجرس يقتطع المساعدات المقدمة للمعارك الناشبة. وأبدى ويليام كولبى، مدير وكالة الاستخبارات الأمريكية، اعتراضه على زيادة المساعدات للأكراد. ومع ذلك فقد اتفق كيسنجر - كمستشار للأمن القومى - مع رأى الشاه وإسرائيل. وقد طلب من السفير ريتشارد هلمز ومستشار البيت الأبيض برينت سكوكورف أن يقدما عرضاً لهذه الزيادة. وفى بداية أبريل ١٩٧٤، أوصيا بزيادة المساهمة الأمريكية السرية من ٥ ملايين دولار إلى ٨ ملايين دولار. أما المساعدة العلنية فقدمت مليون دولار آخر للاجئين الأكراد. ورفع الشاه نصيبه فى برنامج المساعدة الكردى من ٣٠ إلى ٧٠ مليون دولار سنويًا. وأبقت بريطانيا وإسرائيل على مساهمتيهما فى المستويات السائدة.

استخدمت هذه الموارد بعد بطريقة غير منضبطة؛ لأن اللاعبين الأساسيين - إسرائيل والشاه ووكالة الاستخبارات الأمريكية - كان لكل منهم أجندة مختلفة. فقد كانت وكالة الاستخبارات الأمريكية فى عهد ويليام كولبى منهمكة فى محاولة مراوغة الكونجرس الأمريكى الذى كان يشعر بالأسى بسبب حرب ڤيتنام وفوضى وكالة الاستخبارات الأمريكية فى الماضى. وأراد الشاه حماية الجبهة الإيرانية من الاعتداء العراقى وعزل الأكراد الإيرانيين عن أى تمرد محتمل. أما إسرائيل فقد أرادت أن يستمر الوضع المشتعل فى كردستان لكى يفقد لواءات بغداد توازنهم ويتورعون عن دعم أى حملات جديدة على الدولة اليهودية.

أما برزانى فكان لا يزال طموحاً. ففى بداية سپتمبر ١٩٧٤، حيث كانت واشنطن شبه مشلولة بسبب فضيحة ووترجيت ورد الفعل السلبى للكونجرس الأمريكى إزاء الغزو التركى فى الصيف على قبرص، مما نتج عنه إغلاق معظم القواعد الأمريكية فى تركيا، طالب برزانى فجأة بدعم الولايات المتحدة التقدم الكردى للاستيلاء على حقول البترول فى كركوك. وأعلن كيسنجر أنه رفض ذلك تجنباً لتفاقم أزمة الطاقة الخطيرة فى الولايات المتحدة من خلال إشعال العنف فى حقول البترول فى الشرق الأوسط، داخل العراق وخارجه. كما أقنع چيرالد فورد، الذى أصبح الآن رئيساً لأمريكا بعد استقالة نيكسون بسبب ووترجيت، أن خطة الشاه بإرسال قوات إيرانية نظامية إلى كردستان لتدعيم القوات المنتشرة هناك بالفعل، متنكرين فى زى الأكراد، «خطيرة جدا». واستطاع كيسنجر، مع سمحا دينتز، السفير الإسرائيلى صاحب النفوذ فى الولايات المتحدة، أن يحمل فورد فى يوم ٢٦ أغسطس على أن يوافق على تقديم أسلحة قيمتها ٢٨ مليون دولار إلى الأكراد، والتى استولت عليها إسرائيل من العرب خلال حرب ١٩٧٣. وتم تعويض إسرائيل بأسلحة أمريكية «مناسبة».

وواصل برزانى ورجاله طلب المساعدات من حلفائهم الأجانب للوقوف فى وجه قوات صدام، التى كانت تحقق الانتصارات فى أواخر عام ١٩٧٤. بحلول شتاء ١٩٧٤ ـ ١٩٧٥، فكر الشاه فى تهدئة صدام حسين من خلال تسوية بعض الخلافات بينهما. فى أثناء لقائه بكيسنجر فى زيوريخ يوم ١٨ فبراير ١٩٧٥ ـ أثناء نزهة للشاه للتزحلق على الجليد فى مدينة شتاد بسويسرا، ونهاية واحدة من جولات كيسنجر المكوكية «الاستكشافية» للسلام فى الشرق الأوسط، قال الشاه الإيرانى لكيسنجر إنه يخطط للتفاوض مع صدام حسين. وعلى الفور أبلغ كيسنجر الرئيس فورد أن الشاه يريد «التحرك فى اتجاه تحقيق بعض التفاهم مع العراق بشأن الأكراد»، لكنه سيواصل دعمهم فى الوقت الحالى.

وعبر كيسنجر عن كراهيته الشخصية لنية الشاه الواضحة فى التضحية بالأكراد مقابل الحصول على علاقة أفضل مع صدام حسين. وفى يوم ٢٢ فبراير، أخطر السفير الإسرائيلى دينتز بنوايا الشاه. وسرعان ما تحققت مخاوفه. ففى يوم ٦ مارس، التقى الشاه وصدام سراً على هامش مؤتمر منظمة الدول المصدرة للبترول (أوپك) فى

الجزائر. وحسب وصف أحد زعماء الأكراد، «لقد ألقوا بالأكراد فى سلة القمامة». ووافق صدام رسمياً على المطالب الإيرانية، الخاصة بالأراضى المتنازع عليها بما فى ذلك تسوية النزاع على حدود شط العرب لمصلحة إيران. فى المقابل، تخلى الشاه عن الأكراد. وعلى الفور أغلق حدود إيران مع العراق. وفى غضون ساعات، كان الإيرانيون ينسحبون من دولة برزانى. وتم قطع جميع خطوط الإمداد الإيرانية عن الأكراد. وبدأت المقاومة الكردية تتفتت. خلال أيام قلائل اقتربت من الانهيار التام. وواصلت حكومة صدام طرد الأكراد على نطاق واسع. وتمت إعادة توطين آلاف الأكراد جنوبى العراق وأرسل العرب إلى كردستان للاستيلاء على حقولهم ومواشيهم والعديد من ممتلكاتهم بالإضافة إلى عقاراتهم[١٨].

ويرى كيسنجر أن الشاه قد خدعه بشأن نواياه الوشيكة فى رسالته إلى وزير الدفاع الإسرائيلى إسحاق رابين يوم ٩ مارس، حينما أصر على أن الصفقة الوشيكة مع صدام مجرد «احتمال». وأعلن كيسنجر أنه أرسل برقية «فاترة» للشاه يوم ١٠ مارس، اعترض فيها صراحة على صفقة الجزائر، ولكنه أشار فيها إلى «أنه يدرك أن هذا أمر يعود إلى تقرير جلالتكم بما يخدم مصالح أمتكم بصورة أفضل»، وأن دعم الولايات المتحدة لإيران «كصديق مقرب ومخلص للولايات المتحدة» سيستمر. ويؤكد أنه رغم عاصفة الانتقادات التى وجهت له ولسياسته تجاه الأكراد فى واشنطن وخارجها، وعروض كولبى مدير وكالة الاستخبارات الأمريكية باستمرار المساعدات، إلا أن القرار يعود للشاه. وأضاف أن الولايات المتحدة قد علق بها الكثير من الأوحال بعد فضيحة ووترجيت وحروب الهند الصينية، ولا تستطيع أن تمضى وحدها فى سياسة مساعدة الأكراد. ورد كيسنجر باقتضاب كعادته على انتقادات كولبى وغيره قائلاً بأن «العمليات السرية ليست إرساليات تبشير». وقرر رابين وبقية الزعماء الإسرائيليين أن يحذوا حذو الشاه. فسحبوا دعمهم المتواضع، وكذلك فعلت بريطانيا.

ويبدى كيسنجر بعض الندم بشأن الاتهامات الخاصة بالاعتداءات الأخرى لصدام على الأكراد، بما فى ذلك قصفهم بالغازات السامة فى حلابجة وغيرها أثناء الحرب الإيرانية العراقية فى الثمانينيات. ومع إنه يختتم ذكرياته حول المغامرات الكردية فى السبعينات بالقول بأن الثلاثى المتمثل فى الشاه ـ إسرائيل ـ الولايات المتحدة لو تصرف على نحو مخالف، ربما ساءت الأمور أكثر من ذلك.

كانت هذه هى النهاية المأساوية للأكراد فى تلك الحقبة المؤسفة من قصة التحالف الثلاثى ضد العراق، والتى دارت أحداثها فى الوقت الذى بدأت فيه الولايات المتحدة وبريطانيا تفكران فى المزايا المحتملة للتعاون مع صدام، على الأقل فى طى الكتمان. ويتناول موضوعنا التالى المساعدات التى قدمت لصدام، والشراكة التى أعقبت ذلك.

* * *

# الفصل السادس

# كيف رفعت الـ .C.I.A صدام لأعلى



**دعنى أقول لك أننى أعرف يقينًا أن الذى حدث فى شهر فبراير عام ١٩٦٣م، حاز بدعم من المخابرات الأمريكية.**

**(الملك حسين ملك الأردن)**

عندما أدلى صديقى الراحل الملك حسين بحديثه للصحفى المصرى الشهير محمد حسنين هيكل فى شهر سپتمبر من عام ١٩٦٣، كان حسين كعادته يعرف ما الذى يتحدث عنه[1]. كان يشير إلى الانقلاب الذى قام به البعثيون ضد الرئيس عبد الكريم قاسم، وهو الانقلاب الذى كان الشاب صدام حسين متورطًا فيه أكثر من كونه مجرد مراقب عن بعد، على الرغم من أنه كان منفيًا فى القاهرة.

بدأت أولى خطوات المخابرات المركزية الأمريكية فى تصعيد صدام حسين نحو السلطة المطلقة فى عام ١٩٥٩ بعد مرور عدة شهور فقط على ما قامت به ثورة ١٩٥٨ التى قادها الجنرال عبد الكريم قاسم من القضاء على الحكم الملكى وتصفية الخادم المؤيد للغرب والمخلص لها نورى السعيد. ويصور الكاتب الپاكستانى طارق على فى كتابه الذى صدر فى عام ٢٠٠٣ تحت عنوان «بوش وبابل» العالم العربى (وعلى وجه الخصوص مصر) أسلوب عبادة البطل - مثلما كان الأمر مع ناپوليون بوناپرت - باعتبار الأساس الذى بنيت عليه كاريزما جمال عبد الناصر وتأليه الفرد فى «الشارع العربى». وهذا هو الذى جعل من الناصرية ما أصبح يطلق عليه فيما بعد عقيدة الشعبية العسكرية فى كل أجزاء العالم العربى (ومن ضمنه العراق). ولم تكن الغوغاء التى قامت بقتل الملك فيصل وعمه ونورى السعيد فى بغداد تهتف بحياة قائد الثورة قاسم ولكنها بدلاً من ذلك كانت تصيح «نحن جنودك يا جمال، نحن جنودك!!!».

وبمجرد أن أصبح قاسم فى السلطة، استخدم الحزب الشيوعى العراقى القوى كماص للصدمات أمام أتباع ناصر من العراقيين، وضد حزب البعث السرى الذى استولى على السلطة فى جارة العراق سوريا فى عام ١٩٦٥ تحت قيادة المسيحى ميشيل عفلق والمسلم السنى صلاح البيطار. وكان مؤسسو البعث السوريون يأملون أن يوسعوا برنامجهم ليشمل العراق، و كان ذلك فى البداية يسير بالتوازى مع رؤى الناصريين ثم أصبح يخالفها فيما بعد، أى توحيد كافة الدول العربية تحت ظل نظام واحد وهو «الاشتراكية العربية». وأدى انقلاب ١٩٦٥ البعثى الناجح فى سوريا إلى الحد من النفوذ التقليدى للنخب التى تعيش فى المدينة إلى حد كبير. وكان من المفترض أن يرفع من مستوى المواطنين الذين يعيشون فى المناطق الريفية والمدن الصغيرة (مثل الرئيس حافظ الأسد الجندى المنحدر من الطائفة العلوية، وهى الأقلية الدينية التى تعيش فى الجبال، والذى سيطر على مقاليد السياسة فى سوريا منذ ارتقائه منصب الرئاسة فى عام ١٩٧٠ حتى وفاته فى عام ٢٠٠٠).

## قاسم وناصر وصدام

استطاع ناصر التغلب على البعث بشكل مؤقت وحكم كلاً من مصر وسوريا لفترة وجيزة خلال المدة القصيرة للجمهورية العربية المتحدة التى استمرت من عام ١٩٥٨ حتى عام ١٩٦١. وكان من المفترض أن يرحب بانضمام العراق كعضو ثالث إلى الجمهورية العربية المتحدة ولكنه لم يكن يثق بقاسم مطلقا، فقد اعتبره معتمداً على الشيوعيين العراقيين بدرجة كبيرة. ولكن نائبه عبد السلام عارف كان تابعًا مخلصًا لناصر، حيث كان يأمل أن تقر عيناه برؤية العراق وقد انضم إلى الجمهورية العربية المتحدة التى أصبحت أكبر حجمًا، ولكن ناصر لم يكن يقبل الحلول الوسط ولا قاسم أيضًا. أدرك قاسم أنه ليس بمقدوره أن يدخل فى مضمار التنافس مع شعبية ناصر الطاغية فى العالم العربى، ولم تكن لديه الرغبة فى أن يلعب دوراً ثانويًا بجانب القائد المصرى.

تأثر قاسم بشدة بالسورى ميشيل عفلق الذى ظهر فى بغداد بعد قيام ثورة يوليه

١٩٥٨ بأيام قليلة للترويج للفكر البعثى باعتباره البلسم الشافى لكل أوجاع العراق. وعلى ذلك، بدأ الدعاية الخطابية لفكره فى كل أنحاء العراق. وبدأ عفلق يبشر بالوحدة العربية وبناصر باعتباره قائداً عظيماً و «محرراً» وسرعان ما طالب بضرورة انضمام العراق إلى الجمهورية العربية المتحدة تحت قيادة ناصر. كان ذلك بمثابة جرس إنذار لقاسم وحاشيته، الذين أدركوا أن كلاً من إسرائيل وشاه إيران سينظران إلى هذه الدولة المتحدة التى تضم ثلاث دول باعتبارها خطراً كبيراً يتهددهما، وكان كلاهما يساندا بفاعلية الانفصاليين الأكراد تحت قيادة برزانى.

قرر قاسم وحلفاؤه الشيوعيون القضاء على عارف ومؤيديه من البعثيين والناصريين. وفى الحادى عشر من سبتمبر عام ١٩٥٧ أقالوا عارف من منصبه كنائب للقائد الأعلى للجيش العراقى. وبعد ذلك بأسبوعين أقصاه قاسم من منصب نائب رئيس الوزراء ووزير الداخلية، وفى الرابع من نوفمبر تم إلقاء القبض على عارف، الذى كان من مؤيدى تأميم صناعة البترول العراقية التى يسيطر عليها الأجانب والاندماج ضمن الجمهورية العربية المتحدة، وقدم للمحاكمة بتهمة «التآمر على الوطن» وهى تهمة تعادل تهمة الخيانة العظمى.

اشتدت حدة الصراع مع أنصار عارف فى مارس ١٩٥٩ حيث حاول عقيد وعميد فى الجيش العراقى كانت الإذاعة المصرية تطلق عليهما «الوطنيين العرب» ـ بعبارة أخرى الناصريين ـ القيام بانقلاب تمكنت قوات قاسم من سحقه على الفور. وفى الحرب الكلامية عبر أثير الإذاعة، كانت القاهرة تذيع بيانات تحريضية من عراقيين يحرضون على «إسقاط الطاغية» فى الوقت الذى كانت إذاعة بغداد ترد على ذلك بإذاعة أحاديث تتضمن شجب «التدخل الأجنبى». وصب العقيد المهداوى ـ رئيس محكمة الشعب الذى حكم على عارف بالإعدام ـ الزيت على النار حينما أعلن فى المحكمة «إن القافلة العربية تسير رغم نباح الكلاب حتى إذا ادعى بعض هؤلاء أنهم عرب».

فى ذلك الوقت، بدأ شاب بعثى مسلح يبلغ من العمر اثنين وعشرين عاماً، يطلق عليه صدام حسين التكريتى، يعد لنفسه الموقع الذى يتطلع إليه فى التاريخ. كان واحداً

من فرقة الاغتيال البعثية التى أطلقت النار على قاسم وأفراد حراسته الشخصية فى شهر أكتوبر عام ١٩٥٩ . وقد أصيب قاسم إصابة خطيرة لكنها لم تؤد إلى وفاته. وهرب صدام وفى ساقه رصاصة، قيل وفق ما جاء فى الأسطورة البعثية إنه أخرجها من ساقه باستخدام مطواة بدون تخدير، وبعد ذلك هرب سابحًا عبر نهر دجلة. وحاول الشيوعيون تقديم العون للموالين لقاسم عن طريق تحريك الغوغاء فى الشوارع وعن طريق إرسال ضباط وجنود للاستيلاء على النقاط الحصينة ومراكز الاتصال الهامة أملاً فى كسب رضا قاسم وامتنانه.

بدلاً من ذلك، تصرف قاسم على طريقة القوميين العرب من النمط الناصرى. لقد انقلب على الشيوعيين وأحدث انشقاقًا فى الحزب الشيوعى بين الجناح الموالى لقاسم والجناح المناهض له، ولكنه استمر أيضًا فى تشجيع وتدعيم بعض الإصلاحات الأصيلة. وشرع قاسم فى تقليص نفوذ الأثرياء، وبخاصة الغائبين منهم، وملاك الأراضى وذلك عن طريق وضع حد أقصى للملكية الأراضى الزراعية، ورفع معدلات الضرائب على الأغنياء من ذوى الدخول التى تزيد عن ٣٠٠٠٠ دينار إلى ٤٠٪ إلى ٦٠٪. كما استحدث أيضًا أنواعًا جديدة من الضرائب ووضع نظمًا جديدة للإيجارات والأسعار، كما تم تحديد عدد ساعات العمل بمقتضى القانون. قام أيضًا بإلزام أرباب العمل العراقيين ببناء المساكن للعمال الذين يعملون لديهم، كما بدأ فى عهده وضع أول بنود قوانين الضمان الاجتماعى. وتم بناء أحياء كبيرة جديدة تضم مساكن للعمال فى ضواحى بغداد، وأطلق على أولها مدينة الثورة، والتى سميت فيما بعد مدينة صدام، وكانت تضم عشرة آلاف مسكن مزودة بالكهرباء والمياه والطرق الجديدة والمستشفيات والمدارس والحمامات العامة.

وعلى الرغم من الجهود التى قام بها قاسم لتقليص نفوذ و تشويه صورة الشيوعيين فى المجتمع، قاموا فى الأول من مايو ١٩٥٩ بحشد أعداد كبيرة من الجماهير وطالبوا دون وجل بضمهم إلى الحكومة. وكان المراقبون الإسرائيليون ومؤيدوهم فى الولايات المتحدة يراقبون الوضع بقلق وخوف، حيث استأنفت الحكومة البريطانية شحن الأسلحة إلى العراق وهى الأسلحة التى تأجل تسليمها لفترة طويلة، على أمل أن يتمكن قاسم من احتواء الشيوعيين، ومن إبقاء السوفيت بعيدًا عن الساحة[٢].

ويذكر سعيد أبو ريش، الكاتب الأكثر اطلاعا على سيرة صدام حسين، أن صدام كان غالبا ما يقوم بزيارة سفارة الولايات المتحدة فى القاهرة خلال الفترة من ١٩٥٨ حتى ١٩٦١. ويبدو أن المخابرات المصرية، التى كانت تقوم بمراقبة الطلبة العرب الناشطين سياسيًا، كانت على علم بتلك الزيارات للسفارة الأمريكية وسمحت بها؛ وذلك لأن نظام ناصر كان يشعر بريبة كبيرة حيال طموحات قاسم للهيمنة على منطقة الشرق الأوسط. وكما يقول أبو ريش: «كان الأمريكيون مصممين بدرجة كبيرة على الإطاحة بقاسم، الذى أطاح بالحكم الملكى ووضع نهاية لعصر نورى السعيد الذى اتسم بالتوجهات الموالية للغرب فى عام ١٩٥٨، والذين كانوا يشكون فى أن لديه نوايا مضادة لإسرائيل وموالية للسوفييت «لدرجة أنهم كانوا يفتحون أبوابهم - أبواب سفارتهم فى القاهرة بطبيعة الحال - لأى عابر سبيل يطرقها».

كانت هنالك أيضًا اتصالات بين مسئولين من الولايات المتحدة والعديد من المناوئين لقاسم المبعدين فى بيروت. ويذكر أبو ريش أن بعضهم كانوا يعبِّرون صراحة عن معارضتهم لقاسم وارتباطهم بالمخابرات المركزية الأمريكية. ويضيف أنه يتذكر لقاءً جمعه مع أحد هؤلاء العراقيين الذى كان يتباهى بأن لديه رقم الهاتف المباشر الخاص بمدير المخابرات المركزية الأمريكية ألان دالاس. كان هناك الكثير من المصالح المشتركة بين حزب البعث الجديد فى بغداد والأمريكيين، ويبدو أن الاتصال بخلاياه السرية كان يتم بواسطة وليام ليكلاند الذى كان يشغل منصب (أو يتخفى تحت مسمى) الملحق العسكرى فى السفارة الأمريكية. وفى القاهرة، حيث كان صدام يواصل دراسته الجامعية بلا جدية، كان جيمس كريتشفيلد، المسئول الرفيع فى المخابرات المركزية الأمريكية فى منطقة الشرق الأوسط يقوم بتنسيق الجهود المناوئة لقاسم مع مخابرات ناصر.

### جيمس كريتشفيلد: مقاتل الحرب الباردة الممتاز

فى ضوء الدور الذى قام به جيمس كريتشفيلد فى كل من الانقلاب البعثى الناجح فى عام ١٩٦٣، والانقلاب الذى تلاه فيما بعد والذى أتى بصدام حسين إلى المركز الذى أتاح له السلطة والاستبداد، فإنه يستحق منا أن نلقى عليه نظرة عن قرب.

بعد دوره فى الحرب العالمية الثانية كمقاتل، عمل بعد ذلك فى المخابرات المركزية الأمريكية ضمن أنشطة الحرب الباردة فى أوروبا بعد الحرب، ثم انتقل للعمل فى منطقة الشرق الأوسط، وأخيراً عمل كاستشارى فى دنيا المال والثروة والمشروعات. وفى النهاية، توفى چيمس كريتشفيلد بسرطان البنكرياس، وهو فى السادسة والثمانين من عمره فى منزل عائلته بمدينة ويليامزبيرج بولاية ڤيرجينيا بالولايات المتحدة فى الثانى والعشرين من شهر أبريل من عام ٢٠٠٣، فى الوقت الذى كانت فيه القوات العسكرية التى تقودها الولايات المتحدة للإطاحة بصدام حسين، الذى ساعده چيمس كريتشفيلد فى الوصول إلى السلطة، تقوم بعملياتها العسكرية للإطاحة به. وجاء فى النعى الرسمى المنشور له على موقع الإنترنت، والتابع لمقابر أرلنجتون الوطنية، بعد تشييع جنازته كبطل من أبطال الحرب، مقتطفات مما كتبه المؤرخ المتخصص فى قضايا الاستخبارات تيموثى نافتالى ومنها:

«إن قدرات ومواهب كريتشفيلد، كرئيس دائرة مخابرات وكجندى ودبلوماسى، وضعته فى قلب اللحظات التاريخية طوال نصف قرن من الزمان، ... ... . والأحداث التى شهدها كانت شديدة الاضطراب، من قتال ضد النازى، ثم معايشته للصراع العالمى الجديد واشتراكه فيه، ثم رؤيته لانتقال هذا الصراع إلى العالم الثالث لكى يصبح جزءاً لا يتجزأ منه».

ولد چيمس كريتشفيلد فى مدينة هانتر بولاية نورث داكوتا لأبوين يعمل أحدهما فى التعليم والآخر كطبيب. وبعد أن تخرج فى جامعة ولاية نورث داكوتا، حيث عمل فى برنامج مكتب تدريب قوات الاحتياط (ROTC) انضم إلى الجيش وأصبح واحداً من بين أصغر الذين يحملون رتبة العقيد فى الجيش سنًا فى الحرب العالمية الثانية. كما تولى قيادة كتيبة المشاة رقم ١٤١ التابعة للفرقة ٣٦ التى تقدمت نحو فرنسا ثم ألمانيا وأخيراً النمسا. وقد تقلد أعلى الأوسمة نظير أعماله العظيمة أثناء فترة الحرب والتى كان من بينها قيادة هجوم قوات المشاة ضد الألمان فى الألزاس واللورين فى الثانى عشر من ديسمبر عام ١٩٤٤. وقد ترك الجيش برتبة العقيد والتحق بالمخابرات المركزية الأمريكية فى عام ١٩٤٨ وخدم فيها لمدة ستة وعشرين عامًا.

ويشير أحد مسئولى المخابرات المركزية الأمريكية، الذين عملوا تحت قيادة كريتشفيلد، أنه كان رجلاً ودوداً وقويًا وممتازًا، كما كان صارمًا قاطعًا، ولم يكن يسمح بارتكاب أية حماقات. وما يزال معاصروه فى الاستخبارات يذكرونه، ليس بسبب مساعدته لصدام حسين والبعث، ولكن بسبب عمله فى وقت مبكر فى تحقيق الاتصال بين المخابرات المركزية الأمريكية وبين ما أصبح يعرف فيما بعد باسم منظمة چيهلين بعد الحرب العالمية الثانية. وكانت تلك المنظمة عبارة عن جماعة من العسكريين ورجال الاستخبارات من الرايخ الثالث، وكان قائدهم رينهارد چيهلين، أحد نجوم استخبارات هتلر التى كانت تعمل ضد الاتحاد السوڤييتى. وكان بارعًا فى تجنيد العملاء وفى تكتيكات الخداع على وجه الخصوص. وفى ألمانيا، ما بعد الحرب العالمية الثانية، قام الجيش الأمريكى بتجنيد أفراد منظمة جيهلين للقيام بعمليات الحرب الباردة بسبب خبرتهم فى المسائل المتعلقة بالاتحاد السوڤييتى فى عصر ستالين. وعلى الرغم من أنه سرعان ما تبين أن المنظمة مخترقة بواسطة «المشككين والعملاء المزدوجين ومجرمى الحرب» فإنها، كما جاء فى نعى كريتشفيلد، لعبت دوراً هامًا فى تأسيس الاستخبارات الخارجية لألمانيا الغربية BND، التى أصبحت جزءا من شبكة الأمن التابعة لحلف الناتو.

وقبل أن ينتقل كريتشفيلد إلى ساحة ميدان الشرق الأوسط، كان يتباهى بأنه «كان يغطى كل شىء من اليونان إلى بورما». وكان يرأس قسم أوروپا الشرقية وجنوب آسيا فى المخابرات المركزية الأمريكية فى أوقات مختلفة، وكانت المهام الموكلة إليه تتضمن العمل بجانب فدائيى التبت ضد الاحتلال الشيوعى الصينى. كما تولى رئاسة قوة مهام تابعة للمخابرات المركزية الأمريكية خلال أزمة الصواريخ الكوبية وعمليات ضد الاتحاد السوڤييتى فى أوروپا الشرقية[٣].

تعرف كريتشفيلد على صدام لأول مرة باعتباره أحد المنشقين العراقيين، والذى يمكن أن يساعده فى القضاء على الشيوعية فى العراق، من خلال التقارير التى تلقاها من دائرة المخابرات المركزية الأمريكية فى القاهرة، حينما كان صدام يعيش فى منفاه هناك. كان صدام دائم الاتصال بالمتآمرين البعثيين الموجودين فى بغداد، وكذلك كان كريتشفيلد وويليام ليكلاند. كتب المؤرخ حنا بطاطو يقول: «إن بعض البعثيين

العراقيين كانوا يداومون على الاتصالات السرية مع ممثلين للسلطات الأمريكية». كما أن الملك حسين ـ الذى كان هو نفسه مدرجًا ضمن كشوف الرواتب فى المخابرات المركزية الأمريكية فى ذلك الوقت ـ أدلى بتفاصيل هامة مفادها أن إحدى محطات الإذاعة السرية الموجودة فى الكويت بث إلى المتآمرين البعثيين فى بغداد قائمة تضم أسماء الشيوعيين الموجودين هناك حتى يتم إلقاء القبض عليهم وإعدامهم(٤).

أدت السياسات التى كان يتبعها قاسم والدعم الشيوعى له إلى دق نواقيس الخطر فى واشنطن. وكان مدير المخابرات المركزية الأمريكية، ألان دالاس يطلق على الوضع القائم فى العراق وقتها «أكثر الأوضاع خطورة فى العالم». وشارك شركاء واشنطن فى إسرائيل هذا القلق. وقام قاسم بالانسحاب من حلف بغداد الموالى للغرب، وهو الحلف الذى قام فى عام ١٩٥٨، الأمر الذى اعتبر مغازلة لموسكو، كما قام بإلغاء امتيازات استكشاف البترول الممنوحة للأطراف الأجنبية الموجودة ضمن شركة بترول العراق IPC وتأميمها.

## أول انقلاب بعثى

بدأ الانقلاب الناجح، الذى تم الإعداد له بشكل جيد، فى الساعة الثامنة والنصف من صباح الثامن من فبراير عام ١٩٦٣، ورحب به كريتشفيلد وأطلق عليه «الانتصار العظيم»، باغتيال قائد القوات الجوية الشيوعى اللواء جلال الأوقاتى عندما أطلق عليه النار أثناء وجوده فى أحد محال بيع الخبز برفقة طفله الصغير. وبعد ذلك قام أحد ضباط القوات الجوية البعثيين، وهو منذر الونداوى، بقيادة هجوم جوى بطائرتين من طراز هوكر هانتر حيث تم قصف قاعدة الرشيد الجوية القريبة من بغداد بالقنابل وتدمير مهبط الطائرات. وبعد مرور دقائق من ذلك الهجوم، قاد الونداوى سلسلة من الهجمات الجوية باستخدام طائرات الهوكر هانتر وطائرات الميج ١٧ حيث قامت الطائرات بإطلاق الصواريخ والنيران على مبنى وزارة الدفاع. وقامت والقوات البرية البعثية بما فى ذلك عناصر من الفوج الرابع للدبابات، والحرس الوطنى البعثى بالهجوم على قاعدة الرشيد وتأمينها. وتحركت وحدة دبابات أخرى تضم العقيدين عبد السلام

عارف وأحمد حسن البكر إلى محطة الإذاعة الموجودة فى أبو غريب ووزارة الدفاع. بعد ذلك، قام المتآمرون البعثيون بإذاعة البيان الأول من سلسلة بيانات، وأطلقوا على أنفسهم اسم «المجلس الوطنى لقيادة الثورة» حيث استخدموا فى ذلك لغة لا تحمل فى طياتها معنى الوحدة العربية بهدف إرضاء واستمالة الأكراد.

حاول قاسم وحلفاؤه الشيوعيون تنظيم المقاومة، ولكنهم توقفوا أمام حقيقة أن قاسم رفض تسليح الجماهير المحتشدة والمتدافعة فى شوارع بغداد، والذين كان العديد منهم لا يحملون سوى العصى والهراوات. وحدثت بعض المناوشات فى معسكرين من معسكرات الجيش خارج بغداد، وهما معسكرا السعد والوشاش. وفى الساعة الثالثة بعد ظهر يوم الثامن من فبراير، بدأ المتمردون البعثيون استيلاءهم الرئيسى على مقر وزارة الدفاع، الذى كان تحت حراسة حوالى ألف جندى من المتميزين بقوة البنية الجسمانية، وفى النهاية تم الاستيلاء على الوزارة فى صباح يوم التاسع من فبراير. وفى غضون ذلك، عندما استمع قاسم لتصريح عارف فى الإذاعة بأنه الرئيس المؤقت الجديد، اتصل به هاتفيًا وقال له: «إننى أخوك ولن أنسى أبدًا أننا أكلنا خبزًا وملحًا معًا». وكان رد عارف أن المجلس الثورى قرر أن يقوم قاسم بالاستسلام عند البوابة الرئيسية لمقر إقامته وهو رافع يديه لأعلى بدون وضع رتب عسكرية على زيه العسكرى. وتوسل قاسم دون جدوى أن يبقوا عليه حيًا ويسمحوا له أن يغادر البلاد، ولكنهم ألقوا القبض عليه مع ثلاثة من مساعديه فى منتصف نهار يوم التاسع من فبراير، وفى ظرف ساعة زمن واحدة، تمت إدانته والحكم عليه بالإعدام هو ومساعديه الثلاثة من قبل محكمة عسكرية. وقامت فرقة الإعدام بإطلاق النار عليه على الفور. ويذكر التاريخ التقليدى للعراق أن قاسم كان فى الواقع من أكثر الرؤساء العراقيين الذين حظوا بشعبية صادقة.

واصل حلفاء قاسم الشيوعيين، من السنة والشيعة، المقاومة لعدة أيام وخاصة فى البصرة، حيث ظلوا صامدين حتى الثانى عشر من فبراير. ولكن البعثيين وأنصار عارف، الذين تعقبوا وحاصروا الشيوعيين، كانوا يطاردونهم بلا هوادة من معسكر إلى معسكر ومن قرية إلى قرية ومن بيت إلى بيت. وكان رجال كريتشفيلد يمدون الإذاعة الموجودة فى الكويت بقوائم تضم المناهضين الشيوعيين للبعث لإذاعتها، وكان

من بين هؤلاء الرجال أحد العملاء السريين الذى كان يقوم بدوره هذا تحت غطاء العمل كمراسل صحفى لمجلة تايم فى مكتب المجلة ببيروت . وكانت الأسماء التى تذاع توزع فى كافة أنحاء العراق . وتم إعدام أكثر من ١٠٠٠ شيوعى وفارق العديد منهم الحياة عقب تعرضهم للتعذيب، بالإضافة إلى أكثر من ٥٠٠٠ شخص قتلوا أثناء المعارك حسب تقديرات الشيوعيين[٥] .

سمع صدام حسين هذه الأخبار من إذاعة القاهرة، وعاد سريعًا إلى بغداد على متن واحدة من أولى رحلات الطيران التى استؤنفت عقب إعادة فتح مطار بغداد . ويذكر سعيد أبو ريش، فى معرض تسجيله لهذه الأحداث، أن صدام عقب عودته كان «أحد المشاركين بشكل شخصى فى عمليات التعذيب التى مورست ضد اليساريين المناهضين للبعث فى مراكز اعتقال معزولة مخصصة للفلاحين والمثقفين» .

بعد ذلك، اعترف كريتشفيلد لوكالة أنباء «أسوشيتد پرس» أن المخابرات المركزية الأمريكية كانت على علم بحدوث ذلك الانقلاب قبل وقوعه بستة أشهر . وحسب رواية السكرتير العام لحزب البعث على صالح السعدى، الذى كان مسئولاً عن عمليات الإعدام الجماعى لمؤيدى قاسم، أعلن قائلاً : «لقد جئنا إلى السلطة فى قطار المخابرات المركزية الأمريكية» . وفى معرض الدفاع عن نفسه، يصر كريتشفيلد على أنه على الرغم من محاولة الاغتيال الفاشلة التى قام بها صدام حسين ضد قاسم فى عام ١٩٥٩ ، فإنه لم يكن سوى مجرد شخص بسيط وغير هام فى حزب البعث عام ١٩٦٣ . ويضيف كريتشفيلد قائلاً : «إننا يجب أن نفهم السياق الزمنى ومدى الخطر الذى كنا نواجهه . هذا ما أقوله للذين يقولون إن رجالكم فى المخابرات المركزية الأمريكية هم الذين صنعوا صدام حسين»[٦] .

## التعاون الأنجلو ـ الأمريكى

كان كريتشفيلد أقل تحفظًا، فى الملاحظات التى أبداها فى لندن إلى السير ديك هوايت، رئيس وحدة الجاسوسية فى المخابرات البريطانية MI-6 وقد التقى هوايت أثناء توجهما نحو بيروت للاشتراك فى أحد المؤتمرات الإقليمية المتعلقة بالاستخبارات

التى عقدت حول الأنشطة السوفييتية فى المنطقة فى نهاية شهر نوفمبر عام ١٩٦٢، حيث كانت لندن وواشنطن تعتبران أن هذا الانقلاب البعثى تم ضد الشيوعيين، وبذلك فهو ضد السوفييت. وقال كريتشفيلد لهوايت «إن الروس يشعلون نيران الحرب عبر المنطقة العربية وينبغى علينا أن نوقفهم، فنفوذهم فى كل مكان، ويتغلغل ليشمل منطقة الخليج». فى ذلك الوقت، كانت المخابرات المركزية الأمريكية تحث إدارة أيزنهاور على وضع نهاية لتصديقها على صديق آخر من قدامى أصدقائها المناهضين للشيوعيين وهو الرئيس المصرى جمال عبد الناصر الذى كان بمثابة الإلهام لقاسم فى العراق.

حولت وكالة المخابرات المركزية الأمريكية انتباهها نحو دعم ناصر للعسكريين فى اليمن، الذين أعلنوا قيام الجمهورية فى المملكة القديمة، التى كانت المملكة العربية السعودية وبريطانيا وأمريكا تدعم الأسرة المالكة الحاكمة لها. وفى عام ١٩٦٣، وعقب ظهور تقارير موثقة تفيد قيام القوات الجوية المصرية بالهجوم على القرى الموالية للحكم الملكى فى اليمن وقصف تلك المناطق بالأسلحة الكيماوية ـ بعد ذلك بفترة طويلة وفى عام ١٩٦٧ تجولت عبر اليمن بصحبة مجموعة من الزملاء وقمنا بالتحقق من صحة إحدى هذه الغارات ـ قام كريتشفيلد بزيارة هوايت مرة أخرى. وكان من رأيه أن «الغرب» لا يمكنه تحمل «فقدان» اليمن (بمعنى نظام الإمامة الملكى الإقطاعى)، وينبغى على المخابرات المركزية الأمريكية مقاومة ناصر بصرف النظر عن سياسات الرئيس أيزنهاور. كما أخبر هوايت أن عمليات الاعتراض التى قامت بها وكالة الأمن القومى الأمريكية (NSA) أظهرت أن الطيارين الروس كانوا يقودون الطائرات القاذفة من طراز TU-16 التى تحمل علامات مصرية من القاهرة إلى اليمن، واقترح تخطى حذر الخارجية البريطانية والخارجية الأمريكية وإقامة علاقات وثيقة بين المخابرات البريطانية والمخابرات المركزية الأمريكية فى الشرق الأوسط. وعلى الرغم من أن هوايت بدا معارضًا لهذا الاقتراح فى البداية إلا أنه وقع تحت ضغط رئيس الوزراء البريطانى، هارولد ماكميلان، للانصياع لرغبات المخابرات المركزية الأمريكية. وبعد ذلك جاء أحد موظفى المخابرات المركزية الأمريكية، چيمس فيز، إلى اليمن تحت غطاء العمل فى إحدى وكالات الإغاثة الإنسانية، حيث زود المخابرات البريطانية بنسخة من الأمر الصادر من الجيش الجمهورى اليمنى بالقتال، فخسر هوايت حجة المعارضة.

وتطور التعاون الوثيق بين البريطانيين والأمريكيين بعد ذلك، ومن خلال الزيارة التى قام بها نائب مدير المخابرات المركزية الأمريكية ريتشارد هيلمز إلى لندن (والذى الذى أصبح فيما بعد مديراً للوكالة ثم سفيراً لدى إيران فى عهد الشاه)[٧]. وعلى الرغم من أن كريتشفيلد، تقريباً، كان يدير شئون عمليات المخابرات المركزية الأمريكية فى الشرق الأوسط حتى تقاعده عن العمل فى عام ١٩٧٤، فإننا لا نعلم سوى القليل حول دوره فى العملية الناجحة التى قام بها صدام حسين لإقصاء عشيرة عارف، وذلك فى الانقلاب البعثى الناجح الثانى الذى حدث فى عام ١٩٦٨.

كانت أهمية بترول الشرق الأوسط بين الواردات الغربية من الطاقة تزداد يوماً بعد يوم. ولأن نظام الأخوين عارف فى العراق وبعدهما النظام البعثى الذى بدأ عام ١٩٦٨، كانا على استعداد لتأميم شركة نفط العراق المملوكة للغرب بشكل كامل فى عام ١٩٧٣، فقد كان كريتشفيلد يعمل فى واشنطن فى أواخر الستينيات وأوائل السبعينيات كمسئول استخبارات عن السياسة النفطية لدى المخابرات المركزية الأمريكية.

تولى كريتشفيلد بعد ذلك مهام التخطيط للطاقة فى البيت الأبيض فى إدارة نيكسون. وبعد تقاعده عن العمل فى المخابرات المركزية الأمريكية فى عام ١٩٧٤، أصبح مستشاراً للنفط والشئون الوثيقة الصلة به فى سلطنة عُمَان، وقام بتأسيس منشأة تجارية واستشارية باسم «تيتراتيك» وكان يقود إحدى عمليات المخابرات المركزية الأمريكية الوهمية التى أطلق عليها «الموارد الأساسية». وقد استخدمت لتزويد إدارة نيكسون بمعلومات استخباراتية حول منظمة أوبك التى كان العراق أحد الدول المؤسسة لها وأحد الأعضاء الهامين فيها[٨].

## صدام يبدأ فى التسلط

وضعت حملات التطهير والظلم الذى أعقب الانقلاب البعثى فى العراق الذى حدث فى عام ١٩٦٣ نمطاً لطريقة سلوك البعث فيما بعد، حيث كان صدام يضع الحزب والحكومة والشعب تحت رحمة تقلبه. وعلى الرغم من أن البعثيين قد أكدوا

للمخابرات المركزية الأمريكية أن المسجونين والمحتجزين سوف يلقون محاكمات عادلة، فإن قوات الحرس الوطنى، التى كانت ترتدى الزى العسكرى ذا العلامة الخضراء على الذراع وتحمل البنادق الآلية، كانت ترتكب ما أطلق عليه الصحفى الذى يعمل فى جريدة الديلى تليجراف كون كوفلن، «طقوس العنف». وقد تم الاستيلاء على النوادى الرياضية ودور السينما والعديد من البيوت الخاصة واستخدمت كمراكز للاعتقال وغرف للتعذيب وأماكن لتنفيذ الإعدام. وقد عقد كوفلن مقارنة بين تصفية الشيوعيين العراقيين وبين حملات التطهير التى قام بها المناوئون لليسار فيما بعد حكم سلڤادور الليندى فى شيلى، وتحت پينوشيه الذى قام بالانقلاب على الليندى بمساعدة المخابرات المركزية الأمريكية، وتصرفات الزمرة العسكرية التى كانت تحكم الأرچنتين حتى تم القضاء عليهم والإطاحة بهم عقب هزيمتهم من البريطانيين (فى هذه المرة كانت المخابرات المركزية الأمريكية تدعم بريطانيا فى عهد رئيسة الوزراء مارجريت تاتشر وتقف ضد الزمرة العسكرية فى الأرچنتين) فى حرب جزر فوكلاند فى أوائل عام ١٩٨٢. وكانت تصرفات النخبة من الحرس الوطنى العراقى فى عهد صدام حسين إبان الغزو العراقى للكويت فى أغسطس عام ١٩٩٠ مشابهة لذلك، حيث قاموا بتحويل المكاتب والمواقع الحكومية إلى مراكز اعتقال وتعذيب.

وصف العراقيون الذين نجوا من الموت فى ظل استبداد صدام حسين إحدى غرف التعذيب الشهيرة فى مكان يطلق عليه «قصر النهاية»، وقد سمى بهذا الاسم لأن الأسرة المالكة قد تعرضت للتصفية الجسدية فيه خلال ثورة يوليو عام ١٩٥٨. وكان ناظم كازار، وهو شيعى مصاب بمرض السادية، المسئول الأول عن التعذيب فيه، وهو ما يعد بمثابة الإعداد الملائم له كى يتولى بعد ذلك رئاسة الأمن القومى فى عهد صدام حسين. وقد انضم ناظم لحزب البعث العراقى عقب تكوينه مباشرة فى الخمسينيات، وما لبث أن اكتسب شهرة عريضة فى وحشية التعذيب من خلال قيادته لأعمال التعذيب التى تعرض لها الشيوعيون عقب سقوط قاسم. ومن القصص التى تروى عنه دائمًا فى هذا الموضوع أنه كان يقوم بإطفاء السجائر المشتعلة فى أعين ضحاياه أثناء استجوابهم(٩).

اكتشف حنا بطاطو فى ملفات نظام صدام أن أقبية قصر النهاية كانت تحتوى على «جميع أنواع وسائل التعذيب، من الأسلاك الكهربية والكماشات، والخوازيق

الحديدية التى كان السجناء يجلسون فوقها، والماكينة التى لا تزال تحمل آثار الأصابع التى قطعتها(١٠).

قامت الولايات المتحدة بالاتصال بالثوار من قادة البعث بعد ساعات قليلة من قيام الانقلاب ووعدتهم بالاعتراف بهم. وأخبر چيمس أكنز، السفير السابق فى المملكة العربية السعودية، والذى كان فى وقت انقلاب ١٩٦٣ ملحقًا بسفارة الولايات المتحدة فى بغداد، الكاتب الأمريكى روبرت كاپلان أنه «فى فترة الانقلاب كنا نتمتع بعلاقات أفضل مع العراق». وكان الأمريكيون يتوقعون أن يحصلوا على مقابل للمساعدة التى قدموها للانقلاب. وينقل سعيد أبو ريش عن هانى فكيكى، أحد الشخصيات الهامة التى شاركت فى الانقلاب، قوله: «حصل ويليام ليكلاند على العديد من طائرات ميج ٢١ السوڤييتية الصنع ودبابات من طراز T-54 وصواريخ سام SAM السوڤييتية. وقد استخدمتها الولايات المتحدة لفحصها للتعرف على مواصفاتها ومدى فاعليتها. ورغم اعتراض الإسرائيليين، الذين يميلون كما رأينا من قبل إلى الأكراد التابعين لبرزانى، قامت الولايات المتحدة بنقل الأسلحة من تركيا وإيران فى شهر أبريل من عام ١٩٦٣ إلى القوات المسلحة الحكومية العراقية التى تقاتل الأكراد فى منطقة كركوك، كما قدمت الولايات المتحدة النصح أيضًا لجلال طالبانى كى ينهى أعمال التمرد التى بدأت منذ عام ١٩٦١ - على الرغم من أن الأكراد قد أبلغوا مسبقًا بالانقلاب ضد قاسم وعرضوا ضمنيًا التعاون فى ذلك الأمر.

فى نفس الوقت كانت هنالك بداية لما يمكن تسميته بشهر العسل بين صدام والشركات الأمريكية، فقد كانت الشركات الأمريكية مثل پارسون وبكتيل وموبيل أويل من بين تلك التى حصلت على عقود هامة وامتيازات من البعثيين. وحصل روبرت أندرسون، الوزير السابق للخزانة فى إدارة أيزنهاور، على نصيب الأسد فى العديد من المشروعات التجارية.

ويقال بأن صدام قام بزيارة إلى دمشق وعاد إلى بغداد بتعليمات سرية من ميشيل عفلق، ويبدو أن ذلك قد عزز من مركز صدام بين رفاقه البعثيين فى بغداد ومكنه من الصعود فى هرم السلطة بسرعة الصاروخ.

أعقب نظام الأخوين عارف وحلفائهما، الذى امتد من عام ١٩٦٣ حتى عام ١٩٦٦، فترة مضطربة من الانقلابات العسكرية واشتراك العراق فى حرب عام ١٩٦٧، مما أدى فى نهاية الأمر إلى استيلاء البعث التام على السلطة فى عام ١٩٦٨. وفى خلال الفترة من عام ١٩٦٣ وحتى عام ١٩٧٩ كان يبدو أن كلاً من إسرائيل والولايات المتحدة تمارسان ألعاب سياسية تبدو مثيرة للجدل والتناقض. ولتأكيد ذلك فإننا ذكرنا فيما سبق أن كلا الدولتين كانت تتعاون مع شاه إيران لدعم الحركات الكردية ضد بغداد حتى تخلى الشاه عن الأكراد فى الصفقة التى عقدها مع صدام حسين فى عام ١٩٧٥. ولكن كانت القدس وواشنطن تبدوان فى بعض الأحيان وكأنهما تعملان فى اتجاهات ديبلوماسية متعارضة فى العلن، فى الوقت الذى كانتا تعملان معًا فى الخفاء.

عندما استولى عبد السلام عارف وحلفاؤه البعثيون على السلطة فى شهر نوڤمبر عام ١٩٦٣ بمساعدة الولايات المتحدة، لم يكن هنالك أى أثر لممثلى الشعب أو الهيئات البرلمانية. والواقع أنه يمكن القول بأن السلطة فى العراق تأتى فوق برميل من البارود. فالعسكريون، كما يذكرنا المؤرخان البريطانيان ماريون وبيتر سلجلت، يحتكرون بشكل كامل كل وسائل القهر، الأمر الذى يحافظ على وجودهم فى السلطة. وفى الفترة ما بين شهرى فبراير ونوڤمبر من عام ١٩٦٣ كان هناك صراع بين الفرقاء من القوميين والعسكريين البعثيين. وفى الفترة ما بين نوڤمبر عام ١٩٦٣ ومصرع عبد السلام عامر فى شهر أبريل من عام ١٩٦٦ فى حادث تحطم طائرة هليوكوبتر تم إنشاء قوات الحرس الجمهورى من الفرقة رقم ٢٠ مشاة فى الجيش. وما لبث أن أصبح الحرس الجمهورى يمثل قوات النخبة بالنسبة للنظام. وبعد أن استولى صدام على السلطة فى عام ١٩٧٩ أصبح الحرس الجمهورى يشكل الجانب العسكرى من حرسه الإمبراطورى، ولم تتم هزيمته بشكل كامل مطلقًا فى الحربين اللتين قامتا مع التحالف الذى كانت تقوده الولايات المتحدة فى عام ١٩٩١ وعام ٢٠٠٣. وبنهاية عام ١٩٦٤ تم دفع جناح البكر ـ صدام العسكرى خارج السلطة بشكل مؤقت. وحسب رواية صدام حسين نفسه فإنه ربما حتى قد أصبح شبه مسجون. وكان عارف يعتمد على حلفاء آخرين من غير البعثيين وبخاصة الضباط الناصريين، وكان يحاول بشكل أو بآخر محاكاة ناصر فى انتهاج ما كان يطلق عليه «الاشتراكية العربية».

فى الذكرى السادسة لقيام الثورة العراقية فى ١٤ يوليو من عام ١٩٦٤ أعلن عارف تأميم جميع البنوك وشركات التأمين، وأكثر من ٣٠ منشأة من المنشآت التجارية والصناعية الكبرى. ونتج عن الإجراءات التى اتبعها عارف، مثله فى ذلك مثل معظم القوميين فى كل مكان، فقدان الكفاءة وتدهور غالبية المشروعات[١١]. وقد شرح لى أحمد الجلبى ذات مرة أن والده لملم ممتلكاته فى البنك الذى كان يملكه فى بغداد ونقلها إلى بيروت فى تلك الفترة، حيث كان الجلبى يواصل دراسته ثم أصبح فيما بعد أستاذاً للرياضيات فى الجامعة الأمريكية.

أدى العداء بين مختلف الفصائل البعثية من جانب، والقومية الناصرية من جانب آخر، إلى إعطاء صدام حسين الفرصة، فى تلك الفترة التى كان فيها فى أواخر العشرينيات من عمره، لكى يمارس هواياته التى تشبه هوايات رجال العصابات وقطاع الطرق. وكان الجناح «المدنى» للبعث، الذى يرأسه على صالح السعدى، والذى كان على نفس الدرجة من الدموية إن لم يكن يفوقها، يتخذ موقفًا أكثر تطرفًا. وكان ذلك يتضمن، إيقاظ الحلم العراقى القديم بالحصول على الكويت، وهو المطلب الذى تراجع عنه عندما قامت بريطانيا باستعراض للقوة عقب حصول الكويت على استقلالها عن بريطانيا فى عام ١٩٦١. وكان الجناح العسكرى للبعث، الذى يمثله صدام والبكر، يؤيد مفهوم أن الكويت تدخل ضمن العراق باعتبار ذلك حقًا شرعياً. وكانت سياسة بغداد، حتى غزو صدام للكويت فى صيف عام ١٩٩٠، تتسم بعدم الرضا بالاعتراف بهذه الإمارة الثرية كدولة مستقلة، فى الوقت الذى كانت تحصل فيه على مساعدات مالية ضخمة من الكويت التى كانت تخشاها. ولكن العراق كان يرفض ترسيم حدود شرعية مع الكويت أو الاعتراف بهذه الحدود.

توجه صدام إلى سوريا خلسة فى أوائل عام ١٩٦٤ حيث جعله ميشيل عفلق قائداً للقيادة القطرية البعثية الجديدة فى العراق. وعاد إلى العراق بعد ذلك واختفى عن الأنظار مع مجموعة من عشائر تكريت ورفاق آخرين. حاولت هذه المجموعة الإعداد لاغتيال عارف والهجوم على قصره باستخدام قنابل محلية الصنع. وتم إلقاء القبض على صدام واعتقل مرة أخرى فى مبنى الأمن العام فى بغداد. ويدعى كتاب السيرة المتعاطفين معه، وكما يدعى صدام نفسه فى كتابه الذى نشره تحت عنوان «الأيام

العصبية»، أنه قد تحمل وحده الحجز الانفرادى ومختلف الضغوط الجسدية. وربما يمكننا القول بإنه ليس من بين هذه «الضغوط» ما يمكن أن يصل مطلقًا إلى مستوى التعذيب القبيح الذى ما لبث أن مارسه صدام على أعدائه الحقيقيين أو المتخيلين. فكان يتم السماح لزوجته ساجدة بزيارته وإحضار الكتب إليه، وكانت ـ كما يقول صدام ـ تحمل الرسائل إليه، حيث كانت تخفيها بين طيات ملابس طفلهما عدى الذى كان يبلغ من العمر عدة أشهر فى ذلك الوقت (ومن سخريات القدر أنه بعد حياة دموية طويلة قتل هو وشقيقه قصى بواسطة القوات الأمريكية الموجودة فى العراق فى أوائل صيف عام ٢٠٠٣). وكان الشاهد الوحيد على احتجاز صدام فى السجن رفيقه عبد الكريم الشيخالى الذى كان صدام يطلق عليه لقب «توأمى»، وقام بقتله أو كان السبب فى ذلك عام ١٩٧٢. ومع نهاية عام ١٩٦٥، جعل ميشيل عفلق من أحمد حسن البكر، راعى صدام وحليفه، أمينًا عامًا لفرع حزب البعث الموجود فى العراق وعين صدام نائبًا للأمين العام، وبعد ذلك بفترة وجيزة فر صدام أو سمح له بالفرار[١٢].

## التهديد الاستراتيجى العراقى لإسرائيل

فى الثالث والعشرين من فبراير عام ١٩٦٦، كنت ضمن المراسلين الذين تواجدوا فى بيروت لتغطية الانقلاب الناجح الذى قام به الجناح اليسارى من حزب البعث فى سوريا منهيًا بذلك سيطرة عفلق ورفيقه المؤسس صلاح البيطار الذى كان ينتمى إلى القيادة القومية أو الوحدوية للحزب. وتمكن البعثيون الجدد من القضاء على الرئيس أمين الحافظ وأنصاره من قدامى البعثيين خلال ثلاثة أيام من القتال الدموى فى دمشق وحلب وفى أماكن أخرى. وعلى الفور تبنى شباب الحكام السوريون البعثيون الجدد سياسة نشطة مضادة لإسرائيل. وكانت هنالك مناوشات على نحو متقطع من حين لآخر بين الجيش السورى والقوات الإسرائيلية طيلة الخمسينيات والستينيات عبر خطوط هدنة عام ١٩٤٨ فيما بين مرتفعات الجولان وبحيرة طبرية. وقد أقام البعثيون الجدد علاقات قوية مع منظمة فتح الفدائية التابعة لياسر عرفات وهى المنظمة التى تولت قيادة جناح «الكفاح المسلح» فى منظمة التحرير الفلسطينية. واستمرت الهجمات التى كانت القوات العسكرية فى سوريا تقوم بها بالتعاون مع منظمة التحرير الفلسطينية،

بدءاً من ليلة رأس العام من عام ١٩٦٥ بالهجوم على نظام الرى الإسرائيلى الذى ينبع من الأراضى السورية. كان ذلك، وبالإضافة إلى النزاعات والمواجهات المسلحة التى كانت تحدث بين القوات النظامية السورية والجيش الإسرائيلى بسبب تحويل مجرى نهر الأردن وترسيم المناطق المنزوعة السلاح طبقًا لاتفاقية ١٩٤٩، بمثابة الأسباب المباشرة للحرب التى شنتها إسرائيل على العرب فى يونيو عام ١٩٦٧.

كانت مشاركة العراق فى حرب ١٩٦٧، وردود فعل إسرائيل وشريكتها أمريكا تجاه تلك المشاركة، بمثابة أحد العوامل الأساسية التى أدت إلى صعود صدام حسين بشكل بطىء ولكنه منهجى إلى السلطة المطلقة. ولكى نفهم السبب فى ذلك من المفيد أن ننظر إليه بعيون إسرائيلية. فقد أكد المحللون من الأكاديميين ورجال المخابرات الإسرائيليين الذين قاموا بإجراء دراسة متقنة حول العلاقات العراقية الإسرائيلية طيلة عدة سنوات على وجود الاختلافات أو التباينات بالإضافة إلى الاستمرارية التاريخية لاشتراك العراق فى مختلف الحروب التى دارت بين العرب وإسرائيل.

فى حرب الاستقلال(*) الإسرائيلية التى دارت رحاها فيما بين عامى ١٩٤٧ و١٩٤٩، كما رأينا فى الفصل السابق، لعب النظام الملكى تحت حكم الملك فيصل الثانى ونورى السعيد دوراً هاما فيهًا. وبدأ هذا الدور فى صيف عام ١٩٤٦، بمجرد أن بدأت الجامعة العربية، التى أنشئت للتو بمباركة من بريطانيا العظمى، فى التخطيط للقيام بعمل عسكرى ضد الدولة اليهودية المزمع قيامها فى فلسطين. وقامت قيادة الجامعة التى يتولاها المصريون بشكل مستمر بتعيين عدد من كبار الضباط العراقيين للتخطيط لهجوم عربى يتم بمجرد انسحاب البريطانيين من فلسطين. ويعتقد المحللون الإسرائيليون أن العراق كان مدفوعًا باهتمامين رئيسيين هما: ضمان حصوله على منزلة قيادية فى العالم العربى، وضمان السيطرة على خط أنابيب البترول القديم الذى أقامته بريطانيا قبل عام ١٩٤٨ ليحمل البترول العراقى من مناطق كركوك والموصل إلى ميناء حيفا لتسهيل وصوله إلى البحر الأبيض المتوسط والأسواق العالمية.

جرت صدامات فى عام ١٩٥٢ بين إسرائيل بقيادة بن جوريون والأردن التى كان يحكمها الملك حسين، الذى كان فى سنوات شبابه الأولى فى ذلك الوقت. (وقد

(*) هى فى المنظور العربى حرب الاستعمار واحتلال فلسطين - المترجم.

شاهد فى السنة السابقة وهو ما يزال صبيًا فى السادسة عشرة من عمره اغتيال جده الملك عبد الله على درج المسجد الأقصى فى القدس بواسطة مسلح فلسطينى لاستيائه من الاتصالات بين الملك عبد الله و بين جولدا مائير وقادة إسرائيليين آخرين). وكان الأردن يسعى إلى الحصول على دعم عسكرى، ولو بصورة رمزية على الأقل من العراق وربما حصل على ذلك بالفعل. وكرر الملك حسين طلبه مرة أخرى فى شهر يونيه من عام ١٩٥٦، عندما اشتدت حدة الصدامات بين إسرائيل وجارتيها مصر وسوريا، وشكل الأردن والعراق لجنة للدفاع المشترك بالإضافة إلى مجلس عسكرى ومقر للقيادة المشتركة فى عمان. وخلال اشتداد حدة حرب السويس عام ١٩٥٦، تم نشر فرقة عراقية كاملة، تشكل ما يعادل ثلث القوات البرية التى كانت لدى العراق فى ذلك الوقت، فى غرب العراق على الحدود الأردنية، وهى المنطقة التى نشر فيها صدام حسين العديد من بطاريات الصواريخ من طراز سكود ٣٩ التى أطلق عددًا منها على إسرائيل خلال حرب الخليج فى عام ١٩٩١م.

أدت هذه التحركات، التى بدأت قبل معركة السويس فى سبتمبر من عام ١٩٥٦ بوقت قصير، إلى انتهاج حكومة بن جوريون سياسة تشبه سياسة «الرفض» العراقية لأى هدنة أو سلام مع إسرائيل، حيث كان يكرر فيها أسلوب التحذير الإسرائيلى، وأعلن أن دخول القوات العراقية إلى الأردن يعد ذريعة للحرب مما يؤدى إلى قيام إسرائيل بإرسال قوات عسكرية إلى الضفة الغربية التى كانت تحت حكم الملك حسين فى ذلك الوقت. وفى شهرى سبتمبر وأكتوبر وخلال المناوشات التى جرت بين القوات المسلحة الإسرائيلية والأردنية، وهى المناوشات التى كانت بمثابة شكل من أشكال إعداد المسرح لحرب السويس الرئيسية، حذرت بريطانيا إسرائيل من أنها فى حالة استمرار الأخيرة فى القيام بالأعمال العسكرية ضد الأردن، فإن بريطانيا ستكون ملتزمة بالوفاء بتعهداتها الدفاعية حيال المملكة الأردنية الهاشمية. كما قامت لندن أيضًا بتحذير إسرائيل بضرورة عدم القيام بأى ردود عسكرية إذا دخلت القوات العراقية إلى الأردن. وكان بن جوريون وحكومته يشعران بضيق شديد بسبب ما كان يبدو من تزايد التعاون العسكرى بين الأردن والعراق وبريطانيا. وفى الخامس عشر من شهر أكتوبر عام ١٩٥٦، (خلال فترة الإعداد السرى النهائى بين إسرائيل وبريطانيا وفرنسا للهجوم

على ناصر واحتلال المناطق المتاخمة لقناة السويس التى قام ناصر بانتزاعها من ملاكها وحملة أسهمها الغربيين فى صيف ذلك العام) أعلنت إسرائيل أن أى انتهاك للوضع العسكرى أو الحدودى الراهن سوف يؤدى إلى رد فعل عسكرى من جانب إسرائيل. وخلال ذلك الوقت، أسفرت الانتخابات البرلمانية التى جرت فى شهر أكتوبر فى الأردن عن انتصار ساحق لمؤيدى ناصر من الأردنيين. وعندئذ أعلن ناصر أنه على استعداد لإرسال العون العسكرى للأردن فى حالة احتياجها لهذا العون، ولكن العلاقات الأردنية العراقية كانت آخذة فى الفتور. وحينما بدأت بريطانيا وفرنسا وإسرائيل عدوانها الجوى والبرى على مصر، بمعارضة قوية من الولايات المتحدة فى التاسع والعشرين من شهر أكتوبر عام ١٩٥٦، لم تشارك الأردن ولا العراق ولا أى جارة عربية أخرى فى هذه المعركة.

كان الوضع فى عام ١٩٦٧ مختلفًا تمامًا عن الوضع فى عام ١٩٤٨ فى كل من الأردن وإسرائيل، فقد كان بن جوريون ما يزال على قيد الحياة، ولكنه تقاعد عن العمل وأصبح ليفى إشكول الذى يعد من بين القادة غير الحاسمين رئيسًا للوزراء فى إسرائيل. وفى العراق كان الرئيس عبد الرحمن عارف يحاول إحكام قبضته على السلطة إزاء قوة البكر وصدام حسين الآخذة فى التصاعد. وحينما قام عبد الرحمن عارف بزيارة ناصر فى شهر فبراير من عام ١٩٦٧ اكتشف أن الرئيس المصرى كان فى حالة من الإحباط عن إمكانية القيام بحملة عسكرية عربية موحدة فى وقت مبكر ضد إسرائيل، وقال ناصر «نحن» لا يمكن أن نحل المسألة الفلسطينية، مطمئنًا القائد العراقى أن هذا الموضوع لا يمكن حله سوى من خلال «التخطيط المستمر عبر سلسلة من المراحل»، وفى هذه اللحظة أوضحت الهستيريا التى غطت العالم العربى خلال الأسابيع التى تلت ذلك أن الذى حدث كان على العكس تمامًا من ذلك.

## العراق فى حرب ١٩٦٧

فى منتصف شهر مايو من عام ١٩٦٧ وصل التوتر الذى أخذ فى التصاعد بين إسرائيل من ناحية ومصر وسوريا من الناحية الأخرى إلى نقطة الغليان. وفى خلال

تلك الأسابيع لاحت بوادر الحرب، وأصدر الرئيس ناصر أمرًا بخروج قوات حفظ السلام التابعة للأمم المتحدة من سيناء، وقام بتحريك الجيش المصرى وأعلن إغلاق مضايق تيران الواقعة بين البحر الأحمر وخليج العقبة أمام السفن الإسرائيلية. وكانت التصريحات الإسرائيلية للمراسلين الأجانب فى تل أبيب والقدس تحذر من الخطر السورى حيث حدثت اشتباكات بين قواتها البرية والجوية والقوات الإسرائيلية. كما أعلنت أن قوات منظمة التحرير الفلسطينية تقوم بعمليات ضد إسرائيل على طول خطوط الهدنة. وفى بغداد انضم العراق إلى العاصفة الدعائية العربية العامة ضد الدولة اليهودية وبدأ الاستعداد لهذا الصراع الذى بدأ يلوح فى الأفق. وفى التاسع عشر من شهر مايو، أعلنت بغداد رفع درجة الاستعداد فى الجيش العراقى إلى الحالة القصوى، وقام وفد عراقى بزيارة إلى دمشق للتنسيق لتقديم المساعدة العسكرية حيث عرض الوفد تقديم الدعم الجوى من القاعدة الجوية H-3 الموجودة فى غرب العراق.

الموضوع الذى يغفله المؤرخون لهذه الفترة دائمًا هو أن العراق قام بإرسال كتيبة مشاة إلى مصر قبل الهجوم الإسرائيلى على سوريا وقبل اندلاع القتال بين الأردنيين والإسرائيليين فى القدس فى الخامس من يونيه بوقت قصير، ولكننى لم أجد أى رواية يستدل منها على اشتراك تلك الكتيبة فى الصراع العسكرى الذى دام ستة أيام بعد ذلك. وعلى الجبهة الدبلوماسية دعت حكومة عارف فى العراق جارتيها المسلمتين من غير العرب، إيران وتركيا، باسم التضامن الإسلامى الانضمام إلى الجهود العربية الموحدة، ولكن هذه الدعوى ذهبت أدراج الرياح. وقبل أن يطير الملك حسين فى الثلاثين من شهر مايو إلى القاهرة للتوقيع على معاهدة دفاع مشترك مع ناصر، كانت الماكينة الدعائية العراقية تلقى باللائمة على حسين وحكومته بسبب تباطؤهم فى الانضمام إلى الجهود العربية المشتركة. ولكن عندما تم تأسيس القيادة العربية المشتركة، وقام الفريق المصرى عبد المنعم رياض بتشكيل القيادة العربية الموحدة فى عمان والتى كانت تضم ضباطًا عراقيين بالإضافة إلى ضباط من سوريا ومصر والأردن، قام العراق على الفور بإرسال قطع غيار للمعدات العسكرية ومساعدات عسكرية أخرى إلى الأردن (ولكنه لم يرسل مساعدات إلى خصمه سوريا التى يحكمها البعثيون الجدد)، كما وقع مع مصر على معاهدة دفاع مشترك[١٣].

وعندما وضعت الحرب أوزارها ، حيث كانت إسرائيل والكثير من دول العالم الغربى يحتفلون بالنصر الساحق لإسرائيل على التحالف العربى ، كان العالم العربى بأسره فى حالة من الحزن والحداد على سيناء والقدس الشرقية والضفة الغربية ومرتفعات الجولان التى استولى عليها الجيش الإسرائيلى المنتصر . وأثرت الهزيمة على عبد الناصر وغيرت من خطابه ، لكنه لم يتخل عن تحديه حيث قام بتنظيم مؤتمر قمة عربى فى الخرطوم فى شهر أغسطس . وقد أطلقت بعض وسائل الإعلام العربية ، التى تتسم بالخطاب البلاغى ، على هذا المؤتمر «المؤتمر المصيرى» . وحدثت مواجهة بين الملك حسين وعارف والرئيس الجزائرى هوارى بومدين حول مقولة ناصر إنهم ربما يجب عليهم التفكير فى تسوية سياسية مع إسرائيل . وغادر السوريون البعثيون الجدد المؤتمر وهم فى حالة من الاشمئزاز ، واشترك الوفد العراقى مع القادة الجزائريين فى مطلبهم بضرورة الاستمرار فى حظر تصدير البترول للغرب الذى فرض مع اندلاع الحرب . كما أن زعيم منظمة التحرير الفلسطينية أحمد الشقيرى الذى كان مفروضًا من جانب مصر قبل ياسر عرفات كان يثنى على ضرورة اشتعال جذوة العمليات الفدائية الفلسطينية وأعمال التمرد فى المناطق المحتلة . ولكن سادت رؤى ناصر التى كانت خليطًا بين الاستمرار فى انتهاج خط متشدد حول فلسطين والحقيقة السياسية فيما يتعلق بالإمكانية غير الكاملة للقيام بعمل عسكرى ناجح فى المستقبل القريب . وجاء التصويت فى البيان الختامى ضد فكرة الولايات المتحدة والاتحاد السوفييتى لتشجيع إبرام اتفاقيات سلام مع إسرائيل . كما نادى بضرورة القيام «بعمل سياسى» عربى موحد لاسترجاع المناطق المحتلة والحصول على الحقوق الفلسطينية ، ولكنه أصر على اللاءات الثلاث الشهيرة التى كانت تهيمن على غالبية السياسات العربية حتى وفاة ناصر فى عام ١٩٧٠ وما تلى ذلك من جهود لتحقيق السلام من جانب خليفته الرئيس أنور السادات . وهذه اللاءات الثلاث هى لا اعتراف بإسرائيل ولا سلام ولا تفاوض معها ، مصحوبة بكافة الخطوات الضرورية للاستعدادات العسكرية[١٤] .

كان الأداء العراقى الردىء فى حرب عام ١٩٦٧ أحد أسباب السخط الداخلى والاضطراب السياسى الذى أدى إلى سيطرة صدام حسين على السلطة مع شريكه البكر فى الانقلاب البعثى الناجح فى عام ١٩٦٨ . وخلال فترة الحرب تولى عارف

منصب رئاسة الوزراء بالإضافة إلى الرئاسة ؛ لأن رئيس الوزراء فى ذلك الوقت ناجى طالب ثبت أنه غير كفء فى تهدئة الخلافات بين مختلف القبائل والعشائر العراقية . وبعد الحرب عين عارف فى منصب رئيس الوزراء ضابطًا يتميز بالقوة هو طاهر يحيى . وتماشيًا مع منهج اللاءات الثلاث لمؤتمر الخرطوم والنهج العسكرى الأكثر تشددًا المضاد للصهيونية والإمبريالية ، قطع يحيى العلاقات الدبلوماسية مع بريطانيا والولايات المتحدة (والتى كان ناصر وحتى الملك حسين يتهمانها منذ الخامس من يونيو بأنها تدخلت بشكل فعلى فى الحرب إلى جانب إسرائيل) . ومهد القانونان الجديدان الصادران فى أغسطس وسبتمبر عام ١٩٦٧ الطريق للتأميم الشامل للبترول العراقى تحت مظلة شركة العراق الوطنية للنفط . واكتسبت هذه الشركة نفوذا أوسع وحقوق وامتيازات حصرية لتطوير الثروات النفطية الهائلة فى حقل شمال الرميلة القريب من الحدود مع الكويت ، ومن المعروف والثابت أن هذا الحقل يحتوى على احتياطيات نفطية كبيرة ، ولكن شركة نفط العراق IPC المملوكة للغرب لم يسمح لها بتطويره وفق القانون رقم ٨٠ لعام ١٩٦١ الذى صدر فى عهد قاسم .

كان القانونان الجديدان للبترول بمثابة إشارة لفتح المجال لفرنسا ، التى كانت شركات النفط فيها تنتظره على أحر من الجمر ، وبصفة خاصة منذ أن فقدت سيطرتها على مصادر البترول والغاز الطبيعى فى الجزائر بعد حصولها على حريتها من فرنسا عقب الحرب التى استمرت من عام ١٩٥٤ حتى عام ١٩٦٢ لتحقيق استقلال الجزائر . وفى الرابع والعشرين من شهر نوفمبر عام ١٩٦٧ فتحت شركة العراق الوطنية للبترول INOC الباب لما أصبح يتطور سريعًا ليصبح انخراطًا كبيرًا لفرنسا فى العراق وبصفة خاصة فى فترة حكم صدام حسين من عام ١٩٧٩ حتى عام ٢٠٠٣ ، حيث قامت الشركة بتوقيع عقد خدمات مع شركة البترول الفرنسية ERAP وفى نفس الوقت أعلنت الشركة أنها تسعى إلى الحصول على المساعدة من السوفييت لتطوير حقل شمال الرميلة وحقول أخرى . وعلى ذلك ، مهدت حكومة يحيى الطريق للسياسات العسكرية البترولية التى انتهجها صدام حسين فيما بعد عن طريق إبداء عزمها على الاستمرار فى تقليص المصالح الغربية فى شركة العراق للبترول IPC . وفى العاشر من إبريل عام ١٩٦٨ أعلن أن شركة العراق الوطنية للبترول INOC ستقوم بتطوير حقل

شمال الرميلة بدون أى مدخلات أو مساعدة من شركة بترول العراق. وترك الأمر لنظام صدام - البكر للمضى فى العملية حتى نهايتها عن طريق تأميم حزب البعث لشركة بترول العراق عام ١٩٧٢ (١٥). وكان ذلك دليلاً موحيًا، ولكنه على درجة كبيرة من الأهمية على أن البعثيين أصبحوا فى ذلك الوقت سادة الموقف فى العراق بشكل مطلق.

كيف قبض صدام حسين على مقاليد السلطة المطلقة بشكل دائم فى النهاية، بموافقة أمريكية للمرة الثانية، وكيف كان رد فعل الولايات المتحدة وبريطانيا والقوتين الإقليميتين الفاعلتين إيران وإسرائيل؟ ذلك ما سوف نتعرض له فيما يلى.

***

# الفصل السابع

## حقبة صدام الأولى :
## العلاقات مع الولايات المتحدة
## وأعمال الحرب مع إسرائيل



**«المؤرخون خطرون! ويمكنهم قلب الأمور رأسًا على عقب، ولذا يجب توخى الحذر منهم».**

**(نيكيتا خروتشوف، ١٩٥٦)**

ربما يتساءل المؤرخون: لماذا استغرق الأمر كل هذا الوقت من الولايات المتحدة وإسرائيل، بما أنهم شركاء، مترددين أحيانًا، لكى يصبحوا حلفاء مقربين ضد صدام حسين؟

وقبل ذلك، كانت مصالح إسرائيل والولايات المتحدة فى العراق متنازعة إلى حد كبير. فمنذ ميلاد إسرائيل، وبصورة أدق منذ اندلاع الثورة العراقية عام ١٩٥٨ فصاعداً، كان الهاجس الإسرائيلى الأساسى تجاه العراق يتعلق بالأمن القومى لإسرائيل، والحاجة للدفاع فى مواجهة عدو استراتيچى خطير. وقد أدى الحكم البعثى من أواخر الستينيات والسبعينيات إلى تزايد ذلك الإحساس فى إسرائيل. وقد عبر صدام وزمرته فى كل مناسبة ممكنة عن عزمهم «كسر شوكة الصهاينة» و«تحرير فلسطين».

أما الولايات المتحدة، وخاصة فيما يتعلق بالنفط والمصالح التجارية التى لها تأثير كبير على الإدارات الأمريكية، فقد رأت فى البترول العراقى ومصادر الطاقة الأخرى الموجودة به وفى السوق المتسعة الموجودة فيه للتكنولوچيا الغربية، فرصة ذهبية لها. ولكن عندما بدأت كل من إسرائيل والولايات المتحدة فى التسعينيات فى محاولة خلع صدام وإعادة تشكيل العراق ليصبح دولة ذات علاقة أوثق بالغرب (وبإسرائيل إن أمكن)، ظهرت اعتبارات استراتيچية تتعلق بالجوانب التجارية فى التفكير الأمريكى وبدور المنشآت الأمريكية فى إعادة تعمير العراق بعد عام ٢٠٠٣ ـ وهو ما جعل الشريك الإسرائيلى للولايات المتحدة حليفًا بكل معنى الكلمة.

## الأعمال [البيزنيس] الأمريكية وانتصار صدام

كان الدعم الأمريكى للانقلاب البعثى عام ١٩٦٨ أكثر غموضًا من دعم انقلاب ١٩٦٣ . وهناك اسم أمريكى تكرر ظهوره فى الوثائق المطبوعة حول تلك الفترة وهو : روبرت أندرسون . وكان أندرسون يعمل فى مجال النفط فى تكساس، كما أنه كان وزيراً سابقًا . وفى عام ١٩٥٦ ، وقبل حرب السويس، أرسله الرئيس أيزنهاور ووزير الخارجية چون فوستر دالاس فى محاولة لإقناع ديفيد بن جوريون وجمال عبد الناصر بالتوصل إلى اتفاق . وقد خيم شبح حرب أخرى فى الأفق . فقد قام كل من أيزنهاور ودالاس بسحب العرض الخاص بتقديم معونة أمريكية إلى مصر من أجل بناء السد العالى فى أسوان، وذلك كرد فعل لتأميم جمال عبد الناصر لقناة السويس وقراره بشراء أسلحة من الكتلة الشرقية . ووفقًا للمؤرخ الإسرائيلى ميشيل أورين، كان بن جوريون يرغب فى لقاء عبد الناصر والحديث معه، ولكنه لم يضع فى اعتباره أى تنازلات عن الأرض . ومع ذلك، فقد اعتقد عبد الناصر أنه قد يسخر من مثل تلك المقابلة . ولهذا لم تتم أبدًا[١] .

وقد واجهت جهود أندرسون لتحقيق السلام إلى نكسة أخرى، هذه المرة لحساب صديقه، الرئيس ليندون چونسون، أثناء الفترة السابقة على اندلاع حرب يونيه ١٩٦٧ . وفى ٢٤ مايو من العام نفسه، تحدث چونسون إلى أندرسون عبر الهاتف حول الأزمة المتفاقمة بين العرب وإسرائيل . وعرض چونسون سفر أندرسون فى مهمة سرية أخرى للقاهرة، بدون إخطار السفير الأمريكى المعين حديثًا، ديك نولت . وقد وصل اندرسون إلى القاهرة فى يوم ٣٠ مايو . كان ذلك بعد ساعات من زيارة الملك حسين لمصر وتوقيعه معاهدة الدفاع المشترك مع عبد الناصر، الأمر الذى أدى إلى تصاعد احتمالات نشوب الحرب . وقد أيقن أندرسون أن المصالح الاقتصادية يمكنها التخفيف من المشكلات السياسية المزمنة الموجودة فى الشرق الأوسط . كما اقترح على عبد الناصر أن يقوم نائبه عبد الحكيم عامر بزيارة الولايات المتحدة . واعتقد أندرسون أن تقديم القمح الأمريكى لمصر يمكن مقايضته بتنازل من جانب عبد الناصر عن مطالبه تجاه إسرائيل . وقد أصر عبد الناصر على أن إسرائيل كانت تحشد قواتها من أجل الهجوم على سوريا، كما أكد لأندرسون أن مصر مستعدة للرد على إسرائيل . كما

اقترح أن نائبًا آخر للرئيس، وهو زكريا محيى الدين، وهو كعامر صديق قديم ورفيق فى الجيش للرئيس عبد الناصر، يمكنه السفر إلى الولايات المتحدة. وقد تم الاتفاق على ذلك، ولكن سرعان ما انهارت الخطوات المستعجلة اللازمة للتوصل إلى السلام. وقامت إسرائيل بشن هجومها المباغت، والذى أحسنت الإعداد له فى الخامس من يونيه[٢].

وبعد ذلك، قامت واشنطن ثانية بمنح أندرسون دورًا جوهريًا، ولكن هذه المرة فى العراق، فى السنوات التى سبقت الانقلاب البعثى الفاصل عام ١٩٦٨. هذه المرة كانت هناك أدلة قوية على تدخل المصالح الأمريكية، من أجل المكاسب التجارية. فقد قدمت الشركة الوطنية العراقية للنفط امتيازًا للبحث عن البترول للاتحاد المالى الفرنسى (ERAP) عام ١٩٦٦. كما دعت الشركة أيضا السوڤييت إلى تطوير حقل البترول الروميلة الواقع على الحدود العراقية الكويتية. وقد حقق الفرنسيون والسوڤييت بعض النجاح فى تسويق النفط العراقى. وأدى ذلك إلى إثارة اهتمام شركات البترول فى واشنطن وتكساس وولايات نفطية أمريكية أخرى. وفى ذلك الوقت، ارتفع سعر الكبريت الصناعى فى السوق العالمى. وقد زاد ذلك من الجاذبية الاقتصادية لمناجم الكبريت فى منطقة ميشاق الواقعة فى شمال العراق. وأرادت حكومة الرئيس عبد الرحمن عارف منح ذلك الامتياز للفرنسيين الذين رغبت المنشآت النفطية لديهم فى الحصول على المزيد من الامتيازات من بغداد. وتعهدت مجموعة من رجال الأعمال الأمريكيين، بمباركة من واشنطن، التى كانت تعانى من الصعوبات التى تواجهها فى الحروب الهندية الصينية، بمحاولة كبح جماح التغلغل الفرنسى والسوڤييتى فى العراق. كما تقرب پاول پاركر، المصرفى الأمريكى المغامر الذى تربطه علاقات وطيدة بالعمليات الاستخبارية لوزارة المالية الأمريكية والذى كان على معرفة شخصية بى وبصحفيين فى بيروت، من السفير العراقى فى بيروت، ناصر الهانى، ولطفى عبيدى، المحامى العراقى، وثيق الصلة بحزب البعث. وتوصل پاركر، وفقًا لسعيد أبو ريش، إلى اتفاق مع كارل لدوفيج، وهو مالك عملاق لناقلة نفط، لتسويق النفط العراقى فى الأسواق العالمية. وفى نفس الوقت، بدأ روبرت أندرسون فى التنقل بين بغداد والولايات المتحدة وبصحبته «عروض مفتوحة» للنفط، وعروض شراء من شركة پان الأمريكية للكبريت وشركة الخليج للكبريت.

ومع ذلك، بحلول عام ١٩٦٧، عبر المتظاهرون فى بغداد عن رفض البعث بالهتاف «عُد لديارك يا أندرسون»، ولكن لم يرتدع أندرسون ولا پاركر. وبدأ كلاهما التودد إلى المسئولين العراقيين وإلى دوائر العمل العراقية. وعند نقطة معينة، اتهم الرئيس عارف رئيس جهاز مخابراته الجديد عبد الرازق نايف، بالعمل لصالح المطامع الغربية فى النفط العراقى، ورتب كل من پاركر وعبيدى مقابلة بين أندرسون ومعلم صدام حسين ورئيس حزب البعث القادم، أحمد حسن البكر، من أجل مناقشة قضايا النفط والكبريت، ولكن دون نتائج ملموسة.

## تولى حزب البعث السلطة فى يوليه

سبق «ثورة يوليه»، وهى الاسم الذى اختاره صدام ومؤيدوه للانقلاب الذى حدث فى يوليو ١٩٦٨، إعداد مسبق طويل دؤوب. وعمل المتآمرون الذين دسهم صدام وبكر على كسب العديد من تأييد الضباط الموالين لعارف وخاصة قادة الوحدات العسكرية الهامة. وأصر صدام على انضمام البعثيين غير العسكريين إلى الجيش وارتداء الزى الموحد من أجل تعريف عارف بحجم الدعم العسكرى للمتآمرين. وارتدى صدام نفسه وكذلك العديدون، ومنهم أخوه غير الشقيق، برزان التكريتى (والذى تم القبض عليه بواسطة الولايات المتحدة قبل صدام فى غزو ٢٠٠٣)، ارتدوا جميعهم زيهم العسكرى واستقلوا الدبابات باتجاه قصر عارف فى الصباح الباكر يوم ١٧ يوليه ١٩٦٨. وقد صحب سعدون غايدان، رئيس الحرس الجمهورى، بكر والعميد أهاردان التكريتى وضباطًا من الحزب للاستيلاء على منشآت الفرقة العاشرة المدرعة. واستولى آخرون على مناطق جوهرية أخرى كوزارة الدفاع. ولم تكن هناك مقاومة تقريبًا رغم استيقاظ أهل بغداد على صوت تبادل إطلاق النار بالأسلحة الخفيفة. دخل أهاردان التكريتى قصر عارف ومعه زمرة من حزب البعث وطلبوا منه الاستقالة والذهاب إلى المنفى. وأجاب عارف باحتجاجات مهذبة وطلب أن ترافقه زوجته للخارج. واصطحب أهاردان التكريتى عارف إلى منزله وقدم له القهوة وطلب منه أخذ قسط من الراحة قبل مغادرة بغداد، وهذا هو ما فعله عارف بعد ذلك.

وفى غضون ساعات، وكما كان مخططًا له مسبقًا، حل صدام والبكر والمتآمرون معهم المجلس الثورى لعارف وقاموا بتشكيل مجلس قيادة الثورة الخاص بهم (RCC) تحت قيادة البكر. وعندما عرف أهل بغداد أن القمع الدموى للشيوعيين والشيعة وغيرهم قد انتهى، رحبوا كثيراً بالانقلاب البعثى. وأعلن أن البكر هو الرئيس، ولكن كانت رئاسة الوزارة من نصيب نايف، وكان لا ينتمى إلى الحزب البعثى. وشغل ناصر الهانى، الذى كان يجرى المحادثات مع روبرت أندرسون وپاول باركر، كسفير للعراق فى لبنان، منصب وزير الخارجية. كان هناك ستة أعضاء بعثيون فقط فى الوزارة البالغ عدد أعضائها ٢٤ عضواً. وكان البعثى الذى يحتل المرتبة الثانية فى السلطة والنفوذ بعد البكر هو حردان التكريتى. الذى أصبح رئيسًا للأركان (وبعد ذلك نائبًا للرئيس، ووزيرًا للدفاع وقائداً للقوات العراقية فى الأردن). كما أصبح حليف حردان، صلاح معهدى عماش، وزير الداخلية.

كانت مهمة صدام حسين هى رئاسة الخدمة الأمنية البعثية. وقد منحه ذلك السلطة الكاملة للسيطرة على الأمن الداخلى العراقى، الأمر الذى اعتبر المفتاح السحرى للسلطة المطلقة الذى امتلكه منذ ذلك الوقت فصاعداً. وقد اكتسب جهاز حنين، وهو اسم منظمة الأمن الداخلى القديمة التابعة لحزب البعث، ذلك الاسم السيئ أثناء عمليات التصفية الجسدية والتعذيب بعد انقلاب ١٩٦٣، ولكن تم إلغاؤه. بعد ذلك تم العثور على اسم آخر جيد وغير مؤذ لمسامع صدام وهو مكتب العلاقات العامة، والذى أصبح بعد قليل أكثر المنظمات الأمنية قمعًا وفساداً فى العالم العربى.

اتخذ صدام مكتبا إلى جوار مكتب البكر. وبعد ذلك اقترب من الرجل الكبير وأصبح على علاقة مباشرة به. وبعد أسبوعين من الانقلاب، تخلص صدام من اثنين من منافسيه بطريقة وحشية. وتم إرسال داود، وزير الدفاع، إلى الأردن من أجل التفتيش على القوات العراقية المرابطة هناك منذ حرب يونيه ١٩٦٧ مع إسرائيل. بعد ذلك تم نفيه إلى المملكة العربية السعودية. وقام صدام بنفسه بالإطاحة بنايف رئيس الوزراء حيث اقتحم مكتب البكر وفى يده مسدس أثناء تناول البكر ونايف لغدائهما. وأخبر نايف، الذى توسل إليه للإبقاء على حياته وحياة أطفاله الأربعة، أنه يلقى القبض عليه بتهمة ابتزاز الثورة. اصطحب صدام نايف إلى المطار وطلب منه وهو

يصوب المسدس نحو رأسه، أن يتصرف بصورة طبيعية وأن يحيى الضباط على الجانبين. طار نايف إلى الرباط بالمغرب، حيث شغل منصب سفير العراق. أما ناصر هانى وزير الخارجية فقد تم تحديد إقامته فى منزله حتى نوفمبر ١٩٦٨، ثم تم اختطافه وقتله وإلقاء جثته فى نهر دجلة على يد زبانية صدام حسين.

واتهم البكر نايف «بالتآمر» مع جهات خارجية ضد المصالح القومية العراقية، مدعيًا أن الثورة قد «اكتملت» وأنه سيتولى رئاسة الوزراء ويصبح القائد الأعلى للقوات المسلحة. وفى حديث تليفزيونى للبكر، ظهر صدام ممسكًا بسلاح نصف آلى على نحو يشبه جنود الدول الشيوعية أثناء العروض العسكرية. وكما قال أبو ريش، «كان الأب الروحى، البكر، يحرسه أحد أعضاء الحزب الذى لم تكن لديه أى مشكلة فى استخدام العنف من أجل تحقيق أهدافه»[٣].

وقد أشار المحللون الإسرائيليون والغربيون أن يوم الثلاثين من يوليه (عزل نايف وحديث البكر) الذى جدد انقلاب ١٧ يوليه كان مصحوبًا بتصريحات حادة تقول بأن الصهيونية سوف تسحق وأنه سيتم تحرير فلسطين «على الفور» وأظهر البكر وصدام بعض التعاطف لاسترضاء أكراد البرزانى والشيوعيين. وبدلاً من ذبحهم بالمئات والآلاف، وبفضل وكالة الاستخبارات المركزية، حصلوا على ثلاثة مناصب فى الوزارة. ولكنهم رفضوا قبولها مطالبين بالحريات المدنية الكاملة والسماح بالأحزاب السياسية وإجراء انتخابات ديموقراطية. لم تكن هناك أدنى استجابة من جانب البعثيين. انهارت كل العروض المقدمة لبرزانى بسبب انحياز النظام الجديد الواضح لمنافسه جلال طالبانى. واستقال اثنان من الأكراد المؤيدين لبرزانى من الوزارة فى أغسطس عام ١٩٦٨، فى حين استمر وجود رجل طالبانى فى الوزارة وهو طه محيى الدين معروف.

## البرامج وصراعات السلطة

فى سپتمبر، أصدر النظام الجديد دستوراً مؤقتًا ينص على ثلاثة مبادئ أساسية: الإسلام هو دين الدولة، والاشتراكية هى أساس الاقتصاد، ومجلس قيادة الثورة

(الذى يرأسه البكر وصدام) هو صاحب السلطة المطلقة، ويخضع له مجلس الوزراء والجمعية الوطنية. وبمجرد نشر الدستور الجديد، رفع النظام إلى جانب الوعود الوردية «الجزرة» التى كان يتملق بها الشيوعيين والأكراد عصا غليظة. فقد كان جهاز الأمن البعثى الذى يقوده صدام يجوب الدولة لاصطياد الشيوعيين والناصريين ومؤيدى السوريين والبعثيين والمسئولين القدامى والجواسيس. وقد رأينا فى الفصل الثالث ماذا حدث للجواسيس، خاصة اليهود منهم، الذين تم القبض عليهم وإعدامهم فى يناير ١٩٦٩. كانت الاعتقالات التالية من نصيب مئات الضباط وحوالى ٤٠ رجل أعمال أغلبهم من العراقيين المرتبطين بأمثال أندرسون وپاركر وآخرين. ولم يفلت من قبضته النظام والمسئولين، مثل البزاز رئيس الوزراء السابق. وأعاد هذا النظام المرعب إلى أذهان العراقيين الأيام السوداء فى عام ١٩٦٣.

حدث بعد ذلك صراع على السلطة داخل حزب البعث بين البكر الذى يسانده صدام حسين وبين العقيد صالح مهدى عماش وحردان التكريتى. وكان لديهم الكثير من الأتباع فى القوات المسلحة العراقية، ولذلك فقد كانوا يمثلون تهديداً سياسيًا لمنافسيهم. وسعى وزيرا الداخلية (عماش) والدفاع (التكريتى) إلى تكوين أجهزة أمنية موازية من أجل تعزيز سلطتهما وشن البكر وصدام فى المقابل هجومًا مضاداً من خلال تشديد قبضة صدام على مكتب العلاقات العامة فائق القوة والبطش.

وفى بدايات ١٩٦٩، تم الإعلان عن تشكيل قيادة قطرية جديدة لحزب البعث وباستثناء بكر وعماش، لم يكن لدى أحد من أعضاء القيادة الجديدة (بما فيها صدام) أية خلفية عسكرية حقيقية. لقد جاءوا جميعًا من المثلث السنى الذى اشتهر خلال الاحتلال الأمريكى فى عامى ٢٠٠٣ و ٢٠٠٤ بالمقاومة الضارية للائتلاف الذى تقوده الولايات المتحدة. كان ذلك المثلث، ولا يزال مقتصراً على مدن بغداد والموصل وتكريت الواقعة على نهر دجلة، وبعض المدن الصغيرة الواقعة على نهر الفرات مثل عنا وراوا وحديثة والفلوجة. وقد تميزت هذه المدن بنمو الشعور بالقومية العربية منذ الوجود العثمانى والاحتلال البريطانى والذى جاءها عبر سوريا. وكانت الغالبية العظمى للقيادة البعثية من السنة. وفى نفس الوقت، قام بكر وصدام بإضفاء الصفة

البعثية على القوات المسلحة عن طريق استبدال المئات من الضباط الذين لا يثقون فيهم ببعثيين مخلصين أو مؤيدين لهم.

وخلال تلك الفترة، أحكم صدام قبضته على كل الأجهزة الأمنية فى الدولة بما فى ذلك مكتب الأمن القومى التابع لمجلس قيادة الثورة، وهو جهاز الأمن الشخصى للرئيس، الذى كان يقوم بصورة أساسية بجمع المعلومات الاستخباراتية عن المعارضة السياسية والدينية. وكان صدام يتمتع بالسيطرة الكاملة على جهاز الأمن القومى الرسمى السابق لتولى حزب البعث السلطة. وكان المسئول المباشر عنه هو ناظم كازار، والذى تم اتهامه وإعدامه بعد ذلك عبر مؤامرة غريبة أعادت إلى الأذهان حقبة لاڤرينتى بيريا رئيس البوليس السرى فى الاتحاد السوڤييتى فى عهد جوزيف ستالين. كان صدام أيضا رئيس ميليشيا حزب البعث، التى عرفت باسم الحرس الوطنى. وأدت تلك الإجراءات إلى تفرغ البكر لتدعيم القوات المسلحة النظامية وعزل عماش وحردان التكريتى.

وبحلول مايو ١٩٦٩، أدانت محكمة الثورة الخاصة مجموعة أخرى من رجال الأعمال بزعم ارتباطهم بنفس وكالة الاستخبارات المركزية CIA التى مكنت صدام من الوصول للسلطة. وبعد ذلك وفى يونيه ١٩٦٩، أطلق على البطل السابق، عبد السلام عارف بعد وفاته، لقب عميل الاستخبارات المركزية، واعترف وزير الداخلية، رشيد مصلح بنفسه أنه عمل لحساب وكالة الاستخبارات المركزية، كما اعترف زكى عبد الوهاب، المدير الأسبق لشركة كوكاكولا بأنه كان عميلاً للاستخبارات العسكرية MI-6 البريطانية منذ عام ١٩٥٦. أما قمع القيادة الشيوعية، والقيادة المركزية للحزب برئاسة عزيز الحاج والذى انشق عن الهيكل الرئيسى للحزب الشيوعى العراقى فى سپتمبر عام ١٩٦٧، فكان بالغ الوحشية. لقد عذبوه وحطموه تمامًا، ثم ظهر على شاشة التليفزيون واعترف وأدان نفسه وأعضاء حزبه بتخريب النظام. كما دعا الأكراد إلى التخلى عن الملا مصطفى البرازانى. وبعد ذلك أذاع راديو بغداد ما أطلق عليه خطاب طويل وقع عليه الحاج وسبعون من الشيوعيين الآخرين لتأييد قرار النظام بالاعتراف بألمانيا الشرقية الشيوعية. ومن خلال تعزيز العلاقات مع الاتحاد السوڤييتى، أراد

الثنائى صدام ـ البكر إثبات أنه يمكنه إلحاق الهزيمة بالحزب الشيوعى القديم المريض وإثبات أن حزب البعث هو اليسار الذى يمكن الوثوق به(٤).

كان صدام يجذب معجبيه الغربيين. وفى نوفمبر ١٩٦٩، أرسل السفير البريطانى فى بغداد إلى وزارة الخارجية فى لندن تقييمًا لصدام، أفاد فيه بأنه أصبح «فى دائرة الضوء» وأنه يبدو «وكأنه الوريث الشرعى» للرئيس البكر. وبعد اجتماعه مع صدام، وجده رجلاً، رغم خجله الظاهر فى بداية الحديث، لبقًا يجيد الحديث فى شتى الموضوعات. وأضاف السفير أن صدام أصر على أن «علاقة العراق بالاتحاد السوڤييتى ترتكز على القضية الفلسطينية» كما عبر صدام بوضوح عن رغبة «صادقة» فى تحسين العلاقات مع بريطانيا «والولايات المتحدة أيضا من أجل ذلك الموضوع». وصف المبعوث البريطانى صدام بأنه «شاب» ذو «ابتسامة جذابة» وأنه «عضو مهيب وعنيد ومنفرد الفكر فى السلطة العراقية، وأنه سوف يكون من المفيد العمل معه، فقط فى حالة إذا عرفنا المزيد عنه»(٥).

وقد فتن صدام أيضا العديد من الدبلوماسيين الأمريكيين، وسرعان ما هرع العديد من رجال الأعمال الأمريكان والأوروبيين إلى بغداد من أجل عقد الصفقات مع الديكتاتور الصاعد.

## حرب إسرائيل الخفية على صدام

لم يكن صعود صدام أمرًا جيدًا بالنسبة لإسرائيل ولا بالنسبة لاستخباراتها، التى شعرت بأن التهديد العراقى للدولة اليهودية فى تنام مستمر. فقد أيقنت إسرائيل أن العراق يتحول من مجرد جزء من التهديد العربى إلى قوة تهدد وجود الكيان الصهيونى، عن طريق شرائه للتكنولوجيا الغربية المتطورة، من خلال دخله الهائل من النفط، وإنتاج أسلحة الدمار الشامل. وقبل نصف قرن من التحقق من المعلومات الاستخباراتية حول تلك الأسلحة، الذى أصبح الشغل الشاغل للرئيس جورج بوش ورئيس الوزراء البريطانى تونى بلير عبر تخطيطهما لحرب عام ٢٠٠٣، بدأت إسرائيل فى التوصل إلى ما يمكنها الوصول إليه من معلومات حول تكنولوجيا السلاح العراقى

وموورديه من الخارج . وبذلت الجهد الجهيد من أجل حرمان العراق من أسلحة الدمار الشامل (خاصة النووى منها) سواء التى أراد الحصول عليها أو التى كان يملكها بالفعل .

وقد حققت إسرائيل نجاحين أساسيين فى تلك الفترة وهما نجاحها فى الاستيلاء على الطائرة المقاتلة ـ القاذفة من طراز ميج ـ ٢١ ، والأهم من ذلك ، نجاحها فى تدمير القدرة العراقية على بناء أسلحة نووية عن طريق الهجوم الجوى الإسرائيلى على مفاعل «أوسيراق» النووى خارج بغداد فى عام ١٩٨١ .

وفى ظهيرة يوم شتوى مظلم فى أوائل عام ٢٠٠٤ ، اصطحبنى سائق تاكسى ، واسع المعرفة حلو الحديث ، من فندق تل أبيب إلى المنزل الفخم الذى يسكنه يعقوب نمرودى ، الكولونيل المتقاعد والضابط السابق فى الموساد والمليارديرتاجر السلاح وإمبراطورية التجارة والعقارات . وافق نمرودى ـ المخطط لعمليتى الميج ـ ٢١ ومفاعل العسيراق والعديد من العمليات الأخرى ـ على لقائى عندما أخبرته تليفونيًا بأننى زرت طهران والشاه عدة مرات قبل عام ١٩٧٩ . كان نمرودى ضابط اتصال إسرائيلى ذا علاقة وثيقة بالشاه والعديد من چنرالات الجيش لمدة ٢٥ عامًا كانت زاخرة بالأحداث والعلاقات السرية بين طهران والقدس ، والتى كانت مفيدة له إلى حد كبير .

فى طريقنا إلى منزل نمرودى فى ضاحية سابيون ، اخترقنا شوارع واسعة تظللها أشجار النخيل وقصور وارفة أعادت إلى ذاكرتى منطقة «لاجولا» بجوار سان دييجو فى كاليفورنيا ، كما مررنا بحى أورا يهودا ، ذلك المجتمع المتلاحم ، الذى يسكنه يهود من أصل عراقى ، والذى أسسه موردخاى بن پورات وناجون آخرون من عمليتى عزرا ونحميا . كانت السيارات الفارهة وكلاب الحراسة والحراس الواقفون على باب الڤيلا ، بعض الدلائل الظاهرة التى تشير إلى مدى ما يتمتع به نمرودى من ثراء ، وكان يملك صحيفة «معاريف» ودار النشر الخاصة بها (ورأس ابنه أورين تحريرها فى عام ٢٠٠٤) .

كان نمرودى ممتلئ الجسم وذا حس فكاهى وقد أهدانى مذكراته المكتوبة بالعبرية على جزأين بعنوان «رحلة حياتى» . وعبر عن تمنياته فى أن أنجح فى العثور على مترجم

أستعيض به عن جهلي بالعبرية. وقص عليَّ كيف ولد في العراق عام ١٩٢٦ وكيف انتقلوا إلى القدس عندما كان عمرة عشرة أيام فقط[٦]. وكان واحداً من أحد عشر طفلاً لعائلة تتحدث العبرية والعربية، وكان عليه أن يدرس ويعمل في نفس الوقت، وهو ما يزل طفلاً صغيراً، حتى يساهم في إعالة عائلته. وعندما بلغ السادسة عشرة تم تجنيده في ميليشيات «اليشوف» قبل إقامة الدولة اليهودية. وبسبب إجادته العربية وروحه المغامرة، أصبح نمرودي، وهو في بداية العشرينيات من عمره، عضواً في قوات البالماخ، حيث شارك في القتال كما تم إرساله في مهام سرية - لم يفقد ميله إليها أبداً - إلى مصر وسوريا ولبنان ودول معادية أخرى أو محايدة. وبعد الاستقلال في مايو ١٩٤٨، أصبح ضابطًا في أمان (Aman)، جهاز الاستخبارات العسكرية الإسرائيلية. وفي عام ١٩٥٥، تم إرسال نمرودي وزوجته ريفكا إلى طهران كممثلين للوكالة اليهودية من أجل المساعدة على استمرار هجرة اليهود الإيرانيين إلى إسرائيل. وفي صيف عام ١٩٥٨، وعندما دقت أجراس الخطر، بعد النهاية العنيفة للملكية في العراق، عاد نمرودي إلى إسرائيل في زيارة قصيرة. وخلال تلك الفترة، بدأت تطلعات الشاه إلى إقامة علاقات وثيقة مع إسرائيل - الأمر الذي كان نمرودي يخطط له في طهران - تؤتي ثمارها. وقام الجنرال على كيا، رئيس الاستخبارات العسكرية الإيرانية بزيارة إسرائيل حيث استضافه نمرودي في منزله. واقترح كيا أن تقوم إسرائيل بإرسال «ضابط اتصال»، أصبح بعد ذلك ملحقًا عسكريًا في طهران. وبعد ذلك عين بن جوريون نمرودي ممثلاً لجيش الدفاع الإسرائيلي في إيران. وخلال عقد ملىء بالنشاط، اشتمل على عمليات إيرانية وإسرائيلية لحساب الأكراد العراقيين ومغامرات سرية ضد الأنظمة العراقية المتوالية، استغل نمرودي مهاراته الاجتماعية كما يجب. وقام بجمع كل رؤساء الأركان وكبار الضباط الإسرائيليين والإيرانيين تقريبًا معًا. وتبعًا لوصف المؤلف الإسرائيلي صمويل سيجيف، المتتبع عن قرب لإنجازات نمرودي من خلال فترة عمله الهامة في إيران «لقد فتح السوق الإيراني أمام صناعة الأسلحة الإسرائيلية». ومن إنجازات نمرودي في حروب إسرائيل ضد بغداد، العمل كقناة رئيسية لنقل الأسلحة السوفيتية التي استحوذت عليها إسرائيل في حرب يونيو ١٩٦٧ إلى أكراد برزاني[٧].

وعاد نمرودى إلى إسرائيل عام ١٩٧٠ ، وفهم أنه سيعمل كمنسق إسرائيلى فى الضفة الغربية المحتلة ، وعند ذلك استقال نمرودى من جيش الدفاع الإسرائيلى ومن العمل كله . وقال ضاحكًا «إن قرار دولة إسرائيل جعلنى مليونيراً» .

أدت المنزلة التى كان يتمتع بها نمرودى كتاجر للسلاح إلى لفت انتباه قادة الجيش الإسرائيلى . وبناءً على ذلك ، أرسله الجنرال تزفى تسيئور ، مساعد وزير الدفاع ، إلى إيران للمرة الثالثة ، ولكن هذه المرة كممثل لصناع السلاح الإسرائيليين . وقام نمرودى بتجديد صلاته القديمة ـ عالية المستوى ـ مع العائلة المالكة ، وخاصة مع عم زوجة الشاه الإمبراطورة فرح ديبا . وقام نمرودى بإبرام العديد من الصفقات الكبرى ، من بينها إمداد إيران بخمسين معمل لتحلية المياه ، وكذلك بيع أسلحة إسرائيلية ، وخلق مئات من فرص العمل فى إسرائيل .

## خدعة الميج ـ ٢١

ومع ذلك ، كان أكثر إنجاز يفتخر به نمرودى هو دوره فى الحصول على طائرة مقاتلة عراقية من طراز ميج ـ ٢١ ، والتى كانت أكثر الطائرات التى أمد بها الاتحاد السوفيتى الدول العربية تطوراً . وكان فحص الاستخبارات الأمريكية للطائرة ، بمجرد وصولها إلى إسرائيل ، من أهم الخطوات المبكرة التى ساهمت فى توطيد العلاقات العسكرية المشتركة بين إسرائيل وأمريكا والتى أصبحت فى التسعينيات تحالفًا مطلقًا .

وخلال صيف عام ١٩٦٣ ، وجه قائد السلاح الجوى الإسرائيلى ، عزرا ڤايتسمان ملاحظة وقحة إلى مائير عاميت ، الذى حل محل إيسر هاريل كمدير للموساد ، عندما قال له : «لو أتيت لى بطائرة ميج ـ ٢١ ، فإنك تكون قد أحسنت العمل ذلك اليوم» .

وقد فشلت الجهود السابقة لتنفيذ هذه المهمة . وكان هناك عميل أرمنى مصرى المولد يدعى چان توماس يعمل لحساب الموساد ، مارس نشاطه فى مصر منذ نهاية الخمسينيات ، وقد غادر توماس مصر بعد ثورة ١٩٥٢ التى قادها عبد الناصر . ويبدو أن الموساد جنده فى ألمانيا الشرقية ، ربما تحت «علم مزيف» (وهو ما يعنى فى عالم المخابرات أنه لم يكن يعرف الدولة أو النظام الذى يعمل لخدمته) . وكان الضابط

المسئول عنه فى الموساد يدعى چو رعنان، والذى كان يعمل تحت إمرة إيسر هاريل فى أوروپا. وقد رصد الموساد مكافأة قدرها مليون دولار لأى طيار مصرى يطير بطائرة ميج - ٢١ إلى إسرائيل. وعندما حاول توماس وشركاه تجنيد بعض العملاء، فضح أمرهم ضابط فى سلاح الطيران المصرى يدعى أديب حنا، مما أدى إلى القبض على توماس وخمسة من معاونيه فى يناير ١٩٦١. وتم إعدام توماس واثنين آخرين بواسطة نظام عبد الناصر فى ديسمبر ١٩٦٢، وحكم على الآخرين بالسجن. وفشلت محاولة أخرى لسرقة طائرة ميج لصالح إسرائيل. وقد تم تأديب اثنين من الطيارين العراقيين بواسطة عملاء من الموساد، واللذين تلقى أحدهما تدريبه فى الولايات المتحدة والآخر فى بغداد، بعد رفضهما العمل لحساب إسرائيل.

وبدأت المحاولة الثالثة والأكثر حرصًا فى نهاية عام ١٩٦٤. فقد قام شخص يدعى يوسف، وهو عراقى مصاب بالسكر فى الستينيات من عمره ذو ارتباطات عراقية سفلية، بالاتصال بيعقوب نمرودى فى طهران وبمسئولين إسرائيليين آخرين فى أوروپا. وكانت شقيقة صديقته متزوجة من طيار عراقى كاثوليكى يدعى منير ردفا (أو روڤا). وكان ردفا طيارًا ماهرًا يتمتع بالخبرة، وكان يعمل نائبًا لقائد سرب من طائرات ميج - ٢١ متمركز بالقرب من كركوك، حيث يقوم بعملياته ضد رجال برزانى فى كردستان. وحسب وصف يوسف، كان ردفا منشقًا. فقد تم تجاوزه فى الترقية، كما تم رفض طلبه النقل إلى قاعدة بالقرب من منزله فى بغداد. بالإضافة إلى ذلك، كان يسمح له بالطيران فى المهام القصيرة فقط بالقليل من الوقود، مما قلل من الوقت الذى يقضيه فى الطيران. فلم يكن أحد يثق به؛ لأنه كان مسيحيًا فى عالم يسوده المسلمون. وقال يوسف إنه مستعد للهرب إلى إسرائيل بطائرته إذا ساعدته إسرائيل فى ذلك. وقامت قيادة المخابرات على الفور بتكليف طيار محنك وضابط فى سلاح الطيران الإسرائيلى بالإشراف على العملية. وتم إقناع ردفا بلقاء مندوبين إسرائيليين فى أحد المنازل الآمنة فى أوروپا. وحضر الاجتماع ردفا وضابط الاستخبارات من السلاح الجوى ويوسف وصديقته. وتابع مائير عاميت، رئيس الموساد الاجتماع من ثقب عبر غرفة سرية. وأصر ردفا على تهريب والديه وزوجته وأطفاله وبعض أقاربه بأمان إلى خارج العراق قبل الطيران إلى إسرائيل. وتم الاتفاق على ذلك وعلى أن يدفع لردفا ما يزيد عن مليون دولار إذا تمت المهمة بنجاح.

كانت الخطوة التالية هى نقل ردفا إلى قاعدة جوية بجوار إسرائيل من أجل تقليل فترة الطيران. وتم اختيار فريق من صفوة ضباط الموساد وزرعهم فى بغداد من أجل الإشراف على تنفيذ العملية والإعداد لتهريب العائلة. وفى منتصف عام ١٩٦٦، تم نقل ردفا إلى قاعدة الرشيد الجوية خارج بغداد. وبدأ الموساد فى تهريب عائلة ردفا خارج العراق على مراحل، أحدهم كسائح والآخر للعلاج فى أوروبا. وتمت دعوة ردفا إلى إسرائيل من أجل معاينة القاعدة الجوية التى سيهبط فيها بطائرته الميج - ٢١. ونجح فى السفر إلى پاريس بصحبة إحدى عميلات الموساد، وصفتها بعض المصادر بأنها امرأة أمريكية ثرية وجذابة، لم يتم الإفصاح عن شخصيتها. وفى پاريس، حصل ردفا على وثائق سفر مزورة طار بعدها إلى إسرائيل حيث التقى رئيس القوات الجوية، الچنرال موردخاى هود، الذى أكد له تأمين خط سير الرحلة وتهريب عائلته. وفى بداية أغسطس، علم ردفا بأنه سيحصل قريبًا على وقود يكفيه للطيران ٩٠٠ كم وهو ما يكفى للوصول إلى إسرائيل.

وقد أكمل رحلته إلى إسرائيل بنجاح فى ١٦ أغسطس عام ١٩٦٦. أذهلتنا تلك الأنباء كمراسلين أجانب فى بيروت. فقد تعقب رادار أردنى طائرة تسير بأقصى سرعة عبر شمال الأردن، وتم إخطار الملك حسين. وبعد ذلك سأل الأردنيون السلاح الجوى السورى، الذى كان يقوده آنذاك حافظ الأسد الذى أصبح بعد ذلك رئيسًا لسوريا، عما يعلمه بشأن تلك الطائرة وكانت الإجابة هى أن هذه الطائرة يحتمل أن تكون قاذفة قنابل تقوم بتدريب روتينى فى المنطقة. وعند ذلك، وصلت تلك المعلومات المضللة إلى القيادة العليا فى عمان وبغداد، كان ردفا قد هبط بطائرته الميج - ٢١ فى إسرائيل.

وبعد الفشل فى تجنب الزهو بذلك الانتصار الاستخباراتى غير المسبوق، أعلن وزير الدفاع الإسرائيلى عن العملية فى مؤتمر صحفى استثنائى لمنير ردفا. كما أوضح كيف تم؟! أوضح كيف قامت طائرتان إسرائيليتان مقاتلتان من طراز ميراج باستقبال ردفا على مقربة من المجال الجوى الإسرائيلى. وحسب قواعد الطيران، قام بهز جناحى الطائرة وإنزال الإطارات قبل أن يهبط فى القاعدة الجوية الإسرائيلية «باستخدام آخر قطرة من الوقود لديه». وفى ذلك الصباح، قام اثنان من عملاء الموساد باستئجار سيارتين، وقاما باصطحاب عائلة ردفا إلى خارج بغداد بحجة القيام بنزهة. وقد

ساهمت علاقات نمرودى فى طهران على تأمين عبورهم للحدود الإيرانية بمساعدة السافاك الإيرانى ورجال حرب العصابات الأكراد. وعند وصولهم إلى إيران، طاروا إلى إسرائيل حيث اجتمع شمل العائلة.

بعد فحص الإسرائيليين للطائرة وتسجيل كافة التفاصيل، من أجل التخطيط لعمليات سلاح الطيران المقبلة، بما فى ذلك تسليح الطائرة وطاقتها الاستيعابية من الوقود ومدى الطيران، والتفاصيل الإلكترونية المتعلقة بها والمقاييس الإلكترونية - تلك المعلومات التى أسهمت إلى حد كبير فى النجاح الساحق الذى تحقق فى حرب ١٩٦٧ - قامت إسرائيل بإعادة الطائرة الميج - ٢١ إلى الولايات المتحدة. وقد قام البنتاجون بإجراء فحص دقيق للطائرة مما وفر للسلاح الجوى الأمريكى وحلف الناتو بيانات بالغة الدقة عن سلاح رئيسى فى يد عدوهم اللدود الاتحاد السوفييتى.

وساعدت تلك المعلومات والبيانات إسرائيل فى الإعداد لهجمتها المباغتة فى ٥ يونيه ١٩٦٧ على مصر وسوريا، والتى أدت إلى تدمير السلاح الجوى لديهما. كما قامت أيضا بشل حركة القاعدة الجوية التى توجد فى غرب العراق، بعد نجاح طائرتين من قاذفات القنابل العراقية فى اختراق المجال الجوى الإسرائيلى. وبعد أيام قليلة، فى يوم ٢٤ مايو، تم عقد اجتماع لمجلس الأمن القومى الأمريكى فى واشنطن. وقام مدير الاستخبارات المركزية ريتشارد هلمز بالتعليق على التقييم السلبى من جانب وزير الدفاع الأمريكى، روبرت ماكنمارا، لقدرة السلاح الجوى الإسرائيلى. وقام بإخبار الحاضرين بأن إسرائيل أخضعت الطائرة التى جاء بها ردفا إلى مناورات عسكرية اختبارية دقيقة، كما أنها أثبتت فى معركتها الجوية مع سوريا فى السابع من أبريل «أنها تعلمت الدرس جيداً». وقامت طائرات اعتراضية فرنسية الصنع من طراز ميراج IIIc بإسقاط ست طائرات سورية من طراز ميج - ٢١ دون أى خسائر إسرائيلية، مما كان إيذانًا بأداء القوات الجوية الإسرائيلية ضد القوات الجوية العربية فى الحرب القادمة[٨].

كان الصراع الرئيسى التالى فى معركة «يوم الغفران» أو معركة «رمضان» (حسب الجانب الذى تنتمى إليه) عام ١٩٧٣. كان لفشل الاستخبارات الإسرائيلية والأمريكية والبريطانية قبل غزو العراق عام ٢٠٠٣، مقدمة فى إسرائيل ١٩٧٣. فقد كانت

حكومة جولدا مائير فى شك من نوايا العرب حتى قبل هجومهم مباشرة. وتجاهل بعض كبار القادة الإسرائيليين الإشارات التى كانت تشير إلى نوايا العدو، بسبب «المفهوم» الخاطئ، كما أطلق عليه القادة الإسرائيليون بعد ذلك، بأن العرب غير راغبين وغير قادرين على شن حرب حقيقية. وعندما اتضح زيف ذلك بدأ الإسرائيليون عملية بحث عن الذات، كما أدى ذلك فى المقابل إلى المزيد من الحذر والسماح لدول أخرى - مثل إيران والولايات المتحدة - بخوض المعارك التى تعتبرها إسرائيل مؤثرة على مصالحها.

## أعداء صدام الحقيقيين والوهميين

كان البعثيون فى العراق - فى فترة ما قبل حرب عام ١٩٧٣ - يتعاملون - على شاكلة النظام الستالينى الشيوعى المصاب بالپارانويا، مع المؤامرات الحقيقية والمتخيلة من مصادر مختلفة. وفى الوقت الذى تمت فيه مواجهة المؤامرات الشيوعية و «الصهيونية» من خلال موجات جديدة من القمع الجماعى والتعذيب والإعدام، اكتشف البكر وصدام تهديدًا قويًا يأتى من جانب حليف إسرائيل والجار الشرقى للعراق، ألا وهو إيران تحت قيادة الشاه محمد رضا بهلوى. وقد حصل رجال الدين الشيعة المناوئين للشاه على حق اللجوء السياسى فى العراق، بما فيهم الزعيم البارز آية الله روح الله الخومينى. وبالرغم من ذلك، كان البكر وصدام ينظران إلى الغالبية الشيعية القلقة والمضطهدة فى العراق - والتى أخذ قادتها على عاتقهم تصعيب مهمة الاحتلال الأنجلو أمريكى فى جهوده المزعومة من أجل تحويل عراق ما بعد صدام إلى «الديموقراطية» فى عام ٢٠٠٤ - على أنهم أدوات للمؤامرات الشريرة التى تحاك بواسطة الشاه وإسرائيل والولايات المتحدة.

وواصل زبانية صدام، بالرغم من اعتراض الأمم المتحدة ومنظمات حقوق الإنسان على إعدام «الجواسيس» اليهود فى يناير ١٩٦٩، عمليات مطاردة الساحرات(*). وكثيراً ما كانت تعرض المحاكمات فى التليفزيون، وغالبا ما كانت تتم عمليات الإعدام

(*) تشبيهًا بمطاردة وشنق الساحرات فى مدينة سالم الأمريكية - المترجم.

فى مدينة البصرة، وهى المدينة الأساسية التى يتمركز بها الشيعة وعلى مقربة من الحدود الإيرانية.

واتخذ الشاه إجراءً عنيفًا أشعر النظام العراقى بالمهانة، ولم ينس صدام حسين ذلك أبدًا أو يتسامح فيه. ففى أبريل ١٩٦٩، أعلنت الحكومة الإيرانية على نحو مفاجئ إلغاء معاهدة ١٩٣٧ التى أبرمت آنذاك بين المملكتين الإيرانية والعراقية. وكانت المعاهدة قد منحت العراق سيطرة كاملة على منطقة شط العرب، الممر المائى الاستراتيجى الذى يقع على رأس الخليج، ويفصل بين الدولتين. كما أنها مدت السيطرة العراقية على النهر من الناحية الإيرانية أيضا. كانت كل السفن، بما فيها السفن الإيرانية، ملزمة بالانصياع لتعليمات المرور العراقية عند العبور من ميناء عبدان الإيرانى إلى الخليج. وأعلنت طهران أن الحد الفاصل بين الدولتين لا يقع فى الجانب الإيرانى من النهر وإنما وسط النهر. وبعد ذلك بقليل، قامت وزارة المعلومات الإيرانية بدعوتى وآخرين فى جولة نهرية على متن مركب صغير. (كان المسئول عن المركب هو على أكبر طباطبائى، الذى تم اغتياله فى منزله، كملحق صحفى فى آخر سفارة لإيران الإمبريالية بواشنطن عام ١٩٧٩ على يد عملاء الخومينى المتنكرين فى زى رجال بريد). واتجه القارب بنا صوب مدينة عبدان، رافعًا علم إيران بألوانه الأحمر والأبيض والأخضر ورمز الإمبريالى الممثل فى الأسد والشمس. وقد أبحرنا بالقرب من الشاطئ العراقى الذى تظلله أشجار النخيل تحت سمع وبصر الحراس العراقيين. بالإضافة إلى ذلك، قام الشاه بإرسال قوات إيرانية لتعزيز القوات الموجودة على الحدود العراقية كما قام بتحصين الأبنية الحكومية فى طهران بأكياس الرمل تحسبًا لأى هجوم مباغت من الأرض أو الجو.

ووصل التوتر إلى ذروته عندما وقعت بعض الأحداث التى مهدت لنشوب الحرب الكبرى بين إيران والعراق التى استمرت من عام ١٩٨٠ وحتى عام ١٩٨٨. ففى يناير ١٩٧٠، كشف صدام عن مؤامرة قام بها بعض الضباط الذين تدعمهم إيران، أغلبهم من الشيعة، من أجل الإطاحة بنظامه. وفى يوم ٢٠ يناير، قام العقيد المتقاعد مهدى صالح السمرائى بصحبة خمسين رجلاً، بناءً على أوامر من أحد مؤيدى الأخوين عارف، بالتوجه إلى القصر الرئاسى بهدف الاستيلاء عليه. وكان من المفترض أن يقوم

آخرون بالهجوم على مواقع جوهرية أخرى. وقد تم استدراج السمرائى ورجاله إلى داخل القصر الرئاسى، على يد أحد نشطاء البعث المقربين من صدام، ثم تم فتح النار عليهم واشتبكوا مع رجال أمن صدام فى معركة بالأعيرة النارية.

وبسرعته وقسوته المعتادة، قام صدام بعد ساعات قليلة بعقد محكمة أمنية خاصة، قامت بإدانة والحكم بالإعدام على أربعة وأربعين من المتآمرين ومن بينهم السمرائى. كما تم الحكم على رئيس الوزراء الأسبق نايف، الموجود بالمنفى بالإعدام غيابيًا، وتم اغتياله إبان ذلك فى لندن. وتم منح السفير الإيرانى مهلة قدرها ٢٤ ساعة لمغادرة العراق، كذلك تم إغلاق القنصليات الإيرانية فى بغداد والبصرة وكربلاء. كما تم طرد العديد من الإيرانيين المقيمين فى العراق. وتم الإعلان عن أن نجاح الحكومة فى مواجهة المتآمرين هو انتصار لصدام حسين. كما أعلنت الحكومة أن دافع الانقلاب لم يتمثل فقط فى فضيحة شط العرب، ولكنه كان أيضا جزءًا من مؤامرة أكبر لإعادة العراق إلى الخضوع «للهيمنة الأنجلو ـ أمريكية» وإضعاف الدولة فى صراعها المستمر مع إسرائيل(٩).

## صدام والفلسطينيون

فى الأردن، دحضت أزمة ١٩٧٠ والحرب الأهلية بين قوات الملك حسين وقوات منظمة التحرير الفلسطينية، المزاعم العراقية للقيادة البعثية بأنها ستقاتل، على نحو أكثر ضراوة من النظام السابق، من أجل القضية الفلسطينية. دعمت العراق العديد من منظمات المقاومة الفلسطينية ومنحتها النقود والمنازل، كما أوت وأولت رعاية خاصة للمفكرين والفنانين والكتاب الفلسطينيين، ونشطت العديد من منظمات المقاومة فى القيام بأنشطة إرهابية حسب المفهوم الدولى. فقد تورط كل من المجلس الثورى لفتح بقيادة أبو نضال وجبهة تحرير فلسطين بقيادة محمود عباس والجبهة الشعبية لتحرير فلسطين بقيادة چورچ حبش، وكذلك المنظمات المنشقة عنها مثل جماعة وادى حداد الإرهابية وجماعة ١٥ مايو بقيادة أبو إبراهيم وكذلك القيادة العامة للجبهة الشعبية لتحرير فلسطين بقيادة أحمد جبريل، تورطت فى العديد من عمليات خطف الطائرات والعديد من الهجمات داخل وخارج الشرق الأوسط. واستخدمت تلك المنظمات مكاتبها فى العراق وفى بعض الأحيان الدعم العراقى المباشر فى الخارج. وبعد ذلك،

وخلال النصف الثانى من الثمانينيات، عندما كان صدام فى حاجة ملحة لدعم أمريكى وغربى (وقد حصل عليه بالفعل) من أجل حربه ضد إيران بقيادة الخومينى، قام صدام بالحد من ذلك الدعم.

وفى عام ١٩٧٠، حدثت مواجهة دموية بين المنظمات الفلسطينية فى الأردن، التى كان نصف سكانها على الأقل من الفلسطينيين، والملك حسين. سعت بعض هذه المنظمات، خاصة الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين، إلى الإطاحة بالملك وتحويل الأردن إلى قاعدة سياسية وعسكرية لشن حرب عصابات على إسرائيل. واعتقد العديد من المحللين الإسرائيليين والغربيين أن القوات العراقية، التى بقيت فى الأردن بعد هزيمة عام ١٩٦٧، كانت حليفا محتملاً للفلسطينيين فى أى مواجهة مع القوات الأردنية الملكية.

كانت الأجهزة الأمنية الإسرائيلية، وخاصة «المحلية» مثل الشين بيت، تخوض حربًا ضارية ضد فتح والمنظمات الفلسطينية الأخرى، وكذلك الجماعات الفلسطينية الأخرى (غير التابعة لمنظمة التحرير)، التى تقود مقاومة شرسة ضد الاحتلال الإسرائيلى للضفة الغربية وقطاع غزة. ولذلك كان الصدام بين الجيش الأردنى والفدائيين الفلسطينيين فى نوفمبر ١٩٦٨ مصدر سعادة لإسرائيل، حيث قتل حوالى ٢٨ فلسطينيا وأربعة أردنيين[(١٠)].

وتلا ذلك العديد من المصادمات والعمليات الفدائية الفلسطينية ضد الملك حسين. وفى يونيه ١٩٧٠، حدثت أزمة الرهائن. فى ذلك الوقت، كنت أنا وزوجتى نقضى شهر العسل ونعمل أيضًا فى عمان عندما احتجز فدائيون تابعون لجورج حبش ٩٠ أجنبيًا، كنا من بينهم، فى فندقين بعمان لمدة أربعة أيام، من أجل الحصول على بعض التنازلات من الملك حسين ( ونجحوا فى ذلك) والتى كان من بينها عزل عم الملك حسين. اللواء شريف ناصر بن جميل، من منصب قائد الأركان وأن يحل محله اللواء مشرور حديثة، الذى كان يحوز ثقة عرفات والقادة الفلسطينيين الآخرين. وأدى ذلك إلى تمكين الأردن من إرجاء الحرب الأهلية الوشيكة.

## أيلول الأسود فى الأردن

فى أوائل شهر سبتمبر (أيلول)، بدأت الأحداث فى التفاقم لكى تكشف بوضوح عن حجم الدور العراقى فى الصراع العربى الإسرائيلى. وكان وزير الخارجية الأمريكى، ويليام روجرز، يتفاوض مع الجانبين المصرى والإسرائيلى من أجل التوصل إلى اتفاقية لوقف إطلاق النار خاصة «بحرب الاستنزاف» الدائرة بين الدولتين. وقد تم التوصل إلى هذا الاتفاق الذى وافق عليه الرئيس جمال عبد الناصر والحكومة الإسرائيلية. وأدى ذلك إلى اشتعال غضب الأنظمة العربية «الرافضة» وخاصة بغداد ودمشق. نص مشروع روجرز، كما كان يطلق عليه آنذاك، على قيام ناصر بكبح جماح أنشطة منظمة التحرير الفلسطينية المنطلقة من مصر. ووجه ناصر ضربة قاصمة لمنظمة التحرير الفلسطينية عندما أمر بإغلاق محطتين للبث باسمها من القاهرة وهما «صوت العاصفة» (الجناح العسكرى لحركة فتح) و«صوت فلسطين» اللتين كانتا تقوم ببث الإعلام الفلسطينى فى الشرق الأوسط بأكمله. ولكن لم تتأثر الإذاعات المناظرة فى سوريا أو العراق. ومع ذلك، كان عرفات قادراً على استخدام كل المحطات الإذاعية، بما فيها تلك الموجودة فى القاهرة، من أجل بث الأوامر بصورة مشفرة وكذلك المعلومات والدعاية.

أيقن عرفات، الذى قمت بلقائه مرات عديدة فى تلك الفترة وفى وقت لاحق، بعقليته التآمرية، وجود خطة مدبرة فى واشنطن ولندن وعمان والقدس من أجل الإيقاع بالحركة بأكملها. وقد أخبرنى أحد الطلاب الفلسطينيين فى جامعة بيروت بما يلى: «إننا نرى الأمور على النحو التالى: لو واجهنا الملك حسين وانهزمنا فستكون كارثة، أما لو انتصرنا فسوف نستولى على الأردن ونحكمها»، وهذا سوف يؤدى إلى غبطة المتشددين الإسرائيليين، ومن بينهم أريل شارون الذى كان يرفع شعار يقول بأن الأردن هى فلسطين(أو يجب أن تكون كذلك)، وهو ما يعنى طرد سكان الضفة الغربية وغزة إلى الأردن، «فلسطين الحقيقية». وذلك حتى تصبح إسرائيل دولة من اليهود فقط.

وفى غياب القائد چورچ حبش، الذى كان فى بكين، فى ذلك الوقت، وعلى نحو مخالف لرغبة عرفات والقيادة المركزية لمنظمة التحرير الفلسطينية، قامت الجبهة الشعبية

لتحرير فلسطين باختطاف أربع طائرات غربية وهى طائرة BOAC إلى ميناء القاهرة الدولى، وكذلك طائرة تابعة للخطوط الجوية الفرنسية، وطائرة TWA، وطائرة تابعة للخطوط الجوية السويسرية، والاتجاه بالطائرات الثلاث إلى مطار منعزل فى صحراء قرب مدينة الزرقا فى الأردن، بجوار قاعدة تتمركز فيها فرقة عسكرية عراقية. وقام الفدائيون بإخلاء سبيل الرهائن فى القاهرة ولكنهم احتفظوا بالرهائن فى الطائرات التى هبطت بالأردن لمدة أسبوع قبل الإفراج عن بعضهم ونقل الآخرين إلى أحد معسكراتهم ثم تفجير الطائرات الثلاث خالية.

وبالنسبة للملك حسين، كان اختطاف الطائرات بمثابة القشة التى قصمت ظهر البعير. وفى يوم ١٥ سبتمبر، قام بتعيين المشير حابس المجالى، الضابط البدوى الفظ، قائداً للأحكام العرفية مسئولاً عن النظام العسكرى الجديد[١١].

وقص علينا ضابط پاكستانى، خدم فى الأردن، تفاصيل عملية «تحرير الأردن من حركة المقاومة الفلسطينية». أمر الملك حسين معاونيه بتحرير عمان أولاً، وهى مدينة تمتد عبر سبعة تلال وتتكون من مبان من الحجر الصلب «يصعب اقتحامها ومن السهل الدفاع عنها» (بواسطة الفلسطينيين المتحصنين فيها). وبمجرد دحر الفدائيين فى عمان، كان من السهل التغلب على الفرقة العسكرية الفلسطينية المسيطرة على شمال مدينة إربد. كما استعاد الجيش أيضاً مدنا صغيرة مثل الزرقا ورامثا وجرش وعجلون والصلت.

أما بالنسبة للقادة العسكريين للملك حسين، وللمراقبين الإسرائيليين والأمريكيين والبريطانيين، فقد كان تساؤل هام حول القوة العسكرية العراقية المتمركزة فى المثلث الواقع بين الزرقا ومفرق ورامثا، وكذلك القوة المتمركزة بالقرب من الحدود السورية. والأخيرة كانت تتكون من ثلاثة ألوية تابعة للفرقة العراقية المدرعة الثالثة ولواءين من الفرقة التاسعة بإجمالى حوالى ١٢ ألف رجل بالإضافة إلى ألف للدعم. وتم إرسال سربين من طائرات هوك ـ هانتر المقاتلة إلى قاعدة الملك حسين العسكرية فى المفرق، كما كان هناك سرب من طائرات F-104 الاعتراضية الأمريكية الصنع يربض فى قاعدة الأمير حسن فى منطقة تدعى (H5) شرق الأردن. وكان من الممكن لو قامت المدفعية العراقية، بمساعدة منظمة التحرير الفلسطينية، بفتح نيرانها أن تزيل القاعدة الجوية الموجودة فى المفرق من الوجود.

وقبل الخامسة من صباح ١٦ سبتمبر، بدأ الهجوم الأردنى على الفلسطينيين. وقامت الدبابات والعربات المصفحة الأردنية بالتحرك صوب مواقع منظمة التحرير الفلسطينية فى كل المدن والأحياء الموجودة بها. وفرض المجالى حظر التجوال لمدة ٢٤ ساعة وصدرت الأوامر بإطلاق النار على كل من يرى فى الشارع. وقد استخدم التكتيكات التى اتبعها البريطانيون فى فلسطين، والتى عدلها المحتلون الإسرائيليون ثم استخدمتها بعد ذلك الولايات المتحدة فى العراق عام ٢٠٠٣ بمنتهى القسوة، حيث تقوم المدفعية بنسف أى منزل تصدر منه أية طلقات. واحتمى عرفات فى منزل خاص مع نايف حواتمة، قائد الجبهة الشعبية الديمقراطية لتحرير فلسطين، ذات الميول الماركسية. وقام عرفات بالاتصال لاسلكيًا باللجنة المركزية من مكان خفى آخر، لطلب المساعدة من العراقيين. وكان عرفات، الذى زار بغداد فى أغسطس، يصدق وعد البكر وصدام بتقديم المساعدة إليه عند الحاجة.

وقد نجا عرفات من الموت المحقق فى الأيام التالية مرات عديدة. وبخلاف ثلاثة من أهم معاونيه، من بينهم صلاح خلف، المعروف باسم أبو إياد، نجح عرفات فى تفادى القبض عليه من جانب الجهات الأردنية. وفى رسالة عبر الإذاعة إلى الرئيس عبد الناصر قال عرفات: «تدخل، تدخل بأى وسيلة ممكنة لوقف نزيف الدم فى الأردن، إن الموقف خطير للغاية، لقد شنوا هجومًا شاملاً ومتزامنًا فى عمان والزرقا». وتوجه فريق من الفلسطينيين إلى استوديوهات الإذاعة فى دمشق وأذاعوا رسائل مشفرة تقول «نضج العنب. تسلمنا الهدية. شكرًا». كما أذاع راديو بغداد رسائل مشابهة.

ومن أجل تثبيط همة العراقيين، قام الملك حسين بإصدار أوامره للواء المدرع التاسع والقوات المركزية للواء الثالث لاتخاذ مواقع حصينة بصحبة الأسلحة الثقيلة بالقرب من الزرقا. كذلك أمر بإغلاق الحدود بين العراق وسوريا. كما تم تأمين مطار عمان المدنى الدولى والقاعدة الجوية الملحقة به بواسطة كتيبتى مشاة ومعاونة السلاح الجوى الأردنى. وكان يمثل وسيلة الاتصال الوحيدة لعمان بالعالم الخارجى فى حالة قيام جسر جوى أمريكى أو التدخل الإسرائيلى الجوى - حيث كان البنتاجون لديه أوامر بحماية عرش حسين، بالقوة إذا لزم الأمر، وتم بالفعل وضع القوات الأمريكية فى حالة تأهب قصوى.

وتساءل الرئيس نيكسون وكذلك هنرى كيسنجر والعديد من المستشارين فى واشنطن : هل يجب عليهم أن يقوموا بتدخل «محدود» من أجل حماية الأمريكيين المحتجزين فى عمان؟ وكان السفير دين براون، والذى كان يتجول عادة فى عربة جيب أو سيارة مصفحة، فى الأوقات الأقل خطرًا، حول عمان، مسلحًا بمسدس سداسى الطلقات، عالقًا مع مساعديه فى السفارة الموجودة جنوب المدينة فى الجانب المقابل لفندق إنتركونتينتال المحاصر. وتم وضع القوات الأمريكية فى فورت براج، نورث كارولينا وحتى رامستين، ألمانيا وأنكرليك، تركيا فى حالة تأهب قصوى. كما تم إعلان حالة التأهب القصوى بالنسبة للفرقة ٨٢ المحمولة جوًا. وتمت استشارة وزيرة الخارجية الإسرائيلية، جولدا مائير، عند زيارتها لواشنطن. وتم وضع القوات الإسرائيلية على الحدود الأردنية على أهبة الاستعداد. وقامت وحدات الاستطلاع الإسرائيلية فى مرتفعات الجولان السورية المحتلة بمراقبة الاستعدادات السورية للتدخل لصالح منظمة التحرير الفلسطينية. كما قامت أيضًا بمراقبة الاتصالات العراقية بحثًا عن أى بادرة تدل على تحرك بغداد. وفى واشنطن، كان هنرى كيسنجر على اتصال دائم بالسفير الإسرائيلى إسحاق رابين، كما حث رفاقه على أنه يجب تشجيع إسرائيل على مساعدة الملك حسين إذا قامت أى من سوريا أو العراق باستخدام قواتها. وفى نفس الوقت، كان يجب إرسال إعانات عسكرية أمريكية لدعم الأردن.

كان الرئيس نيكسون مستغرقًا مع مستشاريه فى دراسة آخر التطورات فى كوبا تحت قيادة كاسترو حيث كان يشك فى وجود مخططات بحرية سوفيتية هناك، وكذلك الحرب مع الشيوعيين الفيتناميين فى نفس وقت إجراء مفاوضات سلام شاقة. ولم يكن يمكنه التركيز بشكل كامل على الشرق الأوسط. وأوضح ذلك لكيسنجر، فى ملاحظة غاضبة تعليقًا على الموجز المكتوب للأزمة الذى قدمه كيسنجر لنيكسون، حيث اعترض الأخير على مساعدة الملك حسين فى مواجهة منظمة التحرير الفلسطينية أو تشجيع إسرائيل على فعل ذلك.

كان نيكسون، على الرغم من أن كيسنجر والآخرين نصحوه بعكس ذلك، يفضل أنه فى حالة اضطراره لحماية العرش الهاشمى، أن تكون تلك الحماية أمرًا أمريكيا أحادى الجانب.

وفى صباح يوم ١٩ سبتمبر، وفى الوقت الذى كان يطلق فيه الديپلوماسيون والصحفيون على عرفات لقب كرانسكى الثورة الفلسطينية القادم، فى غياب حبش الذى اعتبر بمثابة لينين، قامت بعض عناصر الجيش السورى بغزو لبنان. وكان صديقى وزميلى أندرو بوروڤيتش، بجريدة «واشنطن إيڤننج ستار»، أفلح فى سوريا والتوجه جنوبًا صوب رامثا، داخل الحدود الأردنية مباشرة. واكتشف وجود دبابات مطلية حديثًا باللون الأحمر والأسود والأخضر، وهو شعار منظمة التحرير الفلسطينية، وكانت الدبابات تتجه مسرعة نحو جنوب الأردن للهجوم على الدبابات الأردنية الموجودة بين الحدود وبين إربد، التى كانت تحت سيطرة الفدائيين. وبمرور الوقت، اتضح أن تلك كانت عملية سياسية سورية انفصالية بأمر من سياسىّ البعث الجدد فى دمشق. واستنكر حافظ الأسد، قائد القوات الجوية السورية السابق ووزير الدفاع، ذلك. ورفض الأسد توفير أى غطاء جوى سورى للعملية. فقد فطن الأسد إلى احتمال نشوب حرب شاملة فى الشرق الأوسط وإمكانية حدوث تدخل إسرائيلى (أو أمريكى على الأرجح) إذا قامت الطائرات السورية بقصف القوات الأردنية فى حرب بين الأشقاء العرب. وكانت القوات السورية المشتبكة فى الميدان هى اللواء ٢٨ المدرع التابع للفرقة المدرعة الخامسة بقيادة اللواء محمد ديرى تبعًا لأوامر صلاح جديد، أحد قادة حزب البعث الجديد فى سوريا.

وفى واشنطن فى العشرين من ديسمبر، فى اجتماع عاصف تم رفض قرار الرئيس نيكسون بالتحرك الأمريكى أحادى الجانب كملاذ أخير. وفى المقابل، تبنى الاجتماع اقتراح كيسنجر؛ نظرًا لأن إسرائيل فى موقع أفضل يمكنها من التصرف بسرعة، كما أن ذلك يمكن أن يقلل من احتمال تدخل الاتحاد السوڤييتى.

وأيد كل من ويليام روجرز، وزير الخارجية، وميلڤن لاريد وزير الدفاع، ذلك الرأى أيضًا، حيث كره كلاهما فكرة الدفع بقوات أمريكية إلى نزاع دموى فى الشرق الأوسط. واقترح أخيرًا فى تلك الأمسية العاصفة أنه يجب أن تقوم الولايات المتحدة بتشجيع إسرائيل على القيام بهجمات جوية ضد الدبابات السورية، وتوجيه المزيد من القوات الأمريكية وسفن الأسطول من وحول البحر المتوسط.

## صد سوريا وانسحاب العراق

لم تكن هناك حاجة لأى تدخل إسرائيلى أو أمريكى فى ظل وجود قادة دبابات مهرة وطيارين محنكين للطائرات القاذفة العتيقة من طراز هوكر ـ هانتر لدى الملك حسين. ومع دوران رحى المعارك فى الشوارع وعلى قمم التلال فى عمان، وصمود الفدائيين المستميت وتقهقرهم البطىء، قامت القوات الأردنية فى الزرقا، والتى كانت مكونة فى معظمها من جنود صغار بمواجهة قوات المقاومة الفلسطينية. ومع ذلك، فى صباح يوم ٢٠ سبتمبر، قامت الكتيبتان العراقيتان الخاضعتان لأوامر جيش تحرير فلسطين بفتح نيرانهما على الأردنيين، وكان من الواضح أن ذلك لمرفع الروح المعنوية للفلسطينيين وللعراقيين. عند ذلك قام لواء مدرع تابع للفرقة الثالثة المدرعة الأردنية بالانتشار لمنع المزيد من التدخل من جانب القوات العراقية النظامية. وتوقف القتال فى تلك المنطقة بعد وقف إطلاق النار الشامل الذى نظمه وفد الجامعة العربية فى يوم ٢٥ سبتمبر.

كان هناك لواء عراقى مدرع آخر متمركز فى شمال جرش. وقد رأيت آثار دباباته بالقرب من الطريق السريع باتجاه الحدود السورية. وفى الصباح الباكر يوم ١٩ سبتمبر، أخطر القائد الميدانى العراقى مركز القيادة الأردنى بأن العراقيين سيتجهون شرقًا، من أجل الابتعاد عن طريق السوريين القادمين. وخرجت الدبابات العراقية نصف المدفونة فى الرمال من الخنادق التى كانت تقبع فيها.

وسرعان ما اندفعت الدبابات السوفييتية الصنع من طراز تى ٥٤ وتى ٥٥ إلى الأردن بعد منتصف الليل واحتلت المواقع التى انسحب منها العراقيون. وفى منطقة رامثا، دمر السوريون العديد من الدبابات الأردنية بريطانية الصنع من طراز سنتوريون. ولكن سرعان ما شرعت أسراب الطائرات القاذفة ـ من طراز هوكر ـ هنتر ـ فى العمل. وقامت بعمليات قصف جوى متنوعة ضد القوات المدرعة السورية بالتناوب فى سلسلة غارات كانت تتكون كل منها من ثمانى طائرات، كل نصف ساعة.

وفى معركة كبرى بالدبابات فى وادى ساولا، شرق ملتقى طرق رامثا، تقدمت ٣٠ دبابة أردنية ودمرت حوالى ثلث الدبابات السورية البالغ قوامها حوالى ١٠٠ دبابة. وقد أعد الأردنيون العدة لشن هجوم مضاد من أجل تعقب الفلول السورية، ولكن بدا أن ذلك غير ضرورى. ومع غروب شمس يوم ٢٢ سبتمبر، بدأ السوريون فى الانسحاب. ومع طلوع فجر يوم ٢٣ سبتمبر، كان وادى رامثا خاليًا من الدبابات

والمشاة السوريين. وخلال المعركة التى استمرت ثلاثة أيام، فقدت القوات المدرعة السورية حوالى ٦٢ دبابة و٦٠ عربة مدرعة وما يزيد عن ٦٠٠ قتيل وجريح، من بينهم ٤٥٠ فلسطينيا. وقام لواء أردنى مدرع بإعادة احتلال رامثا والتمركز على امتداد الحدود السورية.

فى غضون ذلك، قام الرئيس عبد الناصر بدعوة كبار القادة العرب إلى مؤتمر قمة طارئ فى محاولة للتوصل إلى اتفاق لوقف إطلاق النار، يحفظ به ماء وجه الفلسطينيين وقوات الملك حسين المنتصرة والملطخة أيديها بالدماء (والتى تعرضت لنقد لاذع من العالم العربى). وطار قائد أركان الجيش المصرى - اللواء محمد صادق - إلى عمان، لمقابلة الملك حسين، واقتفاء أثر عرفات. ولم يوافق الملك حسين أو عرفات على حضور مؤتمر القمة المقرر عقده فى القاهرة بناءً على رغبة عبد الناصر، والذى عقد أخيراً دونهما. وفى يوم ٢٢ سبتمبر أرسل إلى عمان فريق سلام مكون من أربع شخصيات كبرى سودانية وتونسية وكويتية واللواء صادق. وطالب الملك حسين والرئيس السودانى جعفر النميرى فى بيان مشترك عبر الأثير بوقف إطلاق النار، وخروج الفلسطينيين والجيش الأردنى من كل المدن الأردنية وبأن تنتقل قوات المقاومة الفلسطينية إلى قواعد قريبة من الحدود الإسرائيلية.

كما تم اعتبار منظمة التحرير الفلسطينية فقط، وليس أى منظمات منشقة أخرى، الممثل الشرعى الوحيد للشعب الفلسطينى. (واعتبر كل من حبش وحواتمة خارجين على القانون فى الأردن وتم رصد مكافأة قدرها ١٢,٠٠٠ دولار لمن يأتى بأى منهما). واشترط البيان على رجال المقاومة الانصياع للقانون الأردنى والخضوع للسلطة الملكية الأردنية. وقد اعترض بعض معاونى عرفات وأصروا على وجوب استمرار القتال. وتحت ضغط مبعوثى عبد الناصر، الذى كان يتفاوض مع الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين من أجل إطلاق سراح الرهائن المحتجزين فى مدينة الوحدات، القريبة من عمان، وافقوا أخيراً على وجوب قبول وقف إطلاق النار ومصاحبة الوفد لحضور القمة العربية المنعقدة بالقاهرة.

وطار عرفات إلى القاهرة. وفى اجتماع عاصف، فى فندق هيلتون النيل مع ناصر وثمانية من الزعماء العرب، كان من بينهم الزعيم العراقى البكر وإلى جواره صدام حسين، قاموا بمناقشة كيفية وقف المذبحة ووقف إطلاق النار الذى بدأ يسرى تدريجياً

فى الأردن. وقامت قوات الملك حسين بتحرير رهائن الطائرات المختطفة المحتجزين فى عمان. وفى ظهيرة يوم ٢٧ سبتمبر، وصل الملك حسين إلى القاهرة والتقى عرفات والزعماء العرب فى فندق هيلتون على ضفاف النيل. كان كلاهما يتقلد مسدسه، ولكن قام رفاقهما العرب بتهدئة الأجواء، على نحو كان كافيًا لعدم استخدام السلاح.

أجهزت الأزمة الأردنية على الرئيس عبد الناصر، المنهك والمريض. وكانت هذه أخر مرة يرى فيها ياسر عرفات الزعيم المصرى معبود الجماهير فى العالم العربى. وقبل ظهيرة يوم ٢٨ سبتمبر عام ١٩٧٠، صافح عبد الناصر، الذى كانت ترتسم على وجهه إمارات التعب والإرهاق الشديدين، عرفات الذى عاد إلى الأردن على متن طائرة عسكرية. وبعد توديع أمير الكويت، عاد عبد الناصر إلى منزله وقال لأسرته إنه بحاجة إلى راحة طويلة. وبعد قليل أصيب بجلطة فى القلب، وأسلم الروح فى الساعة ٦,١٥ من مساء ذلك اليوم الحزين. عاد عرفات وكل الزعماء العرب إلى القاهرة لتشييع عبد الناصر إلى مثواه الأخير يوم ٣٠ سبتمبر. كانت تلك الجنازة المهيبة من أضخم الجنازات التى شهدتها على الإطلاق، فلم أر طوال حياتى شيئًا مثل هذا.

أحاط ملايين المصريين المفجوعين بعربة المدفع التى تحمل جثمان الرئيس ملفوفًا بعلم بلاده وهى تسير ببطء وتدافعت إليها النساء اللائى رغبن فى إلقاء نظرة الوداع على الزعيم المحبوب قبل أن يوارى الثرى.

فى عمان، فرضت القوات المدرعة والمدفعية وقوات المشاة الأردنية كلمتها على منظمة التحرير الفلسطينية. ومع توقف معظم الاشتباكات فى ٢٥ سبتمبر، كان هناك آلاف الضحايا من المدنيين والعسكريين، وبدت أحياء عمان كما لو أن زلزالاً ضربها. وهناك كما فى شمال الأردن ـ لم يستطع أيًا من الحليفين القويين لمنظمة التحرير الفلسطينية، سوريا والعراق، هزيمة الملك حسين. وبالتدريج، انتقل رجال المقاومة الفلسطينية الناجين من المذبحة إلى الجبال المحيطة بعجلون، شمال عمان. وعبر العديد منهم إلى «العدو» الإسرائيلى، طالبين المأوى والحماية. وبحلول يوليو ١٩٧١، كان جيش الملك حسين قد حاصر وقتل وأسر حوالى ٨٠٠ من الفدائيين اللاجئين إلى الجبال[١٢].

انعكس الانسحاب العراقى، الذى أدى بعد ذلك إلى خروج القوات العراقية من الأردن، بصورة أساسية على حردان التكريتى، ابن عم بعيد لصدام. وأدت أزمة أيلول أيضًا إلى تعزيز سلطة صدام. وبوفاة عبد الناصر، تلاشت الضغوط الواقعة على حزب البعث العراقى للانضمام للوحدة العربية مع مصر (كما حدث مع سوريا فى الفترة من ١٩٥٨ إلى ١٩٦١) أو للانضمام إلى حلف عسكرى لاستئناف قتال إسرائيل. وبعد أن أزاح صدام عن كاهله عبء تلك الضغوط، أصبح بإمكانه تعضيد سلطته المحلية والعودة إلى موضوعات ملحة مثل البترول والأكراد. وبصرف النظر عمن أمر بانسحاب الجيش العراقى من الأردن، فقد ألقى صدام باللوم على الآخرين، وعلى وجه الخصوص حردان التكريتى. واستغل ذلك لمصلحته فى حملته من أجل تطهير الجيش من الأعداء الحقيقيين أو المتوهمين. كما حدث على سبيل المثال أثناء المؤامرة التى ساندتها إيران عام ١٩٧٠.

قام صدام بالتحرك ضد حردان التكريتى ـ منافسه اللدود ـ حيث فصله ونفاه من العراق كسفير بالجزائر. واستبدله برجل آخر من تكريت وهو اللواء حامد شهاب. ومع ذلك، لم ترغب الحكومة العسكرية الجزائرية، التى يرأسها الرئيس هوارى بومدين، فى التورط فى أى دسائس عراقية، ولذلك رفضت قبول التكريتى الذى توجه إلى الكويت. ووفقًا لسعيد أبو ريش، فقد استقر التكريتى هناك من أجل التآمر على صدام. وفى مايو عام ١٩٧١، قام صدام باغتياله فى مدينة الكويت[١٣].

كانت الاستراحة التى تمتع بها صدام فى صراعه مع العدو الإسرائيلى قصيرة نسبيًا. ففى القاهرة، كان رئيس مصر التالى، الذى اختاره عبد الناصر لخلافته، هو الرئيس أنور السادات. وفى سوريا، جارة العراق، قام حافظ الأسد بطرد سياسيى البعث الجدد الذين تسببوا وأخفقوا فى حرب ١٩٦٧ كما أخفقوا فى الصراع الفلسطينى الأردنى. وكان الأسد قد أصبح رئيسًا لسوريا عبر انقلاب سلمى فى أكتوبر ١٩٧٠، وكان ذلك جزئيًا بسبب تجنبه الحكيم للتدخل الإسرائيلى ـ الأمريكى فى الأردن.

وسرعان ما قام السادات والأسد بالتخطيط لشن حرب جديدة على الدولة اليهودية بدعم وتأييد الملك فيصل ملك المملكة العربية السعودية. وشارك العراق فى تلك الحرب على نحو لم يحدث فى أى صراع عربى إسرائيلى، مما كان له نتائج خطيرة على كل من إسرائيل والعراق. وسيكون موضوعنا التالى هو تلك الحرب وآثارها، التى من بينها تعزيز التحالف الأمريكى ـ الإسرائيلى فى الشرق الأوسط.

# الفصل الثامن

# حقبة صدام الثانية:
# مسرحيات السلطة والحرب
# (١٩٧٠-١٩٨٠)



**القومية هى «التمرد على التاريخ» من أجل غلق ما لا يمكن إغلاقه. ووضع حدود لشىء يجب أن يكون بلا حدود**

**(سلمان رشدى ١٩٩٧)**

كان من الواضح لفترة طويلة أن الحرب على العراق واحتلاله فى عام ٢٠٠٣ و٢٠٠٤، بواسطة الائتلاف الذى تقوده الولايات المتحدة، بنى على أساس معلومات استخباراتية خاطئة بأن صدام حسين يشكل خطراً على جيرانه والعالم وأن لديه أسلحة كيميائية وبيولوچية استخدمها فى الثمانينيات، كما أنه يسعى لصنع أسلحة نووية. وأصبح واضحاً، بنفس القدر، ومن خلال تقرير إحدى لجان التحقيق البرلمانية الإسرائيلية فى ربيع ٢٠٠٤، أنه لم تكن المعلومات الاستخباراتية التى جمعتها وحللتها الولايات المتحدة وشريكتها الصغيرة بريطانيا، هى فقط المخطئة، ولكن كانت المعلومات الإسرائيلية كذلك.

قامت متخصصة إسرائيلية فى الشئون العراقية، هى أوفرا بينجى، الأستاذة بجامعة تل أبيب، بنشر تحليل دقيق «للموقف الفريد» للعراق عام ١٩٩٨ فى الصراع العربى الإسرائيلى وتأثيره على المنطقة ككل. وقامت بحرفية برسم استراتيچيات صدام الواقعية والنظرية، باستخدام مصادر مطبوعة وغير مطبوعة. فبالرغم من أن العراق لا تربطه حدود مشتركة مع إسرائيل، إلا أنه شارك فى أهم الحروب العربية الإسرائيلية، منذ عام ١٩٤٨ «كدولة مواجهة»، وبخلاف مثيلاته من الدول العربية الأخرى، لم يقبل أبداً بتوقيع معاهدة سلام، أو حتى هدنة مع إسرائيل[١]. وهذا ما أصبح تقليداً سائداً سيجد المخططون ذوو الآمال العريضة فى خلق وهم «الديمقراطية» فى عراق ما بعد صدام، صعوبة بالغة فى التغلب عليه، وهم يحاولون تحقيق الحلم المستحيل «بتطبيع» العلاقات الإسرائيلية العراقية.

ومن المظاهر التاريخية لذلك التقليد، المشاركة العراقية فى حرب ١٩٧٣ بين العرب وإسرائيل. فقد تم التخطيط لتلك الحرب بواسطة السادات رئيس مصر والأسد رئيس سوريا بدعم من الملك فيصل ملك السعودية. وكان هدف العرب هو استعادة، إن أمكن، الأراضى العربية والشرف الضائع فى عام ١٩٦٧، وجذب الولايات المتحدة إلى عملية نشطة لصنع السلام. وبخلاف مصر وسوريا والأردن، لم تفقد العراق أى أرض لها لصالح إسرائيل عام ١٩٦٧. ومع ذلك، كان صدام حسين شديد القلق بشأن محو الذكريات الخاصة بفشله فى مساعدة الفلسطينيين فى الأردن، وجعل العراق يتبوأ دورًا قياديًا فى الصراع من أجل «تحرير فلسطين». والجائزة التى حصل عليها العراق لدوره العراقى فى الحرب هى ظهوره كلاعب هام فى اللعبة السياسية المتصلة بالتهديد واستخدام ما يسمى «بسلاح النفط» العربى.

## تجديد تطمينات المساعدة الأمريكية

ساهم التعاون الأمريكى مع إسرائيل، وخاصة المساعدات العسكرية التى قدمت لها أثناء إدارة كنيدى فى الفترة ١٩٦١ ـ ١٩٦٣، والتى استمرت بدءًا من إدارة ليندون چونسون، وتصاعدت إلى حد كبير فى عهد نيكسون فى أوائل السبعينيات، فى شعور إسرائيل بالأمن عام ١٩٧٣. وأدى إلى تعزيز شعور الرضا عن الذات عند إسرائيل بالمقارنة بإمكانيات العرب فى أى حرب جديدة. وفى يوم ١٧ سبتمبر ١٩٧٠، عندما تحرك جيش الملك حسين من أجل البطش بمنظمة التحرير الفلسطينية فى الأردن، وافقت إدارة نيكسون على زيادة الدعم العسكرى بما يقدر بحوالى ٥٠٠ مليون دولار، والتعجيل بتسليم الطائرات المقاتلة والقاذفة من طراز فانتوم ماكدونالد ـ دوجلاس F-4 والتى تم الاتفاق على تسليمها قبل ذلك. وفى الأعوام الثلاثة التالية، منح الكونجرس المزيد من الأموال لإسرائيل على نحو يزيد عن إجمالى ما تم إرساله إلى إسرائيل منذ قيامها عام ١٩٤٨ حيث بلغ ذلك ١,٦٠٨ بليون دولار مقارنة بالإجمالى السابق والذى بلغ ١,٥٨١ بليون دولار فى الفترة السابقة.

كما زادت المساعدة السنوية، والتى تمثلت فى الأموال السائلة المرسلة أو استعداد وزارة المالية الأمريكية لإلغاء الديون، منذ ذلك الحين. وقد أكد السخاء الأمريكى على

أن الشعب الإسرائيلى سوف يتمتع بمستوى معيشة أفضل من الدول المجاورة له. ومكن ذلك المستوطنين اليهود، على سبيل المثال، (والذين كان الكثير منهم من اليهود الأمريكيين المهاجرين) من الانتقال من منازلهم الجديدة فى الضفة الغربية وغزة ومرتفعات الجولان وهى أراض محتلة إلى تل أبيب والقدس وحيفا أو أى مكان آخر للإقامة والعمل. ومنذ عام ١٩٧٠، أدت الأموال الهائلة التى يدفعها دافعو الضرائب الأمريكيون إلى تعزيز الروابط بين الصناعة العسكرية والاقتصاد فى كل من إسرائيل والولايات المتحدة. وفى عام ١٩٧١، عندما كانت مصر بقيادة السادات تحاول الفكاك من القيود الصارمة التى فرضتها موسكو على القروض السوفيتية وشحنات الأسلحة، كانت الإعانات الأمريكية تمكن إسرائيل من إنفاق ٢٠٪ من إجمالى الناتج القومى على الدفاع، وكان جزء كبير منه مخصصًا لشراء الأسلحة الأمريكية.

وبناءً على الاتفاق الذى تم إبرامه فى ديسمبر ١٩٧٠، تحت عنوان «اتفاقية تبادل البيانات الجوهرية من أجل تنمية الدفاع» أصبحت إسرائيل تحصل على البيانات الفنية التى تسمح لها بتصنيع أو صيانة التكنولوچيا العسكرية التى يتم تطويرها فى الولايات المتحدة. وفى عام ١٩٧١، تم توقيع معاهدة أخرى تعطى إسرائيل الحق فى تصنيع الأسلحة التى يتم تصميمها فى الولايات المتحدة. وتم استخدامها بعد ذلك ـ فى تصنيع الصاروخ جو ـ جو المتتبع للحرارة، المسمى شافرير والمستوحى من تصميمات أمريكية (والشبيه بالصاروخ سايد ونتر المستخدم فى السلاح الجوى الأمريكى) ـ بواسطة هيئة تطوير السلاح بالحكومة الإسرائيلية. كما منحت واشنطن لإسرائيل امتياز تصنيع محركات الطائرات الأمريكية من طراز J- 79 من أجل استخدامه فى الطائرة الإسرائيلية المقاتلة «كفير»، والتى تم تصنيعها بناء على النموذج الفرنسى للطائرة ميراچ ٥، والتى باعتها فرنسا لإسرائيل (بعد انقطاع دام عدة سنوات فى الدعم العسكرى الفرنسى كان سببه قرار الرئيس الفرنسى تشارل دى جول بحظر بيع الأسلحة الفرنسية إلى إسرائيل بعد حرب ١٩٦٧) وبعد ذلك قامت فرنسا ببيع طائرات الميراج ٥ إلى صدام أيضا.

كان هناك اعتقاد سائد فى واشنطن والقدس بأن إسرائيل، التى أصبحت أقوى بانتصاراتها العسكرية وسخاء واشنطن معها، لم تعد هدفًا ملائمًا للهجمات العربية أو

للانتقام العسكرى. ومع ذلك، كما قام المحللون المحنكون فى وزارة الخارجية الأمريكية وفى وكالة الاستخبارات المركزية بتحذير مستشارى الرئيس بوش المؤيدين لإسرائيل من المحافظين الجدد من أن احتلال العراق ومحاولة جعله «ديمقراطيًا» ليس بالأمر الهين، تصاعدت التحذيرات أيضا من مغبة الاستهانة بالكفاءة العسكرية العربية من جانب المتخصصين الأمريكيين فى شئون الشرق الأوسط عام ١٩٧٣. كان أرشيبالد روزفلت، على سبيل المثال، عميل وكالة المخابرات المركزية الأمريكية فى شمال أفريقيا والشرق الأوسط لفترة طويلة، يرى الإسرائيليين لا يقدرون خصمهم العربى حق قدره، فهم يعتبرون العرب «غرباء كريهون يشكلون تهديدًا لهم، كما أنهم أقل شأنا من الإسرائيليين، وأنهم ليس لديهم معهم شىء مشترك ـ ومن هنا يأتى فشل الاستخبارات الإسرائيلية»[٢].

## السادات يخطط للحرب

بدأ الرئيس السادات فى التخطيط للحرب بعد وقت قصير من تولى السلطة بعد وفاة عبد الناصر فى أكتوبر ١٩٧٠. وسرعان ما بدأ مشاوراته مع الرئيس السورى حافظ الأسد. واتفق الاثنان على عدم إشراك الرئيس العراقى البكر أو الليبى القذافى أو أى من القادة العرب فى الاطلاع أو التخطيط للحرب القادمة، والذى يجب أن يتم فى سرية تامة. وفى عام ١٩٧١، شنت كل من القاهرة ودمشق حملة دعائية مكثفة ركزت على الجمعية العامة للأمم المتحدة، تتحدث عن عدم شرعية الاحتلال الإسرائيلى للأراضى المحتلة عام ١٩٦٧. وفى نوفمبر ١٩٧١، خاض السادات مناقشة طويلة وصريحة واضحة مع كبير المستشارين العسكريين السوفييت فى مصر الچنرال أوكونيف. منذ ذلك الوقت فصاعدًا، كررت موسكو دائمًا استعدادها لمساعدة مصر، وفى نفس الوقت معارضتها لشن حرب على إسرائيل. وأعلن السادات أن عام ١٩٧٢ سيكون «عام الحسم» بعد ذلك، قام فى يوليو ١٩٧٢ على نحو مفاجئ بطرد المستشارين والعسكريين السوفييت الموجودين فى مصر والبالغ عددهم ٢١,٠٠٠ شخص من المدربين والفنيين والطيارين والعاملين على الصواريخ المضادة للطائرات وغيرهم، وهو ما أسعد واشنطن والقدس كثيرًا، وكانت رُتَب هؤلاء الأفراد تتدرج من اللواء حتى الجندى.

وفى ديسمبر ١٩٧٢ ، بدأت الاجتماعات السرية بين القادة العسكريين المصريين والسوريين من أجل التخطيط لحرب محدودة . وكان الهدف منها هو استعادة ما يمكن من الأراضى المحتلة وجذب اهتمام الولايات المتحدة والمجتمع الدولى . وتمت إقالة اللواء محمد صادق وزير الدفاع المصرى عندما أصر على شن حرب كاملة لا تهدف فقط إلى استعادة الأراضى المغتصبة عام ١٩٦٧ ، ولكن أيضًا تدمير القوات المسلحة الإسرائيلية (مما يعنى تدمير الدولة الإسرائيلية)(*) .

رحل صادق، وجاء بدلاً منه المشير أحمد إسماعيل على . وفى يوم ٢٩ أغسطس من عام١٩٧٣ ، زار المبعوث الشخصى للسادات، حسن صبرى الخولى، ووزير الدفاع السورى، مصطفى طلاس، عمان من أجل عرض المصالحة والسلام على الملك حسين . كان العرش الأردنى منبوذًا ووحيدًا من جانب الدول العربية منذ أحداث سبتمبر أيلول الأسود عام ١٩٧٠ . استمع الملك حسين إلى وصف مبهم دون الدخول فى تفاصيل «للعملية بدر» وهى خطة الحرب العربية . وطلبوا منه أن يقوم بنشر القوات المسلحة الأردنية من أجل حماية الجبهة السورية الشمالية التى تصبح مكشوفة فى حالة اندلاع الحرب . واتفق الملك حسين مع الأسد والسادات، حيث التقوا بعد ذلك فى القمة العربية التى عقدت بالقاهرة فى يوم ١٢ سبتمبر ١٩٧٣ ، على عدم إخبار بغداد . كما وافق على الخطة الدفاعية الأردنية وقال بأنه سيشارك على نحو أكثر فعالية، إذا استطاعت سوريا تحرير مرتفعات الجولان وتأمين الضفة الشرقية لنهر الأردن، شمال بحر الجليل .

كما حضر إلى القاهرة اثنان من كبار القادة فى منظمة التحرير الفلسطينية وهما صلاح خلف (أبو إياد) وفاروق قدومى (أبو اللطف) فى الأول من أكتوبر حيث تم إعلامهم على نحو مبهم عن الخطط المصرية السورية وطلب منهم شن هجمات متزامنة من جانب المنظمة فى سيناء والجولان[٣] .

وتم وضع اللمسات النهائية للخطة فى دمشق فى يوم ٣ أكتوبر . وحصل أحمد إسماعيل على، مبعوث السادات، على موافقة الأسد بشأن ساعة الصفر لشن الهجوم

(*) المعلومات المعروفة فى مصر أن الفريق صادق أفاد بأن القوات المسلحة ما زالت غير جاهزة للقتال - المترجم .

العربى فى عيد الغفران، وهو يوم مقدس عند اليهود، حيث تكون المواصلات والإذاعة والخدمات العامة الأخرى فى إسرائيل فى حالة توقف شبه تام مما يجعل التعبئة السريعة أكثر صعوبة. وتم إعطاء الأردنيين إشارة مبهمة، أخبرنى الأردنيون أنها تشير إلى حشد إسرائيلى واحتمال شن هجوم محدود على سوريا. فأعلن الملك حسين حالة التأهب وانتظر ما تسفر عنه الأمور[٤].

**«مفهوم» إسرائيل**

كانت هناك بوادر تشير إلى نوايا العرب، بما فى ذلك احتمال المشاركة العراقية. ومع ذلك، كان الساسة الإسرائيليون وبعض كبار القادة العسكريين لديهم قناعة عقلية ونفسية يطلق عليها المعلقون السياسيون الإسرائيليون «المفهوم». كان هناك اعتقاد بأن التفوق العسكرى الذى حققته إسرائيل فى حروبها السابقة دبت الرعب فى قلوب العرب. وتوصلت التحقيقات التى قامت بها لجنة «أجرانات ـ Agranat» الإسرائيلية بعد الحرب إلى أن حكومة رئيسة الوزراء جولدا مائير قادة وزارة الدفاع الإسرائيلية قد أساءوا تقدير الموقف. كما وجدت تلك التحقيقات أن الخطأ الأساسى تمثل فى الثقة التى كانت فى غير محلها فى وزير الدفاع موشى ديان وأفكاره المسيطرة عن القوة العسكرية الإسرائيلية، والقائمة على نظريات الچنرال الإسرائيلى أورانيل تال، بطل الحملة الإسرائيلية على سيناء عام ١٩٦٧. وقد آمن تال، الذى ابتكر دبابة الميركافا، بوجوب تبنى استراتيچيات تشبه تلك التى استخدمتها ألمانيا فى الحرب العالمية الثانية ضد الحلفاء فى فرنسا والدول الواطئة فى مايو ويونيه عام ١٩٤٠[٥].

كانت هناك إرهاصات موحية تشير إلى الاستعدادات العربية للحرب منذ أبريل ١٩٧٣. ففى ذلك الشهر، أرسل صدام حسين، ورئيسه الصورى البكر، سربًا مكونًا من ١٦ طائرة هانتر وآخر مكونًا من مقاتلات أحدث من طراز ميراچ تم شراؤها مؤخرًا من فرنسا من أجل زيادة قوة سلاح الطيران المصرى. وأرسل عملاء الاستخبارات الإسرائيلية فى مصر معلومات تؤكد بأن القيادة العربية حددت يوم ١٥ مايو ١٩٧٣ على أنه ساعة الصفر، حيث تقوم خمس فرق عسكرية بعبور قناة السويس. وشرع

جيش الدفاع الإسرائيلى فى حشد بعض قوات الاحتياط وتعزيز التحصينات وكمائن الدبابات وزرع الألغام. كان الاسم الكودى لخطة الاستعداد هو «كاهول - لاڤان» أو «أبيض وأزرق» ومع ذلك، كان رئيس الأركان الإسرائيلى ديڤيد إليعازر يشك فى الأمر. وفى اجتماع لقيادة الأركان العامة فى يوم ٦ أبريل، سخر إليعازر من زعم السادات بأنه سيحارب فى عام ١٩٧١، ثم تعهد بعد ذلك بتحرير الأراضى المحتلة فى عام ١٩٧٣ وقال إيلى زائيرا، رئيس الاستخبارات العسكرية، فى الاجتماع الذى عقد فى يوم ١٢ أبريل و١٥ من نفس الشهر بأن احتمال نشوب الحرب «ضعيف للغاية». كما استهجن واستبعد أيضا فكرة شن حرب ثنائية من جانب مصر وسوريا معًا، قائلاً بأن السوريين لن يشاركوا فى أى حرب إلا بعد نجاح المصريين؛ لأنهم يخافون سلاح الطيران الإسرائيلى. وتجاهل الجميع احتمال مشاركة أو دعم العراق.

أما رئيس الموساد، تزڤى زامير، فكان أكثر حذرًا. ففى الاجتماع الذى عقد فى يوم ١٥ أبريل، أعلن أن استعدادات السادات للحرب تثير القلق. فالفرقة القادرة على عبور القناة لديها مظلة صواريخ مضاد للطائرات وأدوات العبور. وهناك وسائل دفاع فعالة مضادة للطائرات للدفاع عن وادى النيل، وخلفها الخطوط الأمامية للقاهرة والمدن الأخرى. وأيد ذلك موشى ديان. كما عبر عن إحباط العرب من جراء الجمود العسكرى والسياسى وهو ما يمكن أن يكون دفعًا لحرب قادمة.

وفى اجتماع آخر للقيادة الإسرائيلية فى يوم ٩ مايو فى وزارة الدفاع الإسرائيلية، واصل زائيرا التقليل من احتمالية نشوب الحرب. واستمر فى تطمين القيادة العامة بأن المخابرات العسكرية يمكن أن تعرف موعد نشوب الحرب قبل خمسة أو ستة أيام، أو قبل «٤٨ ساعة» فى أسوأ الظروف. لم يحدث شىء فى بدايات الصيف، وكانت نظريات زائيرا المطمئنة مقبولة إلى حد كبير. وظل ذلك الوضع حتى حلول أغسطس عندما بدأ السوريون، المعروف عنهم الحذر، فى نشر قوات كثيفة العدد بالقرب من خطوط وقف إطلاق النار، فى حماية شبكة من الصواريخ المضادة للطائرات تغطى المجال الجوى السورى والإسرائيلى على كلا الجانبين.

## الرضا الأمريكى « وسلاح البترول »

خلال تلك الفترة، تجاهلت الولايات المتحدة أيضًا ـ إلى حد كبير ـ البوادر السياسية للعاصفة القادمة. فعلى الساحة النفطية، بسط الزعيم الليبى، معمر القذافى، سيطرته على معظم عمليات النفط الغربية فى بلده.

كانت هناك الكثير من الأقاويل حول حظر شحن وبيع البترول العربى. ففى يوم ٤ يوليه عام ١٩٧٣، قمت كمراسل لجريدة كريستيان سينس مونيتور وبصحبة چيم هوجلاند عن جريدة واشنطن پوست، بإجراء حديث صحفى مع الملك السعودى، سعود فيصل، فى الطائف، العاصمة الصيفية للسعودية، وبعدها التقينا وزير البترول، أحمد زكى اليمانى. وقام بتوضيح حديث الملك لنا، محذرًا مستوردى النفط من مساعدة إسرائيل «فى حالة نشوب حرب جديدة» (والتى كان فيصل وحده يعلم بأمرها من بين كل القادة العرب). وقام بدعوتنا إلى غداء عائلى مع زوجته وابنتيه اللتين عادتا لتوهما من المدرسة فى الولايات المتحدة، وأضاف قائلاً: «إننا مضطرون» سنقوم بغلق آبار البترول ومنع الصادرات. إذ لم نفعل، فلن يستطيع حتى الجيش السعودى أو الحرس الوطنى [المدرب فى أمريكا] حمايتها من التخريب» على يد المناوئين للولايات المتحدة(٦).

وحينما نقلنا تلك الرسالة إلى السفير الأمريكى فى حفل استقبال أقيم فى الرابع من يوليه فى القنصلية العامة فى جدة، قال ساخرًا: «إن السعوديين يقولون هذا الكلام منذ شهور. ونحن لا نعطيه أى مصداقية». وكان رد فعل الإسرائيليين حلفاء أمريكا تجاه التحذيرات السعودية مشابها. ووفقًا للمؤرخين بلاك وموريس، قال أحد كبار الضباط فى الاستخبارات العسكرية الإسرائيلية عن المملكة العربية السعودية: «لا يوجد على السطح سوى الرمال وبعض الأشخاص المتخلفين، وأسفله يوجد البترول»(٧).

وقد حدثت معركة جوية أكدت ذلك الرضا الإسرائيلى عن الذات. ففى يوم ١٣ سپتمبر عام ١٩٧٠، حاولت مجموعة من طائرات الميج السورية التصدى لسرب إسرائيلى فى مهمة استطلاع فوق سوريا. وقامت الدفاعات الأرضية بإطلاق نيرانها فى المنطقة المحيطة باللاذقية، والتى لا تبعد كثيرًا عن القرية التى ولد فيها حافظ الأسد،

خاردايا[٨] ، على الطائرات الإسرائيلية . سقطت فى المعركة ١٢ طائرة سورية مقابل طائرة إسرائيلية واحدة . وقد زادت هذه المعركة من الغرور الإسرائيلى وساهم فى التغطية على الاستعدادات العربية للحرب . واعتبرت الاستخبارات الإسرائيلية ، على نحو خاطئ ، التعزيزات الجديدة فى القوات الجوية العربية مجرد رد فعل لتلك المعركة .

وفى يوم ٢١ سبتمبر ، كان الچنرال زائيرا لا يزال يطمئن القيادة الإسرائيلية بأن العرب عاجزون عن الهجوم عليهم بسبب تفوق السلاح الجوى الإسرائيلى الذى تأكد مرة أخرى فى معركة ١٣ سبتمبر . وفى يوم ٢٤ و٢٥ سبتمبر ، بدأت القوات المصرية فى التحرك من قواعدها بجوار نهر النيل باتجاه قناة السويس .

تم وضع القوارب فى أماكنها بالقرب من شاطئ القناة . وتم إلغاء الإجازات فى الجيش المصرى . وتم تأجيل اختبارات الترقى للضباط المصريين من أكتوبر إلى نوڤمبر . ومع ذلك ، تجاهل زائيرا كل ذلك وبدأت التعبئة المصرية للاستعداد للمناورة التى كان اسمها الكودى «تحرير ٤١» المقرر البدء فيها فى أكتوبر .

وفى لانجلى بڤيرجينيا ، كانت تقديرات الاستخبارات المركزية الأمريكية أقل تفاؤلاً . ففى يوم ٢٤ سبتمبر ، تم إرسال تقرير استخباراتى مشترك من وكالة الاستخبارات المركزية ووكالة استخبارات الدفاع التابعة للپنتاجون ووكالة الأمن القومى إلى الحليف الإسرائيلى . وبناءً على الاتصالات التى تم اعتراضها[*] ، أكدت إمكانية شن هجوم سورى مصرى مشترك . وكان رد زائيرا هو التقليل من شأن الخطر .

ومع ذلك ، فى يوم ٢٦ سبتمبر ، قام ديان ، بالتعاون مع قائد الجبهة الشمالية ، الچنرال إسحاق هوفى ، بتعزيز الدفاعات فى مرتفعات الجولان بنشر اللواء المدرع السابع فيها . وفى الأول من أكتوبر ، تلقت إسرائيل تحذيراً من عملائها فى مصر بأن مصر وسوريا سوف يحولان المناورات العسكرية إلى هجوم مصرى - سورى مشترك عبر قناة السويس ومرتفعات الجولان . ومع ذلك ، أصر زائيرا ثانية ، فى اجتماع هيئة الأركان ، على أن «الموقف طبيعى تماماً . وأنه لا توجد أى نية للحرب» .

وأخيراً ، بدأت العديد من علامات التحذير فى التأثير على تل أبيب . ففى يوم الثلاثاء الموافق ٤ أكتوبر اجتمع تزڤى زامير مع زائيرا ، وراهن زامير على أن الحرب

(*) المقصود التنصت عليها - المترجم .

قادمة. ووافق زائيرا على اقتراح زامير بالاجتماع بأحد مصادر الموساد الهامة فى أوروپا والذى حذر من هجوم عربى وشيك. فقد تم إصدار الأوامر لوحدات الجيش المصرى بالتوقف عن الصيام. كما تم تخفيض الأنوار من آبار البترول المصرية فى خليج السويس من أجل الحد من احتمال تعرضها للقصف الجوى من جانب العدو. وغادر الاتحاد السوڤييتى أسطول من الطائرات من طراز أيرو فولت لنقل عائلات المسئولين السوڤييت فى مصر. كما وصلت طائرات روسية إلى دمشق فى اليوم التالى لنفس الغرض. وغادرت أربع طائرات بوينج جديدة من أسطول مصر للطيران إلى جدة من أجل الحماية. وغادرت سفن تجارية سوڤييتية ميناءى الإسكندرية وبورسعيد على عجل. وبالرغم من ذلك، إلى جانب العديد من الدلالات الأخرى الموحية، ظل زائيرا يؤكد لجولدا مائير ووزاراتها «ضعف احتمال» الحرب. وفى الخامسة من مساء الخامس من أكتوبر، تم التقاط رسالة تتنبأ بحرب وشيكة على إسرائيل على الجبهتين الشرقية والغربية. وأكد زامير على تحذيرات الموساد السابقة الآتية من أوروپا. واتصل بكبار القادة تليفونيًا وعقد اجتماعًا فى السادسة من صباح السادس من أكتوبر فى مكتب ديڤيد إليعازر من أجل مناقشة خطط العدو للحرب والدفاعات الإسرائيلية.

وفى مساء اليوم السابق فى واشنطن ( الذى يوافق الصباح الباكر فى إسرائيل)، استنتج راى كلين، رئيس قسم المعلومات والبحوث فى وزارة الخارجية الأمريكية، أن الحرب وشيكة، ولكنه لم يخطر هنرى كيسنجر وزير الخارجية على الفور.

## فشل الاستخبارات الإسرائيلية

بدأت الهجمات المصرية السورية المشتركة بقصف مكثف من المدفعية والطيران فى تمام الساعة الواحدة وخمسة وخمسين دقيقة من يوم السادس من أكتوبر، فى الوقت الذى كان فيه مجلس الوزراء الإسرائيلى فى حالة اجتماع طارئ مستمر من أجل محاولة القيام بتعبئة عامة متأخرة لمواجهة الحرب، التى كانت متوقعة بعد أربع ساعات فى السادسة مساءً. واضطرت القوات الإسرائيلية الأقل عددًا وغير المدعمة فى البداية إلى التقهقر. وعبر المصريون قناة السويس بعد دك الساتر الرملى على الضفة الشرقية للقناة باستخدام مدافع مياه ذات ضغط عال عند نقاط عديدة فى الساتر الترابى وقاموا بإنشاء رءوس الكبارى فوق قناة السويس إلى سيناء. وفى نفس الوقت، قامت خمس

فرق سورية بمصاحبة ١٤٠٠ دبابة وما يزيد عن ١٠٠٠ قطعة مدفعية باختراق الدفاعات الإسرائيلية فى الجولان.

وجه المحققون فى لجنة أجرانت الإسرائيلية نقدًا لاذعًا لأداء الاستخبارات العسكرية الإسرائيلية خلال الساعات والأيام الأولى للحرب. فقد فشلت فى الحصول على أى معلومات حول الأسلحة السوفييتية الجديدة فى أيدى العرب، مثل الصواريخ المضادة للدبابات من طراز «ساجر» التى استخدمها المشاة المصريون وصواريخ الـ آر. پى. جى٧ التى استخدمتها وحدات الكوماندز السورية. الأمر الأسوأ، أن الإسرائيليين توقعوا - على نحو خاطئ - أن يقوموا بتدمير منصات الصواريخ المضادة فى مصر وسوريا خلال ساعات قلائل. وقام المصريون بسحق هجوم إسرائيلى لفرقتين مدرعتين كان يقود إحداهما أريل شارون والأخرى أبراهام أدان فى سيناء، وكبدوا فرقة أدان خسائر فادحة. وقد تم إغفال التدخل العراقى المتأخر والذى كان أيضًا شديد الأهمية. ومما يثير الذهول، أن إسرائيل فشلت فى تقدير حجم وهدف، بل فى بعض الأحيان، وجود القوة العسكرية العراقية(٩).

داخل العراق، كان موقف الرئيس العراقى البكر ونصيره القوى صدام حسين، منذ تأميم النفط العراقى عام ١٩٧٢ وحتى اتفاقية الجزائر مع شاه إيران فى مارس ١٩٧٥، مهتزًا. وكان البعث فى حاجة ماسة إلى تأييد، أو حتى حياد المعارضة الشيوعية، كما كان أيضًا فى حاجة ماسة إلى إحكام السيطرة على الأكراد فى الشمال. ومن أجل إقناع الشعب العراقى وكذلك العالم العربى كله بأنهم يعنون ما قالوه من قبل عن مكافحة الإمبريالية و«تحرير فلسطين»، أمر البكر وصدام القوات المسلحة العراقية بالاشتراك فى حرب ١٩٧٣ ضد إسرائيل، أو على الأقل قطع الطريق على أى هجوم كردى. واختار صدام ومعاونوه، اللواء سالم شاكر، الصديق المقرب والمخلص لصدام، أثناء صعود البعث إلى السلطة فى الستينيات، من أجل قيادة القوات العراقية. وكانت تتكون من الفرقتين المدرعتين العراقيتين، الثالثة والسادسة، معززتين بحوالى ٥٠٠ دبابة و ٧٠٠ ناقلة جنود مدرعة و٣٠,٠٠٠ جندى. وغادرت القوة قاعدة غرب بغداد فى السادس من أكتوبر. وقد فشلت الاستطلاعات الجوية الإسرائيلية فى اكتشاف تحرك العراقيين

من قواعدهم إلى منطقة حوران جنوب وسط سوريا بعد قطع حوالى ٤٠٠ ميل، فى حماية غطاء جوى عراقى ضئيل.

استمر الهجوم السورى الأول حوالى ٤٢ ساعة فقط، من منتصف يوم السادس من أكتوبر وحتى صباح الثامن من أكتوبر. وفى منتصف ليل السابع من أكتوبر، بينما كان نيكسون وكيسنجر ومستشاريهما فى واشنطن يتجادلون بشأن تحديد كيفية وحجم الاستجابة لاستغاثة إسرائيل بشأن الدعم العسكرى الطارئ لوقف الطوفان العربى، كان زخم الهجوم السورى سببًا فى الدفع بمزيد من الوحدات عبر الجولان وحتى الحدود الشمالية لإسرائيل نفسها. وتحولت القوات الإسرائيلية المضغوطة من استراتيجية الاحتواء التكتيكى المحلى إلى الهجوم المضاد على مرحلتين. وفى صباح ١١ أكتوبر، تحركت قوات القيادة الشمالية، بقيادة الچنرال إسحاق هوفى، عبر خطوط وقف إطلاق النار عام ١٩٦٧ إلى داخل سوريا. وبذلك قضى إسحاق على «التهديد لوجود إسرائيل» كما أطلق عليه المعلقون الإسرائيليون. وبالرغم من الهجمات العربية المكثفة ومعارك الدبابات العنيفة، التى تلت ذلك، أصبح الإسرائيليون منذ ذلك الوقت فصاعدًا فى وضعية الهجوم، ولم يتوقفوا سوى مع قرار الأمم المتحدة بوقف إطلاق النار فى يوم ٢٢ أكتوبر. ولعدة أيام ـ وحتى التدخل العراقى ـ بدا الأمر وكأن الإسرائيليين، الذين وصلوا إلى القرى السورية وأصبحت العاصمة دمشق فى متناول مدفعيتهم، ربما يواصلون التقدم ويستولون على العاصمة السورية نفسها.

وعلى الرغم من أن قوات السادات كانت لا تزال تكسب المزيد من الأرض فى المناطق المحررة حديثًا فى سيناء ـ حيث لم يكن الهجوم الإسرائيلى المضاد فى الضفة الغربية لقناة السويس وحصار الجيش الثالث فى جيب عبر القناة والبحيرات المرة العظمى قد تحقق بعد ـ إلا أن الاختراق الإسرائيلى للجولان فى يوم ١١ أكتوبر أعطى تل أبيب مسحة من التفاؤل. وأعلن موشى ديان أنه تم «كسر ظهر الجيش السورى» وأن «الطريق إلى دمشق أصبح مفتوحًا». وقام ديڤيد إليعازر بإرسال رسالة قيادة إلى هوفى فحواها: «صيد جيد أيها الرجال». وفى الساعة الحادية عشر من صباح يوم ١١ أكتوبر، قام اللواء الإسرائيلى المدرع السابع وألوية باراك بعبور خط وقف إطلاق النار

ووجدوا أنفسهم فى قتال عنيف مع قوة عسكرية مغربية شديدة البأس ، تم إسقاطها جواً فى دمشق عبر شمال أفريقيا والبحر المتوسط ومع عناصر من الفرقة السورية السابعة ، والتى انسحب أحد ألويتها دون أوامر ، مما سهل التقدم الإسرائيلى . ومع غروب شمس يوم ١٢ أكتوبر ، كانت قوات الجنرال رافائيل قد استولت على قرى سورية ومفترقات طرق هامة تكتيكيًا على طريق القنيطرة ـ دمشق السريع . كما خسرت القوات السورية معركة عنيفة بالدبابات فى سهل ليجالافا . واحتل لواء جولانى لصفوة المشاة ، مكان الوحدات المدرعة فى الخطوط الإسرائيلية الأمامية .

وفى الواحدة بعد ظهر يوم ١١ أكتوبر ، قامت الفرقة الإسرائيلية ٢٤٠ بقيادة دان لانر باختراق المواقع الدفاعية السورية الرئيسية عبر طريق القنيطرة ـ دمشق . وقامت وحدات إسرائيلية أخرى بالاستيلاء على مفترق طرق على بعد خمسة أميال شرق القنيطرة وقرى چيبا وتل عيش شار . وكان السلاح الجوى الإسرائيلى يحاول تدمير العديد من مواقع بطاريات صواريخ «سام» المؤثرة المضادة للطائرات ، وتكبد الجيش السورى خسائر فادحة بسبب الهجمات الإسرائيلية الجوية والبرية . وتقدمت الفرقتان العسكريتان الإسرائيليتان ١٧ و ١٩ باتجاه كناكر ، والتى تبعد عشرة أميال جنوب القاعدة العسكرية السورية الكبيرة «كيسوى» (وهى أحد المواقع التى خرج منها العديد من الانقلابات ضد أنظمة دمشق) . وكان هدف إسرائيل هو محاصرة والاستيلاء على قرية سعسع على الطريق السريع المتجه إلى دمشق على بعد ٢٢ ميل فقط جنوب العاصمة السورية . ومن تلك النقطة كان يمكن للمدفعية الإسرائيلية النيل من مطار «المزة» والقاعدة العسكرية وأهداف أخرى فى دمشق ، التى نال منها القصف الجوى الإسرائيلى ، بما فيها السفارة السوڤيتية .

## العراق ينقذ سوريا

فى هذه اللحظة ، وبالقرب من سعسع ، ظهر دليل واضح على المحاولات العراقية للتأثير على الصراع . فحينما بدأت الدبابات الإسرائيلية المتقدمة تتقدم سريعًا صوب جنوب كناكر ، وهى قرية مجاورة لسعسع ، كان الجنرال دان لانر يحدق فى نظارته المعظمة ، فى مركز قيادته فى «تل عيش شار» ، فشاهد حوالى ١٥٠ دبابة تتجه ناحية

الشرق . وكانت تنتمى إلى فرقة الدبابات العراقية الثالثة، التى وصلت إلى أرض المعركة فى يوم ١١ أكتوبر . وكان يقودها سالم شاكر ، صديق صدام الحميم ، وعززت بعد ذلك بلواء دبابات عراقى آخر فى يوم ١٣ أكتوبر . وكانت المهمة الأساسية التى كلفت بها القيادة السورية العليا العراقيين هى شن هجوم مضاد على تقدم الجناح الجنوبى الذى كان بمثابة شوكة فى جنب منطقة دفاع الفرقة التاسعة السورية للمشاة . وقد تم صد الهجوم العراقى الأول بواسطة اللواء الإسرائيلى ٧٩ ، وتكبد الجانبان خسائر فادحة فى الأفراد والمعدات . ومع ذلك ، اعتبر العرب هذا الهجوم نجاحًا تكتيكيًا ؛ لأنه أوقف تقدم اللواءين الإسرائيليين ١٧ و ١٩ جنوب دمشق وأجبرهما على التراجع إلى ما بعد «سعسع» . وفى الشمال ، نجحت فرقة رفائيل إيتان فى صد الهجمات العربية حول طريق دمشق القنيطرة السريع ، ولكنها لم تحقق أى تقدم بعد ذلك حتى صدور قرار وقف إطلاق النار فى ٢٢ أكتوبر . وبحلول مساء ١٢ أكتوبر ، وبالرغم من تفاخرات وادعاءات كل من موشى ديان وديڤيد إليعازر ، نجح السوريون والعراقيون فى صد أى محاولة تقدم إسرائيلى نحو دمشق .

واعترف المعلقون العرب أنه بالرغم من بسالة العراقيين فى القتال ، إلا أن المفاهيم السوڤييتية الجامدة التى تعلموها على يد الروس ، استدرجتهم للوقوع فى الشرك الذى نصبه لهم دان لانر مساء يوم ١٢ وحتى ١٣ أكتوبر . فقد نظم ألويته الأربعة على شكل مربع . وتكونت أضلاع المربع من أربع قرى سورية انتشرت بها الألوية الأربعة . وفى الثالثة بعد منتصف ليل يوم ١٣ أكتوبر ، شنت فرقة الدبابات العراقية الثالثة ، معززة باللواء السادس المدرع الذى وصل حديثًا ، هجومًا تقليديًا (حسب المفهوم السوڤييتى) وتقدمت على نحو متوقع عبر جبهة عرضها أربعة أميال داخل المصيدة . قاتل العراقيون المحاصرون ببسالة وشراسة ولكنهم فقدوا المئات من الرجال و ٨٠ دبابة قبل أن ينجو الباقون بأرواحهم . أدت خسائر وإنهاك المعارك إلى توقف معظم القتال بين القوات العربية والإسرائيلية ، حتى قام اللواء الأربعون الأردنى المدرع ، الذى دخل إلى سوريا فى الأول من أكتوبر فى انتشار غير معلن من أجل تعزيز الدفاعات السورية ، بالهجوم على القوات الإسرائيلية فى يوم ١٦ أكتوبر ، بتنسيق ردىء مع السوريين والعراقيين ، على طول جبهة عريضة تمتد من «أم بطنة» غرب «تل أنطار» وحتى تل العلاقية فى

الشرق. قامت القيادة السورية العليا بتنسيق العملية على نحو سيئ. فوجد الأردنيون أنفسهم دون الدعم اللازم من قبل السوريين، بينما فشلت فرقة الدبابات العراقية الثالثة حينما أخذت على غرة من قبل الهجوم الإسرائيلى المضاد على جناحها الشمالى، حيث اعتقدت بطريق الخطأ أن الوحدات السورية تؤمن لها الحماية. وتحرك العراقيون، الذين كانوا لا يزالون يتبعون التكتيكات السوفييتية، نحو الأمام عبر جبهة ضيقة وانسحبوا بمجرد تهديد الإسرائيليين لجناحيهم. وأدى ذلك إلى كشف الأردنيين، الذين اعتمدوا على الدعم العراقى، ووجدوا أنفسهم تحت وابل من النيران «العراقية الصديقة». وأرسل الچنرال الإسرائيلى موسى بليد، الذى حل محل دان لانر المرهق، فى محاولة لاستغلال الفوضى المتفشية فى القيادة والسيطرة العربية، أرسل لواء المظلات الإسرائيلى ٣١ من أجل الاستيلاء على المواقع السورية فى «أم بطنة» فى معركة ليلية كلفتهم خسائر فادحة.

وفى محاولة أخيرة، قامت فرقة المدرعات العراقية الثالثة واللواء الأردنى المدرع الأربعون معًا بالهجوم على القوات الإسرائيلية الأمامية. وقاد العراقيون الهجوم الذى اشتمل على أكثر من ١٣٠ دبابة و١٠٠ ناقلة جنود مدرعة، تغطيها نيران المدفعية المكثفة. وعند لحظة معينة، كادوا ينجحون فى سحق الإسرائيليين، ولكنهم مع سدول الليل أوقفوا الهجوم، وانسحبوا تاركين نصف دباباتهم وعرباتهم المدرعة مبعثره على التلال. وفى العاشرة صباحًا من يوم ١٨ أكتوبر، قام الأردنيون بتحركهم الأخير ضد الإسرائيليين، ولكنهم خسروا فى ذلك اليوم وعادوا أدراجهم بحلول المساء، نظرًا لضعف التنسيق مع حلفائهم العرب، بما فى ذلك المدفعية العراقية.

وبالرغم من نجاح إسرائيل التكتيكى فى ١٨ أكتوبر، إلا أن معظم المؤرخين العرب والإسرائيليين بدوا متفقين على أن الهجمات المضادة الأردنية ـ العراقية فى ذلك اليوم منعت محاولة التقدم الإسرائيلية الأخيرة إلى دمشق ـ إذا كان ذلك ما كان ينتويه ديان، وزير الدفاع الإسرائيلى وبقية مجلس الوزراء الإسرائيلى عمله. ولم يقم العرب فقط باستعادة «سعسع»، ولكن كان على الإسرائيليين أيضًا الانسحاب إلى المواقع التى احتلوها يوم ١٦ أكتوبر. وهذا ما منح الثقة للرئيس السورى حافظ الأسد، فى أن أى حرب استنزاف طويلة الأمد داخل الأراضى السورية ستكون باهظة التكاليف بالنسبة للعدو الإسرائيلى على نحو لا يمكنه تحمله.

ولم تثن قناعات الأسد الرئيس السادات، الذى كانت جيوشه ـ تعانى من فرط الانتشار، المحاصرة على جانبى القناة(*) ـ من توقيع اتفاقية وقف إطلاق النيران الصادرة من الأمم المتحدة فى ٢٢ أكتوبر. وانسحبت قوات الملك حسين، الذى كان سعيداً ببلاء قواته بلاء حسنًا فى معركة الدفاع عن الأراضى العربية، دون أن يشارك بأى صورة رسمية فى اتفاقيات وقف إطلاق النار.

## صدام يحصل على متنفس

وفى بغداد، كان البكر وصدام، بعد تقييم الخسائر العراقية، قادرين على الإعلان للشعب بأن جيشه ساهم فى إنقاذ «سوريا الشقيقة» من العدو الإسرائيلى.

وقاما بسحب القوات والمعدات المتبقية، وسرعان ما عادا سيرتهما الأولى فى ممارسة سياسات ما قبل الحرب. وسعى البعثيون إلى كبح جماح الأكراد، وفى نفس الوقت إقصاء حلفائهم الممثلين فى الشاه وإسرائيل، بعيداً عن مجريات الأحداث.

كان صدام يحدوه الأمل فى أن تجعله ثروته النفطية وترسانة الأسلحة المتزايدة لديه، زعيمًا للشرق الأوسط، وفى النهاية تجعله نداً لمجابهة العدو الإسرائيلى. وقد صاحب اتفاقية الجزائر مع الشاه، وما ترتب عليها مباشرة من توقف الضغط العسكرى الإيرانى، ممارسات تجارية وسياسية أفضل من جانب حلفاء الشاه الغربيين، وخاصة الولايات المتحدة. ونظراً لزيادة أسعار البترول العالمى، وخفض الإنتاج بعد اندلاع الحرب العربية ـ الإسرائيلية عام ١٩٧٣، فقد قفزت عوائد النفط العراقية من ٥٧٥ مليون دولار عام ١٩٧٢ إلى ١,٨٤ بليون دولار عام ١٩٧٣ و ٥,٧ بليون دولار عام ١٩٧٤. وأصبح البعثيون قادرين على التباهى بالبدء فى تنفيذ برامج ضخمة فى البنية التحتية و التعليم والإسكان الشعبى والصحة والرعاية الاجتماعية، وهو ما توسع بعد ذلك فى الثمانينيات ولم يتوقف على الرغم من الخراب الذى جلبته الحرب مع إيران من عام ١٩٨٠ حتى عام ١٩٨٨. وساهمت ثروة النفط أيضًا فى دمج العراق فى

---

(*) هذا التعبير تنقصه الدقة، ويمكن أن يقال على قوات كل جانب إنها محاصرة بقوات الجانب الآخر، وإن كان حصار الجيش الثالث المصرى أشد قليلاً ـ المترجم.

أسواق التجارة العالمية، وتقليل حاجته للدعم الاقتصادى السوڤييتى، بالرغم من استمرار الدعم السوڤييتى العسكرى.

ونظرًا للهجوم شبه اليومى فى الإعلام العراقى على الولايات المتحدة باعتبارها الحليف الإمپريالى المنحاز انحيازًا أعمى لإسرائيل، لم ينشئ العراق أى علاقات ديپلوماسية معها منذ حرب ١٩٦٧ بين العرب وإسرائيل، ومع ذلك، فقد بدأت العلاقات التجارية والاقتصادية بينهما فى الازدهار. وقفزت المعاملات التجارية العراقية - الأمريكية فى كلا الاتجاهين من إجمالى ٣٢ مليون دولار فى عام ١٩٧١ إلى ٢٨٤ مليون دولار فى عام ١٩٧٤. كما اتسعت العلاقات التجارية مع اليابان، وألمانيا الغربية على وجه الخصوص، التى قام تجارها ومصنعوها ومنتجوها بالعمل فى برامج الأسلحة العراقية، إلى حد كبير.

أما فى الداخل، فكان النظام يتمسك ويشدد قبضته على الاقتصاد. وأكثر مما قام به أى نظام آخر منذ الحكم العثمانى، كان النظام العراقى الحاكم قادرًا على منح رعايته لما يسمى فى واشنطن «مشروعات المحاسيب» على شكل عقود وامتيازات لرجال الأعمال المقربين من النظام، المحليين أو الأجانب، والمتعاقدين من كل الأنواع. واستفادت الطبقة الوسطى المائلة للبعث من برامج الرعاية الاجتماعية والدعم المقدم للمواد الغذائية الأساسية كالخبز وزيت الطعام والسكر وزيادة الأجور والوظائف الجديدة التى خلقها التوسع فى قطاع الدفاع وقطاعات صناعية أخرى.

وفى وقت لاحق، أصبح للعديد من تلك التطورات نتائج مدمرة. فقد انخفض الإنتاج الزراعى، إلى حد كبير بسبب الهجرة من المناطق الزراعية إلى المناطق الصناعية، وكذلك بسبب التوزيع غير العادل للأراضى نتيجة تنفيذ برامج مثل «تعريب» الشمال الكردى. ومع تصاعد رقابة وقمع البعث للشعب على شاكلة ما جاء فى رواية چورچ أورويل «مزرعة الحيوانات»، أصبح مديرو المصانع وكبار الموظفين على كل المستويات خائفين من اتخاذ أى قرار لا تدعمه السلطة العيا. ومع ذلك، لم يظهر سوى القليل من تلك الإجراءات التعسفية إلا فى الثمانينيات والتسعينيات[١٠].

## صدام يحكم قبضته
## ويسعى للسلطة المطلقة

من الناحية السياسية، وعلى الرغم من الصراع مع الأكراد والمتاعب التى يثيرها الشيعة والشيوعيون، كان صدام قادرًا على شق طريقه صوب السلطة المطلقة على خلفية حساب موقف داخلى مستقر إلى حد ما. فقد كانت القوات المسلحة النظامية، بقيادة عدنان خير الله، زوج ابنة البكر، التى هى شقيقة زوجة صدام، تحت السيطرة الكاملة. وقام مسئولو التثقيف بالحزب بالتأكيد فى كل مستويات الجيش على الإخلاص لحزب البعث.

وقامت وكالة الاستخبارات السوفيتية (كيه. چى. بى.) والألمانية الشرقية (ستاسى) بتدريب قوات الأمن العراقية. كما بدأ مكتب الأمن القومى الجديد، تحت قيادة صدام عملياته فى عام ١٩٧٤، حيث أدار معظم أجهزة الأمن والاستخبارات العسكرية والمدنية. وكان يتم تعيين المفوضين السياسيين البعثيين، على الطراز الروسى، الذين يتم اختيارهم من الأعضاء الأكثر ولاءً للحزب الذين يربو عددهم على المليون، فى السفارات العراقية عبر البحار من أجل التجسس على ومراقبة ـ كما كان يفعل الروس أيضًا ـ الديپلوماسيين العراقيين.

وكان عزة إبراهيم الدورى، تابع صدام المخلص أحمر الشعر، والذى ما زال البحث عنه جاريًا بواسطة قوات الائتلاف، مسئولاً عن توسيع الجيش الشعبى. وقد تم تسليحه بأسلحة متطورة وحل محل الجيش النظامى كمصدر أساسى للقوة السياسية المسلحة التى تساند النظام.

ولم يكن الرمز الأبوى للبكر، الرئيس الذى يقوم بتوقيع الأوراق التى يضعها صدام على مكتبه والذى فوض كل المهام تقريبًا، عدا المهام التشريفية، إلى صدام، سوى صدى لسلطة صدام المطلقة.

وقد ساهمت وأيدت العوامل المحلية والأجنبية فى استحواذ صدام النهائى الناجح على السلطة الكلية فى عام ١٩٧٩. وظل الأعداء التقليديون للبعث، من أكراد وشيعة وشيوعيين معارضين للبعث ومجلس قيادة الثورة بكافة السبل التى استطاعوا سلوكها، بالرغم من القمع العسكرى والشرطى لإخراس ألسنتهم. ومع ذلك، فقد تم إضعاف

كل تلك الجماعات من خلال صعود الطبقة المتوسطة المتزايدة المكاسب سهلة الانقياد سياسيًا والتى اجتهد صدام فى خلقها.

وخارج العراق، قامت الولايات المتحدة وإسرائيل، متتبعة لخطى شاه إيران، بالحد من دعمها للأكراد، الذين كان زعيمهم صاحب الكاريزما الملا مصطفى البرزانى يحتضر متأثرًا بالسرطان، إلى حد كبير فى الولايات المتحدة. ولم يكن الشاه راغبًا فى استخدام القوة العسكرية ضد المعارضة الدينية المتصاعدة فى إيران.

وقد توطدت علاقات صدام بالشاه وبعائلته، إبان اتفاقية الجزائر لدرجة أن الإمبراطورة فرح ديبا فى لافتة غير مسبوقة، قامت بزيارة أماكن الشيعة المقدسة فى العراق، مما أحبط خصوم صدام من الشيعة. وكما حدث بالنسبة للأحزاب الشيوعية العربية الأخرى، تناقص دعم موسكو للشيوعيين العراقيين إلى حد بعيد. وتفاقم ذلك حينما قام صدام علنًا بإدانة الغزو السوڤييتى لأفغانستان فى ديسمبر ١٩٧٩. ولم يعد الرئيس المصرى، أنور السادات، الذى كان منغمسًا فى مفاوضات السلام الدائم مع إسرائيل فى كامپ ديڤيد بواشنطن تحت رعاية الرئيس الأمريكى چيمى كارتر، عاملاً مؤثرًا فى مجرى الأحداث فى بغداد، كما كان يحدث فى عهد عبد الناصر، وجدت كل من الجارتين الثريتين، السعودية والكويت، فى أواخر السبعينيات، فى صدام «جارًا طيبًا» (استعاد صدام زعم العراق التاريخى بأن الكويت جزء لا يتجزأ من أرضه بعد عقد واحد فقط). وكانت الدول الفقيرة مثل السودان والصومال تتمتع بالدعم العراقى المالى. كما كان ياسر عرفات ومنظمة التحرير الفلسطينية، أو غيرها من المنظمات الفلسطينية الهامشية أو المنشقة تتلقى دعمًا من بغداد. وكان عرفات يحاول الارتقاء بمنزلة صدام فى العالم العربى عن طريق الإعلان عن ذلك الدعم.

وقد ساهم حرص صدام على معالجة مشاكله وتجنبه للمغامرات الطائشة خلال تلك الفترة فى قبوله من جانب الساسة الغربيين. واتسع السوق العراقى للمنتجات الغربية، وخاصة بالنسبة للأسلحة والمنتجات ذات الاستخدام المزدوج مثل السيارات والشاحنات وطائرات الهليكوپتر والطائرات ذات الجناح الثابت. وكان صدام حذرًا فى التعامل مع عدوه الدائم، إسرائيل، خلال وبعد توليه السلطة الكاملة فى عام ١٩٧٩. وقد نظر المحللون الإسرائيليون، على ضوء تجارب ١٩٦٧ و ١٩٧٣، وتهديدات

المنظمات الفلسطينية المتمركزة فى بغداد ، إلى عراق صدام على أنه تهديد استراتيچى طويل المدى . وفى أحاديثه العامة عن إسرائيل كان صدام وبطانته يحرصون على عدم استخدام لغة أكثر تطرفًا من تلك التى يستخدمها السادات والملك حسين وباقى الرؤساء العرب «المعتدلين» .

وقد أدرك الديپلوماسيون العراقيون، كما أخبرنى أحدهم فى ١٩٧٩ ، بأن حكومة كارتر، بالرغم من نجاح مفاوضات السلام مع السادات ورئيس الوزراء الإسرائيلى بيجن، إلا أنها لا تحبذ العبارات العدوانية التى كثيراً ما يستخدمها بيجن فى حديثه عن الدول العربية . فقد رغبت إدارة كارتر فى ضم صدام حسين إلى محادثات السلام مع إسرائيل ، وتحسين العلاقات مع بغداد لأسباب سياسية واقتصادية[١١] .

## سقوط البكر

من سخريات القدر أن البكر هو من دق بيده آخر مسمار فى نعشه السياسى من خلال تحديه «لنائبه» صدام . فقد اقترح إقامة وحدة بين سوريا والعراق ، بقيادة مجموعات مستقلة من حزب البعث تحت إشراف قيادة بعثية مركزية . وأدى انشقاق السادات عن الجبهة العربية المشتركة ضد إسرائيل إلى جعل ما تطلق عليه إسرائيل «الجبهة الشرقية» ـ الأردن وسوريا والعراق ـ مكشوفة للعدو الصهيونى ، وكان اتحاد الدولتين البعثيتين ، حتى وإن كان لا يشتمل على المملكة الأردنية ، فى رأى الكثير من أبناء العالم العربى ، يمكن أن يقوى الوحدة العربية ضد إسرائيل .

وفى الأول من أكتوبر ١٩٧٨ ، قرر البكر من تلقاء نفسه المبادرة بإعادة القوات العراقية إلى سوريا ، ليس من أجل الحرب كما حدث فى ١٩٧٣ وإنما كجزء من مشروع الاندماج السياسى بين العراق وسوريا . وعلى ذلك ، قام الرئيس الأسد بزيارة بغداد يوم ٢٦ أكتوبر للاجتماع بالبكر وصدام . وأعلنوا شجبهم لمبادرة السلام مع إسرائيل ووضع «ميثاق للعمل القومى المشترك» من أجل التنسيق لمواجهة إسرائيل . واقترح البكر إقامة وحدة عراقية سورية برئاسته ويكون الأسد نائبًا له ، تاركًا صدام فى العراء . ولكن الأسد ، الذى كان يدرك أن صدام المتمتع بدرجة عالية من النفوذ لن يقبل بذلك رفض العرض . وأعلن أنه ليست هناك حاجة للقوات العراقية فى سوريا فى ذلك

الوقت، واقترح أنه من الأفضل التوجه نحو الوحدة الكاملة تدريجيًا على مدى سنوات عديدة.

وحاول البكر إقناع الأسد بقبول مشروعه. فقام بزيارة دمشق فى يناير ١٩٧٩، واستبدل مطالبته باتحاد البلدين بدمج فرعى حزب البعث معًا كخطوة مبدئية. وشعر الأسد أن صدام غير مرحب بالموضوع بأكمله، ومن ثم قرر إنهاءه فقرر إسدال الستار على الأمر برمته.

وأدى اندلاع الثورة الإيرانية، برحيل الشاه وعودة الخومينى من المنفى فى ١٢ فبراير ١٩٧٩ لتولى الحكم، إلى مساعدة صدام حسين إلى حد كبير. وقد أدت إلى القضاء على العلاقات الطيبة التى كانت تربطه بالشاه. ولم يرحب الخومينى باتصال البكر به لتقديم التهنئة، كان البعث حزبًا علمانيًا بالنسبة للحركة الدينية التى اجتاحت إيران. ومع ذلك، فقد رحب السوريون بالزلزال السياسى الذى ضرب إيران، لأنهم رأوا فيها حليفًا جديدًا للعرب فى مواجهة إسرائيل.

وعلى الرغم من انتعاش العلاقات بين دمشق وطهران، وصلت العلاقات بين طهران وبغداد إلى درجة التجمد. فبعد أسبوع من توليه السلطة، أعلن الخومينى أنه «يريد النجف»، وهى إحدى المدن المقدسة لدى الشيعة فى العراق. وكان رد صدام به إهانة للخومينى حيث قال: «إنه الشاه متنكرًا فى ثوب الدين».

وبدأ صدام فى إسناد مختلف المناصب فى كافة مستويات السلطة إلى أقاربه وحلفاءه من أجل الإعداد لعملية كشف الأوراق مع البكر. وبعد ذلك بدأ فى التقليل من شأن مشروع الاندماج مع سوريا ومن فكرة بقاء البكر فى السلطة. وبذلك أرسل إلى الأسد إنذارًا يقول: اقبل الوحدة الآن، أو انس الأمر برمته.

وبعد فشل الأسد فى الاستجابة، بدأ صدام فى تصفية اللجان المشتركة والتى كان من المفترض أن تناقش الاندماج. ومن أجل الإعداد لاستقالة البكر، قام صدام، فى أوائل يوليه، بزيارة الأردن والسعودية.

ونجح فى إقناع الملك حسين، كما قام على الأرجح بتجديد صلاته القديمة بالاستخبارات المركزية فى عمان، ثم ذهب لخطب ود العائلة المالكة فى السعودية

وكانت الأردن والسعودية والولايات المتحدة (وإسرائيل بالطبع) تمقت فكرة الوحدة العراقية السورية. وعرض صدام على ثلاثتهم القضاء على مشروع الوحدة إلى الأبد مقابل عدم تدخلهم فى خلع البكر الوشيك من منصبه. واعتبرت إدارة كارتر فى واشنطن أن الخومينى يشكل تهديداً فعلياً، كما أدرك ذلك العراقيون والسعوديون والأردنيون، أيضًا، وأنه يجب إيقافه (وكان ذلك قبل استيلاء الإيرانيين على السفارة الأمريكية والقبض على العاملين بها فى نوفمبر ١٩٧٩ وبدء أزمة الرهائن الطويلة التى تلت ذلك، وفشل عملية إنقاذ الرهائن على يد القوة الخاصة الأمريكية فى ١٩٨٠، والتى لم تحل إلا بوساطة خارجية خاصة من جانب الجزائر).

وبعد أن شعر صدام بالاطمئنان من حيث التدخل الخارجى، قام بانقلاب داخلى في حزب البعث للإطاحة بالبكر. وظهر الأخير على شاشات التليفزيون العراقى فى يوم ١٦ يوليه معلنًا تقاعده «لأسباب شخصية». وتم تعليل ذلك على أنه بسبب صحته المتدهورة، وأضاف صدام بعد ذلك أنه بسبب حزن البكر على وفاة زوجته وابنه وزوج ابنته خلال العامين السابقين، ولكن سريعًا ما اتضحت الأسباب الحقيقية وراء إجبار صدام للبكر على ترك منصبه وذهابه إلى منزله تحت حراسة مشددة ـ والذى تم تسجيله فى فيلم رسمى أمر صدام بتصويره ـ وبدأ صدام سلسلة من الاتهامات والمحاكمات فى «محكمة شعبية»، على الطراز الشيوعى، تلتها تصفية دموية للتطهير وفقًا للنموذج الستالينى. واشتمل ذلك على قتل عدد من المتآمرين المزعومين بدعوى تأييدهم لسوريا، كان بعضهم من أصدقاء صدام المقربين، فى مجلس قيادة الثورة والقوات المسلحة وحزب البعث والنقابات المهنية والتجارية.

وشرع صدام فى تلك التصفيات قبل الإطاحة بالبكر، بفصل عبد الحسين المشدى، السكرتير العام لمجلس قيادة الثورة، الذى تم القبض عليه وتعذيبه وإجباره على إدانة زملائه فى حزب البعث. وعلى ذلك، وفى يوم ١٨ يوليه ١٩٧٩، تم عقد اجتماع ضم ٤٠٠ من قادة حزب البعث فى كل أنحاء العراق وتصوير وقائع الجلسات. وأجبر المشادى على قراءة بيان مكتوب بعناية عن المؤامرة المزعومة ضد صدام، ذكر فيها الأسماء و التواريخ والتفاصيل، وأشار إلى المتهمين والخونة. وكان عند ذكر أحد الأسماء، يصحبه الحراس إلى خارج القاعة، ثم لا يُرى بعدها أبدًا. وكان صدام

يصرخ فى المعترضين، وظهر فى النهاية أمام الكاميرا وهو يبكى بحرقة، خاصة بعد ما قبض على صديقه المقرب، ومساعده، عدنان الحمدانى. وادعى صدام أن المتآمرين كانوا يبغون الوقيعة بينه وبين البكر وتشويه سمعة حزب البعث.

أما نعيم حداد، العضو الشيعى بمجلس قيادة الثورة، فقد مثل أمام محكمة سرية خاصة. وفى غضون أسبوعين، تمت محاكمة ٢٢ مسئولاً فى حزب البعث، من بينهم المشادى والحمدانى، وإعدامهم وإرسال أكثر من ٤٠ آخرين إلى السجن.

ومن بين هؤلاء الضحايا كل مؤيدى الوحدة مع سوريا. كما تم إعدام عبد الخالق السمرائى، أحد أصدقاء صدام المقربين الذى كان فى السجن منذ ١٩٧٣، وآخرين. ووجه صدم من خلال التليفزيون دعوة عامة للإبلاغ عن أى شخص أو نشاط «مشبوه» أو «معاد». وقام المئات بذلك، بسبب خلافات شخصية فى أحيان كثيرة أو حتى مشاحنات تافهة. وأمر صدام بتشكيل فرق تصفية من أخلص العناصر فى حزب البعث وأعطى كلاً منهم سلاحًا شخصيًا.

ومن خلال مشاركتهم فى إطلاق النار، ضمن صدام كلاً من ولائهم وخضوعهم التام له بعد أن قتلوا رفاقهم. وكانت العادات القبلية فى العراق تتطلب أن يقوم أقارب الضحايا بسفك دم القاتل.

ولكن فى هذه الحالة، كان صدام أو المقربون منه هم القتلة الذين يحميهم جهاز الأمن البعثى المخيف.

وعلى نحو علنى، بدأ صدام يتصرف على أنه مزيج من ستالين الذى قام بجمع كل أعماله فى مكتبته، والملك نبوخذنصر الجديد، كما صورته الدعاية. وكثيراً ما كان يظهر على شاشات التليفزيون، بصورة يومية أحيانا، ليقلى دروس الوعظ والإرشاد، متقمصًا دور الأب المحب للخير والمستبد فى الوقت نفسه، الذى يعرف الأفضل بالنسبة لشعبة فى كافة نواحى الحياة. وكان صدام يعشق التجول بين العامة، مرتديا أحد أزيائه الرسمية أو المدنية الأخرى، التى تأخذ مئات الصور والأشكال حيث يقترب من الأشخاص، الذى يفترض أنهم معجبون به، للتطلع إلى بهائه، وكان يتم تصويره وهو يفعل ذلك. ومع ذلك، كان حرس الرئيس الجديد يحملون الهراوات والعصى

الكهربية، كتلك التى يستخدمها رجال الشرطة الأمريكيين (والتى حصل عليها ـ على الأرجح ـ من الولايات المتحدة). وكانوا يسددون الضربات أو الصدمات الكهربية إلى كل من تسول له نفسه الاقتراب من صدام أو محاولة لمسه[١٢].

وعلى ساحة الشئون الخارجية والعسكرية، كان صدام يسارع بإعادة تسليح قواته المسلحة من أجل الاستعداد لما لاح فى الأفق على شكل مواجهة كبرى مع الخومينى. وبدأ صدام فى التحول من الحصول على السلاح من الاتحاد السوڤييتى إلى الغرب فى الأعوام التى سبقت الإطاحة بالبكر. وقبل إبرام اتفاقية الجزائر مع الشاه عام ١٩٧٥، كان من المستحيل تقريبًا على العراق شراء ونشر أنظمة السلاح الغربية. وكما رأينا، كانت المفاهيم العسكرية السوڤييتية وكذلك الأسلحة السوڤييتية هى السائدة فى حرب العراق مع إسرائيل عام ١٩٧٣ ولم يكن من السهل تدريب القوات المسلحة العراقية على استخدام أى أسلحة أخرى بخلاف الأسلحة السوفيتية أثناء مواجهة الأكراد أو الإسرائيليين أو حتى فى أثناء الاستنفار الدائم. الأمر الأكثر أهمية، أن الغرب لم يكن يمكنه التفكير فى تقديم إمدادات عسكرية كبيرة للعراق فى الوقت الذى يعتبره المحللون فى واشنطن وأماكن أخرى يدور فى فلك السوڤييت.

تمت أول صفقة عراقية كبرى لشراء أسلحة غربية فى سبتمبر ١٩٧٦، عندما وافقت فرنسا بقيادة چورچ پومپيدو، الذى خلف الرئيس تشارل ديجول، على بيع ما بين ٦٠ و ٨٠ طائرة مقاتلة من طراز ميراچ F-1 إلى العراق. وتلا ذلك طلب ٢٠٠ دبابة فرنسية من طراز إيه إم إكس ٣٠ من فرنسا عام ١٩٧٧. وفى عام ١٩٧٨، قامت البرازيل بإمداد العراق بحوالى ٢٠٠ ناقلة جنود مدرعة من طراز كاسكاڤيل كما قدمت إيطاليا بعض المركبات البحرية الصغيرة والمتطورة لخفر السواحل العراقيين. وكان ثلاثتهم ـ فرنسا وإيطاليا والبرازيل ـ من بين أهم مستوردى النفط العراقى فى السبعينيات. وارتبطت صفقات السلاح هذه وكذلك العديد من صفقات السلاح الغربية بصفقات النفط. ومع ذلك، وبالرغم من ذلك التنوع، إلا أن الاتحاد السوڤييتى، وهو أيضًا مستورد جوهرى للنفط العراقى، ظل المورد الأساسى للدبابات والمدرعات والطائرات العسكرية إلى العراق، حتى نهاية الثمانينيات؛ وذلك لأن الغرب لم يكن ليقبل باستبدال الأسلحة والمعدات العراقية السوڤييتية الصنع، بأسلحة غربية التى يصنعها

(أى الغرب) (كما حدث مع مصر بقيادة السادات بعد معاهدة السلام عام ١٩٧٩ مع إسرائيل) دون وجود ضوابط صارمة. ولم يرغب صدام، الذى كان يرفع شعارات ذات أصداء شعبية عميقة حول تحرير فلسطين، فى أن يظهر بمظهر الذى باع القضية للولايات المتحدة، وهو الاتهام الذى كان يوجهه للسادات[١٣].

## « تودد على مضض »

بينما كان يعد آلة الحرب المتنامية للمعركة القادمة مع إيران الخمينى، اعتمد التقرب النفعى إلى الولايات المتحدة ـ أو كما يسميه أبو ريش «التودد على مضض» والذى بقيت آثاره حتى اليوم ـ على حدثين رئيسيين. الأول هو الغزو السوفييتى لأفغانستان فى ديسمبر ١٩٧٩، الذى عارضة صدام بشكل سلبى على الأقل. أما الحدث الثانى فكان ظهور الإسلام المقاتل (أو الجهاد) فى إيران الخمينى، وإعلان طهران عن عزمها تصدير الثورة الشعبية. وأدى ذلك إلى شد أزر أعداء صدام فى الداخل. وقام زعماء الأكراد بتهيئة الخومينى فور توليه السلطة. ولكن كان الأمر الأكثر خطورة على صدام من سلوك الأكراد هو تأثير الثورة الإيرانية على الغالبية الشيعية فى العراق. لقد ناشدت طهران الغالبية الشيعية فى العراق الإطاحة بحزب البعث «غير المسلم» وفى نفس الوقت تصاعدت نداءات محمد باقر الصدر، الزعيم الشيعى، للإطاحة بالحكم الاستبدادى فى بغداد. واكتشفت طهران أنها قادرة على إثارة الحماس، ليس فى العراق فقط، ولكن حيثما وجدت الأقلية الشيعية فى الخليج ـ فى المنطقة الشرقية الغنية بالبترول بالسعودية والبحرين وحتى فى الكويت التى يحكمها السنة.

استخدم صدام فى البداية تكتيكات الجزرة مع الشيعة العراقيين، بإغراق الأحياء الشيعية بالبضائع مثل أجهزة التليفزيون والثلاجات. ولكن الصدر، على الرغم من إلقاء القبض عليه خمس مرات منذ عام ١٩٧٢، واصل إثارته للعامة والمطالبة بالولاء للخومينى. وكشر صدام عن أنيابه، ليس للصدر فقط، ولكن للجميع حيث قبض على وأعدم المئات من الشيعة. وتصاعدت أعمال القمع فى الأول من أبريل عام ١٩٨٠، عندما حاول بعض أعضاء حزب الدعوة التابع للصدر اغتيال طارق عزيز، الذى أصيب إصابات طفيفة، ولكن أسقطوا العديد من الضحايا خلال مؤتمر طلابى

بجامعة المستنصرية. وفى الخامس من أبريل، قام أعضاء حزب الدعوة بقتل المزيد من الأشخاص أثناء جنازة ضحايا الجامعة «واقتحمت» قوات صدام الخاصة مدينة النجف الشيعية المقدسة، و ألقت القبض على الصدر وشقيقته أمينة، حيث قامت بسومهما ألوان العذاب، قبل أن تقتلهما بغداد فى نفس اليوم. وعلى إثر ذلك اندلعت الاضطرابات فى جنوب العراق والمناوشات مع القوات الإيرانية على الحدود.

وبدأ مبعوثو صدام فى زيارة السعودية والدول العربية الأخرى التى يحكمها السنة من أجل حشد الدعم لهجومه الوشيك على الخومينى فى إيران. وفى نفس الوقت، بدأ فى تصعيد إدانته للتحركات العسكرية السوفييتية. وتبعًا لأبى ريش، قام صدام بالتوجه إلى عمان فى يوليو ١٩٨٠ أثناء تواجد ثلاثة من عملاء الاستخبارات المركزية هناك. وسواء تم عقد اجتماع مباشر أم لا بين صدام وعملاء الاستخبارات المركزية، فقد التقى الجانبان بالملك حسين وتمت مناقشة التهديد الإيرانى للشرق الأوسط العربى وللمصالح الغربية، وما يجب عمله إزاء ذلك. ومد صدام يد الصداقة لإدارة الرئيس رونالد ريجان ولشركة طائرات بوينج حينما طلب شراء خمس طائرات بوينج من طراز ٧٤٧، ووافقت واشنطن على الصفقة عام ١٩٨١. وفى نفس الوقت، وافقت إدارة ريجان على بيع محركات من إنتاج «چنرال إليكتريك» للسفن الحربية الإيطالية الصنع فى الأسطول العراقى. وبدأت المجلات التجارية الأمريكية فى الإعلان عن فرص العمل المتاحة فى السوق العراقى.

## صدام يهاجم إيران

فى الخامس من أغسطس عام ١٩٨٠، بعد توقف قصير فى الأردن، هبط صدام فى السعودية، مرتديًا إحدى بزاته العسكرية متمنطقًا سلاحه الشخصى. وفى اجتماع استمر لعشر ساعات مع الأمير فهد ولى العهد السعودى (الذى أصبح بعد ذلك الملك فهد، ولكنه كان فعليًا الرجل الأقوى فى النظام)، ناقش صدام خططه للهجوم على إيران. وادعى بعض المعلقين العرب أن الفهد وعد صدام ببلايين الدولارات كدعم سعودى واستخدام ميناء جدة السعودى على البحر الأحمر فى حالة إغلاق الحرب لميناء البصرة، الأمر الذى حدث بالفعل. ومع تصاعد المناوشات على الحدود، قام صدام

فى يوم ١٧ سبتمبر بنقض اتفاقيه الجزائر التى منحت إيران السيطرة على النصف الموجود ناحيتها من ممر شط العرب المائى [١٤].

ومع بزوغ فجر يوم ٢٢ سبتمبر من عام ١٩٨٠، حاول السلاح الجوى العراقى محاكاة الضربة الإسرائيلية المباغتة للقوات الجوية العربية عام ١٩٦٧، حينما قام بلا سابق إنذار بقصف عشر قواعد جوية إيرانية، ومن بينها القاعدة العسكرية فى ميناء طهران الدولى. وكان الهدف من ذلك هو تدمير السلاح الجوى الأمريكى الصنع الذى ورثه الخومينى عن الشاه لتمهيد الطريق للغزو العراقى البرى الهائل لإيران. وبعد أن تكبدوا أضراراً جسيمة، قام الإيرانيون بإرسال طائرات الفانتوم F.4 الأمريكية الصنع لقصف قاعدتين جويتين عراقيتين وسفن عراقية لإطلاق الصواريخ فى الخليج، ومصنع عراقى لمعالجة الغاز والعديد من المنشآت النفطية بالقرب من الحدود الإيرانية ـ العراقية. وفى اليوم التالى، اجتاحت ست فرق عراقية ميكانيكية إيران، وكانت هذه بداية لإحدى أطول وأعنف الحروب منذ الحرب العالمية الثانية. وحينما وضعت الحرب أوزارها عام ١٩٨٨ باتفاق وقف إطلاق النار الذى كان صدام ومؤيدوه الغربيون فى حاجة ماسة إليه بنفس حاجة إيران الخومينى المثخنة بالجراح، كان قد قتل ما يزيد عن مليون شخص وأصاب الخراب اقتصاد البلدين.

وخلال تلك الحرب، كانت أمريكا وإسرائيل يقدمان التشجيع والدعم المادى، فى البداية، لطرف ما ثم لاحقًا للطرف الآخر. قامت إسرائيل فى وقت من الأوقات بشن حرب سرية ضد عراق صدام حسين ولكنها أيضًا كانت تستكشف إمكانية التعايش الاستراتيجى مع صدام بناءً على علاقات واشنطن المتناهية مع الديكتاتور العراقى الذى تزداد قوته مع مرور الوقت.

وقبل كل شىء، جاء الوقت المناسب الذى أدت فيه مناورات الجانبين فى التحالف الأمريكى ـ الإسرائيلى فى الشرق الأوسط إلى المزيد من تقارب الشريكين مما مهد الساحة للمعركة الأخيرة مع صدام، التى سعى إليها الشريكان وتجسدت فى حرب ٢٠٠٣. ويجب علينا أن نختبر هذه العمليات وعواقبها.

* * *



# الفصل التاسع

## حقبة صدام الثالثة:
## الهزيمة والتحدى
## ١٩٨٠ ـ ١٩٩٠



**«يجب أن تضع البشرية حدًا للحروب وإلا سوف تضع الحروب حدًا للبشرية».**

(الرئيس جون كنيدى، خطاب التنصيب، ١٩٦١)

كان العقد الذى بدأ بالحرب الإيرانية ـ العراقية وانتهى بالمغامرة المشؤومة لصدام فى الكويت عقدًا عصيبًا بالنسبة للشرق الأوسط والتحالف الأمريكى الإسرائيلى. ومثلما حدث فى حرب ١٩٧٣ مع العرب من حيث الخسائر الفادحة التى تكبدتها إسرائيل وفشل الاستخبارات الإسرائيلية قبل الحرب، كانت الأخطاء الاستخباراتية الفادحة للولايات المتحدة عن إيران الشاه سببًا فى سقوطه (مما كان له أثر خطير على الحليف الأمريكى المعلن، والحليف الإسرائيلى المستتر). وقد أغفلت واشنطن كل التحذيرات الإسرائيلية التى دقت أجراس الخطر قائلة بأن نظام الشاه قد أصبح آيلاً للسقوط. وتجاهلت المهام العسكرية والديبلوماسية الأمريكية الكبرى فى إيران، والتى كرست بصورة أساسية لخوض الحرب الباردة مع الاتحاد السوفييتى، التطورات المحلية التى كانت تحدث على مرأى ومسمع من الأمريكيين، إلى حد كبير. وكان ذلك فشلاً من الطراز الأول من قبل الاستخبارات الأمريكية. وأدى ذلك إلى التعجيل بسقوط الشاه، وبالتالى انهيار إحدى الركائز الأساسية للسياسة الأمريكية فى الشرق الأوسط. كما أدى أيضًا إلى شروع آية الله الخومينى فى تصدير الثورة الإسلامية الإيرانية، لتهديد استقرار الدول المجاورة بدءًا من العراق والسعودية وحتى لبنان.

وسعى الاجتياح الإسرائيلى للبنان عام ١٩٨٢ إلى سحق منظمة التحرير الفلسطينية واستئصال شأفتها، حيث اعتبرها الإسرائيليون تهديدًا استراتيجيًا يتربص بها من مكمنه الواقع على أرض جارتها الصغيرة متعددة الطوائف. وانعكست نتائج الغزو السلبية على كل من الولايات المتحدة وإسرائيل. وعبر تواطؤ سورى، قامت إيران بإرسال حرسها الثورى لإقامة حركة الجهاد الشيعية المسماة «حزب الله» فى لبنان. وتعتبر أزمة

الرهائن والتفجيرات الانتحارية فى لبنان أحد الآثار السلبية لذلك. كما كان التدخل العسكرى الأمريكى، غير المدروس وغير الناجح، فى لبنان فى الفترة ١٩٨٣ ـ ١٩٨٤، وما تلاه من انسحاب سريع لإدارة ريجان، مظهراً من مظاهر هذا التخبط. وسهلت العلاقات السرية بين إدارة ريجان وبين النظام الثورى الإيرانى، الذى اعتبرته إسرائيل فى النهاية أشد خطراً من العدو العراقى، المؤامرة الثلاثية التى تشكلت أضلاعها من أمريكا وإسرائيل وإيران، فى فضيحة إيران جيت، التى زلزلت كيان واشنطن خلال الثمانينيات.

وفى كتابى السابق، «حرب أمريكا الطويلة فى الشرق الأوسط»[1]، قمت بوصف ما يحدث فى الثمانينيات من خلال تلك المفاهيم. وأنا أسعى هنا إلى النفاذ إلى ما وراء الكواليس، والذى أدى إلى التأثير المباشر على المثلث الأمريكى ـ الإسرائيلى ـ العراقى. وكانت الحرب الإيرانية العراقية فى الفترة ١٩٨٠ ـ ١٩٨٨، بمثابة انعكاس للأحداث التى بدأت عام ١٩٧٩: استيلاء صدام على السلطة المطلقة فى العراق، وثورة الخومينى، واحتلال السفارة الأمريكية فى طهران على يد أتباعه، وثورة السنة المتطرفين فى السعودية، الذين استولوا على المسجد الحرام فى مكة، والاحتلال السوفييتى لأفغانستان. وكان هناك صراع ضار تدور رحاه بين السوريين والإسرائيليين والفلسطينيين فى لبنان، بدأ فى عام ١٩٧٥.

واشتملت ردود الأفعال العالمية تجاه الحرب الإيرانية العراقية على قرارات مجلس الأمن التابع للأمم المتحدة التى كانت تطالب الجانبين بوقف إطلاق النار. وقام المجلس بإلزام كل الدول الأعضاء بالامتناع عن أى عمل من شأنه أن يؤدى إلى استمرار تأجج نيران الحرب. وكان الاتحاد السوفييتى بالفعل غارقًا حتى أذنيه فى المستنقع الأفغانستانى، تلك المغامرة التى قضت عليه بالفعل بمجرد مغادرة جيوشه المهزومة لأفغانستان عام ١٩٨٩. وقد عارضت موسكو الحرب بين إيران والعراق، كما أعلنت عن امتناعها تقديم السلاح للطرفين، ولكنها استأنفت تسليح العراق فى عام ١٩٨٢. وانتهت عمليات بيع كميات هائلة من الأسلحة الأمريكية لإيران بسقوط الشاه، وقامت إدارة كارتر بقطع العلاقات الدبلوماسية مع إيران فى عام ١٩٨٠ بسبب أزمة رهائن السفارة الأمريكية. ولم يجدد العراق علاقاته الدبلوماسية مع الولايات المتحدة منذ قطعها منذ الحرب العربية ـ الإسرائيلية عام ١٩٦٧.

وأعلنت إدارة كارتر حيادها الرسمى تجاه الحرب بين إيران والعراق. كما زعمت عدم تسليحها لأى من الطرفين، كما أعلنت عن «عملية الصمود» من أجل عدم تقديم السلاح لأى من الطرفين. وعلى الرغم من ذلك، اعتمدت إيران بصورة كاملة على الأسلحة وقطع الغيار الأمريكية الصنع. وسرعان ما تبين أنه على الرغم من وصف الخومينى اللاذع لإسرائيل على أنها « دولة شريرة» تدور فى فلك «الشيطان الأكبر»، أمريكا، إلا أن تقديم السلاح وقطع الغيار لإيران ظل مستمراً من خلال القنوات الخلفية الأمريكية وبعض تجار السلاح الإسرائيليين مثل يعقوب نمرودى. واتجهت إيران إلى كل من أوروبا وآسيا وجنوب أمريكا من أجل شراء السلاح أيضًا. وبدأ العراق فى استنزاف ترسانة الأسلحة التى أمده بها الاتحاد السوفييتى، وكما رأينا، فقد سلك العديد من القنوات من أجل جلب السلاح من الغرب.

## إسرائيل وفضيحة إيران جيت والحرب الإيرانية العراقية

فى سبتمبر ١٩٨٠، بدأت الفرق العسكرية الست التابعة لصدام أول تقدم عميق لها فى الأراضى الإيرانية، ولكن سرعان ما تم صدها وإجبارها على التراجع بواسطة الهجمات الإيرانية المضادة العنيفة. وبحلول منتصف عام ١٩٨٢، فوجئت قوات صدام بموجات بشرية من جانب الحرس الثورى المكون من شباب صغير السن، أو حتى مراهقين ألقوا بأنفسهم فى أحضان الموت وهم تتدلى من أعناقهم «مفاتيح الجنة» وهى مفاتيح بلاستيكية رمزية.

وقررت إدارة ريجان الجديدة أن انتصار إيران لن يكون ضمن المصلحة الأمريكية القومية. وبناءً على ذلك، تم التعجيل بتنمية العلاقات العراقية الأمريكية التى كانت تتقدم على نحو بطىء. وتبادلت الدولتان زيارات المسئولين رفيعى المستوى. ومع إدراك كبار المسئولين فى شركات النفط الأمريكية والدولية، وأهمها إكسون موبيل، بأن احتياطى النفط العراقى يأتى فى المرتبة الثانية بعد السعودية، فقد قامت بالضغط على إدارة ريجان من أجل ممالأة صدام. وفى فبراير ١٩٨٢، قامت وزارة الخارجية

الأمريكية بإزالة العراق من قائمة الدول التى تدعم الإرهاب على مستوى العالم، بعد قيام صدام بإجراء بعض عمليات التجميل السطحية فيما يتصل بدعمه للجماعات الفلسطينية. وفى يوم ١٢ يوليو ١٩٨٣، وقع الرئيس ريجان على توجيه قرار الأمن القومى السرى رقم ٩٩ (NSDD) الذى يحدد المصالح والأهداف الأمريكية الإقليمية فى الشرق الأوسط وجنوب آسيا، مشيراً بذلك إلى الميل القوى الوشيك، تجاه العراق، فى السياسة الأمريكية الرسمية[٢].

وقامت إسرائيل بتحركات خفية وعلنية من جانبها. وحتى قبل اندلاع الحرب الإيرانية العراقية، وبعد وقت قصير من الاستيلاء على السفارة الأمريكية فى طهران فى نوفمبر ١٩٧٩ بواسطة الطلاب والحرس الثورى الإيرانى، وافق رئيس الوزراء الإسرائيلى بيجن على شحن إطارات إسرائيلية للطائرات المقاتلة الإيرانية من طراز ماكدونل - دوجلاس فانتوم إف - ٤، وكذلك بعض الأسلحة الصغيرة والمعدات الثقيلة للجيش الإيرانى. وعاتب الرئيس كارتر، وقد انتابه الغضب، مناحم بيجن من شحن أى معدات عسكرية أخرى إلى طهران لحين الإفراج عن الرهائن الأمريكيين المحتجزين فى السفارة الأمريكية. ومع ذلك، وبعد انتخاب رونالد ريجان والإفراج عن الرهائن الأمريكيين، فور توليه الرئاسة فى ١٩ يناير ١٩٨١، لم تعد إسرائيل أو دول غرب أوروبا تعتبر نفسها مقيدة بقرارات إدارة كارتر. وقد تفاوض تاجر سلاح إسرائيلى (غير نمرودى)، يعمل من خلال سماسرة فرنسيين، مع تاجر سلاح إيرانى، فى لشبونة، يدعى أحمد خضرى، كان يعمل وفقًا لتعليمات من وزارة الدفاع الإيرانية. ومرة أخرى، طلبت إيران إطارات لطائرات الفانتوم، وأجهزة اتصال ومدافع عيار ١٠٦ ملم ومدافع هاون وذخيرة حية، وكانت التكلفة الإجمالية للصفقة ٢٠٠ مليون دولار. وكان شرط الإيرانيين الوحيد هو سرية الصفقة وإنكارها بصورة علنية إذا تسربت أنباؤها.

وأثبت أحمد خضرى أن جشعه أقوى من وطنيته. فقد طارت طائرة إسرائيلية على متنها ١٠٠ من مدافع عيار ١٠٦ ملم إلى لشبونة، حيث تم نقل الشحنة إلى طائرة شحن تابعة للخطوط الجوية الإيرانية. ومع ذلك، وقبل إتمام شحنات أخرى، اختفى خضرى ومعه ٥٦ مليون دولار كدفعة مقدمة من اعتمادات وزارة المالية الإيرانية.

وافتضح أمر المرحلة التالية من شحنات الأسلحة الإسرائيلية السرية لإيران الثورة، ولكن لم ينته الأمر عند ذلك الحد. فقد قام سمسار بريطانى بتأجير طائرة شحن أرچنتينية كانت تطير باسم يانكى روميو ٢٢٤. وبعد رحلة ليلية إلى أمستردام، وصلت إلى تل أبيب وقامت بتحميل شحنتها من الأسلحة. وفى يوم ١١ يوليه، شرعت الطائرة فى اتخاذ مسار دائرى باتجاه طهران من أجل تجنب المجالات الجوية المعادية، بعد أن توقفت فى ميناء لارنكا الجوى فى قبرص من أجل التزود بالوقود. وبعد توضيح الأمر للمجال الجوى التركى، أخبر الطيار، ستيوارت ماكفرتى، برج المراقبة فى أنقرة بأنه يحمل «فاكهة وخضروات» لإيران. وواصل رحلته إلى طهران وبعدها عاد إلى إسرائيل ثم طار بشحنة أخرى إلى طهران. وبعد إقلاع ماكفرتى فى ١٨ يوليه، فى رحلته الثالثة لنقل السلاح، ضل طريقه - أو أجبر بواسطة طائرة معادية (حيث ظل ذلك اللغز بلا حل على حد علمى) - على الخروج من المجال الجوى التركى، وتحطمت طائرته ولقى مصرعه فى الأراضى السوڤييتية. ونفت كل من إيران وإسرائيل بأن لديها أية معلومات عن مهام الطائرة يانكى روميو ٢٢٤.

وبحلول مايو ١٩٨٢، وهو الوقت الذى أعطى فيه وزير الخارجية الأمريكى، ألكسندر هيج، «الضوء الأخضر» لإسرائيل لغزو لبنان وسحق منظمة التحرير الفلسطينية الموجودة هناك، أخطر شارون، وزير الدفاع الإسرائيلى، هيج وكذلك كاسبر وينبرجر، وزير الدفاع الأمريكى، بصفقة أسلحة أخرى مع إيران، تتكلف هذه المرة ١٠٠ مليون دولار قيمة مدافع هاون عيار ١٦٠ ملم ومدافع عيار ١٠٦ ملم وقنابل. وطلبت الولايات المتحدة من إسرائيل عدم إرسال أسلحة أمريكية أو أية معدات بها أى أجزاء صنعت فى أمريكا إلى إيران. وبدأت إسرائيل فى إرسال كميات كبيرة من الأسلحة السوڤييتية تم الاستيلاء عليها من الجماعات الفلسطينية على مدى الأعوام السابقة[٣].

وفى سبتمبر ١٩٨٢، طلبت المعارضة الإيرانية الملكية، الموالية «للشاه الابن»، ابن الشاه وولى العهد السابق، الأمير رضا بهلوى، إمدادات عسكرية من إسرائيل، هذه المرة من أجل الإطاحة بالخومينى. وكان رضا يهدف إلى استعادة عرش الطاووس الإيرانى. وكان يمكن أن يؤدى ذلك إلى تعزيز السيطرة الإقليمية لإسرائيل وحليفتها

أمريكا، ومن ثم إحباط صدام. وقد نظمت هذه العملية إلى حد كبير على يد نمرودى، مبعوث إسرائيل غير الرسمى الأسبق للشاه. وفى سپتمبر من عام ١٩٨٢، قام نمرودى ومعه ضابطين سابقان فى جيش الشاه، وهما الچنرال سعيد رازفانى والچنرال فريدون جام، (الذى كتب خطابًا شخصيًا إلى رئيس الأركان الإسرائيلى، حاييم بارليف، فى مايو ١٩٦٩، يناشده فيه مد فترة عمل نمرودى كملحق عسكرى فى طهران عامين آخرين)[٤]، بزيارة مكتب أريل شارون فى تل أبيب. قال رازفانى لشارون: «يمكننا جمع ٢ مليار دولار. نحن فى حاجة إلى أسلحة ـ وفى وقت لاحق ربما نحتاج إلى مدربين. فهل ترغب فى مساعدتنا؟». كما أضاف أنه يمكن نقل الأسلحة من إسرائيل إلى السودان، حيث يقوم الرئيس السودانى جعفر النميرى بتوفير مكان لتخزين الأسلحة فى إحدى القواعد العسكرية السودانية، ومكان لتدريب الثوار المناهضين لحكم الخومينى.

وقبل ذلك فى فبراير ١٩٨٢، أعلن نمرودى فى برنامج پانوراما فى قناة الـ بى. بى. سى بأن الغرب يجب عليه المساهمة فى الإطاحة بالخومينى وتدريب القوات من أجل استعادة العرش. واتصل به الأمير رضا من المغرب ليشكره على ذلك. وقد أعلن الأمير رضا عن تنصيبه كشاه فى المنفى، فى احتفال بقصر القبة بالقاهرة فى ٣١ أكتوبر ١٩٨٠ فى عيد ميلاده العشرين. وكان من بين الحاضرين، أمه الملكة فرح ديبا، والشقيقة التوأم للشاه الراحل الأميرة أشرف بهلوى والكثير من الأتباع الموالين للأمير. وأقسم رضا على خلع الخومينى واستعادة عرش الطاووس الإيرانى المعظم، وسط هتاف الأنصار الموالين لوالده. وقد فشلت بعض المؤامرات الأخرى لتحقيق ذلك، كان من بينها تلك التى قام بها ضباط فى سلاح الجو الإيرانى خططوا لقصف منزل آية الله فى مدينة قم، ولكن تم افتضاح المؤامرة ومحاكمة الطيارين وإعدامهم.

وحاول رضا أن يعمل انطلاقًا من القاهرة فى البداية، حيث قام ببعض النشاط الإذاعى تحت رعاية السادات. وبعد ذلك انتقل إلى المغرب، حيث زاره نمرودى عام ١٩٨٢ ومعه زميله، الطيار الإسرائيلى الأمريكى والمغامر وتاجر السلاح، أل شويمر. وبعد لقائهم مع منفيين إيرانيين آخرين، اتصل كلاهما بالثرى السعودى، عدنان خاشقجى، وهو وسيط أسبق بين الشركات الأمريكية والعائلة المالكة فى السعودية.

والتقى خاشقجي من قبل وبصورة شخصية بالرؤساء نيكسون وفورد وكارتر. وقام السفير السعودي في واشنطن، الأمير بندر بن سلطان، بتقديم خاشقجي إلى روبرت ماكفرلين، مستشار الأمن القومي للرئيس ريجان. كما التقى خاشقجي أيضًا مع ديفيد كيمش، السكرتير العام الأسبق للخارجية الإسرائيلية، حيث كان كيمش شخصية بارزة في شبكة الموساد بأوروبا، مثله مثل مناحم بيجن وشمعون بيريز وأريل شارون. ويقال إن الفنيين الإسرائيليين هم الذين قاموا بتركيب نظام الأمن في يخت خاشقجي الشهير، نبيلة.

وانضم خاشقجي إلى نمرودي وشويمر في مشروعهما الإيراني. وقام خاشقجي باستخدام الدعم غير المباشر للملك فهد ملك السعودية، ومن رئيس السودان، النميري. ومع ذلك، فقد تردد شارون عندما قابله نمرودي وشويمر في تل أبيب في سبتمبر ١٩٨٢. كانت إسرائيل قد اجتاحت لبنان في ٦ يونيه من ذلك العام. وقبل اجتماعهم في سبتمبر، كان الجنود الإسرائيليون يقفون بلا حراك وهم يشاهدون رجال ميليشيات الكتائب اللبنانية المسيحية وهم يقومون بذبح مئات الفلسطينيين في معسكرات صبرا وشاتيلا في بيروت. وقد تم توجيه اللوم إلى شارون بعد ذلك، من جانب لجنة تحقيق إسرائيلية، باعتباره «مسئول بصورة غير مباشرة» عن المذبحة مما دفعه إلى تقديم استقالته كوزير للدفاع. وكان من الواضح أنه غير مؤمن بإمكانية نجاح المشروع في إعادة رضا إلى عرش إيران. ومع ذلك، وافق على طلب المتآمرين شراء ما قيمته ٨٠٠ مليون دولار أسلحة سوفييتية الصنع استولى عليها الإسرائيليون من العرب، ولم يكونوا في حاجة إليها، ولكن لم يكن هناك أي تفكير إسرائيلي جاد لمساعدة الإيرانيين المؤيدين «للشاه الصغير». وقبلت إسرائيل، على مضض، إيران الثورة كأمر واقع. وعبر عن ذلك الكاتب الإسرائيلي، صمويل سيجيف قائلاً: «إن إسرائيل حاولت أن تشق طريقها عبر قلوب تلك العناصر التي كتب لها أن تكون خليفة للخوميني»[٥].

## عملية أوسيراق

خلال تلك الفترة، شنت قوات مناحم بيجن العسكرية والاستخباراتية الهائلة

حربها المستمرة والخفية والتى كانت تهدف إلى إحباط خطط صدام حسين لحيازة إمتلاك أسلحة نووية. وقد اشتمل ذلك على اغتيال العديد من العلماء البارزين، والشخصيات الأخرى التى لها علاقة بالبرنامج النووى العراقى. وعلى ذلك، وفى الساعة ٣٤ : ٥ دقيقة من مساء ٧ يونيو ١٩٨١، قامت ثمانى طائرات مقاتلة ـ قاذفة إسرائيلية من طراز إف ـ ١٦ أمريكية الصنع، فى ظل حماية طائرات اعتراضية من طراز إف ـ ١٥، بقصف المفاعل النووى العراقى الذى تدعمه فرنسا، فحولته إلى حطام. وكان الضحية الوحيدة عبارة عن فنى فرنسى كان يؤدى مهمة فى العطلة الأسبوعية فى المفاعل. وقد حدث الهجوم بمجرد اكتمال بناء المفاعل واستعداده للدخول فى مرحلة التشغيل عن طريق وضع اليورانيوم المخصب فى قلب المفاعل من أجل تنشيطه.

وعلى الرغم من إصرار أحد العلماء العراقيين على الأقل على أن صدام لم يقرر القيام بتصنيع أسلحة نووية إلى وقت تدمير المفاعل، إلا أن بيجن ومستشاريه، مثلهم مثل بعض المحللين فى واشنطن، لم يكونوا يؤمنون بذلك[٦].

وكان بيجن، الذى قام بمباحثات سلام مرهقة للغاية، واستمرت طويلاً ولكنها تمت فى النهاية، مع الرئيس السادات، برعاية الرئيس چيمى كارتر، أحد أعداء صدام اللدودين، هذا إن لم يكن أشدهم عداءً على الإطلاق. فقد اعتبر أن صدام هو هيتلر الجديد. وكان بيجن يعتبر المفاعل النووى العراقى أكثر المشروعات العراقية شراً. وقد صورته الدعاية الإسرائيلية العدوانية على أنه دعوة إلى هرمجدون (المعركة الفاصلة بين الخير والشر) ويجب تدميره من أجل الحفاظ على الحضارة والمدنية فى العالم. وكان بيجن أقل تسامحًا تجاه ما يعرف على مستوى العالم بالعلاقات النووية بين العراق وفرنسا، التى أصبحت تحت حكم ڤاليرى جيسكار دى ديستان، أكثر مما سبقوه.

وكان شمعون بيريز، وزير الدفاع عن حزب العمل فى الخمسينيات، مسئولا بدرجة كبيرة عن جلب التكنولوچيا والمعلومات الفرنسية التى مكنت إسرائيل من بناء مفاعل إنتاج أسلحتها النووية فى ديمونة، بصحراء النقب. وفى لحظة ما، اعتقد بيريز أنه يمكنه إقناع فرنسا بقطع دعمها وتشجيعها لبناء المفاعل النووى العراقى. ومع ذلك، فقد أشار السفير الإسرائيلى فى پاريس، موردخاى جازيت، إلى فشل محاولات بيريز الإقناعية وجهود بيجن الهجومية. ولم تتدخل الإدارة الأمريكية بقيادة چيمى كارتر.

بدأ المخططون العسكريون فى الدولة اليهودية التخطيط لضربة إسرائيلية جوية فى نوفمبر ١٩٧٩ ، وفقًا للمؤرخين بلاكمان وموريس . ومع ذلك ، فقد كان قادة المخابرات العسكرية ومدير الموساد ، إسحاق هوفى ، معارضين لهذه الخطة فى البداية . وكان من رأيهم أن المفاعل يمكن أن يكون خطرًا يهدد إسرائيل ولكن ذلك لن يحدث قبل سنوات قادمة ، أما هذا الهجوم الجوى فيمكن أن يشعل حربًا شاملة ، ويعوق أو حتى يدمر عملية السلام الجارية مع السادات رئيس مصر . ومع ذلك ، فقد أكد لهم الخبراء الفنيون ، غالبًا تبعًا لمعلومات روجر ريختر ، الذى كان يعمل فى الوكالة الدولية للطاقة الذرية التابعة للأمم المتحدة - التى قام مفتشوها بقيادة هانز بليكس بلعب دور هام فى التفتيش عن الأسلحة فى العراق فيما بين حربى ١٩٩١ و ٢٠٠٣ - أن صدام يعد برنامجًا لإنتاج الأسلحة النووية . وقامت الوكالة الدولية للطاقة الذرية بفصل ريختر بعد قصف المفاعل النووى العراقى ، وشكوى العراق من أنه أمد الولايات المتحدة وإسرائيل بمعلومات سرية عن المفاعل .

وتلى ذلك مجموعة من العمليات التخريبية ضد برنامج صدام للأسلحة النووية . ففى يوم ٦ أبريل ١٩٧٩ ، وفى حوالى الساعة الثالثة صباحًا ، دوت عدة انفجارات متزامنة فى المستودعات الهائلة لشركة «لاسيان سير مير» ، فرنسا ، للإنشاءات البحرية والصناعات فى البحر المتوسط . وفى تلك المستودعات ، كان يتم تخزين أجزاء بنائية وهندسية رئيسية من أجل المفاعل النووى العراقى ، لشحنها إلى العراق . كانت تفاصيل وتواريخ تلك العملية محاطة بأقصى درجات السرية الفرنسية ، سرى للغاية . وتوصل البوليس الفرنسى إلى أن إسرائيل هى المشتبه الأول فى الجريمة . وبعد ذلك ، فى يونيه ١٩٨٠ ، تم اغتيال العالم المصرى ، الدكتور يحيى المشد ، عالم المعادن الذى كان يعمل فى لجنة الطاقة الذرية العراقية ، حيث تم طعنه حتى الموت فى الفندق الذى كان ينزل به فى باريس فى مهمة سرية لشحن وقود نووى فرنسى إلى العراق . ولم يختف شىء من أغراضه ، واستبعد البوليس أن تكون السرقة هى دافع القتل . وأفادت فتاة من بنات الهوى ، رأت ذلك المساء ، بأنها سمعت أصواتًا صادرة من حجرته ، وقام البوليس باستجوابها فى يوم ١ يوليه ، وبعد مرور اثنى عشر يومًا لقيت مصرعها بعد أن صدمتها سيارة مسرعة .

وبدءاً من يوم ٢ أغسطس ١٩٨٠ ، دمرت القنابل مكاتب ومساكن مسئولى ثلاث شركات رئيسية تتعامل مع العراق فى فرنسا وإيطاليا وهى : «تكنياتوم» و «سنيا تكنيت» و «إنسالدو ميركانيكو نيوكلير» . وكانت تلك الشركات الثلاث قد تعاقدت مع العراق على إمداده بمفاعل تجريبى والخلايا الساخنة المستخدمة فى عملية تخصيب اليورانيوم . وكان الموظفون والعاملون فى تلك الشركات قد تلقوا خطابات تهديد للتوقف عن التعامل مع العراق . وقد أذعنوا لذلك . وكانت حملة الرعب الإسرائيلية تسمى «العملية سفنكس» . وقد ذكر ذلك المعلقون ما قامت به إسرائيل فى الفترة ما بين ١٩٦٢ ـ ١٩٦٣ ضد العلماء القادمين من ألمانيا الغربية للعمل فى برامج تطوير الصواريخ المصرية أيام عبد الناصر . وكان الاسم الكودى لتلك العملية هو «داموكليس» واشتملت على أعمال خطف وخطابات مفخخة ، مما أدى إلى مقتل خمسة أشخاص على الأقل .

وفى سبتمبر ١٩٨٠ ، وقبل الغارة الإسرائيلية ، اتجهت أنظار العالم إلى المفاعل النووى العراقى بعد تمكن غارتين إيرانيتين من إلحاق بعض الأضرار الطفيفة به ، مما أدى إلى مغادرة الخبراء الفرنسيين والإيطاليين ليعودوا ، بعد ذلك فى فبراير ١٩٨٠ . وكان هناك نزاع حول تدمير المفاعل بين كبار المسئولين المدنيين والقادة العسكريين . مع ذلك ، لم يوافق مجلس الوزراء على الهجوم من حيث المبدأ إلا فى يوم ٢٨ أكتوبر ١٩٨٠ . وقدمت قيادة السلاح الجوى الإسرائيلى خطة الهجوم إلى قيادة الأركان(٧) .

وقص علىّ أحد الأشخاص ، ادعى أنه شارك فى تلك المهمة لصالح الموساد ، العديد من التفاصيل المبالغ فيها ولكنها قد تكون حقيقية ، عن كيفية اختراق الموساد للمفاعل وتحديد أفضل الأماكن ، بدقة مذهلة ، من أجل ضربها .

فقد قام «جيرالد ويسترباى» ، وهو اسم مستعار على الأرجح ، فى عام ١٩٩٨ بنشر كتاب أطلق عليه «فى أرض عدائية» . ويدعى أن رجال الأعمال الغربيين الذين يرغبون فى إجادة تكتيكات العمل الحادة عليهم تطبيق الطرق التى استخدمها ويسترباى فى مهامه السرية شديدة الخطورة لصالح إسرائيل ضد الدول العربية ، بما فيها العراق ، مستخدماً مهنته الحقيقية كمستشار مالى غطاءً له . وتمضى أحداث القصة التى يرويها

على النحو التالى : أعد العملاء الإسرائيليون مقابلة له مع عالم فيزياء عراقى، وهو الدكتور على الرجوب، فى إحدى ضواحى لندن. ويقال إن الرجوب مولود لأم سنية تكريتية الأصل (ولذلك فهو مميز قبليًا) وأب شيعى اضطهده وأعدمه النظام. وبسبب أصوله التكريتية ومكانته الرفيعة كعالم نووى، سمح للرجوب بالسفر إلى الخارج. وقد صدرت الأوامر إلى ويسترباى بواسطة رئيسه فى الموساد، الذى كان اسمه الحركى «جراى سيل»، بالتودد إلى الرجوب وإطلاعه بأنه يعرف السر الذى يخفيه بشأن أبيه الشيعى وإعدامه بأوامر صدام.

وفى أوائل صيف عام ١٩٨٠، قامت ضابطة فى الموساد، تدعى دافنا بلقاء ويسترباى، فى لندن. وقامت بتلخيص مهمته التالية فى العراق: تجديد صلته بالدكتور الرجوب، الذى أصبح الآن مسئولاً رئيسيًا فى البرنامج النووى للمفاعل النووى العراقى. طار ويسترباى إلى بغداد، وقام بتأجير سيارة واستئجار مرشد سياحى موافق عليه من قبل الحكومة، والذى كان بالتأكيد أحد أفراد شرطة صدام السرية. ومن أجل تبديد أى شك وتأكيد كونه سائحًا، قام بزيارة أحد الأماكن السياحية بصحبة المرشد. وأيقن الموساد بأن الرجوب أصبح ثمرة ناضجة تنتظر القطاف وأنه سوف يتعاون معهم طبقًا للخطة المرسومة من أجل وضع أداة تتبع داخل المفاعل، والتى تقوم بإرشاد المهاجمين الإسرائيليين إلى المكان المطلوب استهدافه فى قلب المفاعل. والتقى ويسترباى والرجوب فى فندق شيراتون بغداد، تحت سمع وبصر الجواسيس المعتادين. وفى داخل نسخة من جريدة «فاينانشيال تايمز»، أعطى ويسترباى الرجوب ما يشبه المحول الكهربائى وعلبة تبغ من نوع «الهولندى الطائر». وزعم ويسترباى أن رجوب كان سعيدًا بتحقيق رغبات الموساد لكى ينتقم من النظام الذى قتل أباه. كما قال إنه أخبر الرجوب بأن ذلك الجهاز عبارة عن أداة علمية متطورة «ستمكننا من تسجيل واكتشاف الأعمال الروتينية فى المفاعل».

وطلب ويسترباى من الرجوب أن يثبت تلك الأداة على حائط بجوار قلب المفاعل، ويتركها هناك. ووعده أن يعود لاستردادها بعد أسبوعين، ولكنه لم يفعل أبدًا.

وبعد ذلك طار ويسترباى إلى إسرائيل عبر الكويت ثم لندن. ووصل إلى مطار تل أبيب يوم إجراء الانتخابات فى إسرائيل، فى ٧ يونيو ١٩٨٠، قبل شهور من المرحلة

الفعالة للتخطيط للهجوم. ولم يكن يعلم ما إذا كان الرجوب قد زرع الأداة أم لا وما إذا كانت قد قامت بوظيفتها؟ وكتب بعد الهجوم يقول: «إن القوات الجوية الإسرائيلية قد أدت واجبها، وعلى حد علمى، فقد أدى الرجوب دوره»[٨].

وقد اختلفت ردود الأفعال بصورة كلية حول ذلك الهجوم، اعتماداً على كونك عربيًا أو مسلمًا، أو أنك غربى. وشجبت العراق ذلك بعبارات عنيفة وعدائية مؤكدة أن برنامج المفاعل النووى العراقى كان مخصصًا للأغراض السلمية. وقد علق دونالد نيف، وهو مؤرخ أمريكى غير متعاطف مع وجهات النظر العربية، على ذلك بالقول بأن الهجوم كان إعلانا للحرب على الجهود العربية لدخول العصر النووى، مستطرداً أن الدولة اليهودية وحدها هى التى سوف يسمح لها باستخدام التكنولوچيا المتطورة، بينما سيظل العرب مقتصرين على الأسلحة غير المتطورة تكنولوچيًا والاقتصاديات من الدرجة الثانية. وكان هناك - فى البداية - شجب قوى، خاصة فى فرنسا، التى تكبدت شركاتها خسائر مالية فادحة نتيجة لذلك. وتبعًا لنصيحة معهد كارنيجى للسلام العالمى، قام البيت الأبيض بإخطار الكونجرس باحتمال حدوث انتهاك «خطير» لقانون «مراقبة تصدير الأسلحة» الذى ينص على حظر استخدام الأسلحة الأمريكية إلا فى حالة الدفاع عن النفس، وذلك من جانب إسرائيل فى هجومها على المفاعل النووى العراقى. وكانت هذه هى المرة الثالثة التى يتم فيها تفعيل القانون ضد إسرائيل، وكانت المرتان السابقتان فى عهد إدارة كارتر بسبب الهجوم الإسرائيلى على لبنان، الذى استخدمت فيه القنابل العنقودية. ومع ذلك، ففى المرتين السابقتين، كان مؤيدو إسرائيل فى الكونجرس قادرين على إيقاف أى إجراء ضدها. وقد وجد ريجان ظروفًا مختلفة: «فقد كانت إسرائيل تؤمن بشدة أن عملها كان دفاعيًا بحتًا» على حد قوله، «فمن الصعب عليه رؤية إسرائيل كتهديد لجيرانها». ونادراً ما وافقت الولايات المتحدة على قرار لمجلس الأمن التابع للأمم المتحدة يدين إسرائيل «بشدة»، ولكنها كانت توضح، كالمعتاد، بأنها ستستخدم حق الڤيتو ضد أى قرار ينادى بأى إجراء عقابى ضد الدولة اليهودية. ولذلك، كان قرار مجلس الأمن رقم ٤٨٧ نقشًا على الماء.

## الإنتقام من إينمان

كانت هناك انتكاسات كبيرة فى مجتمع الاستخبارات الأمريكية، وخاصة فى عام ٢٠٠٤، عندما تم تسليط الضوء على عمل الاستخبارات الأمريكية والبريطانية والإسرائيلية وغيرها فى العراق. فقد أيقن بوبى إينمان، وهو نائب مدير الاستخبارات المركزية فى ذلك الوقت، أن طائرات إف ـ ١٦ الإسرائيلية لا يمكنها ضرب المفاعل النووى العراقى دون إرشاد وتوجيه من المعلومات التى تقدمها أقمار التجسس الاصطناعية. (فمن الممكن، وليس من المؤكد، أن تكون الاستخبارات المركزية على جهل بأداة ويستربای اللاسلكية). وبترتيب سرى، عمل ويليام كاسى، مدير الاستخبارات المركزية، ورئيس إينمان، مع أصدقائه وحلفائه، على منح إسرائيل حق الاطلاع على المعلومات التى تقدمها الأقمار الصناعية الأمريكية. وكان من المفترض أن ذلك الاتفاق يقتصر على المناطق التى يحتمل أنها تشكل «تهديداً مباشراً» على إسرائيل، على حد قول إينمان. وعندما اكتشف الأخير أن إسرائيل قد اطلعت على مواد تخص مناطق أبعد، مثل العراق وإيران وليبيا وپاكستان، أعطى أوامره بالحد من الوصول الإسرائيلى لصور المناطق الأبعد من ٢٥٠ ميل من حدود إسرائيل، ومن ثم قصر ذلك على جيرانها المباشرين.

وغضب مؤيدو إسرائيل فى واشنطن غضبًا شديداً. وجاء انتقامهم من إينمان بعد حوالى ثلاثة أعوام عندما رشحه كلينتون ليكون وزيراً للدفاع فى فترته الرئاسية الأولى. عندئذ انهمرت الانتقادات والهجمات على إينمان، من جانب الصحفيين. وكان أشهرهم صحفيا فى جريدة نيويورك تايمز، يدعى ويليام سفير، المؤيد لإسرائيل (الذى أصبح بعد عام ٢٠٠٠ أقوى مؤيدى بوش فى حربه ضد العراق) والذى تسبب فى توقف مسيرة إينمان نحو البنتاجون تحت ذلك الضغط. وتنازل إينمان عن الترشيح[٩] وعاد إلى عمله السابق كأحد أفضل مسئولى الاستخبارات المركزية ووكالة الأمن القومى.

## الميل نحو صدام

على الرغم من الابتهاج الإسرائيلى بتدمير المفاعل النووى العراقى ورد فعل إدارة

ريجان الفاتر تجاه الأمر نفسه، إلا أن ميل الولايات المتحدة نحو صدام لم يكن أمرا مستغربًا. فبعد اجتماع فى البيت الأبيض، أعلن وزير الدفاع الأمريكى كاسبر وينبرجر لمرؤوسيه فى البنتاجون أنه غاضب جدًا من إسرائيل وأنه يرغب فى عقابها. وأقنع الرئيس ريجان بتأجيل التسليم المقرر لطائرات الفانتوم إف ـ ١٦ التى قامت إسرائيل بشرائها ـ وهى من النوع ذاته الذى استخدم فى ضرب المفاعل النووى العراقى. واعترض وزير الخارجية الأمريكى، ألكسندر هيج، الذى كان يؤيد الهجوم، بعد أن أدرك تصرف وينبرجر. وكان وينبرجر ينظر للعراق على أنها حليف سرى للولايات المتحدة فى الصراع ضد نظام الخومينى فى إيران وضد الأخطار المحتملة الكامنة وراء تصدير الثورة الإسلامية الإيرانية إلى دول الخليج ولبنان. وكان وينبرجر يشير، مثله فى ذلك مثل الرئيس چورچ بوش، إلى ذلك التهديد فيما يتعلق بالأمن القومى (تمامًا كما أشار الرئيس چورچ بوش ومستشاروه من المحافظين الجدد، بعد حوالى عشرين عامًا إلى التهديد الذى يشكله صدام وأسلحة الدمار الشامل التى يمتلكها). ومع ذلك، كان ما يفكر فيه وينبرجر بالفعل ـ وهذا هو ما أكده لى السياسى المحنك ومدير إحدى شركات النفط الأمريكية والذى دائمًا ما كان يستشيره ريجان وإدارته ـ هو أن الدعم الأمريكى للعراق سيمنع إيران من اعتراض ناقلات النفط فى الخليج (حيث تقوم الولايات المتحدة برفع علمها على السفن الكويتية من أجل حمايتها)، ووصول الولايات المتحدة إلى بترول الشرق الأوسط.

وفى الوقت الذى كان فيه وينبرجر يرغب فى دعم صدام فى حربه ضد إيران، كانت هناك جماعة أخرى تسعى لدعم الخومينى فى طهران. وطبقًا للمؤرخ ألان فريدمان، فإن ريجان لم يبذل سوى القليل من الجهد من أجل البت فى ذلك الشقاق الداخلى. وكتب فريدمان يقول إن أحد المسئولين السابقين فى البيت الأبيض أخبره أنه «لم تكن هناك قيادة فعليه، فقد كان ريجان يغط فى نوم عميق».

وبعد وقت قصير من اجتماع البيت الأبيض الذى دار حول ضرب المفاعل النووى العراقى، وجد هيج أن چان كيركپاتريك، السفيرة الأمريكية للأمم المتحدة، كانت تتعاون مع وزير الخارجية العراقى آنذاك، سعدون حمادى، ومع صالح عمر العلى، مندوب العراق فى الأمم المتحدة، فى كتابة مسودة قرار يدين الهجوم الإسرائيلى. وبعد

توقيع كيركپاتريك للقرار وصدوره، طلب هيج، فى ١٩ يونيو ١٩٨١، اجتماعًا مع ريجان فى فندق بڤرلى ويلشاير الذى كان يقيم فيه فى لوس أنچلوس. وأمر ريجان، على الأرجح، بألا يتخطى هيج كيركپاتريك، على الرغم من أن كيركپاتريك كانت مرءوسة لهيج فى وزارة الخارجية تبعًا لتدرج السلطة(١٠). واستمر التوتر بينهما بعد ذلك، ولكنه لن لم يكن له أى تأثير حقيقى على الهرولة نحو العراق. وفى مارس ١٩٨٢، بعد أسابيع قليلة من شطب العراق من قائمة وزارة الخارجية للدول المساندة للإرهاب، قام البيت الأبيض بالفعل بتشجيع ذلك الاتجاه فى مذكرة جديدة للأمن القومى. وفى ذلك الوقت كان شغل هيج الشاغل هو غزو شارون القادم للبنان للقضاء على منظمة التحرير الفلسطينية.

وبحلول عام ١٩٨٣، كانت الحرب مع إيران تكبد صدام مئات الملايين من الدولارات كل عام. وقد منحت كل من الكويت والسعودية والإمارات العربية المتحدة قروضًا ومنحًا هائلة لصدام. وعبرت واشنطن عن دعمها لصدام بالعديد من الوسائل. كان أغلبها يخدم، بدهاء، المصالح الأمريكية ورجال الأعمال والمصرفيين وأصحاب البنوك، والمزارعين الأمريكيين. فقد أقنع البيت الأبيض بنك الاستيراد والتصدير بتمويل العراق. وقد حسن ذلك من ترتيب الائتمان العالمى للعراق ومكنه من الحصول على قروض من مؤسسات مالية أخرى على مستوى العالم. كما قدمت وزارة الزراعة الأمريكية قروضًا يضمنها دافعو الضرائب من أجل تمكين العراق من شراء السلع الأمريكية وخاصة الذرة(١١). وساعد ذلك حزب ريجان الجمهورى وكذلك رجال الكونجرس الطموحين فى الحصول على التأييد اللازم من ولايات وسط الغرب المنتجة للذرة.

كان يتم التعامل مع الموضوع الحساس المتعلق بتقديم الإمدادات العسكرية والاستخباراتية لصدام، وكذالك التعامل مع دعم إسرائيل الخفى للخومينى عدو صدام، بطريقة أكثر حنكة وحكمة من التعامل مع موضوع المساعدة الاقتصادية. وقد توصل وليام كاسى ومسئولون كبار آخرون فى البيت الأبيض إلى فكرة جعل الملك حسين وسيطًا. وكان الملك حسين تربطه علاقات طيبة بصدام. وكان الأردن يعتمد

إلى حد كبير على النفط العراقى ؛ لأنه يقدم إليه بأسعار أقل من أسعار السوق ، أو على سبيل الهدية . وفى اجتماع له مع كاسى والدبلوماسيين الأمريكيين ، أيد الملك حسين تقديم كل المساعدات الممكنة للعراق . وكان الملك حسين ، مثله مثل السعوديين والكويتيين والحكام العرب الآخرين ، ينظر للعراق السنى ، العلمانى على أنه درع واق من التهديد الشيعى الثورى فى طهران . وكان ميناء العقبة ، وهو الميناء الأردنى الوحيد الذى يطل على البحر الأحمر ، يخضع لمراقبة استخباراتية مستمرة من ميناء إيلات الإسرائيلى المجاور ، إلا أنه كان من الطبيعى أن يتسلم الميناء شحنات يمكن نقلها بعد ذلك بسهولة إلى العراق .

وبالنسبة للاستخبارات ، بما فى ذلك الصور التى يلتقطها القمر الصناعى للقوات الإيرانية والتحركات البرية والبحرية ، كان الملك حسين يقوم بتوصيلها بشكل شخصى للعراقيين فى بغداد ، كما حدث للمرة الأولى فى أواخر عام ١٩٨٢ ، لكى يتأكد من أنها لن تضل الطريق . وبعد ذلك ، كان المسئولون العراقيون يسافرون عبر الطريق الصحراوى إلى عمان لأداء هذه المهمة . وكان ضباط الاستخبارات الأمريكيون يقومون برحلات سرية للعراق من أجل مساعدة العراقيين فى قراءة الصور والتقارير . كما قامت الولايات المتحدة ، فى تكتم تام ، بتشييد مبنى تكنولوچى متطور فى بغداد من أجل ربط أفضل يمكِّن صدام من استقبال وتحليل الإشارات التى يرسلها القمر الصناعى . وفى مجال الاستخبارات ، كانت هناك معاملة فريدة لصدام فاقت تلك التى تحصل عليها إسرائيل ، ومن الواضح أن ذلك كان أحد دوافع تنشيط إسرائيل لجاسوسها فى أمريكا ، جوناثان پولارد ، والذى تمت محاكمته وسجنه بعد ذلك بتهمة بيع معلومات دفاعية سرية للغاية لإسرائيل .

وفى فبراير ١٩٨٣ ، التقى مبعوث صدام ، سعدون حمادى ، للمرة الأولى مع وزير الخارجية الأمريكى الذى خلف هيج ، چورچ شولتز ، فى واشنطن . وفى خط مواز لقيام العراق بتوسيع دائرة أصدقائه فى المستويات الأعلى فى مجتمع الأعمال والنفط الأمريكى ، كان هناك دبلوماسيون أمريكيون مثل وليام إيجالتون ، رئيس قسم رعاية المصالح الأمريكية (والذى لا يعد سفارة بالمعنى الكامل ، فى غياب العلاقات الدبلوماسية الرسمية) فى بغداد . وفى برقية بتاريخ أكتوبر ١٩٨٣ ، طالب إيجالتون ،

مستلهمًا تقرير ريجان الذى يحث على انتهاج سياسة مفتوحة تجاه العراق، «بفتح قنوات للدعم العسكرى للعراق عبر أطراف ثالثة». وبعد وقت قليل، كانت هناك شحنات سرية لمعدات عسكرية ومواد للاستخدام اليومى متجهة للعراق عبر الأردن ومصر والكويت. وبدأ الغزل العلنى بين إدارة ريجان وصدام فى نهاية عام ١٩٨٣، على الرغم من التقارير الاستخباراتية المتكررة والتى كان يلخصها وزير الخارجية، چورج شولتز للبيت الأبيض، عن استخدام صدام للحرب الكيماوية ضد الأكراد والقوات الإيرانية فى أرض المعركة.

## ريجان ورامسفيلد وصدام

كان هناك تمهيد لزيارة المبعوث الرئاسى الأمريكى، دونالد رامسفيلد، الأولى لبغداد من أجل لقاء صدام، تمثل فى توجيه رئاسى جديد، بتاريخ ٢٦ نوڤمبر ١٩٨٣. وطالب التوجيه «بالتركيز على التعاون العسكرى الإقليمى من أجل الدفاع عن المنشآت النفطية وقياس وتحسين القدرات العسكرية الأمريكية فى الخليج الفارسى». ولم يشر التوجيه إلى الأسلحة الكيميائية البتة. وفى يوم ١٧ ديسمبر ١٩٨٣، طار رامسفيلد لبغداد، حاملاً خطابًا مكتوبًا باليد من ريجان إلى صدام. وكان رامسفيلد قد شغل العديد من المناصب فى إدارتى نيكسون وفورد، من بينها منصب وزير الدفاع فى عهد الرئيس فورد. وفى وقت زيارته لصدام كان يعمل رئيسًا لشركة متعددة الجنسيات للمستحضرات الدوائية تسمى جى دى سيرل. وتعرض ريجان، فى الخطاب الذى سلمه رامسفيلد إلى صدام، إلى موضوع تجديد العلاقات الدبلوماسية وتوسيع الروابط التجارية والعسكرية بينهما. ووفقًا للسجلات، كانت الأمور التى ناقشوها وجهًا لوجه هى على سبيل المثال، التحرك السورى الأخير لقطع أنبوب النفط الذى ينقل النفط العراقى من خلال أراضيها الإقليمية إلى البحر المتوسط، وكذلك جهد الولايات المتحدة فى البحث عن طرق جديدة لنقل النفط العراقى لأسواق التصدير.

وفى نفس الزيارة، اجتمع رامسفيلد أيضًا مع طارق عزيز، الذى كان يعمل وزيراً لخارجية العراق آنذاك. وأكد له رامسفيلد «ترحيب» إدارة ريجان «بفعل المزيد من أجل

مساعدة العراق على مواجهة إيران» ولكنه أوضح أن جهودنا فى المساعدة محكومة بعدة أشياء تجعل ذلك شاقًا علينا مثل استخدام الأسلحة الكيميائية، وتصعيد الحرب فى الخليج وحقوق الإنسان (ويعنى بذلك معاملة الأكراد والشيعة والمعتقلين السياسيين). وبعد ذلك، أخطر قسم رعاية المصالح الأمريكية رامسفيلد بأن القيادة العراقية «سعيدة للغاية» بتلك الزيارة وبأن عزيز «على غير العادة» امتدح رامسفيلد بصفته الشخصية[١٢].

## قلق إسرائيل بشأن البترول

تشمل الأحداث التالية ـ على المستويين الاقتصادى والاستراتيجى ـ إشارات هامة لأحد أهداف إسرائيل (والتى لم يتم التعبير عنها على الملأ سوى نادرًا جدًا) الذى كانت تأمل أن تحققه لها الولايات المتحدة من خلال الإطاحة بصدام واحتلال العراق فى عام ٢٠٠٣. وكان ذلك الهدف يتمثل فى استعادة العلاقة النفطية التى كانت موجودة فى فترة الاحتلال البريطانى بين إسرائيل والعراق.

وتشير المحللة الإسرائيلية، أوفرا بينجيو فى عام ١٩٩٨، إلى «القيود الچيو-استراتيچية العراقية» وتأثيرها على إسرائيل. وكدولة نفطية لها منفذ بحرى ضيق على الخليج (حوالى ٤٠ ميلاً فى أحسن الأحوال، عندما كان ممر شط العرب المائى الواصل بين البصرة والخليج مفتوحًا) «كان العراق يشعر دائمًا بالاختناق الاقتصادى»، على حد تعبير بينجيو. وقد حاول التغلب على ذلك من خلال إقامة خط أنابيب يمر عبر الدول المجاورة: تركيا وسوريا والسعودية والكويت. وفى الفترة من ١٩٣٥ وحتى ١٩٤٨، كان العراق، الذى تحكمه بريطانيا، يقوم بشحن النفط إلى فلسطين من خلال كركوك ـ الموصل إلى خط أنابيب حيفا.

واستمر تدفق النفط العراقى إلى فلسطين من عام ١٩٣٢ وحتى انتهاء حرب ١٩٤٨. ومنذ ذلك الحين، كان أى نظام عراقى يعود ثانية إلى البحر المتوسط من أجل تصدير النفط إلى مناطق مختلفة فى العالم مثل أوروبا وأمريكا والتى لم يكن من الممكن الوصول إليها عبر الخليج الفارسى.

كانت خطوط أنابيب النفط العراقية واهتمام إسرائيل بها على قائمة جدول أعمال رامسفيلد عندما عاد إلى بغداد فى نهايات مارس ١٩٨٤ ، بصحبة هاوارد تايشر ، مستشار مجلس الأمن القومى الأسبق (والذى قام بعد ذلك بتقديم معلومات حول التقارب الأمريكى العراقى) . وكان رامسفيلد يعلم مسبقًا أن الأجواء العراقية يخيم عليها التوتر ، بسبب نجاح إيران العسكرى ، والاستهجان الأمريكى الشعبى لاستخدام العراق للأسلحة الكيميائية فى يوم ٥ مارس . وقد صدرت الأوامر إلى رامسفيلد ، فى واشنطن ، لمناقشة رغبة إدارة ريجان فى الحصول على اعتمادات من بنك الاستيراد والتصدير من أجل العراق ، مع كبار المسئولين العراقيين . وكان ذلك يشتمل على تقديم قروض تبلغ قيمتها ٥٠٠ مليون دولار ، يدعمها دافعو الضرائب الأمريكيون ، من أجل إنشاء خط أنابيب يمكنه نقل ملايين البراميل من النفط الخام من منطقتى كركوك والموصل إلى ميناء العقبة الأردنى على البحر الأحمر ، بصورة يومية . وكان الهدف من ذلك إبعاد النفط عن منطقة الحرب فى الخليج الفارسى ، حيث كان يتم إغراق ناقلات البترول العراقية والإيرانية بواسطة السلاح الجوى للدولتين ، وحيث هددت إيران بإغلاق مضيق هرموز ، كما كان يمكن أن يؤدى إلى صعوبة وقف مبيعات صدام للنفط وخنقه اقتصاديًا .

وطبقًا لشهادة خطية حديثة من هاوارد تايشر ، تمثل أحد موضوعات النقاش فى عرض سرى من إسرائيل لتقديم الدعم لصدام حسين ، والتى وجدت نفسها محرومة من نفط الخليج الفارسى منذ حرب ١٩٦٧ بين العرب وإسرائيل . وقبل ذلك ، كان شاه إيران يرسل النفط إلى إسرائيل عبر ناقلات البترول إلى ميناء إيلات ، منذ عام ١٩٥٧ . وكان هناك خط أنابيب يبلغ قطره حوالى ٨ بوصات يقوم بنقل النفط من ميناء إيلات إلى بئر سبع . وفى وقت لاحق ، تم تعزيز ذلك عن طريق خط أنابيب آخر يصل بين إيلات وأشدود ، مما مكن إسرائيل من تصدير نفط الخليج الفارسى . وتم رفض العرض الإسرائيلى الذى جاء به رامسفيلد ، ومناقشة إنشاء خط أنابيب بواسطة مؤسسات أمريكية وشركات تنفيذ محلية ، دون وجود استثمار إسرائيلى ، بحماس شديد[١٣] .

وكانت شركة التنفيذ المقترحة ، شركة عملاقة للهندسة والإنشاء ، وهى مؤسسة بيكتل فى كاليفورنيا ، والتى كانت تتمتع بتاريخ طويل فى تنفيذ مثل هذه المشروعات

فى ١٣٥ دولة، من بينها العديد من الدول العربية من ليبيا وحتى السعودية. وكان كل من كاسبر وينبرجر وچورچ شولتز قد تقلد مناصب تنفيذية فى الماضى فى شركة بيكتل. وانتقل شولتز مباشرة من بيكتل إلى منصبه كوزير لـ «القاع الضبابى - Foggy Bottom» أو بحر الظلمات، وهو اللقب الأسطورى لوزارة الخارجية.

وقد أعجبت فكرة إنشاء خط الأنابيب صدام إلى حد كبير، ولكنه كان لديه تحفظ واحد، بدا قاتلاً للفكرة بأكملها؛ فقد كان الأنبوب، ولكى يصل إلى العقبة، عليه أن يمر من خلال الأردن وقريبًا جدًا من إسرائيل، مما يجعله هدفًا سهلاً للتخريب الإسرائيلى. (فكان من الممكن أن يكون مرور النفط العراقى الخام بالقرب من ميناء إيلات أمرا مستفزًا للإسرائيليين، خاصة مع عدم قدرتهم على أخذ نصيبهم منه، فى حين أنهم يقومون بشراء النفط من أماكن نائية بأسعار عالمية تفوق أسعار النفط العراقى الأكثر جودة). وأراد صدام ضمانًا ملزمًا من الولايات المتحدة بعدم قيام حليفتها إسرائيل بمهاجمة خط الأنابيب. وأخبر طارق عزيز، وزير الخارجية العراقى، ريتشارد مورفى، مساعد وزير الخارجية والخبير بشئون الشرق الأوسط، بأنه فى حالة عدم وجود «تدخل أمريكى مباشر» تستطيع واشنطن أن تنسى المشروع بأسره.

وفى واشنطن، مع ذلك، حاولت إدارة ريجان التغلب على اعتراضات بنك الصادرات والواردات بشأن تقديم قروض إلى دولة منغمسة فى القتال ويوجد لديها عجز نقدى، كالعراق. ولذلك، فقد طلب من نائب الرئيس، چورچ هيربرت وولكر بوش، الخبير المحنك فى شئون النفط والشرق الأوسط، تقديم المساعدة. وأرسل مكتب شولتز، مذكرة خاصة لدونالد جريج، العميل المحنك فى الاستخبارات المركزية ومستشار بوش المقرب. وطلب منه أن يقوم بشرح الأمر لرئيس البنك، ويليام دراپر، حيث تبلغ تكلفة خط الأنابيب مليار دولار، و قد حدد العراق والأردن يوم ٢٥ يونيه كموعد نهائى، بالنسبة لبيكتل، للحصول على الموافقة الأمريكية الرسمية والخاصة. وعلى ذلك فإن موافقة البنك مسألة حيوية من أجل المصالح الأمريكية العليا التى تتمثل فى ضمان عدم انتصار إيران أو العراق فى المعركة والهيمنة على المنطقة. وقد وافق داريپر على طلب زميل دراسته القديم، بوش، وقام فى يوم ٢٥ يونيه، بإلغاء رفض البنك وتخصيص قرض قيمته ٥٠٠ مليون دولار من أجل خط الأنابيب[١٤].

وكان الموضوع الشائك الآخر على جدول أعمال العراق وإيران هو تصدير السلاح لصدام، والذى بدأ فعليًا فى الخفاء. وعلى المستوى الرسمى، تم حظر تقديم الأسلحة أو المعدات العسكرية الأمريكية بصورة مباشرة للعراق. ومع ذلك، فى أبريل ١٩٨٤، طلب قسم رعاية المصالح الأمريكية، فى بغداد، إخطار واشنطن بأخبار المداولات الجارية بين شركة بيل هيلوكوپتر تيكسترون وبين عملاء عراقيين من أجل شراء طائرات هيلوكوپتر. وكان من المفترض أن هذه الطائرات «ليست للاستخدام العسكرى». وكان المشترى هو وزير الدفاع العراقى. وفى ديسمبر ١٩٨٢، قامت شركة أوجاستا بيل، الفرع الإيطالى لتيكسترون، بإبلاغ السفارة الأمريكية فى روما بأنها رفضت طلبًا عراقيًا بتحويل طائرات هيلوكوپتر، ثم شرائها من الشركة، إلى طائرات عسكرية. كما أبلغت كوريا الجنوبية، وهى حليف آخر للولايات المتحدة، وزارة الخارجية الأمريكية، بطلب عراقى مشابة فى يونيه ١٩٨٣. وعندما تساءل أحد أعضاء الكونجرس فى مارس ١٩٨٣، عما إذا كان الغرض من الشاحنات الثقيلة التى تم إرسالها إلى العراق عسكريًا أم لا، أجابت وزارة الخارجية قائلة «لقد افترضنا أن ذلك كان الهدف العراقى ولم نسأل عنه».

وفى ربيع عام ١٩٨٤، تورطت إدارة ريجان مع إسرائيل فى تدبير مؤامرة دنيئة كانت مقدمة لمؤامرة أوسع أصبحت تعرف بعد ذلك باسم فضيحة إيران. (حيث قام يعقوب نمرودى وتاجر سلاح ومغامر إيرانى يدعى مانوشير جوربانفار بعقد صفقة مع إسرائيل والولايات المتحدة من أجل مقايضة أسلحة تملكها إسرائيل بالرهائن الأمريكيين الذين يحتجزهم المقاتلون الشيعة فى لبنان)[١٥].

وتوضح وثائق أرشيف الأمن القومى، أن الإدارة الأمريكية فى ذلك الوقت كانت تعيد النظر فى سياستها المتعلقة ببيع حاجيات وأغراض الاستهلاك اليومى «للكيانات النووية» العراقية. وعلى الرغم من أن الحد من انتشار الأسلحة النووية لم يكن يشكل أبدًا أولوية ملحة بالنسبة لإدارة ريجان، إلا أنه فى عام ١٩٨٤، توصل تحليل قامت به وكالة الاستخبارات التابعة لوزارة الدفاع إلى أنه بمجرد الانتهاء من الحرب مع إيران،

سيقوم العراق «بالاستمرار فى تطوير قدراته التقليدية والكيميائية الهائلة. ومن المحتمل أيضًا السعى لإنتاج أسلحة نووية»[١٦].

ومع استمرار الصراع مع إيران، كان وكلاء صدام التجاريون يحثون الخطا للحصول على المزيد من الموارد لمواصلة الحرب. وقد وافقت حكومة المملكة المتحدة، برئاسة مارجريت تاتشر، على بيع ملابس واقية من الأسلحة الكيماوية، كما أنها قد غضت طرفها بعد ذلك عن شراء العراق لأنظمة تحكم وقيادة عسكرية إلكترونية تقدر قيمتها بنحو ٦٠٠ مليون دولار من أجل الجيش العراقى. وأصبحت العديد من الشركات البريطانية المورد الأول لصدام فى المملكة المتحدة. وفى عام ١٩٨٧، اشترى العراق شركة ماتريكس ـ تشرشل، لتصنيع المعدات، ومؤسسة تكنيكال ديفيلوپمنت. وساهم ذلك فى شراء المواد والمستلزمات اللازمة لبرنامج صدام من أجل تصنيع أسلحة الدمار الشامل، حيث تم العمل من خلال شركة تابعة موجودة فى الولايات المتحدة، تسمى أسترا. ويذكر أبو ريش، فى كتابه « صدام حسين وسياسة الانتقام» أن شركتى ماتريكس تشرشل وأسترا قد أصبحتا «معتمدتين بصورة كاملة» على التجارة العراقية. وقد تدخلت الحكومة البريطانية عن طريق زرع بعض العاملين بهما لمراقبة العمل داخلهما. وفى أمريكا، استخدم العراقيون شركتى أميركان ستيل إكسپورت والحداد تريدينج وشخصًا من شيلى يدعى كارلوس كارديون تربطه علاقات وثيقة بالاستخبارات المركزية. وكان من المفترض أن يقوم كارديون بالإعداد لبيع قنابل عنقودية وأسلحة تحرمها قوانين الحرب للعراق. وكانت الولايات المتحدة قد وبخت إسرائيل على استخدامها لتلك الأسلحة فى غاراتها على جنوب لبنان فى عام ١٩٧٨. وإلى جانب شركات الواجهة، التى راقبها الموساد الإسرائيلى عن كثب، وكذلك المبيعات الحكومية الرسمية للأسلحة من جانب فرنسا والاتحاد السوڤيتى، حصل صدام على الكثير من دعم موردى الأسلحة الرئيسيين فى العالم[١٧].

أصبح التعامل مع صدام بالنسبة للأمريكيين أكثر سهولة من خلال استئناف العلاقات الدبلوماسية الأمريكية العراقية فى ٢٦ نوفمبر ١٩٨٤. وقام الرئيس رونالد ريجان بالترحيب بوزير الخارجية العراقى طارق عزيز فى البيت الأبيض. وتحول مقر إقامة السفير العراقى فى الولايات المتحدة إلى خلية نحل حيث شهد العديد من

اللقاءات بين عزيز وصفوة المجتمع الديبلوماسي فى واشنطن. وذكرت ورقة صادرة عن وزارة الخارجية الأمريكية قبل أيام قليلة أن العراق قام بتعليق استخدامه للأسلحة الكيماوية بعد موجة الاعتراضات الأمريكية فى نوفمبر ١٩٨٣، ولكنه عاد لاستخدامها مرة أخرى فى فبراير من العام التالى. وفى هذا الوقت، كانت إدارة ريجان تناقش الاستخدام العراقى للحرب الكيماوية باعتباره عقبة أمام الإعلان عن العلاقة بين أمريكا والعراق (كما صور أرشيف الأمن القومى ذلك)، الأمر الذى كان يؤدى إلى إعاقة الدعم العسكرى والاستخباراتى الأمريكى. ومع ذلك، فإن انتهاك صدام المستمر والوحشى لحقوق الإنسان داخل العراق، تم التغاضى عنه فى كل التوجيهات الرئاسية لتلك الفترة[١٨]. وكان شغل أمريكا الشاغل هو فقط توسيع نفوذها العسكرى فى الشرق الأوسط والحفاظ على تدفق البترول وحماية مصالح الشريك الإسرائيلى، حتى لو كان هذا الشريك، كما حدث خلال صفقة الأسلحة السرية مع إيران التى عرف باسم إيران جيت، حليفًا غير مثالى.

على نحو رسمى وعلنى كان من المفترض أن المساعدة الأمريكية للعراق مخصصة لشراء الغذاء، وآذنت النتيجة بإساءة استخدام برنامج النفط مقابل الغذاء الخاص بالأمم المتحدة فى التسعينيات، والذى اقترح بواسطة الولايات المتحدة من أجل تخفيف المعاناة الإنسانية التى كان يعانى منها العراق بسبب العقوبات المفروضة عليه بواسطة الأمم المتحدة والغرب. وكان ذلك كله مشوبًا بالفساد والصفقات السرية والذى تم التحقيق فيه عام ٢٠٠٤. وعلى نفس النحو أدت «المساعدات الغذائية» إلى توفير أموال أخرى استخدمها العراق فى شراء الأسلحة. وبحلول منتصف الثمانينيات قام بنك العمل الوطنى الإيطالى الموجود فى أطلانطا بولاية چورچيا بزيادة حده الائتمانى لصدام بما يزيد عن نصف مليار دولار. وقام مدير البنك المحلى، كريستوفر دروجول، بالبدء فى تقديم قروضًا تبعًا لإرشادات «مؤسسة ائتمان السلع» التابعة للحكومة الأمريكية تصل إلى مستوى الضمانات الفيدرالية الأمريكية لقروض البنوك الخاصة. وهذه القروض غير المؤمنة وفرت للعراق ما يزيد عن ٤ مليار دولار، وجعلت صدام قادرًا على مواصلة الحرب حتى أقصى مراحلها على الجانبين عام ١٩٨٨. وبحلول عام ١٩٨٨ كان البنك قد أسهم فى المجهود الحربى العراقى بنحو ٥ مليار دولار وكما تشير

لوريتا نابوليونى فى كتابها الحديث الذى يتحدث عن تمويل الإرهاب «الجهاد المعاصر»، تحمل دافع الضرائب الأمريكى بعض القروض التى لم يقم صدام بالطبع بسدادها والتى كانت تضمنها الحكومة الأمريكية[١٩].

## سخاء صدام مع الفلسطينيين

أدى دعم صدام الأيديولوچى لحرب العصابات الفلسطينية وجماعات المقاومة إلى تخريب جهود إسرائيل لقمع الانتفاضة الفلسطينية فى التسعينيات. وقد بدأ صدام فى منح عائلات «الشهداء» (القائمين بالتفجيرات الانتحارية) ما يوازى ٢٥ ألف دولار (ومبلغ أقل للمحاولات غير الناجحة وللضحايا من المدنيين العرب الذين يسقطون فى الصراع). وفى أوائل السبعينيات كان الصراع بين صدام ومنظمة التحرير الفلسطينية بقيادة ياسر عرفات، التى لم يكن لديها الكثير الذى تقدمه للعراق فى مقابل معونتها، أصبح خطيرًا لدرجة أن قام صدام بإغلاق مكاتب فتح فى بغداد. وكانت الأسباب المعلنة لذلك هى رغبة عرفات المتنامية لقبول قرارات الأمم المتحدة الخاصة بالتوصل إلى تسوية سلمية للصراع العربى الإسرائيلى، ومحاولاته الوصول إلى تفاهم مع الولايات المتحدة.

ولكى يعاقب عرفات، قام صدام بتوجيه الدعم العراقى نحو أبى نضال (صبرى البنا)، المنشقة على حركة فتح والعدو اللدود لعرفات. وأشعل رجال صدام حربًا بين العراق ومنظمة التحرير الفلسطينية فى الشرق الأوسط وأوروبا فى الفترة من ١٩٧٦ إلى ١٩٧٨، كان أهم ما يميزها الاغتيالات. وتم اغتيال مؤيدى الخط السلمى لمنظمة التحرير الفلسطينية مع إسرائيل، مثل سعيد حمامى فى لندن، الذى اغتاله رجال أبى نضال أو ربما عملاء صدام. وفى الثالث من يونيه ١٩٨١ قام مسلح فلسطينى ينتمى لجماعة أبى نضال بإطلاق النار على السفير الإسرائيلى فى بريطانيا، شلومو أرجوف فى لندن. وقامت إسرائيل بإلقاء اللوم على عرفات. وكان ذلك سببًا أساسيًا لقيام إسرائيل باجتياح لبنان بعد أيام قليلة.

بحلول عام ١٩٨٣، حاول صدام إظهار تقديره للمعونة الأمريكية من خلال التخفيف من لهجته العدائية تجاه إسرائيل والشروع فى إجراء مباحثات سرية ولكنها

كانت غير ناجحة للجنوح إلى السلام مع إسرائيل. كما حاول صدام إرضاء البيت الأبيض أثناء حكم ريجان وبعض الشخصيات البارزة مثل واينبرجر وريتشارد مورفى ومواجهة انتقاد رجال الكونجرس الأمريكى، من خلال طرد أبى نضال من بغداد وإصدار أوامره للجماعات الفلسطينية الأخرى الموجودة فيها بالتوقف عن أنشطتها.

تلقى أبو نضال، الذى كانت تأويه سوريا وليبيا فى العديد من الأوقات، كمكافأة عن عدائه لعرفات ورغبته فى تنفيذ أوامر صدام ٤ مليون دولار، وحوالى ١٥ مليون دولار على هيئة سلاح، بالإضافة إلى ٥ مليون دولار علاوة إضافية بعد أن حكمت عليه منظمة فتح بالإعدام. وخلال إقامته فى بغداد، قام أبو نضال بالتوسط لعقد صفقات السلاح بين العراق والعديد من الجماعات المسلحة. وبعد وقت قصير من اندلاع الحرب الإيرانية العراقية عرض على العراق دبابات بولاندية من طراز T-72 سوفييتية الصنع. وقام صدام بإيداع ١١ مليون دولار لحساب أبى نضال فى أحد بنوك سويسرا كدفعة مقدمة. وحينما قام العراقيون بإلغاء الصفقة وطلبوا منهم تقديم قطع مدفعية بدلاً منها فشل أبو نضال فى ذلك واحتفظ بالنقود. وكان هذا أحد الأخطاء التى أدت إلى طرده إلى سوريا، حيث واصل جنى الأرباح من كلا الجانبين فى الحرب[٢٠].

## الشرطى الطيب والشرطى الشرير

قامت المحللة الإسرائيلية أوفرا بنجيو بتحليل عميق للغموض الذى أحاط بعلاقة صدام بإسرائيل خلال الحرب الطويلة مع العراق، وعلاقة صدام المتقلبة بواشنطن. وكتبت عام ١٩٨٩ تقول: إن تدمير المفاعل النووى العراقى كان بمثابة «ضربة معنوية وعسكرية وسياسية للعراق». وقد أدى إلى فتح «الحساب الإسراتيجى» بين بغداد والقدس مدمراً هيبة نظام البعث ومشروعه الرمزى خارج العراق وهيبة القوات المسلحة العراقية التى وقفت عاجزة أمام الهجوم. وأضافت الكاتبة الإسرائيلية أن ذلك أدى أيضًا إلى تبديد آمال القوات المسلحة العراقية فى الحصول على الخيار النووى فى المستقبل. وفى أعوام ١٩٤٨، ١٩٦٧، ١٩٧٣ اتخذ العراق مبادرة عسكرية للانضمام إلى العرب فى صراعهم ضد الدولة اليهودية، ومع ذلك، فإن الهجوم على المفاعل النووى العراقى قد أعاد زمام المبادرة إلى إسرائيل، وكان على صدام أن يدرك، إذ لم

يلاحظ هذا من قبل، أن إسرائيل تشكل تهديداً استراتيجياً حقيقياً على العراق، وفى نفس الوقت كانت إسرائيل أكثر انفتاحاً على الرغبة الأمريكية لبيع الأسلحة إلى إيران بينما كان الزعماء الإسرائيليون يعلنون أنهم يؤيدون الحرب الطويلة الممتدة بين العراق وإيران من أجل إنهاك الجانبين.

وفى نفس الوقت، كان هناك خط مواز أكثر حرصاً فى سياسات صدام. فقد دفعه الصراع الطويل مع إيران إلى السعى نحو الحصول على كل تأييد ممكن خارج وداخل العراق وعلى ذلك قام بتحويل طاقته بعيداً عن الصراع العربى - الإسرائيلى. وأدرك صدام أن تبنى سياسة أكثر اعتدالاً تجاه إسرائيل هو ثمن يجب أن يدفعه لتحسين العلاقات مع الولايات المتحدة. كما كان يأمل أن يمنع وصول الأسلحة الإسرائيلية إلى إيران والحصول على تأكيد ضمنى من إسرائيل بإقامة خط أنابيب بترول يمر من شمال العراق إلى العقبة. وبدأ صدام يتحدث عن «الإسرائيليين» كشعب (ليس كدولة إسرائيل) كما صورته بعض وسائل الإعلام عندما أشار فى ٧ يناير ١٩٨٣ عن «شروط الأمن». وهذه العبارة قالها لعضو الكونجرس الأمريكى استيفان سولارز، الرجل القوى فى وزارة الخارجية الأمريكية ذلك الوقت. وأعلن وزير الخارجية العراقى طارق عزيز والمندوب الدائم للعراق لدى الأمم المتحدة نزار حمدون أن العراق لا يعارض أى تسوية سلمية للقضية الفلسطينية ولا يرغب فى اندلاع حرب عربية - إسرائيلية جديدة. وفى وقت لاحق كانت هناك شائعات تتحدث عن وجود محادثات سرية بين العراق وإسرائيل عام ١٩٨٧ وأكد هذه المباحثات حسين كامل حسن، ابن عم صدام وزوج ابنته، الذى انشق عنه وسافر إلى الأردن فى أغسطس ١٩٩٥. وأكد أن هذا المنهج العراقى تجاه إسرائيل بدأ بحلول عام ١٩٧٨.

إن الشكوك تجاه موقف صدام حسين بالنسبة لإسرائيل خلال السنوات والشهور الأخيرة للحرب الإيرانية العراقية فى عامى ١٩٨٧ و ١٩٨٨ جعلت بعض الزعماء الإسرائيليين البارزين، مثل شمعون بيريز، الذى كان فى ذلك الوقت يشغل منصب نائب رئيس الوزراء، يعيدون تقييمهم لسياسة إسرائيل. وأعلن بيريز ومن على شاكلته أن السياسة المبكرة لديفيد بن جوريون رئيس الوزراء الإسرائيلى الأسبق فى الخمسينيات والخاصة بالتحالف بقدر الإمكان مع الدول الإقليمية غير العربية مثل تركيا

وإثيوبيا أو شاه إيران، قد أصبحت مناقضة للتاريخ. فعلى الرغم من الصفقات السرية لنمرودى وشخصيات أخرى فى إدارة ريجان مثل الكولونيل أوليفر نورث والأدميرال چون پويندكستر، التى أدت إلى مقايضة «الرهائن بالأسلحة» عبر وسطاء إسرائيليين (والتى أصبحت بعد ذلك مباشرة) مع إيران الثورة، فإن العداء الإيرانى لإسرائيل لم تخف وتيرته. وعلى ذلك فقد رأوا أن اتخاذ موقف مناصر للعراق يمكن أن يدفع بعملية السلام العربية ـ الإسرائيلية إلى الأمام. وكانت الانتفاضة الفلسطينية الأولى، التى اندلعت فى غزة عام ١٩٨٧، تجذب المزيد من الاهتمام العالمى لهذه العملية. كما رأى بيريز أن إبداء بعض المودة تجاه صدام أثناء الظروف التى كان يعانى فيها من الحرب يمكن أن يجعله أكثر اعتدالاً تجاه إسرائيل.

سرعان ما أثبتت كلمات صدام وأفعاله كذب النظرية الإسرائيلية. ولكن آمال بعض الإسرائيليين فى أن يكون صدام «شخصًا ما يمكن التعامل معه» كانت سببًا فى الصدمة التى أصيبوا بها حينما قام صدام بقصف إسرائيل بالصواريخ خلال عملية «عاصفة الصحراء» عام ١٩٩١.

كان هناك دائمًا العديد من الدلائل التى تنم عن النوايا الحقيقية لصدام تجاه إسرائيل، فبعد الغارة الإسرائيلية مباشرة على المفاعل النووى العراقى فى يونيه ١٩٨١، أعلن صدام أن هذا الهجوم لن يثنى العراق عن المضى قدمًا لتحقيق أهدافه، وأنه سوف يقوم بتحويل النظريات إلى واقع. كما قام بمناشدة الدول الأخرى لكى تساعد العرب فى حيازة «السلاح النووى» وأكدت إذاعة بغداد، التى كنت أقوم بمتابعتها خلال الشهور التى قضيتها فى البحث فى معهد كارنيجى فى واشنطن، أن صدام يواصل الاتصال بالدول الصديقة لتحقيق هذه الغاية. (وهذه الدول على الأرجح تضم پاكستان والبرازيل والأرچنتين، وكانت الأخيرة تتعاون مع العراق بالفعل لتطوير الصاروخ «كوندور» طويل المدى) كما كان يسعى إلى الحصول على «نوع من السلاح يمكنه من جعل إسرائيل تحجم عن توجيه أى ضربة له».

وبعد مضى ثمانية أعوام على حربه مع إيران، كان صدام يشتبك مع إسرائيل مرة أخرى. فقد أعلنت الصحف العراقية الرسمية فى يومى ١٤ و ٢٩ مارس ١٩٨٩ أن

العراق يمتلك بالفعل «صواريخ طويلة المدى قادرة على الوصول إلى الكيان الصهيونى وتدميره فى العمق». وتنبأت أن إسرائيل لن يكون لها وجود مع نهاية القرن العشرين.

وبعد مرور عام، وخلال سعيه لغزو الكويت فى أغسطس ١٩٩٠، قام صدام بتصعيد لهجته العدائية تجاه إسرائيل على نحو أدى إلى دق أجراس الخطر فى القدس، وتردد صداها فى واشنطن. وأعلن صدام أنه إذا قامت إسرائيل بأى هجمات جديدة على العراق فإنه «سيحرق نصف إسرائيل»[٢١].

وقد شهد العقد الأخير بداية انحدار وسقوط صدام حسين. وهذا الموضوع وافتقاد الترابط العسكرى والسياسى والأيديولوچى بين الولايات المتحدة وإسرائيل فى الشرق الأوسط هو محور اهتمامنا التالى.

❊ ❊ ❊

# الفصل العاشر

## من القدس إلى واشنطن:
## تقوية وتأكيد التحالف



**مَنَا مَنَا تقيل وفرسين. وتفسيرها «منا: أحصى الله أيام ملكك وأنهاه. تقيل: وُزِنْتَ بالموازين فوجدت ناقصًا. فرس: شُطرت مملكتك وأعطيت لمادى وفارس».**

(النبى دانيال يشرح للملك بابل بيلشاصر الكتابة السحرية التى ظهرت على جدار القصر).

سفر دانيال ٥: ٢٥ - ٢٨(*)

بمجرد انتهاء الحرب الإيرانية العراقية، وقد أصبحت كلتا الدولتين المتحاربتين فى حالة من الضعف الشديد، تنفس المخططون الاستراتيچيون الغربيون الصعداء وشعروا بالارتياح. وفى إسرائيل كان الارتياح مبررًا. فقد كانت المؤسسة الاستخباراتية الإسرائيلية ترى [فى السابق] أنه فى حالة نشوب حرب جديدة على نطاق واسع بين العرب وإسرائيل، فإن العراق سيرسل مرة أخرى قوات عسكرية للمشاركة فى الحرب، وفى هذه المرة سيزود «الجبهة الشرقية» العربية التى تتشكل بالتحالف مع سوريا والأردن بأسلحة الدمار الشامل. كما كانوا يعتقدون باحتمال أن تكون هذه القوة العراقية أكثر خطورة من القوة التى شاركت فى حربى ١٩٤٨ ، ١٩٦٧ أو حتى فى حرب ١٩٧٣ . وقد تكبدت العراق مثلها فى ذلك مثل إيران أكثر من نصف مليون قتيل ومعاق. لكنها كانت لا تزال تمتلك قوة عسكرية كبيرة، بحسب ما نقرأه على الأقل، حيث كان بإمكانها أن تحشد فى ميدان المعارك عشر فرق أو أكثر من القوات المسلحة والآليات العسكرية وقوة ضاربة خطيرة من الصواريخ والطائرات، وجميعها مزودة بأسلحة كيميائية وبيولوچية، كما كان يعتقد المحللون الإسرائيليون.

(*) فى النص الأصلى ذكر المؤلف أن الإصحاح هو ٦ وأن الآيات من ٢٤ ـ ٢٨ ـ المترجم.

كان هناك شيء آخر مثار قلق للإسرائيليين وهو إمكانية قيام تحالف عراقى أردنى يؤدى إلى نشر أعداد كبيرة من القوات العراقية فى الأردن. وفى النصف الأول من عام ١٩٨٩، اكتشفت المخابرات الإسرائيلية، وبمساعدة من نظام مراقبة الأقمار الصناعية الأمريكى، دون شك، قيام ضباط عراقيين رفيعى المستوى بعدة زيارات على الحدود الأردنية العراقية، وتعاون مخابراتى بين عَمَّان و بغداد، ومقاتلات أردنية ترافق القوات الجوية العراقية فى رحلات جوية استطلاعية للقيام بمهام التصوير الجوى.

اقترح قادة عسكريون كبار، مثل الميجور چنرال إبراهام تامير الذى كان يشغل فى السابق منصب مدير فرع التخطيط فى جيش الدفاع الإسرائيلى، أن تتخلى إسرائيل عن الجزء المتعلق بإيران من المبدأ القديم الذى كانت تنتهجه وهو استخدام التحالفات «الخارجية» وأن تتوقف عن دعم إيران فى حربها مع العراق. حيث كانوا يعتقدون أن إيران قد أصبحت أكثر خطورة على إسرائيل من العراق. وكان بعض كبار القادة الإسرائيليين، وربما كان شمعون بيريز من بينهم، يعتقدون بأمل شديد بإمكانية إخراج صدام من دائرة «الرافضين» العرب، وبإمكانية إقناعه بمفهوم التسوية السلمية الشاملة بين العرب وإسرائيل. وقد ذكرت بعض التقارير أن الچنرال تامير شارك فى محادثات سرية فى عامى ١٩٨٨ و ١٩٨٩ مع وزير الخارجية العراقى طارق عزيز، وسعدون حمادى نائب رئيس الوزراء، و نزار حمدون مساعد وزير الخارجية، ومسئول عراقى رابع رفيع المستوى، قد يكون برزان التكريتى الأخ غير الشقيق لصدام، و ذلك فى منازل خاصة «ببعض الأصدقاء» فى نيويورك وأوروپا. (ذكرت مصادر كردية، لم تؤكدها مصادر أخرى، فى تقرير لها أن برزان بصفته المبعوث العراقى للأمم المتحدة فى چنيف، كان بمثابة قناة الاتصال بين الرئيس الأمريكى چورچ بوش الأب وصدام فى عام ١٩٩١ عقب حرب الكويت.) ولكن محادثات تامير لم تسفر عن شيء هام[١].

## الصواريخ و «المدافع العملاقة» والأرباح

فى خلال تلك الفترة، كان المحللون فى أجهزة الاستخبارات الإسرائيلية والغربية يشعرون بالقلق بسبب مساعى صدام لشراء وتطوير مدافع عملاقة وصواريخ بعيدة

المدى. ولكن الأعمال التى قام بها العراقيون لتطوير هذه الأسلحة و صناعتها، مع فنيين كنديين وأرچنتينيين وألمان وفنيين من دول خارجية أخرى باءت بالفشل. وكان الاتحاد السوفييتى قد سبق أن أمدَّ العراق بعدة مئات من صواريخ سكود التى استخدمت ضد إيران فى أثناء الحرب الإيرانية العراقية. وفى شهر مايو من عام ١٩٨٧ ضُربت المدمرة الأمريكية «ستارك» فى الخليج ليلاً بواسطة صاروخين، ربما من طراز «إيكزوسيتس» الفرنسى الصنع، تم إطلاقهما من طائرة عراقية «بطريق الخطأ» مما أدى إلى إصابتها بأضرار جسيمة. وكانت تلك هى الفترة التى كانت البحرية الأمريكية تقوم فيها، بهدف مساعدة العراق، بمرافقة السفن الكويتية التى تحمل شحنات ذات أهمية حيوية بالغة للمجهود الحربى العراقى، ومن ثم فقد كانت عرضة لهجمات متكررة من الطيران الإيرانى أو من زوارق الصواريخ السريعة. وقد لقى سبعة وثلاثون بحاراً أمريكيًا مصرعهم وأصيب العشرات غيرهم على متن «ستارك»[٢]. وتم إصلاح المدمرة، وفى النهاية استطاعت أسر الضحايا التى غمرها الحزن الضغط على إدارة ريجان للحصول على اعتذار من العراق بسبب «الخطأ» الذى وقع فيه، بالإضافة إلى الحصول على بعض التعويضات المالية من العراق.

وفى الوقت الذى كانت الولايات المتحدة تصارع فيه من أجل دورها الجديد فى أواخر القرن العشرين كقوة بحرية أساسية فى الخليج العربى، كانت أجهزة المخابرات الإسرائيلية تركز على ما لدى العراق من أسلحة دمار شامل بالفعل، وما يمكن امتلاكه منها. وفى عام ١٩٨٧ كان كل من حسين كامل، صهر صدام الذى تولى فيما بعد مهام تسليح الجيش، ونائبه العالم العراقى الكبير عامر السعدى الذى يتميز باللطف والثقافة، والذى أصبح مألوفًا فيما بعد بطلاقته فى الحديث بالإنجليزية وطبعه الودود لدى الملايين من مشاهدى التليفزيون فى الغرب أثناء فترة شدة الاندفاع نحو الحرب فى عام ٢٠٠٣، قد قاما بالاتصال بالكندى الشهير جيرالد بول. فقد كانا يدركان عبقريته فى مجالات معينة مثل الصواريخ الباليستية، والمركبات المستخدمة فى برامج الفضاء، والأفرع الأخرى من تكنولوچيا الأسلحة التى أدى فيها بول خدمات جليلة ليس لوطنه كندا فقط، بل أيضًا للپنتاجون ولجنوب أفريقيا. كما كان بول يعمل أيضًا كمحاضر فى الجيش الإسرائيلى فى مجال الأسلحة عالية التقنية.

بعد المباحثات التى أجراها بول فى العراق حول تطوير مدى صواريخ سكود الموجودة لدى صدام، وحول تصميم صاروخ ثلاثى المراحل ينطلق إلى الفضاء لحمل الأقمار الصناعية، قال بول لمضيفيه العراقيين إن بإمكانه صنع «مدفع عملاق» بتكلفة تبلغ حوالى ثلاثة ملايين دولار تقريبًا، وأن تصميمات المدافع التى يفكر الپنتاجون فى صنعها فى ذلك الوقت متخلفة مقارنة بهذا المدفع، وسوف يمكنه إطلاق أقمار صناعية فى الفضاء لصالح العراق ولحساب دول عربية أخرى. وكان صدام قد استثمر بالفعل أكثر من ٢٠٠ مليون دولار فى مشروع الصاروخ الذى أطلق عليه سعد ١٦ . وقامت شركات أمريكية بتزويده ببعض المعدات اللازمة لصنعه. كما ساهمت كل من فرنسا وإيطاليا واليابان وبريطانيا فيه أيضًا. وذكرت التقارير أن شركة «جيلدميستر»، وهى شركة ألمانية نمساوية، هى الشركة الرئيسية فى صناعته. ومن ناحية أخرى فإن كلاً من الولايات المتحدة وكندا وفرنسا وألمانيا الغربية وإيطاليا واليابان وبريطانيا قاموا فى شهر أبريل ١٩٨٧ بالتوقيع على اتفاقية الحد من انتشار تكنولوچيا الصواريخ، وبمقتضاها تم فرض الحظر على تصدير معظم أنواع الصواريخ ومكوناتها. ويبدو أن عامر السعدى قد استطاع إقناع بول بأن إسرائيل أصبحت تتمتع من خلال عدم انضمامها للاتفاقية بميزة غير عادلة تتفوق بها على العرب. وتقدم العراق عن طريق وسطاء وتحت إشراف عام من بول بطلبيات لشراء الأجزاء اللازمة لتصنيع مدفع عملاق يبلغ مداه ٣٥٠ ميل من الخارج، وبدأت أعمال تجميع هذه الأجزاء. كما بدأت المخابرات الإسرائيلية فى تعقب آثار بول وعائلته وتتبع خطواتهم. وفى الفترة من عام ١٩٨٨ حتى عام ١٩٩٠، حيث كان يجرى الاستعداد لغزو الكويت من جانب العراق، تعاونت وكالات استخبارية أخرى مع إسرائيل لعرقلة وتجريم الجهود العراقية للحصول على أسلحة الدمار الشامل. وفى شهر مارس عام ١٩٩٠، احتجزت الجمارك الأمريكية شحنة تحتوى على وسائل تفجير للقنابل النووية يطلق عليها «كرايترون» وذلك فى عملية احتيال تورطت فيها شركتان بريطانيتان.

فى شهر أبريل عام ١٩٩٠، توقف مشروع بول لإنتاج المدفع العملاق عندما تمكنت الشرطة فى بريطانيا وإيطاليا وتركيا واليونان من إلقاء القبض على شحنات تحتوى على أنابيب فولاذية ضخمة. وبعد ذلك تم تقديم مسئولين من شركتى «شيفيلد فورجماستر المحدودة» و«وولتر سومرز المحدودة» للمحاكمة أمام المحاكم البريطانية بتهمة المساعدة

فى تصدير أسلحة بشكل غير قانونى إلى العراق. وبعد تلقى بول عدة تحذيرات بشكل مهذب، ولكنه لا يخلو من الصراحة والوضوح، بالكف عن العمل الذى يقوم به، قام عدة أفراد (من عملاء الموساد، بحسب التقارير الإخبارية الأوروپية التى تم نشرها على نطاق واسع فى وسائل الإعلام الإسرائيلى) بإرسال عدد من المسلحين إلى منزله فى بلچيكا فى ٢٢ مارس عام ١٩٩٠ حيث تم اغتياله بإطلاق خمس رصاصات على رأسه ورقبته وظهره[٣].

كان فشل البرنامج الصاروخى العراقى ذى التكلفة العالية، وإجهاض مشروع المدفع العملاق، بمثابة هزيمتين كبيرتين لصدام. وكان من الشائع فى وسائل الإعلام الغربية فى ذلك الحين التأكيد على ترديد مقولة إن العراق يمتلك رابع أكبر جيش فى العالم، حيث لديه حوالى ٨٠٠ طائرة مقاتلة وما يزيد عن ٥٠٠٠ دبابة. وكانت مبيعات الاتحاد السوڤييتى من الأسلحة للعراق منذ سنوات الستينيات تقدر بحوالى ١٠ بلايين دولار. وعندما شن التحالف الذى كانت تقوده الولايات المتحدة الحرب على العراق فى عام ٢٠٠٣، كان العراق ما يزال مدينًا لروسيا بمعظم هذا المبلغ. وكانت فرنسا قد باعت للعراق أسلحة بحوالى ٥ مليار دولار؛ وبريطانيا بحوالى مليار دولار والشركات الأمريكية بحوالى ٥ مليار دولار. وكان وزير الخارجية الألمانى هانز ديتريتش جينشر أول من كان واضحًا فى هذا الموضوع، حيث اعترف دون أن يورد فى قوله قيمًا مالية، أن فنيين ألمان قاموا بمساعدة العراق على زيادة مدى صواريخ سكود الموجودة لديه حتى تتمكن من الوصول إلى إسرائيل (وهذا ما تم بالفعل فى شهر فبراير من عام ١٩٩١ أى بعد ذلك بفترة قليلة). وفى النهاية توصلت التحقيقات الرسمية فى ألمانيا إلى أن ما يزيد عن ١١٠ شركة ألمانية خرقت الحظر الذى فرضته الأمم المتحدة على تصدير الأسلحة لبغداد[٤].

## صدام يدبر أزمة الكويت

مع مرور الوقت انفجرت أزمة الكويت فى عام ١٩٩٠، وكان ينبغى على صدام مثلما حدث لملك بابل «بيلشاصر»، كما ورد فى العهد القديم، أن يرى ما كان مكتوبًا

على الحائط ؛ حيث كانت هنالك دلائل وإشارات تدل على معارضة لا هوادة فيها ظهرت فى إسرائيل فى البداية، ثم فى الغرب بعد ذلك. حتى لو أنه كان قد رآها بالفعل، فإنه لن يعرها أى اهتمام. وفى بداية عام ١٩٩٠ بدأ العراق بتوجيه الاتهام لكل من الكويت والسعودية بزيادة إنتاجهما من البترول بشكل متعمد مما أدى إلى تخفيض أسعاره العالمية. وترتب على ذلك انخفاض دخل العراق بقيمة تعادل المبلغ المطلوب للوفاء بسداد ديونه العسكرية الضخمة، حيث كان هذا المبلغ يصل إلى حوالى ٧ مليار دولار سنويًا. ولم تمنع هذه العبارات الحادة «چون كيلى» مساعد وزير الخارجية الأمريكى من القيام بزيارة صدام فى بغداد يوم ١٢ فبراير من عام ١٩٩٠، وأن يؤكد له أن إدارة چورچ بوش الأب تعتبره «قوة معتدلة» وأنها ترغب فى تحسين العلاقات بينهما. ومع ذلك وفى مؤتمر عربى عقد فى عَمّان فى ٢٤ فبراير من عام ١٩٩٠، دعا صدام الولايات المتحدة بطريقة غاضبة إلى سحب قواتها البحرية من الخليج (وهى القوات التى كانت تقوم بحماية المصالح البحرية والتجارية العراقية وتدافع عنها منذ عامين اثنين فقط). كما ندد بدعم الولايات المتحدة لإسرائيل داعيًا الدول العربية إلى وضع خطة عملية لإنشاء قاعدة لقوة عربية يمكنها مواجهة الغرب وإسرائيل. ولكن اهتمام واشنطن بهذا الحديث كان أقل بكثير جدًا من اهتمامها بتهديد صدام فى الثانى من شهر أبريل بحرق «نصف إسرائيل» باستخدام أسلحته الكيميائية إذا قامت إسرائيل بضرب صناعاته التعدينية.

كانت إدارة بوش منشغلة بعملية توحيد ألمانيا التى كانت تجرى فى ذلك الوقت وبالإعداد للقاء القمة الذى يجمع بين بوش وجورباتشوف. وفى اليوم الثانى عشر من أبريل كان السيناتور «روبرت دول» عن ولاية كانساس يترأس وفدًا مكونًا من بعض أعضاء مجلسى الشيوخ والنواب إلى بغداد. وقد أبدى دول قلقه من برامج صدام لامتلاك أسلحة الدمار الشامل، ولكنه طمأن صدام بأنه قد تم فصل صحفى يعمل فى جريدة صوت أمريكا بسبب مقال يعبر فيه عن رأيه وانتقد فيه صدام بحدة. ولكن يبدو أن كلاً من الرئيس چورچ بوش ووزير الخارجية چيمس بيكر كانا يعتقدان بعدم وجود تهديد خطير بنشوب الحرب، وكلاهما كان على علاقة وثيقة بصناعة البترول فى الولايات المتحدة[٥].

فى نهاية شهر يونيه تمكنت من الحصول على موافقة على إجراء مقابلة مع صدام حسين فى برنامج Prime Time Live الذى يذاع على قناة ABC الإخبارية، وقد تم ذلك من خلال تدخلى بصورة شخصية مع الملك حسين الذى كان غالبًا ما يتشاور مع صدام، وكان على علم بأن هناك أزمة خطيرة آخذة فى التصاعد. وقد قام الملك حسين بالاتصال بأحد الأشخاص ممن يشغلون موقعا ما على القمة فى بغداد (ربما كان ذلك الشخص صدام نفسه أو طارق عزيز) الذى قام بدوره بالإعداد للمقابلة. وكانت هذه تقريبًا أول مرة يتم إجراء مقابلة فيها مع صدام فى قناة تليفزيونية أمريكية منذ عام ١٩٧٩. أرسلت قناة ABC إلى بغداد واحدة من بين أهم المعلقين فيها وهى دايان سوير ومعها عدد كبير من الأفراد، بينهم ثلاثة أطقم كاميرات كاملة ومخرج ومهندسون ومنتجون ميدانيون. وبالنسبة لى فقد سافرت معهم وكان مسموحًا لى بالمتابعة والمشاهدة فقط بدون أن أشارك فى شىء، كما لم يتم استشارتى فى تحرير البرنامج أو فى عمل المونتاج وإخراجه فى شكله النهائى. وكان قد سبق لى الالتقاء بنائب الرئيس العراقى طه ياسين رمضان فى عام ١٩٨٧ وشكا لى بمرارة بسبب قيام الولايات المتحدة وإسرائيل بخيانة العراق، وذلك عن طريق مساعدتهما لإيران سراً فى الحرب، ولكن لم يسبق لى أن التقيت بصدام قبل ذلك. وعندما قام فريق قناة ABC بمصافحته قبل مأدبة الغداء، ثم بعد ذلك وقف الجميع لالتقاط صورة جماعية كبيرة يتوسطها صدام، شعرت بالقشعريرة من ابتسامة صدام الساخرة وتركيز نظرته بطريقة لا تدعو إلى الاطمئنان. حيث يبدو وكأنه يحدق فيك لكنه يركز على مكان ما فى الفراغ البعيد.

كان صدام يجيب على أسئلة دايان سوير وبجواره المترجم الخاص لفترة تزيد عن ساعتين، مع راحتين قصيرتين. وكان الفريق الذى يعمل فى ذلك البرنامج التليفزيونى قد أجرى دراسة دقيقة للأسئلة التى سيتم توجيهها إليه. وأجاب صدام على كل الأسئلة بدون الرجوع إلى مذكرات موجزة أمامه أو إلى مستشارين رفيعى المستوى متواجدين بجانبه. وفيما يتعلق بالأسئلة المباشرة الصريحة التى وجهت إليه، مثل «هل قمت حقيقة بقتل أصدقاء ومعاونين سابقين لك بيديك؟» كان رده ملتويًا (فى إجابته عن هذا السؤال رد بقوله «كلا» بشكل مقتضب، وهى إجابة كاذبة بالطبع). وقد أثار فينا موجة من التجهم رغم ما كان فى الأمر من الإثارة التى عبرنا عنها فى صمت عند

سؤاله «لماذا تقوم بإعدام البعثيين الذين يتركون الحزب؟» حيث أجاب بقوله: إننا لا نعدم إلا العسكريين منهم فقط.

أما الأسئلة التى كانت قاطعة وحرجة حول صراعه المرير مع الكويت ـ ومن بينها سؤاله عن ادعاء العراق القديم بأن الكويت ضمن مناطقه ـ وتكرار شكواه حول أسعار البترول والاتهامات التى وجهوها إلى الكويت بسرقة البترول العراقى من خلال الحفر الأفقى على الحدود للوصول إلى الجزء العراقى من حقل بترول الرميلة الذى يقع على الخط الحدودى الفاصل بين العراق والكويت، فإنه كان يجيب بحذر وكان يسهب فى التفاصيل عادة. وعندما انتهى اللقاء وكان علينا أن نحزم أمتعتنا ونتوجه نحو المطار (انتهى الترحيب بنا بانتهاء المقابلة)، وغادرت المكان وأنا فى حالة من القناعة بأن صدام لديه نية تامة لشن الحرب على الكويت. وعدتُ إلى قاعدتى فى لندن وتم عمل المونتاج للفيلم فى نيويورك حتى أصبحت مدة بث البرنامج لا تزيد عن ٢٠ دقيقة. وأما الأسئلة الخاصة بتصرفات صدام الشخصية مثل إعدامه لأصدقائه فقد استخدمت فى برنامج آخر تمت إذاعته بعد ذلك بأسبوع. وعلى أية حال فقد تم حذف إجابات كثيرة حول الموضوعات الجوهرية ذات الصلة بالكويت وغيرها. وقد أدى ذلك إلى حرمان المشاهدين من تكوين فكرة واضحة جداً عما كان صدام ينوى أن يفعله. وأثناء تحليق الطائرة بنا فى رحلة العودة من بغداد، كنت أشعر بالضيق بسبب عدم السماح لى بلقاء أبريل جلاسبى سفيرة الولايات المتحدة فى بغداد، والتى كانت قد جمعتنى بها صداقة سابقة، وكانت ترغب فى الحصول بأى طريقة على إيجاز لما دار فى لقاء صدام. وقد زاد من شدة إحباطها أنها حينما أجرت لقاءها الشهير مع صدام فى ٢٥ يوليه، والذى أذيع على نحو جيد فى وسائل الإعلام، رفضت قناة ABC الإخبارية إعطاءها الأجزاء الهامة التى تم حذفها من المقابلة والتى كانت تدور حول مسائل هامة تتعلق بالحرب والسلام؛ وذلك لأن السياسة الصارمة التى تتبعها هذه الشبكة الإخبارية تقضى بضرورة عدم إعطاء مشاهد تحتوى على تجاوزات أو أجزاء محذوفة من أى برنامج لأى شخص. وفى مناسبة تالية جمعتنى بها فى إسرائيل، حيث أدى عزوفها عن الأضواء فى واشنطن إلى العمل فى منصب مؤقت بإدارة وكالة الأمم المتحدة لغوث اللاجئين الفلسطينيين UNWRA، أخبرتنى أبريل جلاسبى أنها فى لقائها مع صدام فى ٢٥ يوليه

كان من المتعين عليها أن تتبع التعليمات التى كانت تأتيها من چيمس بيكر عبر وسائل الاتصال.

وبعد مرور عدة شهور بعد ذلك، وعندما سمحت وزارة الخارجية لأپريل أن تكسر حاجز الصمت الطويل الذى كان مفروضًا عليها بشكل رسمى، مما تسبب فى تعرضها إلى اللوم بزعم إعطائها «الضوء الأخضر» لصدام لغزو الكويت، ظهرت أمام لجنة العلاقات الخارجية بمجلس الشيوخ، وقالت: إن النسخة العراقية للمقابلة التى تمت مع صدام فى يوم ٢٥ يوليه تعرضت للمونتاچ بواسطة العراقيين قبل إذاعتها، حيث تم حذف الأجزاء التى كانت تحتوى على التحذيرات التى وجهتها لصدام ضد استخدام العنف فى حل المشكلات القائمة مع الكويت، وكان صدام قد تلقى أثناء الحوار اتصالاً هاتفيًا من الرئيس المصرى حسنى مبارك. وقد وعد صدام خلاله مبارك بعدم الهجوم على الكويت، وتم حذف ذلك من النسخة العراقية أيضًا[٦].

## إسرائيل و «عاصفة الصحراء»

إن الخلفية الديپلوماسية للحرب والتحذيرات الاستخباراتية التى تنبأت بوقوع الحرب وتم تجاهلها كانت تتردد باستفاضة فى كل مكان. والأمر الذى يجب أن يستحوذ على اهتمامنا هو الدور الإسرائيلى (وهو الذى يمكن أن نعتبره فى جوانب معينة اللا دور) فى الأشهر الستة التى كان يجرى فيها الاستعداد لعملية عاصفة الصحراء، وفى أثناء الحرب نفسها، التى استمرت من شهر يناير حتى شهر مارس من عام ١٩٩١.

منذ بداية الأزمة، حاول صدام أن يجر إسرائيل إلى المواجهة التى افتعلها مع الكويت. وفى بغداد فى التاسع من أغسطس عام ١٩٩٠، أى بعد مرور أسبوع على غزو الكويت، فشلت محاولة قام بها ياسر عرفات وأبو إياد (صلاح خلف) فى إقناع صدام بحضور اجتماع قمة يضم عشرين زعيمًا عربيا يعقد فى القاهرة فى اليوم التالى. ولكن صدام هدد بأنه فى حالة تعرضه للضغط من جانب العرب للانسحاب من الكويت فإنه سيجر إسرائيل إلى الحرب، وبذلك ينفرط عقد التحالف العربى. وقال: «إننى سوف أقوم بالهجوم على إسرائيل فى اللحظة التى يتم الهجوم علىَّ فيها،

وسوف نعتبر العدوان على العراق مؤامرة أمريكية صهيونية». ولم يحضر صدام المؤتمر. وأدى مؤتمر القمة إلى زيادة حدة التوتر. وكان الاجتماع الذى قمت بتغطيته شديد السوء، لدرجة أن طه ياسين رمضان، الذى كان أحد أعضاء الوفد العراقى، ألقى أحد أطباق الطعام على الأمير سعد ولى عهد الكويت أثناء مأدبة الغداء، وكاد الطبق أن يصيبه. وفى مشاجرات أخرى غاضبة لكنها لم تصل إلى القتل، قام أعضاء من وفود أخرى بقذف الخبز على بعضهم البعض وأصيب أحد الوزراء الكويتيين بالإغماء نتيجة إصابته بحالة من الصدمة العصبية. وفيما يتعلق بالبيان الختامى الذى كان يدعو صدام لسحب قواته من الكويت، فقد تعرض للهجوم عليه من بعض الوفود بدعوى أن الأمريكيين هم الذين كتبوا مسودته باللغة الإنجليزية فى سفارة الولايات المتحدة، وتمت ترجمته فى عجالة بلغة عربية ركيكة(٧).

وفى الفترة التى جرى فيها الاستعداد للحرب، أصر صدام حسين بشكل علنى على ربط مشكلة الكويت بالصراع العربى الإسرائيلى، وأن حل هذه المشكلة مرتبط بالاحتلال الإسرائيلى المستمر للأراضى الفلسطينية. وطالب برفع العقوبات الاقتصادية والحظر اللذين تم فرضهما على العراق من جانب الأمم المتحدة، وبضرورة أن تحل قوات عربية محل قوات الولايات المتحدة التى كانت تتدافع نحو المملكة العربية السعودية فى ذلك الوقت. أما فى إسرائيل، فقد ندد رئيس الوزراء الإسرائيلى إسحاق شامير بحديث صدام عن مسألة الربط بين المشكلتين، ووصفه بالمناورة التى يقوم بها صدام لإضعاف التحالف الدولى ضده. وفى شهر أكتوبر، حاول صدام أن يستغل فرصة العنف الذى اندلع فى الفترة السابقة فى القدس عندما قامت الشرطة الإسرائيلية بإطلاق النار على بعض مثيرى الشغب من العرب عند جبل الهيكل الذى يعتبره كل من العرب واليهود مقدسًا. حيث زعم صدام فى خطاب له أن العراق يمتلك صاروخًا أطلق عليه اسم الهاجرة. كما كرر تحذيره بضرب إسرائيل إذا تم الهجوم عليه.

وجدت إسرائيل نفسها فى ذلك الوقت فى وضع لا تحسد عليه، حيث كانت فى مواجهة كل من حليفتها الولايات المتحدة وعدوها القديم العراق. فقد أثارت سياسات الاستيطان الإسرائيلية فى المناطق المحتلة غضب كل من الرئيس بوش ووزير الخارجية بيكر. وكانت إسرائيل تشعر بأنها تواجه تهديدًا خطيرًا من صواريخ سكود التى

يمتلكها صدام. وبدأ الأطفال فى المدارس الإسرائيلية عامهم الدراسى ١٩٩٠/ ١٩٩١ بالتدريب على استخدام وسائل التصرف فى حالة وقوع هجوم كيميائى وعلى اتباع تعليمات ارتداء القناع الواقى من الغاز. ومنذ شهر يناير عام ١٩٩٠ كان الچنرال دانى روتشيلد مساعد مدير المخابرات العسكرية يراقب عن كثب تحركات منصات إطلاق صواريخ سكود إلى مناطق القاعدة H-2 والقاعدة H-3 غربى العراق حيث يمكن لصواريخ سكود أن تصل منها إلى حيفا والقدس وتل أبيب. وقد أعرب الچنرال دان شومورون رئيس أركان جيش الدفاع الإسرائيلى عن اعتقاده أنه فى حالة قيام القوات الجوية الإسرائيلية بمهمات هجومية لقصف منصات إطلاق صواريخ سكود غربى العراق فإن صدام سيرد بالمثل (على خلاف ما حدث بعد الهجوم الذى وقع على المفاعل النووى العراقى فى عام ١٩٨٩). ولكن شومورون قال أيضًا لصحيفة يديعوت أحرونوت الذائعة الانتشار بعد حديث صدام: إنه فى حالة عدم قيام إسرائيل بضرب صواريخ سكود فمن غير المحتمل أن يقوم العراق بالهجوم على إسرائيل. وقد وصل تعليق شومورون إلى مسامع واشنطن ونال استحسانها وثناءها، وقد نقلت أپريل جلاسپى ذلك لطارق عزيز.

فى ذلك الوقت كانت العلاقات السياسية بين بوش وشامير بالإضافة إلى الروابط العسكرية الإسرائيلية الأمريكية تمر ببعض المشكلات. ففى أحد اللقاءات التى جمعت بين الجانبين فى شهر أبريل عام ١٩٩٠، وجه الجانب الأمريكى اللوم للإسرائيليين بسبب «المغالاة فى تقدير» الخطر العراقى. أما داڤيد إڤرى الذى تولى - حينما كان طيارًا - قيادة عملية الهجوم على المفاعل العراقى ثم أصبح يشغل منصبًا إداريًا فى وزارة الدفاع الإسرائيلية، فقد نبه نظراءه فى البنتاجون إلى ضرورة تركيز المزيد من الانتباه نحو العراق. وفى التاسع عشر من شهر يوليه التقى وزير الدفاع موشيه أرينز نظيره الأمريكى ديك تشينى فى واشنطن. وقد عرض أرينز على تشينى ما وصفه بالدليل على استمرار صدام فى إحراز تقدم فى تخصيب اليورانيوم منذ الهجوم على المفاعل إلى درجة تمكنه من استخدامه فى صنع الأسلحة، ومن ثم فقد أصبح تشينى يدعو إلى ضرورة تحقيق قدر أكبر من التعاون مع إسرائيل. وفى شهر أغسطس من عام ١٩٩٠، ذكرت بعض التقارير أن إڤرى طلب من تشينى «النسيان والعفو» عن الهجوم

الإسرائيلى الهمجى ضد سفينة الاستخبارات الأمريكية ليبرتى قبالة سواحل سيناء فى أثناء حرب يونيه ١٩٦٧ والصفح عن هذا العمل، وكانت إسرائيل تصر دائمًا على أن هذه العملية قد وقعت بطريق «الخطأ». كما طلب إڤرى من تشينى البدء فى تزويد إسرائيل ببيانات آنية لحظة بلحظة من أقمار التجسس الأمريكية وتبادل سمة تعريف الطيران فى البلدين وهو ما يطلق عليه شفرات IFF (سمة تمييز القوات الصديقة عن القوات المعادية) وذلك لتجنب حدوث أى مأساة قد تقع بسبب سوء الفهم أو الحوادث أثناء المعارك أو فى أوقات التوتر الأخرى. ويبدو أن تشينى لم يوافق على أى من هذين المطلبين.

أدت أعمال العنف التى اندلعت فى جبل الهيكل بالقدس فى شهر أكتوبر ورد الفعل الإسرائيلى العنيف إزاءها، وانضمام السفير الأمريكى فى الأمم المتحدة توماس بيكيرينج إلى الأعضاء الآخرين فى مجلس الأمن فى شجبه لتلك الأحداث فى الثامن من أكتوبر، إلى المزيد من تكدير صفو العلاقات بين إسرائيل والولايات المتحدة. وعندما أحس صدام بذلك استمر فى وعيده وتهديده لإسرائيل. وفى شهر ديسمبر عام ١٩٩٠ وقبل عيد الميلاد بفترة قصيرة، قام باستدعاء سفرائه فى واشنطن وطوكيو وفى العواصم الأوروبية الكبرى وفى غيرها من العواصم لفترة مؤقتة. وفى يوم ٢٨ ديسمبر أعلن أنه مستعد «لإجراء حوار جاد و بنّاء»، لكنه واصل الربط بين إجراء أى مباحثات حول انسحابه من الكويت بالتفاوض حول الانسحاب الإسرائيلى من الضفة الغربية وغزة.

وفى ليلة السبت من عطلة الكريسماس، قام مساعد وزير الخارجية الأمريكى لورانس ايجيلبرجر، بزيارة رئيس الوزراء الإسرائيلى شامير فى منزله فى القدس، وذلك كى يؤكد له رغبة بوش الملحة بضرورة أن لا تبادر إسرائيل بالقيام بهجوم استباقى ضد العراق، على الرغم من القلق الذى يساورها من الناحية الاستراتيچية والدفاعية. وفى المقابل قال ايجيلبرجر: إن واشنطن ستعتبر أى هجوم عراقى على إسرائيل بمثابة ذريعة للحرب وإنها سترد عليه بالمثل. ولإظهار القلق الخطير من جانب الولايات المتحدة أعلن أنه سيتم شحن بطاريتى صواريخ متطورة من طراز پاتريوت المضادة للصواريخ أو بطاريات صواريخ مضادة للطائرات على وجه السرعة لإسرائيل. وتم

اتخاذ الاسم الكودى «هامر ريك» لخط الاتصال السرى بين وزير الدفاع الأمريكى تشينى ووزير الدفاع الإسرائيلى أرينز. وأصبح الميجور چنرال الأمريكى ماك أرمسترونج همزة الوصل الجديدة مع رئيس الأركان الإسرائيلى الچنرال أڤيهو بن نون، ليحل بذلك محل أحد ضباط القوات الجوية بالقيادة المركزية. وكان بعض الإسرائيليين يعتقدون أن القيادة المركزية الأمريكية التى تقع فى تامبا بولاية فلوريدا أقل استجابة للاحتياجات الإسرائيلية مقارنة بالضباط من قيادة واشنطن أو من القيادة الأوروپية، الذين كانت إسرائيل تتصل بهم عادة فيما يتعلق بالمسائل العسكرية(٨).

فى حوالى الساعة الثانية وأربع دقائق صباحًا بتوقيت بغداد (السابعة وأربع دقائق مساءً بتوقيت شرقى الولايات المتحدة) يوم ١٦ يناير، بدأت أولى مراحل عملية عاصفة الصحراء ضد العراق. حيث انطلقت موجات من الطائرات الأمريكية والبريطانية وصواريخ كروز من السفن الحربية التابعة للجيش الأمريكى ودول التحالف الراسية فى الخليج، وكانت الطائرات والصواريخ ترعد فى سماء بغداد وغيرها من المدن الرئيسية العراقية والمنشآت الدفاعية. وقد تمكنت بعض الطائرات العراقية من الإقلاع لاعتراض القوات المهاجمة. واختار صدام أن يرد بضرب إسرائيل، حسبما قد سبق ووعد بذلك، فى وقت مبكر من صباح اليوم التالى السابع عشر من يناير، وتم الهجوم بالصواريخ وليس الطائرات. حيث سقطت سبعة صواريخ سكود على تل أبيب وحيفا. وسقط صاروخ آخر فى الظهران بالسعودية. وانطلقت صافرات الإنذار فى إسرائيل معلنة عن هجوم جوى. كما قامت الإذاعة الإسرائيلية بتوجيه أفراد الشعب إلى ارتداء الأقنعة الواقية من الغازات، والاحتماء بالملاجئ التى سبق تجهيزها لهذا الغرض عن طريق إغلاق حجرات المنازل باستخدام أشرطة من البلاستيك للوقاية من الغازات السامة. فقد كان لديهم اعتقاد راسخ بأن صدام سوف يفى بما وعد به بالهجوم عليهم باستخدام المواد الكيميائية. ألم يكن هو الذى فعل ذلك أكثر من مرة بالفعل ضد القوات الإيرانية، وهو أيضًا الذى قتل بهذا الأسلوب أكثر من خمسة آلاف كردى فى حلابجة وأماكن أخرى فى كردستان العراق؟ وقد أدت صواريخ سكود التى أطلقها صدام فى الأسبوع الأول من المعارك الجوية التى جرت فى شهر يناير عام ١٩٩٠ إلى قتل أربعة أشخاص وإصابة أكثر من مائة وعشرين.

أسرع البنتاجون بإرسال بطاريات صواريخ باتريوت التى يبلغ طول الواحد منها سبعة عشر قدمًا ومنصات إطلاقها وأطقم أمريكية إلى إسرائيل. وعلى الرغم من أن الجيش الأمريكى والبحرية الأمريكية قاما بإجراء العديد من المناورات مع إسرائيل منذ الخمسينيات، إلا أن هذه كانت المرة الأولى التى تدافع فيها وحدات من الجيش الأمريكى بطريقة مباشرة عن الأراضى الإسرائيلية. وقد ذكر لى زائيف شيف المؤرخ العسكرى الإسرائيلى المخضرم فى شهر فبراير عام ٢٠٠٤ أن صواريخ باتريوت هى بالكاد مجرد نجاح براق. حيث إن الشظايا التى سقطت من بعض صواريخ سكود التى أطلقت على إسرائيل والتى بلغ عددها ٣٩ صاروخًا أدت إلى انطلاق صواريخ باتريوت لاعتراضها، مما أدى إلى الإضرار بالأرض وخسائر فى الأرواح. وبعض رءوس الصواريخ من طراز سكود انفصلت عن الصواريخ فى الجو، وقد تسببت إما فى حدوث دمار فى الأرض، أو أنها لم تنفجر مما استوجب قيام أطقم المدفعية بتدميرها. وقد انطلق صاروخان من طراز باتريوت من تلقاء نفسيهما حيث وقعا بالقرب من الظهران بالمملكة العربية السعودية مما أدى إلى تدمير بعض المبانى. وأصيب صاروخ آخر منها بعطب أثناء مطاردته لصاروخ قادم من طراز سكود مما أدى إلى تدمير مبنى إحدى شركات التأمين فى الرياض.

فى الثامن عشر من يناير هدد وزير الدفاع موشيه أرينز بقوله: «إن إسرائيل سوف يكون لها رد فعل بالتأكيد». ومن ثم قام الرئيس بوش بإرسال إيجيلبرجر مرة أخرى لإسرائيل، وفى الحادى والعشرين من شهر يناير أكد إيجيلبرجر أن إسرائيل وعدت بالعمل مع الولايات المتحدة وباستشارة واشنطن قبل القيام بأى تحرك من جانب واحد. وفى الثانى والعشرين من شهر يناير، صرح وزير الخارجية الإسرائيلى داڤيد ليڤى أن الولايات المتحدة ستزود إسرائيل بتقارير حول مجريات المعارك، وبيانات لوجيستيه، وأخيرًا بيانات حول نتائج استطلاعات الأقمار الصناعية على الفور لحظة بلحظة من خلال أجهزة ربط مشتركة. وقال وزير المالية الإسرائيلى إسحاق موداعى لإيجيلبرجر إن إسرائيل فى حاجة إلى ما يزيد عن ثلاثة عشر مليار دولار إضافية، علاوة على مبلغ المليارات الثلاثة دولار التى تحصل عليها كمنحة سنوية من الولايات المتحدة فى صورة مساعدات اقتصادية وعسكرية، وهذا المبلغ الإضافى تحتاجه لمقابلة خسائر حرب

الخليج، بما فى ذلك الممتلكات التى تعرضت للتدمير، ولتعويض أكثر من مائة من الإسرائيليين الذين تعرضوا للإصابة بجروح حتى منتصف فبراير عام ١٩٩١، وللمساعدة أيضًا فى استيعاب موجات المهاجرين اليهود الذين استفادوا من ميزة تطبيق سياسات الجلاسنوست والبريستوريكا التى انتهجها ميخائيل جورباتشوف فى القدوم إلى الدولة اليهودية[٩].

فى خلال الفترة المبكرة من الهجمات الصاروخية باستخدام صواريخ سكود، قام وزير الدفاع ديك تشينى بالاتصال بموشيه إرينز وبرئيس الوزراء شامير هاتفيًا. وقد ذكر تشينى لشامير أن الولايات المتحدة لا يمكنها أن تزود القوات الجوية الإسرائيلية بشفرات IFF التى تستخدمها قوات التحالف الجوية المتمركزة فى قواعد بالمملكة العربية السعودية، وكانت إسرائيل ترغب فى الحصول على هذه الشفرات فى حالة قيامها بالرد على الهجوم العراقى (فى حالة حصولها على هذه الشفرات السرية فإن طائرات الولايات المتحدة وطائرات التحالف لا تتعرض لنيران إسرائيلية، كما أن الطائرات الإسرائيلية لا تتعرض للإسقاط من جانب نيران الحلفاء). وكان السؤال الذى وجهه إرينز هو: هل تسمح إدارة بوش للإسرائيليين باستخدام ممر آمن عبر الأردن لا يتعرضون فيه لخطورة الاشتباك مع قوات معادية من طائرات التحالف إذا لم تزود واشنطن إسرائيل بهذه الشفرات؟ ولكن إيجيلبرجر طمأن شامير أن قوات التحالف سوف تقوم بتدمير صواريخ سكود الموجودة غربى العراق ومنصات إطلاقها بدون الحاجة إلى أى تحرك من جانب إسرائيل. وفى أثناء المحادثات التى تمت بين إرينز وشامير، أصدر الچنرال بن نون أوامره للطائرات الإسرائيلية المقاتلة بالانتشار فى تشكيلات دفاعية لحماية القدس. فقد كان بن نون يعتقد أن صدام سوف يستخدم أفضل الطائرات لديه وهى الطائرات من طراز سوخوى ١٤ لضرب القدس، ولكنه لن يجازف بإطلاق صواريخ سكود على المدينة حيث إن ذلك سينطوى على خطورة ضرب القدس الشرقية العربية أو المسجد الأقصى الشريف الذى يقع فى القدس. (على الرغم من أن القدس لم تتعرض للضرب بصواريخ سكود، فقد ذكر شهود عيان أن بعض العرب فى القدس الشرقية ورام الله ونابلس وفى أماكن أخرى من المناطق المحتلة كانوا يهللون مبتهجين عند المعابر الغربية لدى ظهور صواريخ سكود فى السماء أثناء الليل).

بعد مرور دقائق قليلة على المباحثات التى أجراها تشينى وإرينز، أجرى الرئيس بوش اتصالاً برئيس الوزراء الإسرائيلى شامير الذى كان قد أبلغ تشينى أن الهجوم بصواريخ سكود على جنوب تل أبيب لم يكن هجومًا كيميائيًا. ومن ثم كرر بوش طلبه الملح بعدم الرد على العراق؛ لأن ما يتمناه صدام هو الرد. وكان شامير يستمع إلى ذلك بدون إبداء أى تعليق. وبعد مرور عدة ساعات، كان الچنرال بن نون يصر على ضرورة الرد. وكان يجادله فى ذلك رئيس الأركان شومورون ونائبه إيهود باراك (الذى استطاع فيما بعد أن يتقدم عليه فى القيادة ليصبح رئيسًا للأركان ثم رئيسًا للوزراء فى أواخر التسعينيات، لكنه فشل فى التوصل إلى سلام شامل مع ياسر عرفات فى أثناء فترة ولاية بيل كلينتون الثانية). بعد أن استمع شامير إلى جميع الحجج سواء تلك التى تؤيد الرد أو التى تعارضه، كان قراره هو رفض الرد. وقال لمرافقيه إن صدام يريد تحويل عاصفة الصحراء إلى حرب بين إسرائيل وبين كافة الدول العربية. والتحالف الذى تقوده الولايات المتحدة يوشك أن يقضى على أحد أخطر أعداء إسرائيل أو على الأقل تدمير هذا العدو. واتجه إليهم بسؤاله لماذا نكون نحن السبب فى عدم تحقيق ذلك من خلال التسبب فى حدوث مواجهة دموية بين العرب وإسرائيل، وهى المواجهة التى قد تؤدى إلى القضاء على الحكم الملكى فى الأردن، وهو الذى يعد ذا فائدة كبيرة[١٠].

اتخذ شامير قرارًا نهائيًا وملزمًا، وهو عدم اتخاذ أى رد فعل من جانب إسرائيل. وأصبح الأمر متروكًا للأمريكيين كى يتولوا بأنفسهم مهمة التخلص من صدام وآلته الحربية (حدث ذلك فيما بعد وأصبح الأمر فى يد الأمريكيين فى إدارة چورچ بوش الابن فى عام ٢٠٠٣).

### الهدف: صدام حسين

تبادر إلى ذهن بعض المخططين فى الولايات المتحدة استهداف شخص صدام حسين واغتياله، باعتبار أن ذلك كان من بين أهداف الحرب التى قامت بها أمريكا فى عام ١٩٩١ (كما دار فى خلدهم ذلك مرة أخرى فى عام ٢٠٠٣ حتى ألقى الأمريكيون القبض على صدام بمساعدة حلفائهم الأكراد و أمسكوا به حيًا من حفرة فى الأرض فى

مسقط رأسه تكريت فى شهر ديسمبر من ذلك العام). وقد سبق أن اقترح رئيس أركان القوات الجوية الأمريكية الأسبق الچنرال مايكل چى دوجان صراحة وعلانية ـ وذلك منذ فترة تعود إلى شهر سپتمبر عام ١٩٩٠ ـ قتل صدام حسين. وعلى الفور من ذلك قام وزير الدفاع ديك تشينى بإعفاء دوجان من منصبه. ولهذا السبب أصدر تشينى أمراً تنفيذيًا يحظر بمقتضاه اغتيال القادة الأجانب (أو حتى التخطيط لاغتيالهم) وكان الهدف من ذلك الأمر التنفيذى هو وقف تورط وكالة الاستخبارات الأمريكية فى مؤامرات اغتيال القادة الأجانب المناوئين كتلك التى استهدفت قادة من أمثال الرئيس الكوبى فيدل كاسترو فى عدة مناسبات أو الزعيم الكونغولى پاتريس لومومبا فى الستينيات[١١].

## تحرير الكويت والإبقاء على صدام

استمرت مرحلة القتال البرى من عاصفة الصحراء مائة ساعة فقط. وتم تحرير الكويت، على الرغم من أنها كانت مدمرة، وسماؤها مغطاة بالدخان الأسود المتصاعد نتيجة إشعال القوات المنسحبة النيران فى المئات من آبار البترول بأوامر صادرة من صدام. وكانت تلك كارثة بيئية لم تتعاف منها الكويت والمناطق المحيطة بها فى منطقة الخليج بشكل كامل حتى الآن. وأودت الحرب بحياة مائة وخمسين من قوات التحالف وأدت إلى إصابة عدة مئات منهم، كما نتج عنها مصرع آلاف العسكريين العراقيين بالإضافة إلى مئات من المدنيين. وقد أصيب المخططون الإسرائيليون وكثير من المراقبين الغربيين بالإحباط نتيجة عدم قيام الرئيس چورچ بوش بتوجيه أوامره إلى القائد الأعلى لعاصفة الصحراء الچنرال نورمان شوارسكوف بتدمير القوات المسلحة العراقية بمجرد إجلائهم عن الكويت، أو أن يمضى إلى بغداد فيقتل أو يأسر صدام حسين، أو بدلاً عن ذلك يقوم بتحييده.

بدلاً من ذلك، أدلى بوش الأب ورجاله بتصريحات وأحاديث تم بثها بهدف تشجيع الأكراد والسكان الشيعة فى العراق على التمرد. ومع ذلك فإنهم لم يتمكنوا من مساعدتهم فى شهر مارس ضد القوات الموالية لصدام التى كانت محبطة يومًا ما ولكنها أعادت تجميع صفوفها الآن. وفى أثناء وقف إطلاق النار الذى وضع نهاية

للحرب، سمح للعراقيين بالاحتفاظ بما لديهم من الطائرات المروحية التى لم يتم تدميرها فى الحرب لاستخدامها فى أغراض النقل تحديداً. ولأن المروحيات تعد من بين المركبات العسكرية، فإنها تحولت إلى آلات قمع بدون رحمة لقتل المئات من المتمردين الشيعة الذين لم يوفقوا فى حركة التمرد فى الجنوب والمتمردين الأكراد فى الشمال. ونزح الآلاف من اللاجئين إلى تركيا وسوريا وإيران. وقامت الولايات المتحدة وبريطانيا وبمساعدة من فرنسا لفترة قصيرة (كانت الأخيرة قد أرسلت قوات برية فى الساعات الأخيرة من الحرب باعتبارها جزءاً من تحالف بوش) بتحديد «مناطق حظر للطيران» فى شمال العراق وجنوبه، وذلك لحماية السكان من انتقام صدام، ومنع طائراته من التحليق فى هذه المناطق. بعد ذلك تم قصف دفاعات أرضية عراقية وغيرها من الأهداف، وكان ذلك يتم فى بعض الأحيان بصورة يومية تقريبًا طيلة أعوام التسعينيات، مما أدى إلى إضعاف قدرة المؤسسة العسكرية العراقية التى أضيرت بشكل خطير حتى كان تدميرها بشكل نهائى فى شهرى مارس وأبريل من عام ٢٠٠٣ جراء الغزو الأمريكى البريطانى.

مع ذلك كان المخططون الإسرائيليون مستائين من حقيقة أن الرئيس چورچ بوش الأب أنقذ صدام حسين لعدم استمراره فى الحرب حتى دخول بغداد، وبسبب عدم دعمه المتمردين العراقيين (كان من بينهم ضباط من الجيش وبعض الوحدات العسكرية الكاملة). وعلاوة على ذلك فإن الإسرائيليين استنتجوا أنه طالما أن صدام ما يزال على قيد الحياة وما زال بإمكانه أن يوجه أوامره إلى الموالين له من عشيرة تكريت التى ينتمى إليها، ومن الفرق العديدة الباقية من الحرس الجمهورى وتشكيلات القوات المسلحة الأخرى، فإذا لم يتم تقليص قوة العراق فسوف يستمر على وضعه الذى يشكل خطراً استراتيجيًا على إسرائيل مثلما كان حاله منذ عام ١٩٤٨.

ولذلك فإنه فى عام ١٩٩١، بعد حرب الكويت مباشرة وفى أثناء الفترة التى كان فيها إسحاق رابين رئيسًا للوزراء، بدأ التخطيط فى إسرائيل بشكل سرى لاغتيال صدام حسين باستخدام قوات الكوماندوز الإسرائيلية الخاصة. وكانت الأقدار قد جاءت بإسحاق رابين مرة أخرى إلى السلطة لفترة قصيرة فى عام ١٩٩٣ قبل أن يغتاله أحد المتطرفين اليهود لكونه شريكًا لعرفات فى السلام (هو وشمعون بيريز) بعد اتفاقيات أوسلو.

قام العديد من الصحفيين الإسرائيليين وبصفة خاصة زائيف شيف مؤرخ أعمال الموساد، ويورى دان، وليزلى سوسر من صحيفة جيروزاليم پوست، بإعادة تجميع فصول القصة بمجرد رفع إسرائيل الرقابة الصارمة التى كانت قد فرضت عليها. وفى شهر أبريل من عام ١٩٩١ كان وزير الدفاع الإسرائيلى موشيه أرينز «غاضبًا» وفق ما كتبته سوسر، وذلك بسبب ما وصفه بمرارة بفشل الولايات المتحدة «فى إنجاز المهمة»، وتم تعيين الچنرال إيهود باراك فى منصب رئيس أركان الجيش. ويؤكد شيف وغيره أن باراك كانت تراوده فكرة قتل صدام. وقالت بعض المصادر: إن هذه العملية يجب أن تتم «ويرافقها الإعلان عن قدر معقول من الاستنكار» حتى لا يوجه اللوم المباشر لإسرائيل. ولكى تنجح عملية الاغتيال، فإنها تتطلب عمل مخابراتى فائق لمعرفة تحركات صدام وتنقلاته وكل شىء عنه، وهى معلومات كان يجب أن يكون مصدرها الدائرة المحيطة بصدام. ومن ثم ينبغى أن تحمل بطريق الجو قوات برية من تشكيلات الكوماندوز الخاصة التى يطلق عليها ساياريت ميتكال ويتم تسليحها بصواريخ قصيرة المدى، إلى داخل منطقة من المعروف أن صدام يتردد عليها كثيراً وهى منطقة تقع فى غرب العراق غالبًا.

كانت هنالك سابقة لوحظت لأول وهلة وهى أن القيادة الإسرائيلية لم يسبق لها أن قيدت بتشريعات أو أنظمة تحظر اغتيال القادة من الأعداء، تشبه تلك التشريعات التى كانت تقيد القوات الأمريكية حتى حدوث كارثة الهجوم الإرهابى الذى قامت به منظمة القاعدة التابعة لأسامة بن لادن فى الحادى عشر من سپتمبر. ففى الخامس عشر من شهر فبراير عام ١٩٩٢، حصل باراك على موافقة أرينز على اغتيال عباس موسوى أحد قيادات حزب الله فى جنوب لبنان. وقد تم اغتيال موسوى فى اليوم التالى لهذه الموافقة فى سيارته بقصف جوى من الطيران الإسرائيلى (وهى الطريقة نفسها التى استخدمت بعد ذلك بشكل فتاك لاغتيال الشيخ أحمد ياسين زعيم حركة حماس الفلسطينية فى غزة يوم ٢٣ مارس عام ٢٠٠٤، واستخدمت ضد غيره من الأعداء العرب الكثيرين). وكان باراك يعتقد أن استخدام مثل هذا الهجوم ربما ينجح مع صدام. ولكن رابين لم يكن لديه نفس القدر من الثقة فى ذلك. ولم يكن زائيف شيف متأكدًا ما إذا كان من الممكن لرابين الذى يتسم بقدر أكبر من الحذر والتردد أن يصدر

موافقته النهائية على تنفيذ هذه العملية. ومع ذلك فإنه قد وافق على التخطيط لها والتدريب عليها.

يبدو أنه قد تقرر استخدام صاروخ إسرائيلى الصنع مثبت فى طرفه كاميرا صغيرة لتوجيه الصاروخ بصريًا إلى هدفه. كانت الخطة تقضى بنقل وحدة ساياريت ميتكال جوًا إلى المنطقة المجاورة لمسقط رأس صدام فى تكريت. حيث كان من المتوقع حضور صدام جنازة والد زوجته الذى مات من مضاعفات مرض السكرى. وقبل أن يقرر رابين الموافقة النهائية أو رفضه لعملية الاغتيال، وقع حادث فى قاعدة تسائليم للتدريب التى تقع فى الصحراء يوم ٥ نوڤمبر عام ١٩٩٢ فى وجود باراك، وذلك أثناء القيام بما يحتمل أن يكون تجربة نهائية لما قد يتم فى مهمة انتحارية محتملة للجنود الإسرائيليين المشاركين فى التدريب. حيث انحرف صاروخ «موجه» عن مساره مما تسبب فى قتل خمسة جنود من مجموعة ساياريت ميتكال. وقد ذكر الصحفى دان بارون من هيئة التلغراف اليهودية أنه قد قيل إن باراك غادر الموقع بمجرد وصول الأطباء. ولقد برأ التحقيق الذى أجرى حول الحادث باراك من توجيه المساءلة الجنائية إليه، حيث إن مسئولياته القيادية مطلوبة فى مكان آخر، غير أن ذكرى هذا الحادث الأليم استمرت تطارده بعد ذلك كما يزعم بارون. ومن سخرية القدر أن إيال كاتفان وهو الجندى الذى كان «يؤدى» دور صدام فى التدريب كان أحد الناجين من هذه التجربة الهزلية، حيث أدخل المستشفى للعلاج من إصابات خطيرة لحقت به. ويعتقد يورى دان «أنه من الطبيعى» قيام رابين بإطلاع الرئيس چورچ بوش الأب على خطة قتل صدام قبل الانتخابات الرئاسية فى نوڤمبر ١٩٩١ التى خسرها بوش أمام بيل كلينتون. وبدأت عمليات التفتيش عن الأسلحة بواسطة فرق التفتيش التابعة للأمم المتحدة بالفعل، ووجهت الاتهامات إلى صدام بإخفاء ما تبقى لديه من أسلحة[١٢] (وهى الاتهامات التى كانت لها مبرراتها فى ذلك الوقت).

لم يعثر المؤلف على أى مرجع مدون فيه محاولات إسرائيلية مباشرة تستهدف حياة صدام، وعلى الرغم من أن رابين و شمعون بيريز ثم إيهود باراك حاولوا جميعًا، تحت رعاية إدارة كلينتون فى كلتا فترتى وجوده فى السلطة، أن يصلوا إلى تسوية سلمية

سواء كانت مؤقتة أم دائمة مع الفلسطينيين(*)، وكان دور واشنطن هو استخدام وكالة المخابرات المركزية أو أى فصيل عراقى يمكن العثور عليه ليتعاون فى جهود القضاء على نظام صدام وعلى الديكتاتور نفسه.

## سياسة كلينتون للاحتواء: الأعمال الخرقاء لوكالة الاستخبارات المركزية

فيما بين عامى ١٩٩٢ و ١٩٩٦ فشلت إدارة كلينتون فى تتبع الأثر العسكرى والدبلوماسى الهائل الذى خلفه انتصار عاصفة الصحراء على العراق تحت حكم صدام. فقد كانت فترة لمحاولة تنظيم العمل السرى والتخطيط للظروف العسكرية الطارئة. حتى أن الجهود الدبلوماسية والاقتصادية التى كانت تصفها شخصيات كبيرة فى إدارة كلينتون مثل وزيرة الخارجية الأمريكية مادلين أولبرايت بسياسة «احتواء» صدام أو «حبسه داخل صندوقه»، كانت غير فعالة وغير حاسمة. كما يساويها فى عدم الحسم التفكير الحالم الذى يرى أنه من الممكن إخراج العراق من عزلته بطريقة أو بأخرى كى ينضم إلى عملية السلام بين العرب والإسرائيليين التى تتحرك بسرعة شديدة البطء.

دشن المسؤلون عن أمور التخطيط لدى الرئيس بوش ووزير الخارجية بيكر عملية السلام التى بدأت بمؤتمر مدريد للسلام فى أكتوبر سنة ١٩٩١ فى واشنطن بهدف العمل فى اتجاه ما كان يؤمل أن يكون بمثابة التسوية النهائية للنزاع الإسرائيلى الفلسطينى. وكانت دعاية صدام حسين تصف الهزيمة الساحقة التى منى بها العراق فى الكويت بالاسم الذى أطلقه صدام عليها وهو «أم المعارك» باعتبار أن ما تم كان انتصاراً. وبعد ذلك اعترف المعلقون الرسميون العراقيون العاملون فى وسائل الإعلام فى بغداد، مثل جريدة بابل التى كان يملكها عدى بن صدام وجريدة الثورة التى كانت الجريدة الرسمية لحزب البعث، أن هزيمة العراق كانت من بين العوامل التى سهلت إتمام اتفاقية مدريد وما أعقبها، وأن هذه الاتفاقية تمت على حساب العراق. وأعادت المطبوعات الحكومية

(*) ولا تتغير شروطهم: القدس عاصمة إسرائيل - لا عودة للاجئين - الاحتفاظ ببعض المستعمرات - المترجم.

طبع الوثيقة البذيئة الملفقة والمعادية للسامية، پروتوكولات حكماء صهيون، حتى يتم ربطها بعبارة «تأسيس نظام عالمى جديد»، وهى العبارة التى جاءت على لسان چورچ بوش الأب، فى ثنايا حديثه لبث روح الحماسة فى الجنود إبان عملية عاصفة الصحراء عام ١٩٩٠ . وقام عدى بنشر سلسلة من المقالات بهدف إيجاد آيات من القرآن لتوفير السند الذى يدعم التحدى القديم لجبهة الرفض العربية لحق إسرائيل فى الوجود. وكان عدى يصر على أن الزمن يعمل من الناحية الاستراتيچية فى مصلحة العرب، و«أن القضاء على الكيان الصهيونى هو أمر حتمى تقضى به مشيئة الله كما تقضى به الحاجة إلى استعادة الحقوق العربية الخالصة التى لا ينبغى أن ينازعهم فيها أحد فى فلسطين». وهاجمت وسائل الإعلام العراقية المرحلة التى أطلق عليها اتفاق غزة أريحا فى عملية السلام التى تمت بأوسلو فى ٢٠ أغسطس عام ١٩٩٣، وهى المرحلة التى أسست لقيام سلطة فلسطينية جزئية فى المناطق المحتلة.

حرمت اتفاقية أوسلو صدام من مطالبه القديمة بزعامة العرب. كما أثارت المخاوف لدى الحاشية المحيطة بصدام من أن «الحكم الذاتى» الذى منح للسلطة الفلسطينية قد يمثل نموذجًا يتم على هديه الاعتراف بكيان كردى مشابه فى شمال العراق. وقد وصفت وسائل إعلام صدام عملية أوسلو بكاملها بالكارثة التى نزلت بالعرب، والتى ربما تكون أعظم من الكارثة التى تسبب فيها السادات من خلال اتفاقية السلام التى عقدها فى عام ١٩٧٩ مع مناحم بيجن، ونتيجة لذلك فقد كان الناطقون بلسان صدام يرددون مقولة أن عرفات «الخائن» يجب أن يلقى «مصير» السادات؛ أى الاغتيال. وكان النهج الاقتصادى للعراق يرى أن الخطط الإسرائيلية الأمريكية تستدعى قيام «سوق شرق أوسطى جديد». وأن الدول العربية سوف تتحول إلى «مستعمرات اقتصادية وسياسية فى دولة إسرائيل الكبرى التى تمتد من الفرات إلى النيل». وكان من الملاحظ أن الدول العربية تحاول المراوغة فى تطبيق المقاطعة الاقتصادية والتجارية التى فرضتها الأمم المتحدة على العراق بعد عاصفة الصحراء، ومن الناحية الاستراتيچية، كان من الواضح للعيان أن الدول الأعضاء فى الجامعة العربية تتفاوض مع إسرائيل حول السلام بدون التصميم على ضرورة قيام إسرائيل بتفكيك أسلحتها النووية، حتى عندما كان العراق يعج بمفتشى الأمم المتحدة الذين كانوا يكتشفون ويفككون بشكل

منظم بعض أسلحة العراق، ولكنهم لم يكونوا يكتشفون وجود أسلحة دمار شامل. ولقد قيل إن هذه العملية أدت إلى أن أصبح العراق محاصراً بين قوة نووية فعلية وهى إسرائيل، وقوة نووية محتملة، أى إيران، وهو لا يمتلك الوسائل الدفاعية التى تحميه.

## هل يمكن قيام سلام بين إسرائيل وصدام؟

بينما كانت العراق تبث خطابها الحربى فى كل مكان، وتراوغ مفتشى الأمم المتحدة كما لو كانت تؤدى معهم لعبة القط والفأر، توالى ظهور سلسلة من التسريبات فى وسائل الإعلام الإسرائيلية بدءا من عام ١٩٩٣ تتحدث عن وجود تحركات تسعى لإنشاء قناة اتصال سرية بين العراق وإسرائيل حول السلام بهدف إدخال صدام فى عملية أوسلو. وقد ادعت صحيفة شيشى الإسرائيلية أن طارق عزيز نائب رئيس الوزراء العراقى ونزار حمدون سفير العراق فى الأمم المتحدة عرضا هذه الفكرة على صدام حسين الذى لم يرفضها بشكل صريح.

أعقب ذلك تتابع موجة من القصص التى ظهرت فى وسائل الإعلام تتحدث عن وجود اتصالات حول هذا الموضوع فى الأمم المتحدة وفى أوروبا وفى المغرب (التى ما تزال إلى الآن موطنًا لجالية يهودية كبيرة ونشطة، والميدان الذى شهد المحادثات المصرية الإسرائيلية التى تمخضت عن زيارة السادات للقدس فى عام ١٩٧٧ وإلى معاهدة السلام فى عام ١٩٧٩). وقيل أيضًا إن منظمة التحرير الفلسطينية وروسيا وفرنسا وبعض الساسة ورجال الأعمال فى أوروبا يقومون بتسهيل هذه الاتصالات. كما ذكر أن القضية الملحة المتعلقة بإعادة فتح (أو إعادة إنشاء) خط أنابيب البترول الذى يربط بين كركوك وميناء حيفا، وفتح «قسم رعاية مصالح» للبلدين فى كل من القدس وبغداد واستيعاب العراق لعدد إضافى من اللاجئين الفلسطينيين يبلغ أربعمائة ألف لاجئ يعيشون فى مخيمات معزولة بدون تمتعهم بحقوقهم فى لبنان، كانت من بين القضايا المطروحة للنقاش فى هذه الاتصالات.

وقد ذكرت المحللة الإسرائيلية أوفرا بنجيو أن كلاً من الرئيس الإسرائيلى عزرا وايزمان ووزير الإسكان بنيامين بن إليعازر ووزير الداخلية موشى شاحال كانوا من بين

السياسيين المعنيين بهذه الاتصالات. وعندما سئل رئيس الوزراء الإسرائيلى رابين وغيره من كبار المسئولين عن ذلك أنكروا صراحة، وكان ردهم أن إسرائيل لن تقوم بتحركات من وراء ظهر أمريكا. وفى العراق أنكر طارق عزيز وجود «أى» اتصالات مع الدولة اليهودية، وأضاف بقوله: إن العراق لن «ترفع الراية البيضاء» مطلقًا وتعترف بإسرائيل. وترى بنجيو أن هذه الاتصالات، فى حالة حدوثها بالفعل، لم تكن سوى بالونات اختبار من جانب كلا الطرفين. وربما كان من مصلحة إسرائيل أن توضح أنه فى حالة ما إذا كان الرأى السائد فى الولايات المتحدة هو رفع العقوبات الاقتصادية، فإن العراق يتعين عليه أن يدفع الثمن فى مقابل ذلك فى صورة قبوله للسلام والاعتراف بإسرائيل. وربما كانت تأمل أيضًا فى تشجيع جماهير الشعب الأردنى نحو السلام. فقد كان الملك حسين قد دخل بالفعل فى المحادثات السرية التى أدت إلى توقيع معاهدة السلام بين الأردن وإسرائيل فى حضور الرئيس الأمريكى بيل كلينتون فى شهر أكتوبر من عام ١٩٩٤، ويبدو أن إنكار رابين وغيره لهذه التسريبات فيما بعد كان مقصوداً بهدف الإثبات لواشنطن أن إسرائيل تمضى وفق السياسة الأمريكية المتشددة تجاه صدام، وأنها لا تفكر فى إجراء اتصالات ثنائية مع العراق حول السلام.

فى الوقت ذاته كان المسئولون عن الدعاية فى العراق ما يزالون مستمرين فى محاولة تسليط الأضواء أمام الحكومات العربية وأمام «الشارع العربى» على العبارة الشهيرة التى كتبها الصحفى توماس فريدمان فى عموده المشهور بصحيفة نيويورك تايمز والتى قال فيها إن العراق هى الدولة العربية الوحيدة التى ما تزال متمسكة بالولاء لمبادئ الوحدة العربية. وفى نهاية الأمر لم يطرأ أى تغيير على العلاقات الإسرائيلية العراقية.

جاء التغيير الرئاسى فى واشنطن من بوش الأب إلى كلينتون فى عام ١٩٩٣ بفريق جديد للأمن القومى، وأطلق هذا الفريق على سياسته تجاه صدام سياسة «الاحتواء». وكانت تلك السياسة تتألف من أربع نقاط رئيسية. أولها: ضرورة التواجد العسكرى القوى فى العراق مع القيام «بعملية المراقبة الجوية» التى كانت تعنى تطبيق ما تم الاتفاق عليه بين التحالف بتحديد مناطق حظر الطيران العراقى فى الشمال والجنوب، وهو الحظر الذى لم يعد مقصوداً به مجرد حماية الشيعة والأكراد العراقيين، بل حماية السعودية والكويت أيضًا. ثانيًا: ضرورة تفعيل العقوبات الاقتصادية المفروضة من قبل

الأمم المتحدة والحظر المفروض على التسلح للحيلولة دون تمكن صدام من إعادة بناء قواته المسلحة واستعادة قوته المالية السابقة فى المنطقة. العنصر الثالث: هو الاعتماد بشدة على مراقبى الأسلحة التابعين للأمم المتحدة فى تتبع آثار أسلحة العراق النووية والكيميائية والبيولوچية والصواريخ بعيدة المدى وتدميرها. رابعًا: ضرورة دعم وتشجيع المعارضة العراقية.

أوضح روبين رايت المؤلف والصحفى المخضرم فى جريدة لوس أنجلوس تايمز فى دراسة متميزة تم نشرها فى مجلة واشنطن كوارترلى فى عام ١٩٩٨ أن «الاحتواء» مفهوم سلبى. فقد كان يعكس التناقض بين سياسة واشنطن التى تسعى إلى تغيير النظام بشكل تدريجى فى نهاية الأمر، وبين تفويض الأمم المتحدة بنزع أسلحة العراق على المدى القصير. وما لم يتحقق امتثال العراق لمقتضيات هذا التفويض، فإن الولايات المتحدة لا يمكنها أن تفعل شيئًا سوى منع صدام من تهديد جيرانه أو تهديد الدول الخارجية المستهلكة للبترول، مثلما كان يفعل فى السابق قبل عملية عاصفة الصحراء. وفى النهاية ينبغى الإشارة إلى موضوع آخر يدركه كبار مساعدى الرئيس الأمريكى بالتأكيد، وهو أنه لا يمكن تحقيق الأهداف الأوسع نطاقًا لإدارة كلينتون إلا من خلال قيادة جديدة فى بغداد(١٣).

## المغامرات الفاشلة لمفتشى الأسلحة

بدأت لجنة التفتيش عن الأسلحة التابعة للأمم المتحدة (الأونسكوم) التى تشكلت للتفتيش على منشآت الأسلحة العراقية بعد عملية عاصفة الصحراء تمارس عملها فى شهر يونيه عام ١٩٩١. ومنذ ذلك الحين حتى شهر نوڤمبر عام ١٩٩٧، وهو التاريخ الذى منع فيه صدام المفتشين الذين يحملون الجنسية الأمريكية من العمل، قام المفتشون بزيارة ما يزيد عن ألف موقع وتمكنوا من تدمير آلاف الأسلحة المحظورة، على الرغم من المعوقات والمضايقات التى كانت تأتى من جانب العراقيين، حيث كانت تتضمن فى بعض الأحيان وسائل قد تهدد الحياة. وقد قام أحد المراسلين الألمان بذكر بعض هذه الأشياء فى شهر نوڤمبر ١٩٩٧ بقوله كان هناك «أشخاص غرباء» يتجولون فى غرف

مفتشى الأمم المتحدة فى فندق شيراتون بغداد ثم يختفون. ودوريات الشرطة التى كانت ترافق المفتشين لم تكن تفعل شيئًا لمنع ما كان يطلق عليه «الاحتجاجات التلقائية» من جانب المدنيين. حتى أن السيارات التى كانت تحمل شعار الأمم المتحدة تعرضت للخروج عن المواكب التى كانت تسير فيها، وفى بعض الأحيان كان مصيرها التعرض للاصطدام أو التهشيم، كما كان المفتشون يتعرضون إلى البصق عليهم والتهديد بالقتل ببنادق الكلاشينكوف. وفى الشارع ألقى البنزين على الطيارين العسكريين الألمان الذين كانوا يقودون الطائرات التى تقل مفتشى الأمم المتحدة فى سماء العراق. وكان المتطرفون ينهالون ضربًا على السيارات التابعة للأمم المتحدة بالقضبان الحديدية. وأما «المراقبون» العراقيون الذين كانوا يستقلون الطائرات المروحية التابعة للأمم المتحدة فقد كانوا يتدخلون فى عملية الطيران(*).

فى مناسبة كغيرها من مئات ومئات المناسبات التى كانت تنبئ بخطورة المقاومة المسلحة العنيدة فى مواجهة جيش الاحتلال الأمريكى فى العراق فى عام ٢٠٠٣ وعام ٢٠٠٤ فى الفلوجة والرمادى وفى كل مناطق «المثلث السنى» الذى يقع إلى الغرب من بغداد. اقترب عالم من علماء الذرة البريطانيين يدعى مايك بيكر، ومعه فريق من المفتشين من منطقة عسكرية خارج الفلوجة. فقال لهم أفراد الحرس العراقين: إن «اليوم هو يوم الجمعة أى يوم العطلة الذى يتجمع فيه المسلمون للصلاة، وليس بإمكانكم الدخول». تسلق بيكر أحد أبراج الماء القريبة من الموقع ولاحظ وجود صف من الشاحنات تخرج من المجمع العسكرى. فاتصل عن طريق جهاز اللاسلكى بداقيد كاى قائد الفريق (الذى عاد فى عام ٢٠٠٣ إلى واشنطن وذكر فى تقريره عدم عثوره على أسلحة دمار شامل بعد أن كانت وكالة الاستخبارات المركزية الأمريكية قد أرسلته إلى العراق مع فريق من مفتشى الأمم المتحدة). وعندما أرسل كاى اثنين من مفتشى الأمم المتحدة لتصوير الشاحنات، أطلق الحراس العراقيون بعض الأعيرة النارية على المفتشين العزل(**). وقد كتب المراسل الألمانى عن ذلك: «فى حالات كثيرة جدًا» كان أعضاء

(*) هل ينتظر أولئك المفتشون أن يرحب بهم الشعب العراقى وهم يدمرون أسلحته وينتهكون سيادته؟ هذا شبيه بما ظنه الأمريكيون الغزاة فى أن الشعب العراقى سوف يأخذهم بالأحضان ـ المترجم.

(**) هل أصيب أحد؟ ـ المترجم.

فريق التفتيش يركضون وهم يلهثون، كما لو كانوا كلاب صيد تطارد الأرانب البرية، بدون إحراز «تقدم ملحوظ». وكان معظم المفتشين الذى كان عددهم ١١٠ فقط فى نوفمبر ١٩٩٧ من الشباب. كما كانوا يضمون خليطًا من العلماء، ومن خبراء الأسلحة المحترفين وغير المحترفين، ومحاربين قدماء، وعملاء لوكالة استخبارات أو أكثر من وكالة (بالتأكيد من وكالة المخابرات المركزية الأمريكية، وربما من الموساد الإسرائيلى)(١٤).

فى أغسطس عام ١٩٩٥، انشق حسين كامل المجيد صهر صدام حسين وفر هاربًا إلى الأردن. وبدأ يخبر الأردنيين، ووكالة المخابرات المركزية الأمريكية وكل من يستمع إليه عن أسلحة الدمار الشامل السرية الموجودة لدى صدام بما فيها الأسلحة البيولوچية. ولقد أفصح لى الملك حسين شخصيًا فى حديث لشبكة ABC الإخبارية عن حادثة إلقاء القبض فى مطار عمَّان على شحنة من أجهزة الچيروسكوب الروسية الصنع لاستخدامها فى أنظمة توجيه الصواريخ العراقية. وقد قام مفتشو الأمم المتحدة بزيارة لإحدى مزارع الدواجن فى بغداد انطلاقًا من المعلومات التى أدلى بها حسين كامل قبل أن يعيده صدام هو وأخيه إلى بغداد ويغتالهما. وجد المفتشون فى هذه المزرعة صناديق مكدسة بمستندات تتعلق ببرنامج التسليح فى العراق. وقد كان هذا بمثابة إثبات غير مسبوق بأن العلماء العراقيين كانوا يعملون بالفعل فى برامج لإنتاج الأسلحة البيولوچية، وهو ما عادوا لينكروه فيما بعد.

كان رد الفعل العسكرى من جانب الولايات المتحدة فى مقابل مناورات الكر والفر التى كان صدام يستخدمها محدودًا وعلى نحو متقطع. حيث قامت طائرات الولايات المتحدة بإسقاط طائرة عراقية من طراز ميج ٢٥ عندما انتهكت منطقة حظر الطيران فى عام ١٩٩٢. فى العام التالى هاجمت القوات الأمريكية مواقع للصواريخ وإحدى المنشآت العسكرية بالقرب من بغداد يشتبه أنها منشأة نووية، وذلك عندما قام العراق بنشر صواريخ فى منطقة البصرة. وعندما علمت واشنطن بوجود مؤامرة يشترك فيها بعض عملاء المخابرات العراقية مع إحدى عصابات تهريب الخمور لاغتيال الرئيس الأمريكى السابق چورچ بوش الأب خلال إحدى زياراته للكويت، أصدر الرئيس كلينتون أوامره إلى البنتاجون بإطلاق ٢٣ صاروخًا من طراز كروز على مقر المخابرات

العراقية فى بغداد. وتم الهجوم ليلاً عندما كان هناك قليل من الأشخاص يعملون فى المبنى. وخرج أحد هذه الصواريخ عن مساره مما تسبب فى وفاة ليلى العطار وهى واحدة من أهم فنانات العراق.

## كلينتون: «اخلع صدام»

عندما بدأ العراق فى تحريك قواته إلى الحدود الكويتية فى أوائل شهر أكتوبر من عام ١٩٩٤، بدأت إدارة كلينتون أيضًا تحرك قواتها بموافقة إسرائيلية. وفى العاشر من أكتوبر اجتمع مسئولون كبار فى غرفة عمليات بالبيت الأبيض وأعادوا التأكيد على التوجيه السرى الذى كان كلينتون قد وجهه إلى وكالة المخابرات المركزية للإطاحة بصدام. فى ذلك الوقت كانت الوكالة قد قامت بتجنيد أحمد الجلبى المليونير العراقى الذى كان يعيش فى المنفى، والذى كان قد قام بترتيب الرحلة التى قمت بها إلى كردستان. وكان يعمل تحت غطاء المجلس الوطنى العراقى (INC)، وهى منظمة تضم معظم جماعات المعارضة العراقية الموجودة فى المنفى، وقد أسستها وكالة المخابرات المركزية (تأسست بصورة سرية فى البداية) عام ١٩٩٢. وحصل المجلس الوطنى العراقى على أموال من حكومة الولايات المتحدة لاستخدامها فى تدريب ميليشيات مسلحة فى المجر كى تقوم بأعمال تتعلق باحتلال مواقع معينة فى العراق «المحررة». وبدأ المجلس الوطنى العراقى فى إطلاق حملته الدعائية ضد صدام، وكان من بين أهدافها مواجهة التعاطف الذى نشأ فى الخارج مع العراق نتيجة تطبيق العقوبات الاقتصادية القاسية، وهى العقوبات التى كانت تتسبب فى معاناة العامة من العراقيين بما فيهم الأطفال المرضى الذين حرموا من الدواء ومن الكثير من المواد الغذائية ومن مئات الحاجات الضرورية الأخرى. وكان چون ريندون الخبير فى العلاقات العامة بواشنطن هو الذى فاز بعقد من الباطن لتنفيذ هذه الحملة الدعائية ضد صدام.

قدَّم أحمد الجلبى برنامجًا ممتازًا لعراق ما بعد صدام، يتمثل فى الديمقراطية مع حكومة تمثل كافة الجماعات العرقية والدينية والسياسية الموجودة فى الدولة (فيما بعد كان البنتاجون والمحافظون الجدد من مستشارى وزير الدفاع دونالد رامسفيلد فى عهد چورچ بوش الابن يدعمون الجلبى بشدة ولفترة معينة). بعد ذلك بدأ الجلبى فى بناء

قاعدة قوية فى كردستان شمالى العراق، حيث كان يقيم هو وأتباعه فى ظل حماية القوات المسلحة والقوات الجوية للتحالف. وفى شهر نوفمبر عام ١٩٩٣ سافر الجلبى إلى واشنطن، وحاول دون جدوى الحصول على دعم حكومة الولايات المتحدة على مخطط يهدف استمالة الأفراد الهاربين من القوات المسلحة العراقية بما فيهم المنتمين للحرس الجمهورى للقيام بانتفاضة لعزل صدام أو اغتياله هو والطبقة الحاكمة من أقاربه الذين ينتمون إلى عشيرة تكريت. وكانت الفكرة تتمثل فى الاستفادة من ميزة انتشار مؤامرات كانت تحاك بالفعل وقتها ضد صدام من جانب بعض الضباط السُّنة ممن ينتمون إلى قبائل تتمتع بنفوذ كبير مثل قبيلة الجبورى وقبيلة الدليمى (ولكن لم يكتب لها النجاح). ولم ينجح الجلبى فى الحصول على أى تعهد من جانب إدارة كلينتون بتقديم الدعم العسكرى له، حيث كانت إمكانياته وفرص نجاحه مثار الكثير من الشكوك، كما كان هنالك ما يدعو إلى الريبة فى بعض جوانب حياته فى الماضى مثل اتهامه بالاحتيال والغش فى معاملات مصرفية فى الأردن خلال أعوام الثمانينيات.

كان هناك منافس آخر للمجلس الوطنى العراقى وهو مجلس الوفاق الوطنى العراقى (INA) الذى كان يقوده إياد علاوى وهو عراقى اخر يعيش فى المنفى، وأصبح بعد ذلك «معالى» رئيس الوزراء العراقى فى شهر يونيو عام ٢٠٠٤ وله سجل طويل يحفل بالعمل السرى مع جهاز الاستخبارات البريطانية المعروف باسم MI-6 وقد طلب كبار المسئولين البريطانيين من أقرانهم فى وكالة المخابرات المركزية بوضع العلاقات الطيبة المفترضة بين علاوى وبين الجيش العراقى فى الاعتبار، والاستماع لمطالبه بالحصول على الدعم المالى واللوجيستى بتعاطف.

كان جيمس وولسى مدير وكالة المخابرات المركزية الأمريكية، ينظر بإعجاب إلى كل من الجلبى وعلاوى. وكان من الصقور المتشددين. حيث كان وولسى يعتقد أن صدام حسين هو الذى يقف وراء أعمال إرهاب دولية مثل تفجير مركز التجارة العالمى فى نيويورك فى شهر فبراير عام ١٩٩٣. واستمع وولسى ومسئولون كبار غيره إلى مختلف آراء كبار موظفى الوكالة فى الاجتماع الذى عقد فى شهر أكتوبر عام ١٩٩٤ فى البيت الأبيض. ويبدو أنه قد ترك قدراً من حرية الاختيار للضباط الميدانيين ومن هم

تحت سلطاتهم لتنفيذ ما يستطيعون فعله. ولكن الخيارات المتاحة أشعلت الكثير من الجدال. حيث كان الاستياء يبدو على وجه وزيرة الخارجية مادلين أولبرايت عندما سمعت بكافة الصعوبات التى تكتنف القضاء على صدام حسين، وذكر أنها تساءلت فى غضب قائلة: «ولماذا جئنا هنا الآن؟»(١٥).

كانت هنالك نتيجة واحدة واضحة ظهرت فى شهر مارس ١٩٩٥ وهى بداية حملة عسكرية فى كردستان العراق قامت بها مليشيات المؤتمر الوطنى العراقى التابعة لأحمد الجلبى، وكان المقصود منها هو الحصول على العون من جانب فصيلى الأكراد الرئيسيين وهما الاتحاد الوطنى الكردستانى (PUK) بزعامة جلال طالبانى، والحزب الديمقراطى الكردستانى (KDP) الذى يتزعمه مسعود برزانى. وكان التابعون للجلبى يأملون فى انضمام الشيعة التى معقلها فى طهران إليهم، وعندما أبدى برزانى معارضته فى اللحظة الأخيرة ورفض اشتراك قواته، قررت هذه الجماعات الابتعاد هى الأخرى، وعلاوة على ذلك فإن بعض القوات المشتركة من فصيلى الأكراد وعدد قليل من السريان المسيحيين ومن المنحدرين من أصول تركمانية استطاعوا السيطرة على عدة مدن وطردوا قوات صدام منها وأسروا حوالى ٧٠٠ فرد من الموالين لصدام، وحاول أحد المنشقين العراقيين وهو اللواء وفيق السمرائى الرئيس السابق للاستخبارات العسكرية أن يقود هذه الجهود، ولكن برزانى انتقل من طرف لآخر خوفًا من زيادة نفوذ منافسه الكردى جلال طالبانى وعشيرته إذا قدر للثورة النجاح. وأمر قوات الحزب الديمقراطى الكردستانى الذى يتزعمه بمهاجمة طالبانى فى مدن بنجاوين ونالبريز حيث قتلت ٢٠٠ من مقاتلى الاتحاد الوطنى الكردستانى وسيطرت على المدينتين، فأوقفت واشنطن الدعم العسكرى الذى كان زعيم الحزب الديمقراطى الكردستانى يتوقعه عن يقين، وعلى الرغم من انضمام مئات من الموالين لصدام إلى المتمردين، فقد فشلت تلك الجهود واستمر الفصيلان الكرديان فى قتال بعضهما البعض.

فى شهر أغسطس من عام ١٩٩٦ نجح حزب جلال طالبانى فى حصار قوات برزانى داخل أحد الجيوب. مما أدى إلى استنجاد برزانى بعدوهما اللدود صدام حسين طالبًا الدعم. وقد حصل عليه بالفعل. ففى أوائل شهر سبتمبر قامت وحدات من الحرس الوطنى ومن الحرس الجمهورى الخاص قوامها لواء واحد على الأقل ودحرت قوات

الفدائيين التابعة لحزب طالبانى، ثم تحركت إلى الشمال الشرقى متوجهة نحو الحدود الإيرانية واحتلت إربيل وهى العاصمة الإقليمية للأكراد. وكانت تلك بمثابة مهزلة للمعارضة العراقية ولمسانديها فى وكالة المخابرات المركزية، حيث لاذوا بالفرار. واستطاع رجال صدام القبض على المئات من قوات الاتحاد الوطنى العراقى الذين كانوا تحت السيطرة المباشرة لوكالة المخابرات المركزية الأمريكية، كما تم الاستيلاء على الآلاف من الوثائق التى تكشف عن خطط وكالة المخابرات المركزية والمعارضة. وتم إعدام العديد ممن ألقى القبض عليهم. وقد تمكنت الولايات المتحدة من خلال اتصالاتها بالأتراك عبر الخط الحدودى مع العراق من إنقاذ مئات آخرين وحملتهم بالطائرات إلى منفاهم فى الولايات المتحدة. وقد أعلن وزير الدفاع الأمريكى ويليام پيرى أنه كان ينبغى عدم التدخل من جانب الولايات المتحدة. وبعد ذلك كان المتحدثون الرسميون باسم الحكومة الأمريكية يوجهون اللوم إلى صدام، بدون أن يذكروا أن حزب برزانى ـ الحليف التقليدى للولايات المتحدة وإسرائيل ـ هو الذى طلب النجدة من صدام. كما أن هناك موضوعًا لم ينل سوى قدر قليل من النقاش، وهو ما يتعلق بالغارات التى كانت تركيا تقوم بشنها منذ عام ١٩٩٥ بقوات يتراوح عددها ما بين ٢٠٠٠٠ إلى ٤٠٠٠٠ مقاتل على شمال العراق لملاحقة الأكراد الأتراك من حزب العمال الكردستانى (PKK) الذى يتزعمه عبد الله أوجلان الذى يقاتل من أجل استقلال الأكراد، وتضعه الولايات المتحدة وبريطانيا ضمن لائحة المنظمات الإرهابية. وبعد سقوط إربيل واندحار عملية المخابرات المركزية هناك، أطلقت إدارة كلينتون صاروخ كروز آخر على بغداد. كما وسعت بالاتفاق مع البريطانيين من منطقة حظر الطيران حتى خط عرض ٣٢ الذى يقع إلى الشمال مباشرة من بغداد، وطلبت من الأمم المتحدة تعليق برنامج المساعدات الإنسانية المعروف باسم النفط مقابل الغذاء.

أوقف الفرنسيون دورياتهم الاستطلاعية فى منطقتى الحظر الجوى بصورة رسمية. ولم تؤيد الهجمات الصاروخية بصواريخ كروز وتوسيع منطقة الحظر الجوى سوى إسرائيل والكويت فقط. وانسحبت قوات صدام من إربيل مصطحبة معها العديد من الأسرى والوثائق لمساومة الاتحاد الوطنى الكردستانى والمجلس الوطنى العراقى. وأخذت أبواق صدام الدعائية تردد الأنباء عن الانتصار الذى حققوه. وعلى الرغم من أن الأكراد هم الذين قدموا النصر هدية لصدام قسراً، فقد بدر رد فعل من جانب حزب

الدعوة الإسلامى الشيعى. ففى يوم الثانى عشر من شهر ديسمبر عام ١٩٩٦ هاجم عدد من المسلحين التابعين لحزب الدعوة عدى صدام حسين أثناء وجوده بالسيارة ضمن موكب من السيارات المرسيدس فى وسط بغداد، مما أدى إلى قتل سائقه وإصابة عدى بالشلل من منطقة الخصر نزولاً إلى ساقيه. وتمكن الجراحون من العراق ومن أوروبا من إنقاذ حياته ولكنه لم يعد بإمكانه السير بشكل سليم بعدها.

فى شهر يوليو عام ١٩٩٧ كان رئيس لجنة الأونسكوم للتفتيش عن أسلحة العراق السويدى الأصل رولف إيكيوس قد ترك العمل، وهو الذى كان يحاول الحفاظ على عمل اللجنة فى التفتيش عن الأسلحة نزيهًا ومستقلاً عن المتشددين فى واشنطون وإسرائيل، ثم بعد ذلك أصبح سفيرًا للسويد فى واشنطون. واتخذ الديپلوماسى الأسترالى ريتشارد باتلر الذى حل محله فى رئاسة لجنة التفتيش عن الأسلحة خطًا أكثر صرامة تجاه العراقيين. واستمر فى توجيه أوامر وطلبات مثيرة للدهشة تتعلق بأعمال التفتيش عن مواقع يتم إبلاغ الأونسكوم عنها من جانب أجهزة الاستخبارات التابعة لقوات التحالف بما فى ذلك الاستخبارات الإسرائيلية (وهو الأمر الذى أكده فيما بعد آخر رؤساء فرق التفتيش هانز بليكس). ومنذ عام ١٩٩٢ كان أحد المفتشين وهو داڤيد كاى، وربما آخرون غيره، يقوم من وقت لآخر بتسليم وثائق عراقية إلى الولايات المتحدة قبل إعطائها لرؤسائه من مسئولى الأمم المتحدة. وكان العراق يدعى أن بعض المفتشين مثل سكوت ريتر الضابط برتبة رائد فى البحرية الأمريكية (والذى بدأ يعبر بعد ذلك وبالتحديد فى عام ٢٠٠٢ عن شكه الكامل بأن صدام يمتلك أسلحة دمار شامل)، كان يقدم تقارير للمخابرات الغربية أو الإسرائيلية. فكان رد باتلر على ذلك يتسم بالمراوغة، وواجه العراقيين بطلباته للتفتيش على قصور صدام الفاخرة للبحث عن أسلحة مخبأة فيها. وقد أدى انتهاء مدة عمل السكرتير العام للأمم بطرس بطرس غالى وتعيين خلفه الديپلوماسى الغانى الموهوب والذى يتمتع بمهارة شديدة كوفى عنان إلى التوصل إلى تسوية فى هذا الشأن فى عام ١٩٩٨. وقد أدى ذلك إلى زيادة إيرادات العراق من برنامج النفط مقابل الغذاء بدرجة كبيرة، الأمر الذى سمح بالتفتيش على القصور بطريقة «مهذبة»[١٦].

خلال أواخر التسعينيات بدأ كبار المسئولين فى إدارة كلينتون يتحدثون صراحة

- وباستخدام مصطلحات على الرغم من أنها لا تدعو بشكل صريح إلى «تغيير النظام» بالقوة، إلا أنها كانت تعنى ضمنيًا أن ذلك ربما يكون أحد الخيارات المتاحة فى يوم من الأيام. وفى الوقت نفسه كان هنالك تغير، كامل غير ظاهر، وهو تغير لم يتم بدون تشجيع من حلفائهم فى إسرائيل، وقد بدأ فى واشنطن مع صعود حكومة «العمال الجديدة» المتعاونة تمامًا، برئاسة رئيس الوزراء تونى بلير فى المملكة المتحدة. وفى الولايات المتحدة كانت هنالك مجموعة من المحافظين الجدد تخطط لهذا التغيير، وتضم مسئولين رسميين وأكاديميين، وهم الذين وصلوا إلى السلطة فيما بعد فى عام ٢٠٠١، مع الجمهوريين الذين ينادون بانفراد الولايات المتحدة فى قيادة العالم، المعادين للأمم المتحدة مع چورچ بوش الابن الذى وصل إلى السلطة فى انتخابات رئاسية مثيرة للجدل جرت فى شهر نوفمبر عام ٢٠٠٠. وقد تمكنوا من تحريك عجلة هذا التغيير عقب كارثة الهجمات الإرهابية على الولايات المتحدة التى قامت بها منظمة القاعدة فى الحادى عشر من سبتمبر عام ٢٠٠١. وكانت السياسة الجديدة التى تم التخطيط لها لتغيير الأنظمة، حتى وإن كان ذلك بشكل ضمنى، هى الحرب الإجهاضية أو الاستباقية. وكانت قائمة الدول المستهدفة تضم العراق (الذى احتل موقع الصدارة فى قائمة الأولويات)، وبعد ذلك إيران، وسوريا ومناطق أخرى تقف فى طريق الولايات المتحدة، وطريق الأهداف الإسرائيلية (فى الشرق الأوسط). وفى أفغانستان اعتبرت الحرب التى شنتها الولايات المتحدة عقب الحادى عشر من سبتمبر، ضد القاعدة ونظام طالبان الذى كان يستضيفها، بمثابة التزام ثابت تقريبًا من جانب الولايات المتحدة، وطالما الأمر كذلك فإنه ليس من الضرورى أن تكون هى بؤرة التركيز الأساسية لهذا المخطط الكبير. وقد أخفيت هذه الاستراتيجية تحت ستار التصميم العميق على جلب «الديمقراطية الغربية» إلى الدول التى يسود فيها الجهل من العالم، وبصفة خاصة الدول التى تضم مجتمعات أو نظمًا إسلامية.

## تحولات سياسة الولايات المتحدة

كانت بداية المرحلة المفتوحة أو العلنية لهذا التحول الجوهرى فى سياسة الولايات المتحدة تتمثل فى النموذج الذى كان موجهًا ضد العراق تحت حكم صدام حسين،

وأعتقد أننى أكون على صواب حين أقول إن هذه البداية كانت مع تعيين مادلين أولبرايت لتحل محل وارين كريستوفر كوزيرة للخارجية الأمريكية، فى غضون أحداث الأزمة فى العراق فى أوائل عام ١٩٩٧، وكانت أولبرايت تقود حملة الولايات المتحدة للضغط على صدام حسين عندما كانت سفيرة فى الأمم المتحدة، واستمرت فى هذه الحملة بمجرد استلامها وظيفتها الجديدة. وفى أول حديث لها عن السياسة الخارجية، أدلت به فى جامعة چورچ تاون فى شهر مارس عام ١٩٩٧، وجهت نقدًا لاذعًا لصدام حسين بسبب سجله الكئيب فى انتهاك حقوق الإنسان، ونتائج عمليات التفتيش عن السلاح التى تقوم بها لجان الأمم المتحدة، ومراوغته فى تنفيذ الحظر المفروض على العراق، وعدم إعادة الممتلكات التى سرقت من الكويت خلال غزوه لها. وقالت: إن الولايات المتحدة لن تسمح «للعقرب الذى لدغنا ذات مرة أن يلدغنا مرة ثانية»، وإن الولايات المتحدة سوف تحاسب صدام حتى ترغمه على الامتثال. كما ألمحت إلى «تغيير النظام» فى النهاية بقولها: إن العراق سوف يحصل على مساعدات ضخمة من الغرب لإعادة بنائه بمجرد قيام نظام «آخر يعقب النظام الحالى»(١٧).

كانت السياسة الجديدة لكلينتون وأولبرايت تجاه العراق على النقيض من السياسة التى انتهجها السابقون. فقد قامت إيطاليا وإسپانيا واليونان بإعادة فتح سفاراتهم فى بغداد. وبدأ العمل فى قسم رعاية المصالح الفرنسية منذ عام ١٩٩٠. كما كانت وفود البرلمانات ورجال الأعمال الأوروپيين تتملق صدام، وتم عقد صفقات تجارية جديدة. وقادت مصر دولاً عربية أخرى للضغط بهدف التخفيف من العقوبات. أما إيران فقد اتخذت طريقًا آخر عندما انتهك العراق الحظر وأرسل شحنات من النفط من خلال مياهها الإقليمية إلى دولة الإمارات العربية المتحدة. كما تمت مفاوضات بين شركات نفطية روسية وصينية وفرنسية لعقد اتفاقيات شراكة فى الإنتاج مع الشركة الوطنية للنفط العراقية، وذلك لحقول نفط معروفة لكنها لم يتم تطويرها بعد فى جنوب العراق، مما استثار حسد الشركات الأمريكية والبريطانية والألمانية والهولندية متعددة الجنسيات، وهى الشركات المتقيدة بالحظر الاقتصادى. وهناك الكثير والكثير من الدول التى ضاقت ذرعًا بأزمات التفتيش عن الأسلحة، والعقوبات الاقتصادية غير المألوفة والمدمرة (للمجتمع العراقى)، وما يترتب على ذلك من عمليات التهريب وغيرها من عمليات السوق السوداء التى كانت تزيد من ثراء صدام وزمرته، فى الوقت

الذى يزيد فيه فقر الشعب العراقى الذى طالت معاناته، الأمر الذى أدى إلى الضغط على الولايات المتحدة وعلى الأمم المتحدة للتخفيف من حدة العقوبات أو رفعها.

التقى كل من وزيرة الخارجية الأمريكية مادلين أولبرايت ومستشار الأمن القومى صامويل برجر، ووزير الدفاع ويليام كوهين فى مؤتمر عام فى جامعة ولاية أوهايو فى شهر فبراير عام ١٩٩٨. وحينما حاولوا تفسير السبب الذى قد يدفع الولايات المتحدة إلى القيام بعملية عسكرية كبرى جديدة ضد العراق، قاطعهم الطلاب المناهضون للحرب وتساءلوا عن السبب الذى يجعل الولايات المتحدة تمضى نحو مواجهة أخرى على غرار حرب ڤيتنام(١٨).

## «المحافظون الجدد» يمارسون عملهم

عندما أرسلت هذا الكتاب للطباعة، كان هنالك الكثير مما نشر حول وصف الطريقة التى من خلالها تمكن المستشارون من المحافظين الجدد الذين دخلوا إلى البيت الأبيض والپنتاجون، وحتى وزارة الخارجية - مع تنصيب الرئيس چورچ بوش الابن - من دفع الولايات المتحدة نحو المواجهة. وفيما يلى قائمة سريعة بأهم هؤلاء المستشارين ومواقعهم من السلطة: پول ولفوويتز نائب وزير الدفاع دونالد رامسفيلد وأحد المهندسين الأساسيين فى سياسة بوش فى الحرب على العراق؛ وريتشارد پيرل وهو أحد الأعضاء الخفيين، على الرغم من تأثيره الشديد فى مجلس السياسات الدفاعية (ورئيس سابق للمجلس)؛ وچيمس وولسى، وهو من كبار المسئولين خلال أربع فترات رئاسية، وكان مديراً لوكالة المخابرات المركزية فى فترة رئاسة كلينتون، ويعمل حاليًا فى شركة بوز ألين هاملتون للاستشارات الإدارية؛ وكينيث أدلمان، من المسئولين المخضرمين فى إداراتى الرئيسين الجمهوريين فورد وريجان؛ ودوجلاس فيث، نائب وزير الدفاع والرجل الثالث فى الوزارة، ومسئول عن «إعادة بناء» ودمقرطة العراق بعد ٣٠ يونيو عام ٢٠٠٤، وهو التاريخ المفترض لنقل السيادة من قوات الاحتلال التى تقودها الولايات المتحدة فى العراق إلى حكومة عراقية من المفترض أن تكون سهلة القياد؛ وچى لويس، رئيس الأركان لنائب الرئيس ديك تشينى.

فى وزارة الخارجية كان كولين پاول ورجاله من الدپلوماسيين والمحللين المحترفين

بوجه عام أقل تلهفًا بدرجة كبيرة للدخول فى الحرب. ولكن پاول كان يدافع فى العلن عن الافتراض الخيالى جدًا حول امتلاك صدام حسين لأسلحة دمار شامل، أمام الأمم المتحدة وفى أى مكان آخر، قبل الهجوم الذى تم بقيادة الولايات المتحدة فى شهر مارس عام ٢٠٠٣ بعدة أسابيع. وبعد مرور عام من تلك الأحداث كان من المتعين عليه أن يعترف بأن البيانات التى عرضها بذلك الشكل من الإثارة كانت غير صحيحة. وكان للمحافظين الجدد حليف قوى داخل وزارة الخارجية وهو چون بولتون، وكيل وزارة الخارجية بإدارة الحد من التسلح. وفى البيت الأبيض كانت مستشارة الأمن القومى كوندليزا رايس، وهى متخصصة سابقة فى الشئون الروسية ومن كبار الأكاديميين ولكن خبرتها فى شئون الشرق الأوسط قليلة أو منعدمة، ونائبها الصقر المتشدد ستيفن هادلى(١٩).

يتفق غالبية المراقبين فى واشنطن على أن ولفووتز، أو وولفى كما يطلق عليه بعض أصدقائه وزملائه، الذى درس السياسة الدولية فى جامعة چون هوپكنز فى بالتيمور وواشنطن، هو أذكى شخص فى هذه المجموعة التى تتألف فى معظمها من ذوى الخبرة السابقة فى مسائل الحرب «الباردة». وكان غالبًا يتعرض للانتقاد بدعوى تأثيره على مفهوم الرئيس ريجان فى وصفه للاتحاد السوڤييتى بعبارة «إمبراطورية الشر»، التى تعد بادرة من أحد مفكرى الحزب الجمهورى استوحى منها الرئيس چورچ بوش الابن مفهوم «محور الشر» الذى كان يقصد به كلاً من العراق وإيران وكوريا الشمالية، وشن الحروب الاستباقية أو الإجهاضية إذا دعت الضرورة للحفاظ على زعامة الولايات المتحدة ونفوذها. ويدين ولفووتز بالديانة اليهودية مثل كثيرين غيره من المحافظين الجدد؛ كما أنه يشبه غيره من المحافظين الجدد من حيث ارتباطه بصلات قوية وروابط متينة برئيس الوزراء الإسرائيلى آريل شارون وبأفكاره فى إسرائيل. وقد أشار الكاتب الألمانى كلاوس لوتربيك إلى ولفووتز الذى ينحدر من أبوين يهوديين كانا يعيشان كلاجئين فى پولندا هربًا من النازية، وقد فقد الكثير من أفراد عائلته فى محارق الإبادة الجماعية «الهولوكوست» بقوله: إنه رجل «يتحرك بروح اتفاق ميونخ»، إشارة إلى واقعة الخيانة التى استهدفت تشيكوسلوڤاكيا فى عام ١٩٣٨، حينما وافق رئيس وزراء بريطانيا فى ذلك الوقت شامبرلين على استيلاء أدولف هتلر على سودتنلاند التابعة

لأراضى التشيك كى يتجنب تعرض أوروپا لخطر الحرب. وقد كتب لوتربيك عن ذلك يقول:

«إن إدارة بوش على قناعة ـ ولكنها لا تبوح بها ـ بأن «أوروپا القديمة» (هكذا يشير رامسفيلد على سبيل الاحتقار إلى فرنسا وألمانيا والبلدان الأخرى التى كانت ترفض الحرب على العراق بقيادة الولايات المتحدة) لم تتعلم من ذلك العار (يقصد اتفاق ميونخ) وسوف تستمر دائمًا فى الركوع أمام الدكتاتوريين (من أمثال صدام)؛ لأسباب خاصة أحيانًا، ولأسباب اقتصادية فى أحيان أخرى، ولكنها تركع فى كل الأحوال بدافع الخوف. أما ولفووتز فيقول: «من الأفضل الدخول فى حروب صغيرة على الفور بدلاً من الدخول فى حروب كبرى فيما بعد»؛ فإن العالم يواجه اليوم مشكلة تتعلق بالمصير. ولهذا فإنه لا بد من الإطاحة بصدام قبل أن يحصل الإرهابيون منه على أسلحة ذرية»[٢٠].

يعتبر كل من ولفووتز وپيرل وولسى من أتباع وتلاميذ الراحل ألبرت وولستيتر، الأستاذ بجامعة شيكاجو، وكان يرى خلال الحرب الباردة أن الردع السلبى ليس كافيًا، وأنه يجب تحييد قوة الاتحاد السوڤييتى النووية التى يتم التهوين من قدرها؛ وذلك من خلال شن حرب فعلية عليه باستخدام الأسلحة النووية. وقد كان وولستيتر مشرفًا على رسالة الدكتوراه التى حصل عليها ولفووتز. وبعدها دعا پيرل كى يعمل مع ولفووتز فى بحث حول المعاهدة المقترحة للقضاء على الصواريخ الباليستية (ABM)، وهى المعاهدة التى تخلت عنها إدارة بوش الابن، مثلما فعلت بعدد من المعاهدات الدولية غيرها. رتب وولستيتر لقاءً يجمع بين پيرل والسيناتور هنرى چاكسون وهو من ذوى الخبرة العميقة بالحرب الباردة، ومن المؤيدين للمصالح الإسرائيلية. كما أنه قدم پيرل أيضًا إلى أحمد الجلبى الذى كان يأمل (ولكن دون جدوى) أن يصبح رئيسًا للعراق الجديد بعد سقوط صدام حسين. ومن المعروف أن پيرل يساند بوجه عام أريل شارون ويدعم رؤى حزب الليكود فى إسرائيل، وكان يعمل فى وقت من الأوقات فى مجلس إدارة صحيفة جيروزاليم پوست؛ ذات التوجه اليمينى القوى والمؤيدة لشارون. ولقد كان لپيرل علاقات بالعديد من المقاولين فى مجال الدفاع الذين كانوا مرتبطين بشكل وثيق بعلاقات عمل مع إسرائيل كاستشاريين. وهو حاصل على درجة

الزمالة فى معهد المشروعات الأمريكى (AEI) الذى يعد بمثابة أحد معاقل الفكر المحافظ. وفى المؤتمرات السنوية التى كانت تعقد تحت رعاية كل من معهد المشروعات الأمريكى والرئيس الأمريكى السابق چيرالد فورد فى ڤيفر جريك بولاية كولورادو، كان كل من الجلبى وتشينى ورامسفيلد وولفوتز يلتقون مع پيرل، كما كانوا يلتقون مع بعضهم البعض[٢١].

فى منتصف عام ١٩٩٦ تم عمل دراسة رائدة تحت رعاية أحد معاقل الفكر فى إسرائيل وهو معهد الدراسات الاستراتيچية والسياسية، كانت بهدف توجيه رئيس الوزراء الإسرائيلى الجديد ناتنياهو الذى يعد من الصقور البارزين فى حزب الليكود فى مشروعه ومغامراته. وكان من بين الذين كتبوا فيها ريتشارد پيرل ودوجلاس فيث وداڤيد ورمسار (الذى حصل فى عام ٢٠٠٤ على منصب فى البيت الأبيض إبان الضغوط التى كانت تمارس على سوريا بهدف الانصياع لرغبات واشنطن وتل أبيب المتعلقة بوقف تأييد سوريا لحزب الله فى لبنان وسحب قواتها من لبنان وبوجه عام الامتثال «للحقائق الجديدة» التى خلقها الوجود الأمريكى الكثيف فى العراق المجاور لسوريا). وهؤلاء الرجال الثلاثة عملوا جميعًا كصناع سياسات أو مستشارين فى إدارة چورچ بوش الابن. وكانت الدراسة تحمل عنوانًا فخمًا وهو «استراحة نظيفة: استراتيجية جديدة لضمان أمن عالمنا» (ما هو العالم الذى يقصدونه، العالم الإسرائيلى أم الأمريكى أم ملتقى العالمين؛ الأمر ليس واضحًا على وجه الدقة). كانت الوثيقة بمثابة وصفة شاملة لإعادة تشكيل الشرق الأوسط بكامله حتى يصبح على مقاس الأهداف المشتركة لإسرائيل والولايات المتحدة. فقد نسفت اتفاقيات أوسلو، التى أصبحت تترنح بالفعل الآن، وهى الاتفاقيات التى نجح الرئيس كلينتون فى التصديق عليها فى حديقة البيت الأبيض فى عام ١٩٩٣ مع كل من رابين وبيريز وعرفات. وطالبت الوثيقة إسرائيل بالاحتفاظ بحق غزو المناطق الواقعة تحت سيطرة السلطة الفلسطينية فى الضفة الغربية وغزة فى أى وقت ترى إسرائيل فيه أن الضرورة تقتضى القيام بهذا الغزو. كما كانت الوثيقة تؤيد إقصاء صدام حسين عن السلطة بالقوة طالما أن ذلك يبدو ضروريًا، وطالبت بالإطاحة بحكومات سوريا ولبنان والمملكة العربية السعودية وإيران أو إثارة حالة من «عدم الاستقرار» فيها. وإعادة إرساء سياسة

الضربات العسكرية الاستباقية والإشادة بها. وكان تعليق صحيفة واشنطن پوست ذات الاتجاه المحافظ على مقتطفات نشرتها من التقرير بعد حصولها على الموافقة على ذلك: «إن إسرائيل قد تجاوزت الحدود مع خصومها» من خلال «إعادة إرساء مبدأ واحد فقط وهو المبادرة إلى التخلص منهم مسبقًا بدلاً من الانتقام» (مقابل أعمال العنف من جانب العرب). واقترحت بتقوية التحالف بين إسرائيل وتركيا والأردن (مما يؤدى إلى عزل «الأنظمة الشريرة» أى سوريا ولبنان). كما اقترحت أيضًا أنه بمجرد الإطاحة بصدام فإنه من الممكن عودة الحكم الملكى الهاشمى القديم الذى كان يحكم العراق قبل عام ١٩٥٨؛ حيث ورد فى هذا الشأن: «حيث إن مستقبل العراق يمكن أن يؤثر على التوازن الاستراتيچى فى الشرق الأوسط بشكل عميق، فمن المفهوم أن من مصلحة إسرائيل أن تدعم الأسرة الهاشمية فى جهودها لإعادة تشكيل العراق[٢٢].

وفى إحدى مقابلاته العديدة مع وسائل الإعلام المحافظة، أخبر ريتشارد پيرل صحيفة «واشنطن ناشيونال چورنال» فى مايو ٢٠٠٣م، وذلك بعد شهرين من الاحتلال الأمريكى للعراق، أنه كان أول من طالب بالإطاحة بصدام فى عام ١٩٨٧م، وذلك بعد وقت قصير من تركه البنتاجون وقبل وقت طويل من غزو العراق للكويت. وقد تشكلت وجهة نظر پيرل بواسطة «طبيعة نظام صدام وطموحاته، التى أصبحت سافرة حينما قام بغزو الكويت. وعلى الرغم من أن صدام لم يكن ينظر إليه حتى ذلك الوقت على أنه يمثل تهديدًا مباشرًا للولايات المتحدة، فإن آراءه قد تجسدت خلال عقد التسعينيات. وأضاف أن «وجود صلات إرهابية لنظام صدام هى شىء جوهرى» ولكن كان هناك أيضًا بعد سياسى. «ومع وقوع هجمات الحادى عشر من سپتمبر، أصبح واضحًا أن السياسة الأمريكية تجاه العراق فى طريقها للانهيار». وكانت العقوبات المفروضة على العراق غير فعالة، وتحول صدام إلى «بطل فى عين العالم العربى، وتجعله يلجأ إلى حيازة أسلحة دمار شامل، وتجعله عدوانيًا، وتربطه بالإرهاب. ونسى الشعب إلى أين يؤدى ذلك»[٢٣].

أصبح چورچ بوش الابن رئيسًا لأمريكا فى يناير ٢٠٠١م وذلك بعد انتخابات أثارت الكثير من الجدل، وتم البت فيها بواسطة قضاة محافظين فى فلوريدا وفى المحكمة الأمريكية العليا. وسرعان ما أصبح جليًا أن بوش ومستشاريه من المحافظين الجدد ماضون قدمًا نحو حملتهم الصليبية للإطاحة بصدام، وإعادة تشكيل الشرق

الأوسط إذا استطاعوا إلى ذلك سبيلاً . كيف تم ربط ذلك بخطط إسرائيل فى المنطقة والأخطاء التى حدثت فى عالم المخابرات؟ وما هى النتائج المترتبة على الولايات المتحدة والعراق وإسرائيل والعالم؟ فذلك هو موضوعنا النهائى .

* * *

# الفصل الحادى عشر

## نهاية اللعبة:
## دمقرطة العراق
## أم
## تقطيع أوصاله؟



**سياستى الداخلية؟ أشعل الحرب. سياستى الخارجية؟ أشعل الحرب . . . . . وسأظل دائما أشعل الحرب، فى كل مكان، أشعل الحرب. . وسأستمر فى إشعال الحرب حتى آخر لحظة.**

**(چورج كليمنصو، ٨ مارس ١٩١٨)**

«عقاب الرب» هكذا وصفت صحيفة «الاقتصادى» العراقية التى تملكها الدولة، وبحروف عربية سوداء عريضة، الهجمات الجوية الرهيبة التى تعرضت لها نيويورك وواشنطن فى ١١ سپتمبر ٢٠٠١، فى ذكراها الأولى فى سپتمبر ٢٠٠٢.

فى اليوم التالى، ألقى الرئيس چورچ بوش خطابًا فى الجمعية العامة للأمم المتحدة، عبر فيه عن قلقة إزاء عدم قدرة الأمم المتحدة على تنفيذ القرارات التى أصدرتها فى التسعينيات والخاصة بنزع أسلحة العراق، حيث قال:

«يواجه العالم الآن اختبارًا صعبًا، وتواجه الأمم المتحدة لحظة صعبة وحاسمة. هل سيتم احترام وتطبيق قرارات مجلس الأمن أم أنها ستنحى جانبًا ولن يكون لها أى أثر؟ هل ستقوم الأمم المتحدة بما أنشئت لأجله أم أنها ستكون بلا جدوى؟».

فالأمم المتحدة كانت لديها الفرصة لفرض إرادتها على صدام حسين. وأوضح بوش أنها لن تفعل، فإن الولايات المتحدة وحلفاءها ـ الذين أطلق عليهم دونالد رامسفيلد وزير الدفاع الأمريكى «ائتلاف الذين يريدون» ـ سيقومون بشن حرب ضد العراق[١].

وقد أدت هجمات الحادى عشر من سپتمبر، التى اعتقد الكثير من كبار المسئولين الأمريكيين فى واشنطن أنها بداية الحرب العالمية الثالثة، إلى قيام الپنتاجون برفع درجة التأهب إلى الدرجة القصوى DEFCON 3، للمرة الأولى منذ حرب ١٩٧٣ بين العرب وإسرائيل. وقد لقى حوالى ٣٠٠٠ شخص مصرعهم فى نيويورك وواشنطن

وبنسلفانيا. وبدأ ربط صدام بالفعل فى ذهن الأمريكيين، على نحو خاطئ، بالتفجيرات الوحشية التى قام بها تنظيم القاعدة فى مركز التجارة العالمية والبنتاجون. وفى صباح الأربعاء الموافق ١٢ سبتمبر، ووفقًا لريتشارد كلارك، رئيس قسم مكافحة الإرهاب لدى إدارتى الرئيس كلينتون ومن بعده بوش، بدأ رامسفيلد ونائبه پول وولفويتز فى الحديث عن «النيل من العراق». ويضيف كلارك أن وولفويتز كان مصراً على أن القاعدة وحدها لا يمكنها القيام بهجمات الحادى عشر من سبتمبر وأن هناك دولة ما ـ العراق على وجه التحديد ـ قد ساعدتها. ويذكر كلارك أيضًا أنه فى أبريل ٢٠٠١، فى اجتماع على مستوى مساعدى الوزراء فى الإدارة، قال وولفويتز نفس الشىء عن تفجيرات برج التجارة العالمية عام ١٩٩٣، أول هجمات القاعدة داخل الولايات المتحدة. وللمرة الثانية، كان وولفويتز وزملاؤه من المحافظين الجدد ومؤيدوهم مثل الباحث والمؤلف لورى ميلروى، مصرين على أن العراق متهم أساسى.

ولم يوافق وزير الخارجية، كولن پاول، ومساعده ريتشارد أرميتاج، على رأى المحافظين الجدد المجتمعين فى يوم ١٢ سبتمبر، فقد أصر كلاهما على أنه يجب أن يظل تنظيم القاعدة وحلفاؤهم من طالبان فى أفغانستان الأهداف الأولى للهجمات الأمريكية المضادة. وبالرغم من ذلك، كرر رامسفيلد أن العراق يستحق العقاب وأنه يمثل «هدفًا أفضل» من أفغانستان. وكتب كلارك يقول إن الرئيس بوش لم يرفض فكرة الهجوم على العراق بصورة كاملة، ولكنه قال إنه يجب تغيير نظامها وليس مجرد ضربها مجددًا بصواريخ كروز. وجاء رد فعل الچنرال هيو شيلتون، رئيس هيئة الأركان المشتركة، حذراً. وكان يؤمن بأنه لا يمكن القضاء على نظام صدام سوى عن طريق غزو العراق بقوة كبيرة، وأن ذلك سيستغرق شهوراً من أجل الإعداد له. وفى ذلك المساء، على حد قول كلارك، استدعاه بوش مع كثير من الأشخاص فى قاعة اجتماعات صغيرة وأصر على أن يقوم جميعهم «بمراجعة ودراسة كل شىء. والتفكير فيما إذا كان صدام حسين قد فعل ذلك وما إذا كان متورطًا بأى شكل من الأشكال». وبعد العديد من المشاورات فى يوم ١٣ سبتمبر، كان هناك إدراك بأنه يجب إعطاء أولوية للقاعدة وأفغانستان، ولكن تلك فقط لمرحلة أولى فى «الحرب على الإرهاب»[٢].

## اصطياد صدام

فى اجتماع لمجلس الأمن القومى NSC فى فبراير ٢٠٠٢، وصل وزير المالية پول أونيل إلى قاعة الاجتماعات الملحقة بالبيت الأبيض من أجل البحث عن مواد ومصادر مختصرة لاجتماع حول العراق. ولم ينصب اهتمامهم فقط على نظام العقوبات الاقتصادية ولكن أيضًا على «خطة سياسية عسكرية للأزمة العراقية فى حقبة ما بعد صدام». وخلال البحث عن عقوبات محسنة «موجهة» أقل قسوة على المدنيين العراقيين، تدخل رامسفيلد، قائلاً إن «العقوبات لا بأس بها. ولكن ما نرغب فيه هو النيل من صدام». وأدرك أونيل أن هدف إدارة بوش الأساسى فى الشرق الأوسط أصبح الإطاحة بنظام صدام الذى يمثل تهديدًا للنفوذ الأمريكى فى الشرق الأوسط، وبذلك يكون عبرة لكل من تسول له نفسه تحدى هذه السلطة[٣].

وأكد بوب ود وارد فى كتابه الذى حقق أعلى المبيعات، بعنوان «خطة الهجوم»، والمعتمد على مئات اللقاءات مع المسئولين والزعماء ومن بينهم الرئيس بوش، على أن إدارة بوش كانت تسعى إلى الإطاحة بصدام وإعادة تشكيل العراق على نحو ديمقراطى مزعوم. وكان بوش مؤمنًا بنظرية لورى ميلروى بأن صدام كان متورطًا فى تفجيرات برج التجارة العالمية عام ١٩٩٣، والتى على أثرها أرسل پول وولفويتز، چيمس وولسى، أحد المحافظين الجدد والمدير الأسبق للاستخبارات المركزية، إلى بريطانيا من أجل جمع أدلة حول تلك النظرية. وأعرب ريتشارد كلارك عن مدى سعادته لوجود ذريعة للنيل من نظام صدام حسين (حيث استشاط غضبًا عندما علم بالصفح عن صفوة قوات صدام وعن صدام نفسه بعد حرب الخليج عام ١٩٩١). ومع ذلك، فقد أشارت كل التقديرات والمعلومات الاستخباراتية المعول عليها بأصابع الاتهام إلى القاعدة وزعيمها أسامة بن لادن[٤]. وأعلن كلارك على نحو لاذع أن نجاح خطط القاعدة منذ عام ١٩٩٣ فى الشرق الأوسط وأفريقيا وآسيا وأمريكا، أدت إلى نشر شعار الإرهاب الخاص بأسامة بن لادن والمفاهيم المرتبطة به لدرجة أنه بالرغم من وجوده فى المخبأ، «إلا أنه اكتشف أن هناك مخططًا لشن حرب وقائية ضد العراق» (وقبل أن يرفع الرئيس بوش وتونى بلير، رئيس وزراء بريطانيا، شعارهما «لا يوجد قرار للحرب بعد»)[٥].

وقد استمر التخطيط للحرب فى الپنتاجون طيلة عام ٢٠٠٢.

وفى يوم ٢٦ أغسطس، أعلنت بعض وسائل الإعلام أن المستشارين القانونيين فى البيت الأبيض أفتوا بأن خلع صدام يعد قانونيًا فى ظل القانون الدولى، لأنه انتهك اتفاقيات الهدنة التى وضعت نهاية لحرب الخليج فى عام ١٩٩١ . وفى نفس اليوم، حذر تشينى فى حوار فى ناشفيل، بولاية تينيسى من أنه إذ لم نتحرك على جناح السرعة، فسوف تجد الولايات المتحدة نفسها تحت رحمة العراق المسلح نوويًا[٦] .

## فصل المشكلة الفلسطينية

يبدو أن الكثيرين من المخططين للحروب قد آمنوا بوجود القليل أو عدم وجود أى ارتباط على الإطلاق بين مشكلة العراق والقضية الفلسطينية ـ الإسرائيلية، بمعنى أنهما منفصلان تمامًا عن بعضهما البعض. وفى أول اجتماع للرئيس بوش مع المسئولين فى مجلس الأمن القومى قام بمناقشة «سياسة الشرق الأوسط». وقد حاول الرئيس بيل كلينتون ومستشاروه جاهدين التوصل إلى تسوية شاملة ودائمة بين إيهود باراك رئيس الوزراء الإسرائيلى وياسر عرفات، رئيس السلطة الفلسطينية المنتخب فى الضفة الغربية وقطاع غزة. وقد أوشك الطرفان على التوصل إلى اتفاق، عبر اجتماعهما فى عام ١٩٩٩، أولاً فى كامب ديفيد بولاية مارى لاند، ولاحقًا فى طابا بمصر، حيث كان الرئيس كلينتون لا يألو جهدًا فى رعاية المفاوضات.

وافق الفريق الإسرائيلى، افتراضيا، على الكثير من مطالب الفلسطينيين الخاصة بالأراضى، بما فى ذلك تقسيم القدس. وكان لإسرائيل أن تحصل على ضمانات أمنية لحدودها النهائية التى تحرسها الأمم المتحدة، بالإضاف إلى ٣٢ مليار دولار كمساعدات دولية، أغلبها أمريكية. كما تم التفاهم[*] حول المطلب الفلسطينى الجوهرى والصعب الخاص «بحق العودة» لمئات الألوف من الفلسطينيين الذين نزحوا أو تم طردهم بواسطة الدولة اليهودية الجديدة فى عام ١٩٤٨ . ولكن كان كل من باراك وعرفات فى وضع سياسى ضعيف بسبب الضغوط التى كانا يواجهانها من جانب العناصر المتطرفة فى كلا

(*) ماذا يعنى التفاهم؟ هل هو تأكيد لحق العودة، طبقًا لقرارات الأمم المتحدة، وطبقًا لميثاق حقوق الإنسان؟ أم هو انتهاك له؟ ـ المترجم.

المجتمعين. وقد فشلت محادثات كامب ديفيد، بأن غادر الرئيس عرفات طاولة المفاوضات، وكان ذلك على الأرجح بسبب شعوره بأن المجتمع الفلسطينى لن يؤيد الاتفاقيات التى كان على وشك توقيعها(*). وفى طابا، كان شيطان الفشل يكمن فى التفاصيل. وأسدل الستار على المفاوضات.

وبعد أن قام مجلس الأمن القومى الجديد لبوش بتقييم مشكلة الانتفاضة الفلسطينية والعودة إلى العنف الواسع النطاق، أعلن بوش أنه يرغب فى تصحيح «الاختلال» فى سياسة كلينتون بالنسبة للصراع فى الشرق الأوسط وأضاف: «إننا سنعيد ميزان القوى لكى يميل نحو إسرائيل . . . وإذ لم يرغب الجانبان فى السلام، فلا يوجد سبيل لإجبارهما على ذلك». وأعلن بوش آنذاك أنه يحاول مد الجسور مع أريل شارون، رئيس الوزراء الإسرائيلى المنتخب حديثًا، وأنه يعتقد أنه آن الأوان لكى تنفض الولايات المتحدة يدها من الموضوع(٧).

وسرعان ما بدا واضحًا لكل من يهمه الأمر أن مستشارى بوش قد أقنعوه بتنحية قضية فلسطين جانبًا، ثم الانتظار لرؤية ما يمكن لشارون فعله إزاءها. وسرعان ما بدا واضحًا أيضًا أن العراق سيحتل الأولوية الأولى على القائمة الأمريكية من الآن فصاعدًا. وفى أبريل عام ٢٠٠٤، قام شارون بزيارة بوش، الذى وافق على مشروعه الخاص بالانسحاب من غزة، والإبقاء على الكثير من المستوطنات فى الضفة الغربية، دون استشارة الفلسطينيين أو التفاوض معهم.

وقامت كارين كويا توسكى، الضابطة السابقة بالقوات الجوية الأمريكية والتى أصبحت محللة للمعلومات الاستخباراتية فى البنتاجون فى مايو ٢٠٠٢، بتسجيل انحياز بوش نحو إسرائيل ونحو شن الحرب على العراق. وكانت تعمل فى مكتب قائد الأسطول الأمريكى المتقاعد، بيل لوتى، الذى أصبح نائبًا لوزير الدفاع فى إدارة بوش. رأت كارين كيف تم استبدال شخصيات محورية فى ذلك القسم من البنتاجون الذى يفترض أنه محايد سياسى، بآخرين ذوى توجيهات أيديولوچية، أغلبهم من

(*) دائمًا وأبدا يتحمل الفلسطينيون اللوم على فشل المحادثات برغم أنهم الضحية، وإسرائيل هى المنتهكة لحقوقهم ولقرارات الأمم المتحدة ولميثاق حقوق الإنسان ـ المترجم.

خارج الحكومة. وحذرها زميلها فى المكتب، وكان أحد المتخصصين فى العلاقات الأمريكية العسكرية - السياسية مع مصر، بأنها إذا كانت ترغب فى مواصلة العمل، فيجب عليها «عدم التفوه بأى شىء إيجابى لصالح الفلسطينيين». وكان أحد مساعدى لوتى المؤقتين، هو الضابط البحرى المصرى الأمريكى يوسف أبو العينين. والذى كان جزءاً من مهمته، كما اكتشفت لوتى، يتمثل فى التمعن فى وسائل الإعلام الناطقة بالعربية واكتشاف الكلمات والأحداث التى يمكن استخدامها فى تشويه صورة صدام حسين أو ربطه بشخصيات شريرة، أو أفعال قذرة «خارج الحدود» أو بعبارة أخرى، إرهابيين. كما اكتشفت كارين فى الموجز الإخبارى، من منتصف مايو وحتى منتصف يوليو ٢٠٠٢، «أخباراً تقوم على التخطيط للحرب من أجل غزو العراق».

## العصابة تبدأ عملها

فى نهاية صيف عام ٢٠٠٢، لاحظت كوياتوسكى وآخرون إنشاء مكتب جديد فى الدور الخامس فى البنتاجون أطلق عليه «مكتب الخطط الخاصة» (OSP) وتم تحذيرهم من عدم التعليق على ذلك أو مناقشته مع أى من كان. وتم إصدار تعليمات للعاملين باستخدام المواد المتوافرة فى «مكتب الخطط الخاصة» لإعداد تقاريرهم[٨].

وقد قام الصحفى المتميز، سيمور هيرش، فى مايو ٢٠٠٣ بوصف أعمال «العصابة» «كابل»، وهو الاسم الذى أطلقه المسئولون فى المكتب على أنفسهم كنوع من «السخرية». حيث قام هيرش بوصف كيفية إعدادهم للتقارير الاستخباراتية، دون اعتماد على الاستخبارات المركزية، أو أى جهاز أمنى آخر (على الرغم من أنهم كانوا كثيراً ما ينسبون المعلومات إليهم)، من أجل التأثير على الرأى العام وعلى سياسة الحكومة فيما يتعلق بالحرب على العراق. واستقوا معظم معلوماتهم، والتى ثبت خطأها بعد ذلك، من أحمد الجلبى ومنشقين عراقيين آخرين. وكان يرأس «مكتب الخطط الخاصة» أبرام شولسكى، الباحث ذو الأفكار الراديكالية حول «دمقرطة» الشرق الأوسط والتلميذ النجيب، للفيلسوف السياسى، ليوشتراوس، صاحب نظرية الاعتماد على الحس الداخلى بنفس اعتمادنا على الحقيقة. وكان من بين رفاق

شولسكى، دوجلاس فيث وبيل لوتى وپول وولفويتز . الذين كانوا يصرون جميعًا على أن الاستخبارات المركزية أخطرت صناع السياسة الأمريكية والشعب الأمريكى، عن طريق الخطأ، بوجود علاقة ضئيلة أو عدم وجود علاقة على الإطلاق بين صدام حسين وإرهابيى القاعدة . وضربوا بالمعلومات الخاصة بعدم عثور المفتشين التابعين للأمم المتحدة على أسلحة دمار شامل فى العراق عرض الحائط، وقاموا بإرسال لجنة تفتيش إلى هناك بقيادة رئيس المحققين السويدى، هانز بليكس . وكانت نظرية المحافظين الجدد تقوم على أساس أن صدام حسين تربطه علاقات وطيدة برجال بن لادن وأن العراق، على حد قول هيرش، «لديه ترسانة هائلة من الأسلحة الكيميائية والبيولوچية وربما النووية، تهدد المنطقة، بل وربما تهدد أيضًا الولايات المتحدة» . وقبل وقوع هجمات الحادى عشر من سپتمبر، أعلن ريتشارد پيرل، أمام اللجنة الفرعية للعلاقات الخارجية لمجلس الشيوخ، «أننا نعلم أن [صدام] لديه أسلحة كيميائية وبيولوچية» . كما عبر عن اعتقاده بوجود أسلحة نووية أيضًا فى ترسانة صدام(٩) .

وقد لاحظت كوياتوسكى، أن هناك چنرالات إسرائيليين وآخرون يسمح لهم أحيانًا بالتواجد دون أن يقدموا بطاقات الهوية الخاصة بهم أو التوقيع، وذلك بتصريح من دوجلاس فيث . وكان المطلعون على بواطن الأمور فى واشنطن على دراية كاملة بأن مكتب الخطط الخاصة (OSP) كان يقوم بإعادة صياغة المعلومات الاستخباراتية و«تطويعها» لكى تلائم صانعى القرار . قام تشينى نائب الرئيس، بالعديد من الزيارات لمقر الاستخبارات المركزية فى لانجلى من أجل حث المحللين هناك على العمل بجد من أجل إيجاد دليل يدين العراق . كان هناك أيضًا شريك لمكتب الخطط الخاصة يتبع مكتب شارون رئيس الوزراء الإسرائيلى فى القدس، لا يعتمد على الموساد ولا على جهاز الاستخبارات العسكرية الإسرائيلية (أمان) . وكان يتم إعداد التقارير بالإنجليزية وليس بالعبرية، ثم ترسل مباشرة إلى واشنطن .

## آليات التحالف

وقد أعلنت أهم وأقوى منظمة لتجمع المصالح الإسرائيلية فى الولايات المتحدة،

وهى لجنة الشئون العامة الأمريكية ـ الإسرائيلية، (أيپاك) بكل فخر فى ورقة تم إعدادها فى أكتوبر ٢٠٠٣، أن الحكومتين تعملان معًا من أجل «مكافحة الإرهاب والحد من خطر انتشار الأسلحة». وتعتبر إسرائيل هى العضو الوحيد من خارج حلف شمال الأطلنطى التى تنتمى إلى مجموعة الدعم الفنى لمكافحة الإرهاب، والتى تتكون من خمس دول تقودهم الولايات المتحدة. وأضافت لجنة الشئون العامة الأمريكية الإسرائيلية (أيپاك)، أن القدس وواشنطن قد اتفقا على تبادل المعلومات الاستخباراتية فى حالة الاكتشاف المبكر لعمليات إطلاق أية صواريخ. ويضيف التقرير أن المعلومات الهامة حول صواريخ إيران الباليستية وبرامجها للأسلحة النووية والتى كانت تؤرق الولايات المتحدة فى عام ٢٠٠٤، أدلت بها إسرائيل. وكذلك المعلومات الاستخباراتية حول أنشطة حزب الله فى لبنان والجماعات الإرهابية الأخرى فى الشرق الأوسط، جاءت عبر إسرائيل. كما قدمت الأقمار الصناعية الأمريكية «معلومات استخباراتية تدنو من الوقت الفعلى» للهجمات الجوية أو الصاروخية على إسرائيل. وتضيف لجنة الشئون العامة الأمريكية الإسرائيلية، أن إسرائيل قدمت أيضًا معلومات استخباراتية لفرق التفتيش عن الأسلحة فى العراق، التابعة للأمم المتحدة، بعد حرب الخليج الأولى، «مما مكنها من الوصول إلى وثائق وبيانات ومنشآت سرية». وربما تشير اللجنة إلى وجود تنسيق بين مكتبى الخطط الخاصة فى القدس وواشنطن. وأضافت اللجنة أن «مجموعة تخطيط السياسة الاستراتيجية» كانت تجتمع من أجل مناقشة سبل تحسين وتقوية العلاقات بين الولايات المتحدة وإسرائيل حول «وسائل الدفاع ضد الصواريخ ومنع الدول المارقة من امتلاك أسلحة دمار شامل وطرق الإنذار المبكر». وكان متوسط عدد الذين يقومون بزيارة إسرائيل كل شهر من الپنتاجون والشخصيات العسكرية حوالى ٣٠٠ شخص. كما يقوم كبار القادة العسكريين الإسرائيليين بزيارة وتفقد المنشآت الأمريكية. كذلك يقوم كبار القادة فى الجيش والبحرية وسلاح الطيران وخفر السواحل، مرتدين بزاتهم الرسمية، «بزيارات متبادلة مع قيادات وزارة الدفاع الإسرائيلية».

كان هناك خط تليفون ساخن بين وزارة الدفاع الأمريكية ووزارة الدفاع الإسرائيلية فى تل أبيب. وكانت هناك مجموعتان رسميتان مشتركتان على أعلى مستوى تعملان

قبل مجيء إدارة بوش ومكتب الخطط الخاصة. وتتمثل إحداهما فى المجموعة السياسية - العسكرية المشتركة، التى أنشئت عام ١٩٨٣ (عندما تم إرسال قوات المارينز الأمريكية إلى لبنان للمرة الأولى ثم انسحابها بعد ذلك إثر الهجمات الإرهابية على السفارة الأمريكية والقاعدة البحرية الأمريكية). وتجتمع تلك المجموعة مرتين كل عام. أما المجموعة الثانية فهى مجموعة التخطيط الوزارى المشترك. وتتكون تلك المجموعة من وزيرى الدفاع والمالية الإسرائيليين ووزيرى الدفاع والخارجية الأمريكيين، ومن المفترض أن تجتمع سنويًا، على حد قول لجنة الشئون العامة الأمريكية - الإسرائيلية، «من أجل مناقشة حاجة إسرائيل المتزايدة للدعم العسكرى الأمريكى وحاجتها المتناقصة للدعم الاقتصادى»(١٠).

وفى السابع من أغسطس عام ١٩٩٨، حدث هجوم القاعدة على السفارتين الأمريكيتين فى كينيا وتنزانيا، والذى أسفر عن مقتل حوالى ٣٠٠ شخص وجرح حوالى ٥٠٠٠ شخص أغلبهم من الأفارقة. وعندما واجه سلاح الطيران الأمريكى مشكلة لوچيستية فى إرسال المساعدة بسرعة، قامت إسرائيل فى الحال بإرسال طائرة خاصة محملة بالمعدات وبفريق متخصص من أجل البحث والإنقاذ. وكانت أول من يصل إلى مسرح الحادث(١١).

وقد أدت السمعة السيئة التى شابت مكتب الخطط الخاصة فى واشنطن - حيث شعر الكثيرون بأن المعلومات التى كانت تقدم للرئيس يتم لىّ عنقها أو تزيينها باستخدام بيانات كاذبة تم الحصول عليها من مارقين عراقيين أو من أى مكان آخر - إلى حل المكتب بحلول خريف ٢٠٠٣. ولكن الضرر الذى ألحقته التوجهات الأيديولوچية بمصداقية الاستخبارات الأمريكية كان قد وقع بالفعل. فقد أعلن هانز بليكس، فى مذكراته بعنوان «نزع أسلحة العراق» أن تشينى نائب الرئيس، هدد هانز بليكس بأنه «سيشكك فى مصداقية التفتيش» إذا لم تأت نتائج التفتيش على نحو يلائم إدارة بوش. ويؤكد بليكس أن كل ادعاءات كبار المسئولين الأمريكيين فيما يتعلق ببرامج أسلحة الدمار الشامل العراقية كانت كاذبة. فالأنابيب الألومنيوم الخاصة بالطرد المركزى التى افترض أنها تستخدم فى إعادة معالجة تصنيع اليورانيوم، والوثائق المزورة التى تصف واردات اليورانيوم، والمعامل المتحركة التى ادعى كولن پاول أنها معامل أسلحة

بيولوچية أمام الأمم المتحدة فى عام ٢٠٠٣[١٢]، واعترف بعد ذلك بأن تلك المعلومات كانت خاطئة، كلها أكاذيب. وأضاف بليكس أنه لم تؤد أى معلومات استخباراتية أعطيت له إلى أى اكتشاف يعتد به لأسلحة دمار شامل فى العراق.

وقام مايكل ليدين، أحد أكثر مؤيدى إسرائيل إخلاصًا فى واشنطن، بالرد على مقال فى صحيفة وول ستريت كتبه برنت سكوكروفت، مستشار الأمن القومى الأسبق، وكان ينتقد فيه الحملة التى يشنها المحافظون الجدد من أجل شن الحرب على العراق. وكتب ليدين يقول إن سكوكروفت يخشى من أننا إذا هاجمنا العراق، « فإنه سيكون لدينا انفجار فى منطقة الشرق الأوسط يمكنه تحويل المنطقة كلها إلى أتون مستعر وتدمير حرب بوش على الإرهاب». وأضاف قائلاً «إننى أتمنى أن نستطيع تحويل المنطقة كلها إلى أتون مستعر وأرجو أن يكون هذا سريعًا، فلو أن هناك منطقة تستحق ذلك فإنها تلك المنطقة. فلو أننا قمنا بشن تلك الحرب على نحو فعال، فإننا سوف نسقط الأنظمة الإرهابية فى العراق وإيران وسوريا وكذلك العرش السعودى أو نجبره على التخلى عن خط التجميع العالمى لتفريخ إرهابيين. هذه هى مهمتنا فى الحرب ضد الإرهاب»[١٣].

## دور الاستخبارات الإسرائيلية

يتضح السبب الكامن وراء تقدير واشنطن الكبير للاستخبارات الإسرائيلية فى العراق من خلال تسجيل ريتشارد كلارك لعمله فى مكافحة الإرهاب فى إدارات أمريكية عدة. فقبل حرب الخليج عام ١٩٩١، أعلنت الاستخبارات الإسرائيلية أن العلماء والمهندسين لدى صدام على وشك تصنيع أسلحة نووية. وكانت وكالة الاستخبارات المركزية تساورها الشكوك حول ذلك الأمر. ومع ذلك، تلقت الاستخبارات الأمريكية معلومات تفيد بأن العراقيين قد أخفوا وثائق عن هذا البرنامج فى وزارة الزراعة فى بغداد. من خلال حملة مفاجئة وبحث قادهما روبرت جالوسى، خبير الأسلحة الأمريكى، تم الحصول على وثائق مفيدة. وقامت الوحدات الأمنية العراقية بالإحاطة بالمفتشين من أجل منعهم من حمل الأدلة. ونجح الفريق المصاحب لجالوسى، والذى كان يشتمل على مترجمين من اللغة العربية، فى توصيل المعلومات

الهامة لواشنطن عبر الهاتف. وأيقن كلارك بأن ذلك يوضح أن إسرائيل كانت محقة(١٤).

وقد كتب المحللون الإسرائيليون الأكاديميون، ومنهم ضباط استخبارات متقاعدون، دراسات بحثية أثرت كثيرًا فى السياسة الإسرائيلية (والأمريكية)، وكذلك فى المؤسسات العسكرية. ولم يخف هؤلاء المحللون وجود مصلحة إسرائيلية فى الهجوم الأمريكى للإطاحة بصدام حسين ومدى التهديد الاستراتيجى للأسلحة العراقية على جيش إسرائيل فى الجبهة الشرقية. وكان شاى فيلدمان يرأس مركز يافا للدراسات الاستراتيجية (JCSS) فى جامعة تل أبيب. وعندما التقيته هناك فى فبراير ٢٠٠٤، قدم لى ملفًا هامًا يحتوى بعض التقارير أعدها المركز. ففى فبراير ٢٠٠٣، أثناء دراسة المشكلات التى تواجه حكومة شارون الجديدة والتى قد تنشأ عن الانتخابات العامة التى ستجرى فى يناير ٢٠٠٣، كتب فيلدمان يقول:

«إن المواجهة التى ستقودها الولايات المتحدة ضد العراق، أيًا كانت نتائجها، ستخدم المصالح الأمنية الإسرائيلية؛ ذلك لأن صدام لن يمكنه تفادى تلك المواجهة العسكرية سوى عن طريق مغادرته البلاد أو تسليم أسلحة الدمار الشامل الموجودة لديه، وكذلك الأنظمة التى تقوم بتصنيعها والقدرة على إنتاجها . . . [وستستفيد إسرائيل] ليس فقط من خلال نزع أسلحة العراق إلى حد كبير، إن لم يكن نهائيًا، وإنما أيضًا من خلال القضاء على الخطر المحدق الكامن فى إمكانية حصول العراق على أسلحة نووية»(١٥).

كما تنبأ العسكريون الإسرائيليون أيضًا بالنتائج «المفيدة» التى ستعود على إسرائيل إذا قامت الولايات المتحدة بشن حرب على العراق، بما يتضمنه ذلك من آثار محبطة محتملة على الفلسطينيين. وفى أكتوبر ٢٠٠٢. كتب الجنرال عاموس جيلعاد يقول: «إن الحرب الأمريكية العراقية التى ستؤدى إلى الإطاحة بصدام حسين، ستؤدى إلى تغيرات جذرية فى الشرق الأوسط؛ لأن صدام يعد رمزًا للطغاة من أمثال عرفات وغيره». وأضاف جيلعاد أيضًا أن المشكلة المباشرة بالنسبة لإسرائيل هى الإرهاب، والثانية هى الانتفاضة، وبعد ذلك يأتى التقدم فى المباحثات الفلسطينية. وعلق على ذلك قائلاً:

«من الناحية العملية، فإن الإرهاب يعد استثماراً جيداً للأسر الفقيرة، التى تحصل على [المال] عندما يقوم طفل [انتحارى] بتفجير نفسه. إنهم يحصلون على ٢٥٠٠٠ دولار من العراق و ٥٠٠٠ دولار من السعودية و ٥٠٠٠ دولار من السلطة الفلسطينية كما يلقبون علانية «بالأبطال» فى التراث القومى الفلسطينى. قارن ذلك بإجمالى الدخل الشهرى لعائلة يبلغ دخلها ٤٠٠ دولار فى الشهر»[١٦].

وبعد سقوط صدام وعاصمته بغداد فى أبريل ٢٠٠٣، يشير الچنرال يعقوب أميدرور إلى أن إسرائيل ساعدت الولايات المتحدة فى تمهيد الطريق لتحقيق هدفها المعلن وهو «دمقرطة» الشرق الأوسط عن طريق «إجهاض الخطط النووية العراقية فى عام ١٩٨١، وتقديم الدليل على مدى التعاون الاستراتيچى بين إسرائيل والولايات المتحدة . . . » فقد ظلت إسرائيل طويلاً تخشى شبح التحالف العراقى ـ السورى. «ففى حرب ١٩٧٣، أدى تدخل القوات العراقية فى اللحظة الأخيرة أوشك أن ينقذ مرتفعات الجولان للسوريين. ولذلك، فإن القضاء على التهديد الناجم عن التحالف الشرقى يغير موقف إسرائيل تماماً فيما يتعلق بأى حرب قادمة من جهة الشرق».

وأضاف أميدرور قائلاً: «إن السبب الحقيقى للحرب على العراق ليس فقط نزع أسلحة صدام حسين والقضاء على مخزونه من الأسلحة . . . فالمرحلة القادمة تتمثل فى جعل العراق مستقراً ـ وهى مهمة هائلة إذا وضعنا فى الاعتبار الانشقاقات داخل المجتمع والدولة ككل. فبدون استقرار العراق، ستكون عواقب الحرب وخيمة على المنطقة وتؤدى إلى تمزيقها بالكامل».

**كلمات تنبؤية، كما ظهر.**

واستطرد أميدرور قائلاً، وكأنه يقرأ من وثيقة أمريكية كتبها المحافظون الجدد، إن العراق ما هو إلا خطوة فى طريق «الهدف النهائى»: «الشرق الأوسط والعالم العربى والعالم الإسلامى». فإدارة بوش الابن تختلف كثيراً عن إدارة بوش الأب:

«إنها تمثل استمراراً لإدارة ريجان ذات الدوافع الأيديولوچية، وانعكس ذلك فى معركتها ضد «محور الشر» [رؤية بوش للعراق وإيران وكوريا الشمالية] وجهودها لـ «دمقرطة» المنطقة. وهى تضع نصب عينيها نموذجى اليابان وألمانيا بعد الحرب العالمية الثانية، وكذلك أوروبا الشرقية . . بعد انهيار الاتحاد السوڤييتى . . . فالأمريكيون

يعلمون تماماً أنهم إذا ربحوا المعركة، وبدأ الشرق الأوسط عملية التحول الديمقراطى، فلن يتذكر أحد النقد الأوروبى، حيث إن التاريخ سوف يحكم فقط على النتائج»(١٧).

والهرولة الديپلوماسية نحو التحالف الذى قادته الولايات المتحدة فى هجومها على العراق فى ١٩ مارس ٢٠٠٣، هى حدث ذائع الصيت لا نحتاج إلى تذكره. وفى مجلس الأمن التابع للأمم المتحدة الذى بدأ اختتام مداولاته لنزع أسلحة العراق فى يناير، اعترضت كل من فرنسا وروسيا والصين على توجيه أى ضربة عسكرية تخطط لها أمريكا. وكانت ألمانيا أيضاً فى صفوف المعارضين على الرغم من أنها لم يكن لديها (بخلاف فرنسا وروسيا) أى مصالح نفطية فى العراق. أما الدول التى وقفت فى الصف الأمريكى فهى بريطانيا تونى بلير، المحتل السابق للعراق، وإسپانيا وبلچيكا وپولندا ودول أخرى رغبت (على عكس إرادة شعوبها) فى الاتباع. وقد فشل كوفى عنان الأمين العام للأمم المتحدة فى أن يلعب دوراً هاماً فى النزاع. ومع بدء العد التنازلى للحرب فى مارس، بدا من الواضح عجز الأمم المتحدة عن الحركة وعن القدرة على الإبقاء على أى عملية ديپلوماسية ذات معنى يمكنها تجنب الصراع.

وكانت إسرائيل من بين الدول القليلة التى كانت الغالبية العظمى من شعبها مؤيداً للحرب. واندهش بعض المراقبين العرب والغربيين من كل هذا الدعم من جانب دول الخليج العربى والأردن، ذلك الدعم الذى حاول الإعلام الإسلامى شجبه والانتقاص من قدره. وانتاب حاكما إيران وسوريا، على وجه الخصوص، القلق بشأن ما إذا كان مستشارو بوش الذين يحلمون بإعادة تشكيل الشرق الأوسط سيقومون بشن حملات عسكرية جديدة من أجل الإطاحة بنظامهما أيضاً، أو حتى احتلال دولتيهما.

## حملة (عسكرية) جيدة التخطيط

بدأت الحملة العسكرية بمحاولة بوش ـ رامسفيلد «شل حركة النظام» فى يوم ٢٠ مارس. فقامت طائرات ستيلث إف ـ ١١٧ بإطلاق صواريخ موجهة وصواريخ كروز نحو أحد المبانى فى بغداد، بعد أن أفادت التقارير الاستخباراتية فى اللحظات الأخيرة بوجود صدام بداخله. ولكنه لم يصب بأذى. وتوالت الهجمات بعد ذلك بواسطة

الطائرات والصواريخ من ثلاث حاملات أمريكية فى الخليج واثنتين فى البحر المتوسط. وشاركت الطائرات الموجودة فى القواعد العسكرية الأرضية وكذلك الغواصات الأمريكية والبريطانية المسلحة بصواريخ توماهوك فى الهجوم العنيف المتكرر على الدفاعات الجوية العراقية، والتى كانت منهكة منذ وقت طويل بسبب الغارات المتكررة. وتلى ذلك أسابيع من هجمات «الصدمة والرعب»، حسب وصف البنتاجون، على الأهداف العسكرية والمدن العراقية مما أسفر عن سقوط عدد لا حصر له من الضحايا العراقيين سواء من المدنيين أو العسكريين. وقامت جماعة سلام أنجلو - أمريكية، تسمى مشروع عد جثث العراقيين، بتقدير عدد الضحايا بما يتراوح بين ٧٧٨٤ و ٩٥٩٦ قتيل وأصيب حوالى ثلاثة أضعاف ذلك العدد خلال الحملة الجوية المبدئية. وبدأ الهجوم البرى فى يوم ٢١ مارس، عندما قامت قوات المارينز الملكية البريطانية بتكرار ما حدث فى الحرب العالمية الأولى، بالهبوط على شبة جزيرة الفاو، تحت حماية غطاء نارى من قبل السفن الحربية الأمريكية والبريطانية والاسترالية. وفى اليوم التالى، قامت قوات المارينز الأمريكية والبريطانية بتأمين حقول النفط العراقية الجنوبية، لتجنب حدوث تخريب كالذى قام به صدام فى المنشآت النفطية الكويتية أثناء انسحابه عام ١٩٩١. وفى يوم ٢٥ مارس، بدأت قوات التحالف فى إزالة الألغام من منطقة الساحل العراقى الجنوبى القصير. وبعد معركة قصيرة، أصبح ميناء أم القصر المدخل البحرى الأساسى لقوات التحالف ومؤنهم.

وبالرغم من العواصف الرملية، تقدمت القوات الأمريكية على شكل حرف V تتقدمها فرقة المشاة الثالثة فى الجناح الأيسر والفرقة البحرية الأولى فى الجناح الأيمن، بسرعة كبيرة فى جنوب العراق حيث أصبحت خطوط الاتصال ممتدة. وقام العراقيون بالهجوم على خطوط الإمدادات الأمريكية وتدميرها على نحو جزئى. وأبدت المناطق الحضرية مثل البصرة والنجف وكربلاء والكوت مقاومة أعنف من المتوقع فى بعض المناطق بسبب انسحاب الجيش العراقى النظامى إلى داخل المدن. وقامت قوات المقاومة من فدائيى صدام وميليشيات حزب البعث، بخوض معارك شرسة ضد قوات الاحتلال الأمريكى بواسطة الآلاف من المقاتلين السنة والشيعة، العراقيين والأجانب.

وفى يوم ٥ أبريل، اقتربت القوات الأمريكية من العاصمة العراقية واستولت على

مطار بغداد الدولى، حيث واجهت بعض المقاومة المتناثرة المستبسلة. وقامت وحدات القوات المدرعة الخفيفة والثقيلة بتأمين معظم أرجاء المدينة فى يوم ٩ أبريل بعد شن غارات عنيفة بالدبابات تدعمها الهجمات الجوية. واختفى صدام بعد ظهوره الأخير فى التليفزيون العراقى فى أحد شوارع بغداد وحوله جمهور قليل. ولم يتم إلقاء القبض عليه بواسطة قوات التحالف سوى فى يوم ١٦ ديسمبر ٢٠٠٣ بعد خمسة شهور من مقتل ابنيه عدى وقصى فى تبادل لإطلاق النار مع القوات الأمريكية التى حاصرتهما فى يوم ٢٢ يوليو. وساهمت مركبة عسكرية أمريكية فى إسقاط تمثال صدام فى ميدان الفردوس، وهو حدث لم يخلو من دلالة رمزية سجلته عدسات التليفزيون بحرص واهتمام.

ولم يخطط التحالف لجعل البصرة هدفًا أوليًا، ومع ذلك، فإن الثورات المحلية، التى دعمتها بعض القوات الخاصة من التحالف، فشلت فى إنهاء سيطرة حزب البعث أو منع الهجمات العراقية المضادة من جانب القوات النظامية أو حروب العصابات فى المدينة. ولذلك، قرر القادة البريطانيون احتلال المدينة. وبدأت الفرقة المدرعة البريطانية الأولى، المشتملة على قوات مدرعة وجوية ولواء كوماندوز، تشن غاراتها الهجومية على البصرة التى أصبحت تحت السيطرة البريطانية الفعلية فى ٨ أبريل.

وفى الشمال، قامت الجماعتان الكرديتان الأساسيتان المنتميتان لطالبانى وبرزانى، على مدى الأعوام العشرة الماضية من الحماية الجوية والتعاون مع الحلفاء بتمهيد الأرض جيدًا. وتم إسقاط الفرقة ١٧٣ المحمولة جوًا فى قاعدة باشور. وفى أنقره وفى تصويت للبرلمان التركى تم رفض خطة إرسال فرقة المشاة الأمريكية الرابعة من خلال تركيا إلى كردستان العراقية. وكانت الخطة(B) تقضى إسقاط الفرقة ١٧٣ ونقل الفرقة الرابعة عن طريق البحر المتوسط عبر قناة السويس إلى الخليج ومنه إلى العراق، عبر الكويت. وقامت قوات البيشمرجا الكردية الموحدة بالاستيلاء على مدينة كركوك فى ١١ أبريل. وقامت القوات الأمريكية فى البداية بتأمين حقول النفط وأنابيب نقله ومنشآت أخرى، ولكنها تعرضت للتدمير والتخريب المستمر خلال الاحتلال، مما جعل من المستحيل، فى الشهور الأولى، توريد النفط عن طريق الموانئ التركية فى البحر المتوسط. وقامت القوات الأمريكية التى تعمل فى غرب العراق بالقرب من الحدود السورية بإغلاق خط أنابيب النفط العراقى السورى الذى قام قبل ذلك بضخ ملايين البراميل من النفط فى

انتهاك سافر للعقوبات التى فرضتها الأمم المتحدة والولايات المتحدة. وبحلول يوم ١٤ أبريل، انتهت معظم الاشتباكات مع الجيش النظامى فى العراق، قبل أن يظهر الرئيس الأمريكى بوش، مرتديًا بزته العسكرية، حيث قام بطريقة تمثيلية ومفاجئة، بإعلان انتهاء المعارك من على متن حاملة الطائرات أبراهام لينكولن بالقرب من شاطئ كاليفورنيا فى أول مايو(١٨).

## احتلال عديم التخطيط

مع سقوط النظام، وقعت بغداد ضحية لكابوس من السلب والنهب. فقد فشل الغزاة فى منع عمليات النهب المستمر، رغم التحذيرات العديدة من الدبلوماسيين والآخرين، ولم يفرضوا أى حراسة سوى على وزارة النفط العراقية. وأدى ذلك إلى تأكيد المعلقين على مستوى العالم لأقوالهم السابقة بأن السبب الرئيسى لتلك الحرب هو الاستيلاء على النفط العراقى. واستهدف اللصوص البنوك والمحال التجارية والمكاتب والمنشآت الحكومية والمتاحف، بل وتم فك أجزاء من المبانى نفسها. وتمت سرقة كنوز لا تقدر بثمن من القطع الفنية والآثار القديمة التى ترجع إلى حقبة بابل وحتى العصور الإسلامية، من المتحف القومى، على يد العاملين فيها أو العصابات المنظمة التى تقوم ببيع التحف النادرة فى الخارج. وقال أحد المسئولين فى المتحف: «إن وضع دبابة واثنين من الجنود على مدخل المتحف كان كفيلاً بمنع ذلك». ودائمًا ما كان كبار المسئولين الأمريكيين أو البريطانيين أو حتى وزير الدفاع رامسفيلد يلوذون بالصمت، عندما تسألهم الصحافة عن ذلك، أو يقولون إن الغزو قد حرر العراقيين و«دائمًا ما تحدث أشياء سيئة فى الحرب».

وقد تم العثور بعد الحرب على وثيقة تابعة لجهاز الاستخبارات التابع لصدام، تدعو إلى حملة تدمير اقتصادى ومقاومة مسلحة فى حالة سقوط النظام. ولم يؤد مقتل ابنى صدام، عدى وقصى، بالقرب من الموصل فى يوم ٢٢ يوليو، إلى الحد من العدد المتزايد للمشاركين فى حروب العصابات والإرهابيين أو إلى تقليل الهجمات. بل على العكس، تصاعد عددهم وبدأوا فى إشعال المعارك الدينية. وفى يوم ٢٩ أغسطس، انفجرت سيارة مفخخة خارج الضريح الشيعى الأكثر قداسة فى النجف مما أدى إلى

مقتل ١٠٠ شخص بما فيهم آية الله محمد باقر الصدر. وكان الصدر من أشد معارضى صدام شجاعة وكان متعاونًا مع قوات التحالف. وكان تفجير مجمع الأمم المتحدة فى بغداد فى يوم ١٩ أغسطس، أمرًا مأساويًا ومبددًا للآمال فى أن الأمم المتحدة، التى ازدرتها إدارة بوش وتلاعبت بها كثيرًا قبل الحرب، كان يمكنها أن تلعب دورًا كبيرًا ومؤثرًا فى رأب الصدع السياسى فى فترة ما بعد الحرب. وأدى ذلك إلى مصرع المبعوث الخاص للأمم المتحدة الذى يحظى بشعبية كبيرة، سيرجيوفيرادى ميلو، المدير الناجح لإدارة الأزمات وصانع السلام وحوالى ٢٤ شخصًا من العاملين معه. وكان لهذه العملية آثار بعيدة المدى. وفى أبريل ٢٠٠٤، كان كوفى عنان الأمين العام للأمم المتحدة لا يزال يجيب بحذر عن استفسارات الصحفيين بشأن دور أكبر للأمم المتحدة. وكان من المفترض أن يقوم الديبلوماسى الجزائرى الأخضر الإبراهيمى، بصفته مبعوثًا للأمم المتحدة، بالتخطيط، والإشراف على «تسليم السلطة» فى يونيه ٢٠٠٤ إلى هيئة حكومية عراقية جديدة، قبل إجراء انتخابات عامة فى يناير ٢٠٠٥.

وفى خريف ٢٠٠٣، تصاعدت أعمال القتال، وكان متوسط عدد الضحايا جنديًا أمريكيا أو جنديًا من قوات التحالف يوميًا. وأعلن رجال المقاومة يوم الأول من نوفمبر هو «يوم حرب العصابات». وتم إخلاء شوارع بغداد وتجولت فيها قوات المارينز الأمريكية والجنود المسلحون، ولكنهم لم يستطيعوا منع إسقاط طائرة هيلوكوپتر فى الفلوجة غرب بغداد. فى وقت لاحق، فى مارس وأبريل ٢٠٠٤، أصبحت الفلوجة معقلاً للمدنيين المسلحين والمتطوعين الذين احتشدوا لقتال قوات المارينز والقوات الخاصة. فى ذلك الوقت، قاد رجل الدين الشيعى الشاب مقتضى الصدر ثورة مسلحة فى وحول مدن النجف وكربلاء والكوت، مما أجبر القوات الأوكرانية المشاركة فى التحالف على الانسحاب. وكانت الجهود الأمريكية لإعادة التعمير تتقدم ببطىء فى أغلب الأحيان، خاصة فيما يتعلق بإعادة خدمات المياه والكهرباء، والتى أدى نقصها إلى زيادة مشقة العراقيين، بالرغم من بناء العديد من المدارس الجديدة والخدمات العامة الأخرى، مع استمرار أعمال القتال وغياب الأمن(١٩).

ومع تصاعد حملة الانتخابات الرئاسية الأمريكية فى نوفمبر ٢٠٠٤، أكد المنافس الديموقراطى لبوش، السيناتور چون كيرى، اقتراف أخطاء عديدة وفادحة فى العراق

ـ مثل القرار الخاص بحل القوات المسلحة العراقية البالغ عددها ٣٨٩ ألف مقاتل (بخلاف الاحتياط)، بعد سقوط بغداد مباشرة دون نزع أسلحتهم أو منحهم أى عمل. وفى أبريل ٢٠٠٤، غير بريمر من موقفه تمامًا وأعلن إعادة كبار الضباط البعثيين السابقين إلى العمل. وكان ذلك، إلى حد ما، محاولة للتغلب على الرفض المتزايد من جانب الضباط العراقيين المدربين حديثًا القتال إلى جانب الأمريكيين ضد ذويهم.

## إخفاق الاستخبارات

وصلت أصوات الاحتجاج الشعبى فى الولايات المتحدة وأوروبا، بسبب التقارير الاستخباراتية الملفقة بشأن أسلحة الدمار الشامل المزعومة لدى صدام، إلى الذروة فى ديسمبر بعد نشر تقرير ديفيد كاى، مفتش الأمم المتحدة السابق الذى اختارته إدارة بوش لكى يقود عملية تفتيش جديدة ومكلفة عن الأسلحة، باستخدام ١٤٠٠ مفتش. وكتب كاى فى تقريره عدم عثور فريقه على أية أسلحة غير تقليدية، ولكن البحث مستمر. وعندما استقال كاى وعاد للولايات المتحدة ليتم استبداله فى مارس ٢٠٠٤ بخبير آخر من الأمم المتحدة، وهو تشالز دولفيه، اعترف كاى على الملأ «أننا كنا جميعًا مخطئين، على الأرجح بشأن الأسلحة». وفى يوليه ٢٠٠٤، توصل تحقيق مطول للجنة الاستخبارات الجزئية الثنائية التابعة لمجلس الشيوخ، فى الولايات المتحدة، وتحقيق فى المملكة المتحدة، حول فشل الاستخبارات فى كلا البلدين، إلى النتائج ذاتها. وقدم مدير الاستخبارات الأمريكية فى إدارة بوش، چورچ تينت استقالته «لأسباب شخصية». ومثل كل ذلك، بالطبع، وقودًا للحملة الانتخابية الرئاسية لكيرى، كما أدى إلى وضع إدارة بوش فى موقف الدفاع.

وفى بريطانيا، وقبل نشر تقرير باتلر، أدى الجدل الدائر فى بريطانيا، حول ملف الاستخبارات البريطانية والأحاديث التى أجراها مراسل البى بى سى مع الخبير البريطانى فى الأسلحة البيولوچية ديفيد كيلى، إلى إلحاق قدر كبير من الضرر بتونى بلير، رئيس الوزراء البريطانى حليفه فى الحرب. وقام تحقيق رسمى أجرى عقب انتحار كيلى فى يوم ١٨ يوليه، بعد إعلان محطة البى بى سى، أنه مصدر التقرير القائل بأن حكومة بلير بالغت فى تقدير التهديد الذى تشكله أسلحة الدمار الشامل العراقية

لصدام حسين، كما قام بتوجيه اللوم لإذاعة البى بى سى بقدر أكبر مما وجه للحكومة. ولكن الإساءة إلى بلير وقيادته لحزب العمل الجديد الحاكم كانت قد تمت بالفعل.

وأدى الجدل الدائر مصحوبًا باستطلاعات الرأى فى الولايات المتحدة وبريطانيا، والتى أشارت إلى تضاؤل الثقة فى كل من بوش وبلير بسبب الحرب، إلى انتزاع بعض الأخبار الهامة من إسرائيل. فلم يتم الإعلان عن دور الدولة اليهودية فى الحرب على الملأ أبدًا، على الرغم من أن نقاد رئيس الوزراء الإسرائيلى أريل شارون، والعديد من الرموز العسكرية الأكاديمية المعتدلة، كانوا يتطلعون إلى كشف النقاب عن الأمر خلف الأبواب المغلقة.

وفى سپتمبر ٢٠٠٣، أعلن إفرائيم هالفى، المتخصص فى مجال الاستخبارات الذى شغل فى الفترة من عام ١٩٩٨ وحتى عام ٢٠٠٢ منصب مدير الموساد، ورأس بعد ذلك مجلس الأمن القومى الإسرائيلى، أعلن أنه سيترك العمل الحكومى للأبد. وقامت الاستخبارات المركزية بمنحه ميدالية تقديرًا لعشرات السنين من التعاون معهم، كما تلقى صورتين موقعتين من رئيسين سابقين، وهما إسحاق رابين والملك حسين، تقديرًا لجهوده. وكان هالفى قد خلف رئيس الموساد الأسبق، دانى ياتوم فى عام ٢٠٠٢، بعد قيام ياتوم، بعملية كوميدية فاشلة لاغتيال قائد حماس، خالد مشعل، فى عمان، تنفيذًا لأوامر بنيامين نتنياهو. وقد دخل عملاء الموساد إلى الأردن بجوازات سفر مزورة وقاموا بحقن السم فى أذن مشعل فى أحد شوارع عمان. وألقت الشرطة الأردنية القبض على اثنين من الجناة ولجأ الباقون إلى السفارة الإسرائيلية فى عمان.

وهدد الملك حسين غاضبًا بإغلاق السفارة وقطع العلاقات الدبلوماسية مع إسرائيل إذ لم يقم نتنياهو وياتوم على الفور بإرسال الترياق لإنقاذ حياة مشعل. فقاما بالاعتذار وإرسال الترياق. واشتملت التسوية الإسرائيلية مع الأردن أيضًا على الإفراج عن الزعيم الروحى لحركة حماس، الشيخ القعيد أحمد ياسين ـ الذى قام الجيش الإسرائيلى باغتياله فى «عملية قتل استهدفته» بعد صلاة الفجر خارج أحد المساجد فى غزة فى مارس ٢٠٠٤.

أدت واقعة مشعل، والتى ليست من أسعد لحظات الموساد، إلى وضع هالفى فى السلطة. وعبر معجبوه فى إسرائيل عن تقديرهم لتاريخه بعد تقاعده، كما قالوا إنه عبر عن الشكوك التى تحيط بالطريق الذى يسلكه شارون، والذى يبتعد عن التسوية الواقعية

مع الفلسطينيين[٢٠]. وقام شارون باستبدال هالقى، بمائير داجان، أحد أصدقاء شارون القدامى، الذى أعلن أنه سيجعل من مكافحة الإرهاب أهم أولوياته ـ وهو ما يتواءم مع اهتمامات إدارة بوش فى واشنطن. أما أقوى مساعدى شارون فقد أصبح دوف فيسجلاس، مستشار الأمن القومى، الذى كان على الأرجح يشرف على الاستخبارات الخاصة بالعراق فى مكتب الخطط الخاصة، أثناء عمله[٢١].

وتوصل تقرير لجنة الاستخبارات التابعة لمجلس الشيوخ فى يوليه ٢٠٠٤، كما ذكرنا آنفًا، إلى أن الإدارة شنت الحرب على العراق بناء على معلومات استخباراتية خاطئة عن أسلحة الدمار الشامل العراقية المزعومة وعن العلاقات الوهمية بين القاعدة وصدام حسين. وجاء تقرير ثان يتعلق بكيفية استخدام أو تلاعب الإدارة بالمعلومات الاستخباراتية من أجل إيجاد ذريعة لخوض الحرب.

وفى إسرائيل، قام الچنرال المتقاعد، شلومو بروم، بالتحذير من استخبارات إسرائيل حول العراق. وفى دراسة قام بها لمركز يافا فى تل أبيب، قام بروم، الذى قمت بزيارة مكتبه فى جامعة تل أبيب فى فبراير ٢٠٠٤، بدق ناقوس الخطر لكل المؤسسات الاستخباراتية فى إسرائيل ولدى حلفائها. وأعلن أن الاستخبارات الإسرائيلية قد أخطأت إلى حد كبير فى تقديرها للتهديد الذى يشكله صدام حسين. وأسهم ذلك فى الصورة «الزائفة» التى رسمتها الاستخبارات الأمريكية والبريطانية، على حد قوله. وأكد بروم، وكرر ما أعلنه فى العديد من اللقاءات التى أجريت معه:

«كانت الاستخبارات الإسرائيلية شريكًا كاملاً للولايات المتحدة وبريطانيا فى رسم صورة زائفة لأسلحة صدام للدمار الشامل. كما أنها بالغت إلى حد كبير وعلى نحو سيئ فى تقدير التهديد العراقى لإسرائيل والنفخ فى الاعتقاد الأمريكى والبريطانى بوجود مثل هذه الأسلحة».

وعلق المعارض السياسى اليسارى وعضو الكنيست الإسرائيلى، يوسى ساريد، حسبما جاء فى الإذاعة الإسرائيلية على ذلك قائلاً: «من الآن فصاعدًا، عندما نقدم معلومات جادة عن دول أخرى، مثل إيران، من سيأخذ كلامنا على محمل الجد؟»[٢٢].

وأثار تقرير بروم غضبًا شديدًا فى إسرائيل. ولكن كان يجب أن يفعل ذلك فى واشنطن ولندن أيضًا. وفى ديسمبر ١٩٩٧، كان هناك فشل استخباراتى كبير آخر خلال حقبة دانى ياتوم. ففى ديسمبر ١٩٩٧، تم القبض على أحد عملاء الموساد المحنكين وهو يهودا جيل البالغ من العمر ٦٣ عامًا ومحاكمته بتهمة تزييف معلومات حول نوايا سورية مزعومة للهجوم على إسرائيل، وحكم عليه بالسجن خمس سنوات (تم خفضها بعد ذلك إلى ثلاث سنوات). وأوضح الادعاء أن جيل قام بالحصول على مبالغ نقدية زعم أنه يقدمها «لمصدر» سورى، اتضح عدم وجوده. وتسببت المعلومات الاستخباراتية التى لفقها جيل من تلقاء نفسه والمتعلقة بتحركات سورية مزعومة (ليس لها وجود) لشن هجوم على مرتفعات الجولان، وقيام حكومة رابين بنشر قوات وعمل استعدادات لحالة طوارئ وهمية. وكانت المعلومات المضللة التى قدمها جيل سببًا فى صدور بيانات حكومية عنيفة ضد سوريا، كما تسببت فى عرقلة بعض محادثات السلام. وعلق زائيف شيف على ذلك قائلاً: «لقد تم اتخاذ قرارات استراتيجية ودبلوماسية وسياسية بناء على تلك التقديرات الخاطئة»[٢٣].

## لجنة تحقيق شتينيتز الإسرائيلية

فى بداية سبتمبر ٢٠٠٣، بدأت اللجنة الفرعية للاستخبارات والشئون الخارجية التابعة للكنيست، برئاسة يوڤال شتينيتز، جلسات استماع استمرت حتى مارس ٢٠٠٤، حول إخفاقات الاستخبارات الإسرائيلية. وقد قام عدد كبير من السياسيين وضباط الاستخبارات والصحفيين والعسكريين والدارسين والباحثين، من بينهم شلومو بروم وزائيف شيف وكبار ضباط الأركان بالإدلاء بشهادتهم خلف الأبواب المغلقة. وتم إرسال تقرير علنى مكون من ٨١ صفحة إلى الرئيس الإسرائيلى موشى كاتساف فى يوم ٢٨ مارس ٢٠٠٤، تبعته نسخة سرية مفصلة من التقرير. وفى النسخة الأولى من التقرير (التى كانت متاحة لمن يريد الاطلاع عليها) قامت اللجنة بتوجيه اللوم للاستخبارات الإسرائيلية لمبالغتها فى تصوير خطورة أى هجوم عراقى محتمل، قبل وأثناء الغزو الذى تقوده الولايات المتحدة للعراق. كما وجه إليها اللوم لإهمال التهديدات التى كانت تشكلها المشروعات النووية الليبية. وبعد شهور من المفاوضات

السرية مع الولايات المتحدة، قام القائد الليبى معمر القذافى بتسليم معداته النووية ـ التى أنكر وجودها على الملأ ـ للولايات المتحدة ومفتشى الأمم المتحدة وذلك فى أوائل عام ٢٠٠٤.

وطالب تقرير شتينيتز بعملية إعادة تنظيم جذرى شامل لأجهزة الاستخبارات الإسرائيلية. وورد بالتقرير فقرة هامة تلفت نظر حكومتى بوش وبلير إلى أن المعلومات الإسرائيلية المتوافرة حول العراق لم تكن أفضل من معلوماتهما. وعندما تحدثت مع بروم قبل صدور التقرير، اعترف بأنه «من المحتمل» أن تكون بعض المعلومات المضللة التى تلقتها الحكومات الثلاث قد جاءت من نفس المصادر أو من مصادر متوازية، وخاصة المعارضين العراقيين فى المنفى. وبالرغم من أن بروم لم يحدد أسماء معينة، إلا أنه أفاد أن معارضى الحرب فى الولايات المتحدة قد وضعوا أحمد الجلبى على قمة القائمة. وأعلن زائيف فى جريدة هاآرتس أنه لم ترد أية إشارة تشير إلى ما حدث لأسلحة الدمار الشامل وبعض الصواريخ التى كانت بحوزة صدام من قبل، فى التقرير المفتوح. وقدم شيف نظريات بديلة، تم التحقيق فيها، على حد قوله، بواسطة رئيس الاستخبارات العسكرية، الجنرال أهارون زائيف ـ فاركاش (وربما تم توضيحها فى التقرير السرى)، تقول بأنه لم تكن هناك أى أسلحة دمار شامل فى الوقت السابق على الحرب، أو أنها تم تدميرها قبل اندلاعها مباشرة، أو تم إخفاؤها بعناية شديدة بحيث لا يمكن العثور عليها حتى لو استخدمنا آلاف المفتشين، أو تم نقلها إلى سوريا (وهى النظرية التى أثارها بحماس بعض صقور واشنطن). وبما أنه لم يتم إثبات صحة أى من هذه النظريات حتى الآن، تبعًا لرأى شيف، «لا يجب أن يكون التقييم الاستخباراتى هو مصدر القلق . . . ولكن ما يجب أن نضعه فى الاعتبار هو أن الاستخبارات الإسرائيلية لم تتوافر لديها المعلومات الكافية، وكذلك فإن جهاز الاستخبارات البشرى الإسرائيلى ليس جيدًا بالقدر الكافى»[٢٤].

## أسلحة مشتركة، تدريب مشترك

على الرغم من أن الدور الإسرائيلى الحقيقى فى العراق نادرًا ما كان يتصدر الصحف، فقد كان متشعبًا. كانت إسرائيل تقدم برامج تدريب نظرية وميدانية للقوات

الخاصة الأمريكية عن الأساليب الوحشية التى كانت تستخدمها لإخضاع وقمع الفلسطينيين فى الضفة الغربية وغزة، والتدريب على مهام مكافحة الإرهاب، وكذلك الدعاية والحرب النفسية (كما يتضح ذلك فى الإعلام الإسرائيلى خاصة نشرات الأخبار الناطقة بلغة أجنبية من راديو إسرائيل.

ومن بين أنجح الأسلحة التى استخدمها الجيش الأمريكى فى الحرب طائرات هانتر، بدون طيار، التى تم تطويرها بواسطة الصناعات العسكرية الإسرائيلية وأنتجتها مؤسسة نورثوروپ جرومان فى الولايات المتحدة. وفى يوليو ٢٠٠٣، تم الكشف عن حاجة الجيش الأمريكى لشراء المزيد منها. وأرسل الجيش الأمريكى طلبًا إلى شركة نورثوروپ جرومان لشراء ٢٤ قطعة من أنظمة تلك الطائرات، بتكلفة من ٦٠ إلى ٧٠ مليون دولار. وقامت الصناعات العسكرية الإسرائيلية بتطوير الطائرة فى أوائل التسعينيات بالتعاون مع شركة TRW الأمريكية، وذلك بناءً على طلب الجيش الأمريكى. وقد وجد أن طائرات هانتر، والتى كان من المفترض أن تصبح الطائرة التكتيكية الأولى فى الجيش الأمريكى، بتكلفة حوالى بليون دولار، توجد بها بعض العيوب التى لا تمكنها من الاشتباك فى المعركة بطريقة فعالة، وذلك عند اختبارها للمرة الأولى عام ١٩٩٦. ومع ذلك، فقد أثبتت الاختبارات الجديدة أنها فعالة فى جمع المعلومات فى أرض المعركة. وبعد تولى شركة نورثوروپ جرومان ذلك الأمر بدلاً من شركة T R W، من خلال شرائها لحقوق تصنيع الطائرة هانتر، بدأت التعاون مع الصناعات العسكرية الإسرائيلية من أجل تطويرها. وقد أفاد كيڤين مايرز، مساعد وزير الدفاع الأمريكى، للاستخبارات أن الولايات المتحدة كانت تستخدم مائة طائرة بدون طيار من بينها ١٦ طائرة من طراز هانتر. وقد قامت بمائة وتسعين طلعة فى حرب العراق، وهو ضعف طلعات طائرة پريداتور التابعة للاستخبارات المركزية. وخلال المعارك الدائرة قبل ١ مايو ٢٠٠٣، فقدت الولايات المتحدة ثلاث طائرات من طراز هانتر، اثنتان بنيران معادية وواحدة فى حادث: كما فقدت ثلاث طائرات من طراز پريداتور وطائرة من طراز پيونير (وهى سلاح إسرائيلى آخر) وطائرتين صناعة بريطانية. وقد أفادت التقارير الأخيرة بأنه تم تزويد طائرات هانتر بمعدات تمكنها من إطلاق صواريخ جو - أرض، إلى جانب جمع المعلومات الاستخباراتية[٢٥].

وبحلول سبتمبر ٢٠٠٣، تم عرض برنامج عسكرى إسرائيلى عبر الكمبيوتر، كان الهدف منه تعليم الجنود الأمريكيين فى العراق كيفية التصرف أو عدم التصرف كمحتلين، عرض على قادة عسكريين أمريكيين. وقد قام بتصميم البرنامج الكولونيل موشى جويورا، المحامى العسكرى الإسرائيلى. وكان ذلك البرنامج يستخدم من أجل تلقين «السلوك الإنسانى» فى جنود جيش الاحتلال الإسرائيلى فى تعاملهم مع الفلسطينيين. واستخدم ذلك البرنامج لقطات فيلمية قصيرة ومؤثرات صوتية وصوراً فوتوجرافية واختبارات (صواب أم خطأ) قصيرة. ويبدأ أحد أجزاء ذلك البرنامج بمشهد من فيلم «پلاتون» لأوليڤر ستون حول حرب ڤيتنام يصور الجنود الأمريكيين وهم يشعلون النار فى أكواخ إحدى قرى ڤيتنام ويقذفون بالقنابل اليدوية فى آبار المياه ويحملون القرويين على اتباعهم بربط أعناقهم بأطواق حديدية. وتوضح الرسوم المتحركة أن سوء معاملة المدنيين تحولهم إلى أعداء[٢٦] - وهو الدرس الذى لم تستوعبه جيداً قوات الاحتلال فى العراق، مثلما حدث فى فضيحة سجن أبو غريب من تعذيب للسجناء «الأمر الذى نناقشه فيما يلى».

وهناك جانب من العلاقات العسكرية والاستخباراتية بين الولايات المتحدة وإسرائيل، لم ترحب به واشنطن، وهو وصول العميل الإسرائيلى الذى جند الجاسوس الأمريكى جوناثان پولارد، إلى هناك فى صيف ٢٠٠٣. وطبقًا لتقرير وكالة الصحافة الدولية، كان ذلك الشخص الچنرال رافائيل إيتان المحنك، الذى شارك فى عملية الخطف الإسرائيلية الناجحة للمشرف على الهولوكوست، أدولف أيخمان، وفى العديد من العمليات السرية الأخرى. وفى عام ٢٠٠٤، كان پولارد لا يزال يقضى عقوبة السجن مدى الحياة فى أحد السجون الفيدرالية الأمريكية بسبب تقديمه المئات، إن لم يكن الآلاف، من الوثائق الأمريكية السرية للغاية إلى مخدوميه بالسفارة الإسرائيلية فى واشنطن فى أوائل الثمانينيات.

كان إيتان، الذى كان صديقًا مقربًا لشارون، يدير مكتبًا للمهام الخاصة يسمى لاكيم (LAKEM) فى وزارة الدفاع الإسرائيلية (وكان شارون آنذاك وزيراً للدفاع). وكانت مهمة ذلك المكتب هى جمع المعلومات الاستخباراتية الفنية والعلمية بما فى ذلك النووية. أصبح المسئول الأساسى عن پولارد فى الولايات المتحدة هو آڤيم سيلا، الذى

لعب دوراً جوهريًا فى الهجوم على المفاعل النووى العراقى فى عام ١٩٨١، كما أنه كان ذراع سلاح الطيران الإسرائيلى الأيمن فى أمور الاستهداف النووى وإطلاق الأسلحة النووية المحمولة جواً. وجاء تجنيد پولارد فى سپتمبر ١٩٨١ عندما كان شارون ورئيس الوزراء مناحم بيجن على خلاف مع إدارة كارتر، التى رفضت تمويل عمل وصلة من قمر الاستخبارات KH-11 إلى تل أبيب. حيث أخبر مستشار البيت الأبيض ريتشارد آلين، شارون بأن ذلك مستحيلاً. (ولكنه أصبح ممكنًا، كما رأينا، بعد عقد من الزمان، عندما تساقطت الصواريخ العراقية على إسرائيل أثناء عملية عاصفة الصحراء). وعاد شارون إلى إسرائيل غاضبًا، ووصف العلاقة الاستراتيچية بين إسرائيل والولايات المتحدة بأنها مجرد هراء. وبعد فترة قصيرة تم تجنيد پولارد. وكان مكتب التحقيق الفيدرالى يتساءل عن سبب زيارات إيتان المتكررة إلى الولايات المتحدة بجواز سفر إسرائيلى ولكن باسم وهمى[٢٧].

وعلى الرغم من وقوع بعض الحوادث المؤسفة مثل موضوع پولارد وإيتان، إلا أن إدارة بوش، وخاصة الپنتاجون الذى يرأسه رامسفيلد، قد حصلت على دعم هام من جانب المستشارين الإسرائيليين. وبدأ مدربون إسرائيليون فى عام ٢٠٠٣ فى تدريب القوات الأمريكية على الأساليب القمعية لمواجهة الثورة، والتى استطاعت إسرائيل من خلالها فرض نفسها على مدار ٤٠ عامًا من احتلال الأراضى الفلسطينية. وفى بدايات سپتمبر ٢٠٠٢، قام مارتين ڤان كريڤيلد، المؤرخ والاستراتيچى العسكرى بالجامعة العبرية، بإلقاء بعض المحاضرات على ضباط المارينز فى كامپ ليون بشمال كارولينا. وقد وجد كريڤيلد أن من يقوم بالتدريس لهم «مهتمون بحرب العصابات، خاصة فى حرب المدن أو ما شابه، مثل تلك التى قمنا بها فى چنين» فى الضفة الغربية. وفى بدايات ٢٠٠٤، أخبرنى أصدقاء فلسطينيون فى رام الله بأن شهود عيان قد شاهدوا أجانب يتحدثون الإنجليزية «يحتمل أنهم أمريكيون، بصحبة جيش الدفاع الإسرائيلى فى چنين، يراقبون الأساليب الإسرائيلية على أرض الواقع». وفى كامپ ليون، وبعد ذلك فى فورت براج، أبدى ضباط المارينز ومسئولون آخرون بالجيش، تم تدريبهم بالفعل فى جوام وجنوب كاليفورنيا على دروس مستفادة من معارك أمريكية فى الصومال ومن معارك الروس ضد متمردى الشيشان. اهتمامهم الشديد بالأساليب

الإسرائيلية فى قمع المدنيين. وكان من بين هذه الأساليب إطلاق النيران، خاصة باستخدام الدبابات من أجل إحداث ثقوب فى المنشآت دون جعلها تنهار تمامًا، كما حدث فى چنين. كما استخدم الجيش الإسرائيلى أيضًا الجرافات والصواريخ التى تطلقها طائرات الهليكوپتر وتوجه لاسلكيًا لسحق ٢٠٠ رجل مسلح كانوا متحصنين فى المدينة. وبعد ذلك بدأت القوات الأمريكية فى استخدام تلك الأساليب فى العراق، كما حدث فى حصار الفلوجة فى خريف ٢٠٠٤.

وحذر ڤان كريڤيلد مستمعيه من «المشكلات الأخلاقية والدينية التى تنشأ عند قتال المدنيين» كما أشار إلى أن إسرائيل قد استخدمت طائرات الهليكوپتر فى چنين؛ لأن الفلسطينيين لم تكن لديهم أسلحة فعالة باستثناء الأسلحة الخفيفة، «نظرًا لأن طائرات الهيلوكوپتر عرضه للإصابة السريعة»[٢٨]. وكان هذا درس آخر كان على القوات الأمريكية تطبيقه فى العراق. فالقائمون بحرب العصابات هناك مسلحون بالأسلحة التى كانت موجودة فى مخازن السلاح التابعة للجيش العراقى، كالبنادق الآلية ومدافع الآر پى چى والقذائف المتنوعة، ومن ثم استطاعوا إسقاط العشرات من طائرات الهليكوپتر وقتل بعض أفراد أطقمها فى مايو ٢٠٠٤.

وفى نهاية عام ٢٠٠٣، شكل الپنتاجون (قوة المهام ١٢١)، والتى احتوت على أعضاء من قوة دلتا العسكرية وقوات الكوماندوز البحرية وعملاء شبه عسكريين من الاستخبارات المركزية، وأمر رامسفيلد بأن تقوم بعملية «اصطياد» قادة المقاتلين. كما سافرت فرقة كوماندوز إسرائيلية وبعض العاملين فى الاستخبارات، إلى فورت براج من أجل القيام بتدريب القوات الخاصة بها. وكتب سيمور هيرش فى مجلة «نيويوركر»، يقول بأن هناك مصدرين أخبراه بزيارة «مستشارين» إسرائيليين لقوات التحالف فى العراق (وهو ما نفاه لى زائيف شيف بصورة قطعية فى فبراير ٢٠٠٤. واكتشف هيرش أن المسئولين كانت تساورهم الشكوك حول عمليات «اصطياد البشر» والمستهدفين بالاغتيال. وقد ذكرهم ذلك «ببرنامج فونيكس» خلال حرب ڤيتنام. فقد أرسلت فرق القوات الخاصة لأسر أو قتل الڤيتناميين الذين كان يعتقد أنهم يتعاونون أو حتى يتعاطفون مع الڤيتكونج. وكان اختيار الأهداف يعتمد بصورة كبيرة على المعلومات التى يقدمها ضباط جيش ڤيتنام الجنوبية ورؤساء القرى، والتى غالبًا ما كانت

خاطئة أو غير جديرة بالاعتماد. وفى الفترة من عام ١٩٦٨ إلى عام ١٩٧٢ قتل برنامج فونيكس ما يزيد عن ٤١٠٠٠ أو قرابة ٢٠٠٠٠ ضحية، اعتمادًا على أى الجهتين تصدق، فالرقم الأول وفقًا للڤيتناميين والرقم الثانى وفقًا للأمريكيين. وكتب هيرش ببعض التفصيل عن عراقيين، من بينهم موالين لصدام مثل فاروق حجازى، قاموا بعمليات أجنبية لصالح المخابرات العراقية السابقة، وتم تجنيدهم بواسطة الأمريكيين.

وأشار الكولونيل يونى فيجيل، الذى عمل فى الاستخبارات أثناء الغزو الإسرائيلى للبنان عام ١٩٨٢، وبعد ذلك قائدًا عسكريًا للضفة الغربية، إلى أن المقاتلين العراقيين بدوا وكأنهم درسوا أساليب القتال الإسرائيلية والفلسطينية. فالتفجيرات الانتحارية وحرب العصابات «تعد وسائل ممتازة لإقامة سياج فاصل» بين جنود التحالف والمدنيين العراقيين. وكما فعل الإسرائيليون فى الأراضى المحتلة والأمريكيون فى ڤيتنام، حاولت القوات الأمريكية والبريطانية فى العراق الاعتماد على المعلومات التى يتم انتزاعها من المتعاونين والسجناء من أجل اقتحام منازل المشتبه بهم، والبحث عن الأسلحة واستخلاص المزيد من المعلومات. كما اتبعوا التكتيكات الإسرائيلية لاقتلاع الأشجار وتجريف الأراضى الزراعية وهدم المنازل لفتح خطوط إطلاق النار. وأدى ذلك إلى قيام وسائل الإعلام فى كل من إسرائيل والعالم العربى إلى عقد مقارنات بين أساليب حرب العصابات وأساليب مواجهتها فى كل من فلسطين والعراق[٢٩].

## كابوس أبو غريب

فى ربيع عام ٢٠٠٤، كشفت شبكة سى. بى. إس. الإخبارية والصحفى البارز سيمور هيرش فى مجلة نيويوركر عن قيام الولايات المتحدة باستخدام أسلوب جديد، كثيرًا ما كان ينسب لإسرائيل فى الماضى، ولكنه أصبح على ما يبدو عملية أمريكية خالصة شرعها البنتاجون: استجواب السجناء العرب فى ظل ظروف بالغة القسوة، على نحو ينتهك قواعد اللجنة الدولية للصليب الأحمر و«يرقى إلى مرتبة التعذيب». وقد حدثت أسوأ الفضائح فى هذا السجن الذى كان يستخدم قبل عام ١٩٥٨، فى عهد الملكية التى كانت تحميها بريطانيًا وخلال الأنظمة العراقية التالية. وارتكبت فى

هذا السجن أفظع أعمال التعذيب ضد السجناء، بواسطة زبانية صدام حسين. وواصل ذلك التقليد بعض العاملين الأمريكيين ومتعهدو الأمن المدنيين، وربما بعض محققى وكالة الاستخبارات المركزية. ومع نهاية صيف عام ٢٠٠٤، وعلى الرغم من التحقيقات المتعددة التى أمرت إدارة بوش بإجرائها على كافة مستويات السلم الوظيفى العسكرى من القادة المحليين وحتى البنتاجون، لم يوجه اللوم سوى إلى «بعض ثمار التفاح الفاسدة» على حد وصف البنتاجون لحفنة من الجنود والضباط المتطوعين. وأدت الفضائح التى حدثت فى العراق، والتى حاول القادة العسكريون والوزير الأمريكى دونالد رامسفيلد وبعض الجنرالات قدر جهدهم التستر عليها أو التزام الصمت عندما بدأت رائحتها تزكم الأنوف، إلى تدمير المصداقية الأخلاقية الأمريكية فى المجتمع الدولى، أكثر من أى أحداث شائنة أخرى حدثت فى الحرب على العراق.

وعبرت الصور والتقارير عن القهر والاعتداء الجنسى والإذلال والتحقير الممارس ضد السجناء العراقيين. وتم «تجهيز» كل ذلك من أجل التحقيق والاستجواب الذى قام به رجال (ونساء) من الشرطة العسكرية بناءً على طلب ضباط المخابرات العسكرية. وكان الهدف هو الحصول على معلومات عن الإرهاب وحروب العصابات المنتشرة، وكذلك الخطط طويلة ومتوسطة الأمد لدى المقاتلين. وأضاف هيرش: كان من الواضح أن ذلك يعبر عن رغبة رامسفيلد، «من أجل نزع السيطرة على العمليات السرية والعسكرية من قبضة الاستخبارات المركزية» برئاسة جورج تينيت الذى استقال من منصبه فى يوليو ٢٠٠٤ قبل ظهور التقارير اللعينة المتعلقة بفشل الاستخبارات قبل وبعد أحداث الحادى عشر من سبتمبر، خاصة فى أفغانستان والعراق.

وفى معرض اندفاعهم من أجل انتزاع المعلومات المتصلة بالعمليات الحربية، أجاز رامسفيلد ومعاونوه استخدام أقصى درجات العنف والقسوة مع السجناء والمحتجزين فى السجون السرية ومراكز الاعتقال. واتسع ذلك ليشمل جوانتانامو فى كوبا ومعتقل «بيت» الرهيب بالقرب من كابول، بأفغانستان، وسجنًا نائيًا فى صحراء قطر، وسجن أبو غريب القريب من ميناء مطار بغداد الدولى، وحوالى ١٣ سجنًا عسكريًا سريًا فى العراق. وبعد يوم ٢٨ يونيو ٢٠٠٤، وهو اليوم الذى تم تحديده «التسليم» السلطة الاسمى للإدارة العراقية، ظلت الوحدات الخاصة التى قوامها حوالى ١٣٠ ألف جندى

أمريكى فى العراق، مسيطرة على السجون السرية ومراكز الاعتقال. وتوصل أحد التحقيقات الصحفية فى جريدة واشنطن پوست، إلى أن السجون، التى تراوح حجمها بين حجم حاويات الشحن وحتى خليج جوانتانامو الشاسع، كانت جميعها جزءاً من البنية التحتية العسكرية والاستخباراتية الأمريكية التى تهدف إلى احتجاز الإرهابيين أو العناصر المتمردة والتحقيق معهم بمنأى عن أنظار أنظمة المحاكمات الأمريكية أو الدولية، حيث تبث وقائع الجلسات والأدلة الموجهة ضد المتهمين على الملأ. وتشمل الشبكة الدولية للمراكز، التى تنتهك أو تتجاهل ميثاق حقوق الإنسان واتفاقية چينيف المتعلقة بمعاملة أسرى الحرب، أيضًا على بعض المنشآت التى تديرها الاستخبارات المركزية لاستجواب القياديين فى تنظيم القاعدة والمشتبه بهم، وكذلك مراكز التحقيق والاستجواب للمخابرات الأجنبية «الصديقة»، والتى يتمتع العديد منها بسجل حافل فى التعذيب. وتم «تسليم» عدد من المشتبه فيهم لدول مثل سوريا والأردن، والتى يكون فيها حق المثول أمام القضاء أو عدم التعرض للإيذاء الجسدى مجرد حبر على ورق.

ساهم فى تفاقم فضيحة سجن أبو غريب انتشار أسطوانات الكمپيوتر التى تحتوى على مئات الصور الرقمية التى التقطها الجنود المتهمون على مستوى العالم. وتوضح الصور استخدام الكلاب المفترسة تتخذ وضعية الهجوم على السجناء العراة، ورصهم فى أشكال هرمية مثل كومة من اللحم. وتصور إحدى اللقطات مجندة أمريكية تجر أحد السجناء من حبل مربوط فى عنقه، ومشاهد أخرى لمن قاموا بالتصوير وهم مخمورون بما يفعلونه. وفى تقرير مطول حول زيارات الصليب الأحمر إلى السجون الخاضعة للتحالف ومواقع الاعتقال فى الفترة من مارس إلى نوڤمبر ٢٠٠٣، يتم التعرض بالتفصيل لأشكال مشابهة لهذه الانتهاكات وإساءة معاملة المسجونين فى أحد المراكز البريطانية فى البصرة وفى أماكن أخرى خاضعة لسلطة الاحتلال البريطانى، وإجبار السجناء الذين تمت تغطية رؤوسهم وتقييد أيديهم على الجلوس أو الركوع على أسطح ساخنة ملتهبة، مما يؤدى بهم إلى فقدان الوعى أو إصابتهم بحروق خطيرة. كما اشتملت بعض صور سجن أبو غريب اللاحقة على صور إباحية لبعض الجنود الأمريكيين الذين يمارسون الجنس مع بعضهم البعض. كما سرت بعض الشائعات ـ

والتى لم تؤكدها أى من هذه الصور على حد علمى - حول الاعتداء الجنسى على سجينات عراقيات أيضًا.

وبعد أيام من التردد، أعلن الرئيس بوش، بعدما واجه ردود فعل عالمية تتراوح بين الصدمة والرعب والاشمئزاز، وهو يقف إلى جوار الملك عبد الله ملك الأردن الذى كان فى زيارة للولايات المتحدة «أنه يأسف للمهانة التى تعرض لها السجناء العراقيون والمهانة التى تعرضت لها عائلاتهم». وأضاف بوش «أنه يأسف بنفس القدر لأولئك الذين يرون تلك الصور ولا يفهمون الطبيعة الحقيقية لقلب أمريكا».

أمر كبار القادة الأمريكيون فى العراق بوقف التعذيب وسوء المعاملة. ومع ذلك وبالرغم من الضغوط الدولية من المملكة المتحدة وأماكن أخرى، لم تظهر مثل تلك الأوامر مكتوبة مع نهاية صيف ٢٠٠٤ فيما يخص أفغانستان وجوانتانامو أو أى مكان آخر، على الرغم من الدعاوى القضائية التى أقامتها عائلات المحتجزين.

كان رد فعل المعلقين الإسرائيليين عنيفًا للغاية تجاه الاتهامات الصادرة عن أيوجين بيرد، الديبلوماسى الأمريكى المتقاعد والخبير فى شئون الشرق الأوسط، والتى بثتها هيئة الإذاعة الكندية (CBC)، وفحواها وجود المخابرات الإسرائيلية فى العراق، والاشتراك فى عمليات التحقيق، منذ بدء الحرب. ولكن سريعًا ما أصدرت هيئة الإذاعة الكندية توضيحًا يقول بأنها ليس لديها ما يؤكد مزاعم بيرد. وأكدت الجنرال جانيس كاربنسكى، القائدة الأمريكية المسئولة عن سجن أبو غريب، والتى تم إيقافها عن العمل، بعض الادعاءات التى صدرت عن مصادر متعددة بخصوص التدخل الإسرائيلى. وذكر الجنرال أنطونيو تاجوبا، المحقق الرسمى الأمريكى، فى تقرير مطول تورط «مواطنين تابعين لطرف ثالث» (ولم يذكر الأسماء أو الجنسيات) فى أبو غريب. وكان من ضمن المتهمين السبعة الذى تم إلقاء القبض عليهم (والذى تم الإفراج عنه بعد ذلك ولم تتم محاكمته أو اتهامه حتى وقت كتابة هذه السطور) شخص مدنى يسمى جون إسرائيل، وكان يعمل فى شركة «تيتان»، التى تقدم خدماتها للجيش الأمريكى فى العراق. وشغل جيمس وولسى، رئيس الاستخبارات المركزية الأسبق، وأحد المؤيدين لإسرائيل وللمحافظين الجدد فى واشنطن، منصب عضو مجلس إدارة

الشركة. وزعمت تيتان أنها لم توظف چون إسرائيل بطريقة مباشرة وإنما من خلال مقاول من الباطن. وأشارت بعض وسائل الإعلام إلى قيام شركة كاليفورنيا أناليسيس سنترانك (CACI) باستخدام اثنين من المتهمين فى أحداث سجن أبو غريب. ومن المعروف أن هذه الشركة كانت مرتبطة بعقود مع البنتاجون تتصل بأنظمة المخابرات والمعلومات. وقام مؤسس الشركة ومديرها، د. چاك لندن، بزيارة إسرائيل فى نهاية عام ٢٠٠٣ وبداية ٢٠٠٤. ونقلت وسائل الإعلام الإسرائيلية مراسم تسلمه لجائزة ألبرت أينشتين فى احتفال خاص حضره شاؤول موفاز وزير الدفاع الإسرائيلى.

ولم تثبت أىّ من تلك الملابسات أى شىء بالطبع. ولم تجد فى إسرائيل سوى النفى التام، وكان بعض مناصرى حقوق الإنسان من بين من أنكروا ذلك. ومع ذلك، فقد أشار العديد من النقاد الإسرائيليين، إلى تقرير لانداو القضائى عام ١٩٨٧، والذى سمى باسم القاضى الأسبق للمحكمة الإسرائيلية العليا، موشى لانداو، والذى احتوى على تفاصيل قيام محققين من جهاز الأمن الداخلى (الشين بيت) بانتزاع الاعترافات من السجناء تحت ضغوط نفسيه وبدنية لا تحتمل، والكذب تحت القسم بأمر من قادتهم. وعلى ذلك، سن الكنيست قوانين صارمة تحرم تعذيب المتهمين الفلسطينيين، ولكنها تسمح «بضغوط جسمانية معتدلة». أما عن كيفية اتباع تلك الإرشادات والقوانين، فهو أمر محل جدل فى إسرائيل. (وقد أثرت العديد من المزاعم بشأن السجن الذى كان موجوداً فى جنوب لبنان المحتل قبل الانسحاب الإسرائيلى فى مايو ٢٠٠٢ حيث كان المرتزقة اللبنانيون يقومون بأعمال التعذيب لحساب قوات الاحتلال الإسرائيلى).

كشف مركز الفكر غير الهادف للربح «أرشيف الأمن القومى» عن كتيبات ووثائق تابعة للاستخبارات المركزية من عام ١٩٦٣ وحتى الثمانينيات. ويوجد جزء فى أحد هذه الكتيبات، بعنوان «استخدام الإكراه فى التحقيق مع العناصر المقاومة»، يمتدح استخدام «التهديد والإرهاب» «والألم» «والإنهاك». وتقول وثيقة أخرى إنه يمكن للمحقق فى وكالة الاستخبارات من أجل الحصول على معلومات، «التلاعب فى بيئة من يتم التحقيق معه» كما أن هناك توجيهاً بشأن إمكانية «صنع مواقف غير سارة أو غير مريحة من أجل تشويش فى إدراك المكان والزمان والحواس».

وقد أفاد أحد الضباط السابقين فى قسم التحقيقات التابع للأمن الداخلى الإسرائيلى لصحيفة «هاآرتس» وللمراسل التليفزيونى، يوسى ميلمان أنه: «عندما يطلع المرء على كل الوثائق والتقارير الأمريكية، يتضح أن الأمريكيين ليسوا فى حاجة إلينا من أجل القيام بالتحقيقات. فالتقارير وصور التعذيب والاعتداء والإذلال فى ذلك السجن العراقى تجسد واقعًا، إذا قورن بالتحقيقات التى نجريها مع الفلسطينيين، يصبح ما نفعله مجرد لعب عيال»[٣٠].

## إسرائيل وتركيا والأكراد العراقيين

كشف الصحفى الأمريكى الجسور والواسع الاطلاع، سيمور هيرش، فى بدايات صيف ٢٠٠٤، عما يمكن اعتباره بصورة أكيدة عائقًا خطيرًا ومدمرًا لهدف إدارة بوش المعلن وهو توحيد العراق وجعله ديموقراطيًا، فقد أزاح النقاب عن محاولة إسرائيلية دؤوبة لتجديد العلاقات الإسرائيلية السرية مع الأكراد فى شمال العراق، الأمر الذى يهدد تركيا التى تعد حليفًا لكل من إسرائيل والولايات المتحدة. لم يكن الهدف الوحيد للقدس من وراء إرسال عملائها العسكريين والاستخباراتيين إلى كردستان العراقية، كما رأينا فى الفصل الخامس، وهو استخدام الأكراد كأداة ضد ما اعتبرته إسرائيل أكبر عدو استراتيجى قادم - (وربما نووى) وهو إيران، التى تصرفت على نحو مراوغ فى عامى ٢٠٠٣ - ٢٠٠٤ مع تساؤلات الأمم المتحدة والوكالة الدولية للطاقة الذرية والولايات المتحدة والاتحاد الأوروبى.

وقد استشعرت حكومة أنقرة الخطر بشأن احتمال استقلال أكراد العراق، الأمر الذى يمكن أن يكون نواة لدولة كردية تبتلع معها أكراد تركيا مما يمكن أن يؤدى إلى تهديد وحدة تركيا وكذلك العراق. وأدى نفى إسرائيل المفتقد للحماس لمزاعم هيرش وكون تركيا حليفًا عسكريًا جيدًا لإسرائيل، إلى قول رئيس الوزراء التركى الطيب أردوجان بأنه «يرغب» فى تصديق النفى الإسرائيلى. وفى نفس الوقت أعلنت مجلة (ميدل إيست أيكونوميك سيرفاى)، فى ١٣ يوليو ٢٠٠٤، أن تركيا أنذرت رئيس الوزراء العراقى المؤقت، المدعم من قبل أمريكا، إياد علاوى بأنها ترغب فى كبح

جماح الانفصال التركى، وأن كركوك وحقول النفط بها يجب ألا تخضع للسيطرة الكردية. وتبعًا لهيرش، فإن عملاء الموساد والجيش الإسرائيلى، الذين ينتحل بعضهم صفة رجال الأعمال، يقومون بتدريب قوات الكوماندوز الكردية و«إدارة العمليات السرية داخل المناطق الكردية فى إيران وسوريا وهو الأمر الأكثر أهمية من وجهة نظر إسرائيل».

وأضاف هيرش أنه علم عن طريق ضابط مخابرات إسرائيلى سابق، أن أحد اهتمامات إسرائيل بعد التسليم الشكلى للسلطة من قوات التحالف إلى حكومة علاوى، فى يوم ٢٨ يونيه، كان يتمثل فى بناء وتقوية قوات الكوماندوز الكردية. كان الهدف من ذلك هو خلق توازن مع الميليشيات الشيعية فى جنوب العراق بقيادة الإمام مقتضى الصدر والميليشيات الأخرى التى تقاتل التحالف. وأكد المصدر الإسرائيلى أن الغرض الأساسى لهذا النشاط هو جعل قوات الكوماندوز الكردية على نفس مستوى «وحدات الكوماندوز السرية الإسرائيلية» التى تسمى «الميستاراقيم». وكان من المفترض أن يتمكنوا من «اختراق صفوف الثوار الشيعة والسنة فى العراق وجمع المعلومات الاستخباراتية عنهم واغتيال قادتهم» وهو الأمر الذى عجز عنه الأمريكيون. ومع ذلك، اعترف بأن الأتراك كانوا يشعرون بالإحباط؛ لأنهم يخشون من انشقاق هؤلاء الذين يتم تدريبهم وقيامهم بالتسلل والهجوم على تركيا».

وقد نفت السفارة الإسرائيلية فى واشنطن تلك القصة. ولم يقم الأكراد العراقيون أو وزارة الخارجية الأمريكية بالتعليق عليها. ومع ذلك، أصر هيرش على ما أكده له مسئول كبير فى الاستخبارات المركزية بأن الإسرائيليين يعملون بالفعل فى كردستان، وأن هذا أمر معروف على نطاق واسع فى مجتمع المخابرات الأمريكية[٣١].

ومن بين كل الإرهاصات التى تشير إلى نشوب الحرب الأهلية، أو حرب عابرة للحدود فى عراق ما بعد صدام، كانت هذه أكثرها خطورة.

## بناء الأمة - أم تمزيق أوصالها؟

فى ربيع عام ٢٠٠٤، بدأت حملة الانتخابات الرئاسية الأمريكية فى التأجج،

وكانت مجريات الأمور فى العراق هى الموضوع الأساسى للمناظرة بين الرئيس چورچ بوش ومنافسه الديمقراطى، السيناتور چون كيرى. وقام المعهد الدولى للدراسات الاستراتيچية (IISS) الموجود فى لندن بالتناول الموضوعى للأضرار والإحباطات اليومية التى يتعرض لها التحالف فى العراق. ففى تقريره الاستراتيچى السنوى، قام المعهد بعمل تحليل استقرائى لتطور السياسة الأمريكية وأخطائها المتعددة. ووضع ذلك التحليل فى اعتباره الصلة الواضحة ـ التى يغمض بوش وأتباعه فى واشنطن أعينهم عنها ـ بين العراق والقضية الفلسطينية. فقد قامت إدارة بوش المرتعدة (بسبب النفوذ القوى لمنظمة أيپاك والتكتلات الأخرى المدافعة عن المصالح الإسرائيلية والصقور من المحافظين الجدد فى الپنتاجون) بمنح تفويض مفتوح لشارون لكى يفعل ما يحلو له. ومع ذلك، فشلت الدراسة التى قام بها المعهد فى أن تضع فى حسبانها أى تورط إسرائيلى، مباشر أو غير مباشر، فى الحرب على العراق. كما أشار التقرير، على نحو صريح، إلى قرار واشنطن الكارثة بحل الجيش العراقى، والبدء من الصفر بتدريب قوات الأمن والشرطة العراقية. فقد ترك العديد ممن حصلوا على ذلك التدريب المتعجل أماكنهم عندما طلب منهم، قبل تسليم السلطة فى ٢٨ يونيه، قتال بنى جلدتهم من العراقيين فى الفلوجة والنجف.

كما أشارت الدراسة، إلى الفشل الأمريكى الكامل ـ مثلما حدث فى الصومال وفى الأماكن الأخرى التى واجهت فيها القوات الأمريكية عناصر المتمردين ـ فى نزع أسلحة العراقيين بعد سقوط صدام وتوقف عمليات القتال التقليدى. وأدى ذلك إلى تشجيع المقاتلين العراقيين والإرهابيين والمجاهدين الأجانب من القاعدة والمنظمات الأخرى، الذين عبروا الحدود العراقية الواسعة، التى لا تتمتع بالحراسة اللازمة، وقاموا بالاشتراك فى أو قيادة عمليات القتال التى يقوم بها الثوار. وأضاف تقرير المعهد أن «عدم قدرة السلطة العراقية المؤقتة على توفير الأمن الشخصى وتطبيقها المتحيز لقواعد نزع السلاح ـ على سبيل المثال السماح للميليشيات الكردية بالاحتفاظ بأسلحتها ومطالبة الشيعة بالتخلى عن سلاحها ـ أدى إلى تصاعد أعمال المقاومة».

وكشف التقرير أيضًا عن أن الخطط الأمريكية المرتبكة وغير المحددة لإعادة إعمار العراق مرت بأربع مراحل. ففى بادئ الأمر قام القائد العسكرى الأمريكى الأسبق

الجنرال چاى جارنر وفريق من كبار المسئولين المدنيين. من بينهم مسئولو المخابرات المركزية، بالسير على خطا محررى بغداد. ولكن جارنر لم يستمر سوى فترة قصيرة نظرًا لعدم قيام البنتاجون بوضع أى خطط موازية لمنع أعمال السلب أو توفير المياه والكهرباء والحاجات الأخرى الأساسية للسكان. أما پول بريمر، الذى حل محله، فقد شرع على الفور فى فك الاشتباك بين المحافظين الجدد فى البنتاجون، الذى يفترض إشرافهم على عمليات إعادة التعمير، وبين كولين پاول وزير الخارجية صاحب الخطة المدروسة والمفصلة لاحتلال وإعادة تعمير العراق التى رفضها رامسفيلد.

وعلى الجبهة السياسية، قام بريمر فى البداية بتأجيل انتقال السلطة إلى مجلس حكم عراقى يتكون بشكل أساسى من المعارضين العائدين من الخارج واشتمل ذلك بالطبع على المؤتمر الوطنى العراقى المعارض بقيادة أحمد الجلبى. كما فشلت محاولات تشكيل جمعية تشريعية مؤقتة، فى الأسابيع الأولى للاحتلال، وكان السبب فى ذلك إلى حد كبير هو عدم شعبية قوات الاحتلال الأمريكية والاعتقاد السائد بأن وجود هذه القوات يدعو العراقيين إلى ممارسة لعبة «فلننتظر وننظر ماذا يحدث» قبل أن يورطوا أنفسهم فى أى مشاركة فى العملية السياسية.

وفى يوليه ٢٠٠٣، شكل بريمر مجلس الحكم العراقى. وتولى ومستشاروه اختيار أعضاء ذلك المجلس، بعد مداولات عديدة، من خمس جماعات أساسية كانت مبعدة عن الحكم. فقد اشتمل المجلس على ١٣ عضوًا ضموا الشيعة وخمسة من السنة وتركمانيًا ومسيحيًا. وتم استبعاد الجلبى بعد وقف المساعدة المالية التى كان يقدمها له البنتاجون وقدرها ٣٤٠ ألف دولار شهريًا، نظرًا لاتهامه بتهم خطيرة، على الرغم من عدم ثبوت الأدلة عليها، ومنها تسريب معلومات تتعلق بفك الشفرات الأمريكية لإيران. ومع تصاعد أعمال العنف فى نوڤمبر ٢٠٠٣، أدرك التحالف عيوب مجلس الحكم العراقى. كما أدرك صقور البنتاجون بقيادة رامسفيلد أيضًا أن سياسة واشنطن المتمثلة فى «المضى وحدنا» لم تعد تجدى نفعًا. وفى النهاية، قررت واشنطن ولندن (حيث عانى تونى بلير رئيس الوزراء البريطانى من تدهور شعبيته بسبب المعارضة المتزايدة للحرب) جَلْب حلفاء أوروبيين وكذلك الأمم المتحدة، التى كانت تخطو بحذر بعد مقتل مبعوثها ذى الشعبية الكبيرة ڤيرا دى ميلو.

وتبين أيضًا، على الرغم من عدم الاعتراف به على الملأ من جانب المتحدثين باسم إدارة بوش، أن الاحتلال والمقاومة فى العراق شكلا مركز جذب لإرهابيى تنظيم القاعدة والمغامرين من كافة بقاع الأرض، الذين كانوا يتوافدون على العراق[٣٢] وبصحبتهم أساليب إرهابية جديدة ومبتكرة من بينها: السيارات المفخخة والأكمنة على جوانب الطريق، ومدافع الهاون والصواريخ، وهجمات القناصة حيث سقط الضحايا بشكل يومى من جانب قوات التحالف، وعدد أكبر من جانب المواطنين العراقيين ورجال الشرطة الذين تم تعيينهم حديثًا.

وشعرت واشنطن أنها مجبرة على تسليم السلطة للعراقيين فى ٣٠ يونيه ٢٠٠٤. وصدق مجلس الحكم العراقى على مشروع أمريكى لكتابة مسودة الدستور العراقى، ويليه تشكيل جمعية تشريعية انتقالية مكونة من ٢٠٠ إلى ٣٠٠ نائب. وتقوم الجمعية باختيار الوزراء ورئيس الوزراء، وأن تقود العراق نحو انتخابات ديمقراطية، يتم عقدها فى يناير ٢٠٠٥. وبعد شهور من المشاحنات، لم يتم الوفاء فيها بأية التزامات محددة مسبقًا، تم الاتفاق على الدستور المؤقت، الذى أطلق عليه القانون الإدارى الانتقالى فى ٧ مارس ٢٠٠٤. ومع نهاية عام ٢٠٠٥، يفترض أن يكون هناك دستور دائم وحكومة دائمة للعراق. ومن المفترض أيضًا محاكمة صدام وعشرة من معاونيه بتهم ارتكاب جرائم حرب وجرائم ضد الإنسانية فى أوائل يوليه، وذلك من خلال محكمة عراقية يدعمها مستشارون دوليون فى خلال عام ٢٠٠٥.

وبعد الهدوء النسبى الذى تلا تسليم السلطة فى ٢٨ يونيه، تصاعدت الهجمات الإرهابية خلال شهور الصيف. وتم اختيار إياد علاوى، العضو السابق فى حزب البعث وزعيم حركة الوفاق الوطنى، رئيسًا للحكومة العراقية المؤقتة، بواسطة بريمر بعد مشاورات سياسية مطولة مع الأخضر الإبراهيمى، مبعوث الأمم المتحدة. وفى يوليه، طلب علاوى من منظمة حلف شمال الأطلنطى، بصورة رسمية، المساعدة فى تخليص العراق من مستنقع العنف الغارق فيه والتكاسل فى عمليات إعادة التعمير.

وفور رحيل بريمر فى يوم ٢٨ يونيه، أرسلت إدارة بوش جون نيجروبونت، المندوب الأمريكى الدائم فى الأمم المتحدة، من أجل تولى مسئولية السفارة الأمريكية

الجديدة التى حلت محل سلطة الاحتلال وشغلت نفس المساحة كثيفة الحراسة والمسماة بالحزام الأخضر والواقعة بين قصور صدام فى وسط بغداد. واشتهر نيجروپونت، الدپلوماسى المحترف، فى أمريكا الوسطى بأنه مقاتل متحجر القلب، وأنه سفير ماهر ذو قدرات عالية. وأعلن إياد علاوى، وبجواره نيجروپونت، حاله الطوارئ، أو الأحكام العرفية، كما وعد باتخاذ إجراءات صارمة للضرب على أيدى المتمردين. وكان الجميع يعلم أنه بحاجة للقوات الأمريكية، إلى جانب قوات الأمن العراقية حديثة النشأة، من أجل تحقيق ذلك. وكان ذلك يعنى استبعاد أى انسحاب أمريكى فى المستقبل القريب. والواقع أن الپنتاجون بدأ فى استدعاء قوات الاحتياط وشن حملات دعاية مكثفة من أجل إقناع من غادروا سلاحى الطيران والبحرية بالعودة إلى الخدمة.

ووقع الاختيار على غازى الياور ليكون رئيسًا للعراق. وهو مزيج غير معتاد يجمع بين شيخ القبيلة - الذى يرأس قبيلة شمر القوية ذات النفوذ الواسع والبالغ عدد أفرادها ٣ مليون شخص، الذى ارتدى العباءة وغطاء الرأس القبلى التقليدى فى حفل تنصيبه رئيسًا - ورجل الأعمال العملى ذو الخبرة فى ذات الوقت. وقد طار مسئولون فى حلف شمال الأطلنطى بعد انفضاض جلسة الناتو التى عقدت فى إسطنبول، مباشرة إلى بغداد من أجل لقاء علاوى، والچنرال الأمريكى ديڤيد پاتريوس، الذى يرأس المهمة الأمريكية لتدريب قوات الأمن العراقية الجديدة.

وعلى الرغم من أن بعض الحلفاء أعضاء الناتو ومن بينهم هولندا، وپولندا عضو الناتو الجديد (والتى أرسلت ما يزيد عن ١٢,٠٠٠ جندى، لتحتل بذلك المرتبة الثالثة من حيث الحجم فى التحالف)، وإيطاليا كانوا يستعدون لتقديم المساعدة، إلا أن هناك أعضاء آخرين، ممن أطلق عليهم رامسفيلد «تحالف الذين يريدون»، أصبحوا فعليًا لا يريدون. فقد قامت إسپانيا بسحب قواتها بالفعل بعد الهجوم الإرهابى المرعب على مدريد فى مايو وهزيمة رئيس الوزراء وحكومته المحافظة فى الانتخابات الإسپانية لصالح الاشتراكيين، الذين قاموا بشن حملة انتخابية تعتمد على سحب القوات الإسپانية من العراق. وتلا ذلك انسحاب السلڤادور. وجمهورية الدومنيكان. ثم قامت تايلاند بسحب قواتها. وقد حدثت سلسلة من عمليات الخطف واحتجاز الرهائن والقطع الوحشى لرؤوس المدنيين الذين تم اختطافهم لتهديد بلغاريا والفليپين

ودول أخرى فى التحالف الذى تقوده الولايات المتحدة من أجل إعادة النظر فى انحيازها السافر لواشنطن ولندن وسحب قواتها من العراق. وأصدرت جلوريا أريو رئيسة الفليبين أوامرها بسحب القوة العسكرية الفليبينية البالغ عدد أفرادها ٥١ جندى ومغادرة العراق قبل أسابيع من انتهاء انتدابها الرسمى فى شهر أغسطس، وذلك استجابة للضغط الشعبى من أجل الإفراج عن رهينة فليبينى. وعلى نحو أساسى، كما أشار المؤرخ وليام بفاف، هناك العديد من الآراء الهامة والمختلفة حول مستقبل حلف شمال الأطلنطى، والدور الاستراتيچى للاتحاد الأوروبى الآخذ فى الاتساع. هل يجب عليهم الاستغراق فى بناء الأمة، أم فى محاولة إعادة رسم العالم الخارجى؟ أما إدارة بوش فإن إدراكها لحاجتها إلى الاتحاد الأوروبى، ولمساعدة من جانب العرب إن أمكن، فى إعادة بناء العراق، أصبحت فى ازدياد مستمر.

ومع ذلك، فإن الشقاق الأساسى بين أمريكا وأوروبا حول العراق، لا زال قائمًا. أما برنامج بوش، الذى ظل على أچندة واشنطن بعد انتهاء الفترة الرئاسية الأولى لبوش، وحتى الثانية والأخيرة له، فيتمثل فى استبدال «حكومات محور الشر» فى الشرق الأوسط، «بنماذج ديمقراطية» مسلمة تعيش فى كنف الولايات المتحدة (حيث أمل المحافظين الجدد أن يؤدى ذلك إلى ذوبان الجليد بينها وبين إسرائيل). ويعتقد الأوروبيون، وخاصة الفرنسيون والألمان أن جَلْب الديمقراطية إلى العالم العربى والإسلامى ربما يكون أمرًا غير واقعى، أو حتى مستحيلاً، كالحلم، خاصة عندما يتم فرضه، مثلما حدث فى العراق (وخطط بعض المحافظين الجدد لحدوثه بالنسبة لإيران وسوريا وغيرهما) بواسطة القوة العسكرية الغاشمة.

وقد اعترض الأوروبيون وغيرهم على مستوى العالم أجمع تقريبًا، على سياسة بوش فى تقديم الدعم المطلق لحكومة شارون فى النزاع الإسرائيلى الفلسطينى (على الرغم من إبداء بعض الاستحسان لانسحاب شارون من غزة مع الاحتفاظ بمعظم مستوطنات الضفة الغربية)، وهو الموقف الذى عبر السيناتور چون كيرى مرشح الحزب الديمقراطى للرئاسة عن تأييده له فى صيف ٢٠٠٤. كما فضل أعضاء حلف شمال الأطلنطى بصفة عامة العودة إلى مفاوضات السلام متعددة الأطراف، والتى كانت

تجرى فى عهد كلينتون، بعد إغلاق ملفات اتفاقية أوسلو التى أبرمت عام ١٩٩٣ بين الإسرائيليين والفلسطينيين. أما الولايات المتحدة، كعادتها فى البحث عن رفيق عندما تضيق بها السبل، فقد عملت بجد من أجل إشراك حلف الناتو فى عمليات حفظ السلام وإعادة تعمير العراق، ولكنها لم تحصل إلا على بعض الوعود الفاترة من جانب العديد من أعضاء حلف الناتو بتقديم المساعدة فى تدريب قوات الأمن العراقية[٣٣].

## بداية نهاية اللعبة، التحالف يتماسك

حققت الحرب التى تقودها الولايات المتحدة، والتى اندلعت فى مارس ٢٠٠٣، بعضًا من أهدافها العسكرية الخالصة. فقد دمرت المنشآت العسكرية والكثير من البنية الأساسية فى دولة صدام الاستبدادية التى كان يحكمها حزب البعث، كما أدت إلى الإطاحة بصدام. ولكن فى صيف عام ٢٠٠٤، وعلى الرغم من الانتقال الشكلى للسلطة، إلا أنها فشلت فى استعادة الدولة أو توفير حياة اقتصادية أو اجتماعية كريمة للعراقيين. وتم زرع نوع من الحماية الأمريكية فى قلب العالم العربى. وكان من المفترض أن تعود السيادة العراقية الشكلية عبر تسليم السلطة فى ٢٨ يونيه ٢٠٠٤. ولكن إشراف الأمم المتحدة وحلف الناتو، التى قامت إدارة بوش اليائسة بطلبها عندما بدت الأمور تبدو خارجة عن السيطرة بسبب حرب العصابات والاضطرابات السياسية، كانت غائبة. وأدى الإضراب والفوضى فى عراق ما بعد الحرب، إلى التعبير عن الرأى وحرية الصحافة والتجمع، الأمر الذى لم يحدث من قبل فى ظل الحكم العربى أو التركى أو البريطانى. وتحقيق هدف إسرائيل الأثير إلى قلبها، وهو تدمير القوات المسلحة العراقية والتى اعتبرتها عدوًا لدودًا يتربص بها من ناحية الشرق وحليفًا للمقاومة الفلسطينية العنيفة، دون أى خسائر إسرائيلية فى الأرواح أو المعدات. وأصبحت الشراكة الأمريكية الإسرائيلية القوية رسميًا على المستوى السياسى والاقتصادى والعسكرى. وأصبحت إسرائيل يمكنها الآن أكثر من أى وقت مضى الاعتماد على الدعم الأمريكى من جانب الكونجرس والإدارة فى أى قرار تتخذه القيادة الإسرائيلية فى القدس، وعلى الحماية التى يقدمها الڤيتو الأمريكى فى مجلس الأمن لمنع أى ضغط على إسرائيل من جانب المجتمع الدولى.

وتمثل أحد الجوانب السلبية لغزو العراق فى الفساد الذى بدأ متفشيًا بين الشركات التى اختارها البنتاجون من أجل إعادة إعمار العراق. فمن المثير للسخرية، أنه فى فبراير ٢٠٠٤، وبعد اعتراف الشركة الأمريكية العملاقة هاليبورتون (التى كان يعمل فى إدارتها ديك تشينى نائب الرئيس) بأنها طلبت ثمنًا باهظًا من الجيش الأمريكى فى العراق مقابل النفط الذى باعته له بأسعار مبالغ فيها من خلال موردين كويتيين، قام الجيش الأمريكى، وفقًا لوسائل الإعلام الإسرائيلية، بمكافأة شركة «سونول جازولين» الإسرائيلية وشريكتها الأجنبية «مورجان تاون إنترناشيونال» بصفقة قدرها ٧٠ ـ ٨٠ مليون دولار من أجل تقديم النفط للقوات الأمريكية فى العراق. وأدركت إسرائيل أن حلمها باستعادة خط نقل النفط عبر الأنابيب من العراق إلى حيفا والذى كان يعمل قبل ١٩٤٨، يتبخر، حيث لا تزال تستورد النفط عبر البحر. وكان يتم شحن نفط سونول، الذى يكرر فى إسرائيل، من بئر سبع إلى الأردن برًا ثم إلى العراق. ورغبت الشركات الإسرائيلية فى التهام جزء من الكعكة، حتى مع عودة المخابرات الإسرائيلية والقوات المسلحة السرية إلى كردستان العراقية.

ببساطة، ما لم تحققه الحرب ولا احتلال العراق هو السلام والوحدة الوطنية للعراق بطوائفه الثلاث: السنة فى الوسط والغرب، والشيعة فى الجنوب، والأكراد فى الشمال. وظهرت العديد من الأصوات التى تطالب بتقسيم العراق وعودته إلى الحالة التى كان عليها فى العصر العثمانى أو ما قبل ذلك، على شكل ثلاثة أقاليم منفصلة. وكان رأى بعض المعلقين الإسرائيليين، ومن بينهم أمريكية على الأقل (السلى جلب، الرئيس الأسبق لمجلس العلاقات الخارجية) أن ذلك سيكون شيئًا جيدًا، لأن تلك الكيانات ستكون أضعف من محاولة تهديد أحد، سوى بعضها البعض.

ولكننى أختلف مع هذا الرأى تمامًا، فالقوة المركزية الجاذبة والمتخطية للحدود لتلك الكيانات العراقية الثلاثة وللأقليات التابعة لها، فى حالة تقسيم العراق، ستشكل تهديدًا خطيرًا على استقرار ووحدة الدول المجاورة مثل تركيا والأردن وإيران وسوريا. وعلى المدى البعيد فإن إسرائيل، مع أو بدون الأراضى التى احتلتها عام ١٩٦٧، سوف تعانى كثيرًا، لأنه سيتم جرها بطريقة مباشرة أو غير مباشرة فى الصراعات الإقليمية. وبحلول صيف ٢٠٠٤، كان التحالف الذى بدا قويًا بينها وبين تركيا يخضع

لتوتر شديد ناجم عن مخاوف تركيا من تزايد قوة الأكراد الذين تدعمهم الولايات المتحدة أو إسرائيل فى العراق، وكذلك بسبب اعتراض تركيا على الوسائل الوحشية التى يستخدمها شارون لقمع الفلسطينيين.

وقد عقد الرئيس بوش ومستشاروه، حتى قبل توليه السلطة فى عام ٢٠٠١، العزم على إجراء «تغيير جذرى للنظام» وإصلاح فى العالم الإسلامى. وأعلنوا أن القوات المسلحة الأمريكية يجب أن تستخدم لتحقيق ذلك - حتى لو أدى ذلك إلى إحداث عجز هائل فى الميزانية الأمريكية، لم يسبق له مثيل يصل إلى - ٤٠٠ بليون دولار. وحتى التسعينيات، كان هناك القليل من المعلقين الذين يؤمنون بأن الولايات المتحدة ستشن حربًا ثانية فى العراق أو فى الخليج، على الأقل قبل التوصل لحل للنزاع الجوهرى القديم حول فلسطين. وكانت إجابة المحافظين الجدد هى أن الطريق إلى العراق لا يمر عبر السلام الإسرائيلى - الفلسطينى ولكن السلام(*) الإسرائيلى الفلسطينى يمر عبر بغداد. وبغزو العراق فإن الولايات المتحدة لم تتبع فقط الأساليب الإسرائيلية القديمة، ألا وهى الحرب الإجهاضية والمبادرة بالعدوان، ولكنها أيضًا اعتبرت أن أعداء إسرائيل هم أعداؤها، خاصة عندما أيقن صناع السياسة لدى بوش بأن الجارتين اللتين يطلق عليهما بوش «محور الشر» - إيران والعراق - تقومان بتسليح أنفسهما بأسلحة دمار شامل. وفى مارس ٢٠٠٣، عندما دارت رحى الحرب، صرح شارون لجريدة التايمز اللندنية أنه يجب على الولايات المتحدة وبريطانيا بعد الانتهاء من «تحييد» العراق، التوجه إلى إيران. وقبل عقد من الزمان، كان هناك بعض المسئولين فى إسرائيل، مثل الوزير الأسبق موشى سنيح، يصرون على أنه إذا لم تقم الدول الغربية بواجبها وكبح طموحات إيران النووية، «فسوف تجد إسرائيل نفسها وحيدة فى أرض المعركة، وستقوم بأداء مهمتها بأى وسيلة (بما فى ذلك السلاح النووى)». وقد تنبأ المحلل چون پيك فى جريدة «واشنطن كاساندرا» فى عام ٢٠٠٣، إما أن «تقوم إسرائيل أو الولايات المتحدة بقصف المواقع النووية الإيرانية أو القبول

---

(*) يصح المعنى لو تم تغيير بسيط فى بعض الحروف: الاستسلام الفلسطينى لإسرائيل يمر عبر بغداد - المترجم.

بإيران كدولة نووية»[٣٤]. وبعد إعادة انتخاب بوش فى نوڤمبر ٢٠٠٤، واجهت إيران المزيد من الآراء العدائية من جانب الولايات المتحدة وإسرائيل.

وفى النهاية، لا يسعنى سوى تكرار إيمانى العميق، والذى ربما أصبح الآن أكثر رسوخًا عن ذى قبل، خلال سنواتى الأولى فى المنطقة فى الستينيات والسبعينيات، بأنه لن يتم حل أى من النزاعات فى الشرق الأوسط، بما فى ذلك الذى يتعلق بما كان يطلق عليها بلاد ما بين النهرين، بطريقة سلمية إلا بعد إيجاد تسوية عادلة بين إسرائيل وعرب فلسطين. وكما أخبرنى الچنرال والمحلل والكاتب الإسرائيلى الشهير يهوشافات هاركابى، ذات مرة فى عام ١٩٦٩، أن مشكلتنا لا تكمن فيما حدث فى عامى ١٩٤٨ و ١٩٦٧ ولا حتى فى المصائب التى يمكن أن تحدث فى المستقبل، ولكن مشكلتنا هى مشكلة وجود: كيف يمكننا أن نعيش فى سلام الآن جنبًا إلى جنب مع الفلسطينيين ومع جيراننا الآخرين؟».

ونجد فى مذكرات الرئيس المصرى أنور السادات «البحث عن الذات» إجابة شافية. وهى تنطبق على الشرق الأوسط ككل، وعلى وجه الخصوص على الأراضى التى تمتد جهة الشرق من شواطئ البحر الأبيض المتوسط وحتى دجلة والفرات. ويجب على كل من الولايات المتحدة وحليفتها إسرائيل - اللذين يبدو أنهما انصهرا معًا وأكثر من أى وقت مضى فى بوتقة مغامرتهما المتزامنة فى العراق - أن يضع فى ذهنه كلمات السادات التى لخصها لى فى مقابلة فى القاهرة فى أكتوبر عام ١٩٧٤: «لن يكون هناك أمل إلا لمجتمع يتصرف كعائلة كبيرة وليس كأفراد متفرقين»[٣٥].

* * *

# الهوامـش

## الفصل الأول : تراث بابل

1. Steven Bayme, "Iraq, Babylon and Baghdad in Jewish History and Thought," American Jewish Committee, June 1, 2003 (internet document), p. 1.
2. *The Hodder and Stoughton Illustrated Bible Dictionary*, Herbert Lockyer Sr. (ed.) (Thomas Nelson, Nashville, Ky., 1986), pp. 208–9.
3. Neil MacFarquhar, "Outdoing Nebuchadnezzar," *International Herald Tribune*, p. 5, August 20, 2003; Gavin Young, *Iraq: Land of Two Rivers*, Photos by Nik Wheeler (London, Collins, 1980), pp. 17–18. "Ancient Babylon," The History of the Ancient Near East, Electronic Compendium, undated, pp. 1–2 online.
4. Rudolph Fischer, *Babylon, Entdeckungsreisen in die Vergangenheit* (Thienemann, Edition Erdmann, place and date of publication unspecified), p. 35.
5. James Wellard, *By the Waters of Babylon* (London, Hutchinson, 1972), pp. 18–19.
6. A. J. Arberry (ed.), *Religion in the Middle East: Three Religions in Concord and Conflict* (Cambridge University Press, 1969), Vol. 1, *Judaism and Christianity*, pp. 136–7, p. 192.
7. Melissa Block, NPR's "All Things Considered," August 6, 2003, online transcript.
8. Arberry, op. cit., p. 192.
9. Stephen Bayme, op. cit., pp. 1–2.
10. Sandra Mackey, *The Reckoning: Iraq and the Legacy of Saddam Hussein* (New York, Norton, 2002), pp. 96–7.
11. Hanna Batatu, *The Old Social Classes and the Revolutionary Movements of Iraq* (Princeton University Press, 1978), p. 286.
12. Batatu, op. cit., pp. 287–8.
13. Batatu, op. cit., pp. 290–1.
14. Mackey, op. cit., pp. 89–90.

## الفصل الثانى : تقسيم الإمبراطورية العثمانية

1. Mackey, op. cit., pp. 100–1.
2. Peter Mansfield, *A History of the Middle East*, Second Edition, revised and updated by Nicolas Pelham (London, Penguin Books, 2003), pp. 151–7.
3. Mackey, op. cit., pp. 105–9.
4. "Behind the War in Iraq," *Monthly Review*, May 1, 2003, p. 3, online.
5. *New York Times*, July 18, 2003.
6. Mansfield, op. cit., pp. 197–9.
7. Marion Farouk-Sluglett and Peter Sluglett, *Iraq Since 1958: From Revolution to Dictatorship* (London and New York, I. B. Tauris), p. 8.
8. Mansfield, op. cit., p. 214.
9. David Fromkin, *A Peace to End All Peace: The Fall of the Ottoman Empire and the Creation of the Modern Middle East* (New York, Henry Holt, 1989), p. 29.
10. Fromkin, op. cit., p. 501.
11. Fromkin, op. cit., pp. 502–3.
12. Joseph Heller, *The Birth of Israel: 1945–1949, Ben-Gurion and His Critics* (Gainsville,

University Press of Florida, 2000), p. 2. Remarks in parentheses are mine.
13. Fromkin, op. cit., pp. 519–20.

## الفصل الثالث : عملية عزرا ونحميا: الرحلة الحلوة ـ المرة إلى صهيون

1. Raise Marcus, "Flight from Babylon," *Jerusalem Post*, August 23, 1996, online.
2. Batatu, op. cit., p. 19.
3. Batatu, op. cit., pp. 247–8.
4. Batatu, op. cit., p. 312.
5. Batatu, op. cit., p. 19; Mackey, op. cit., pp. 142–7 and 168–70.
6. Sraya Shapiro, "Bye-bye Baghdad," *Jerusalem Post*, November 12, 1998, online; Shlomo Hillel, *Operation Babylon, Jewish Clandestine Activity in the Middle East 1946–51* (Glasgow, Fontana/Collins 1985), p. 22.
7. Hillel, op. cit., pp. 13–30 and 145–70, passim; Ian Black and Benny Morris, *Israel's Secret Wars: A History of Israel's Intelligence Services* (New York, Grove Press, 1991), pp. 87–9.
8. "The Jews of Iraq," in *The Link*, published by Americans for Middle East Understanding, Inc., Vol. 31, Issue 2, April–May 1998, pp. 1–5.
9. Dalia Karpel, "It Could have been Paradise Here," *Haaretz*, English online edition, October 29, 2003.
10. Mordechai Ben-Porat, *To Baghdad and Back: The Miraculous 2,000 Year Homecoming of the Iraqi Jews* (Jerusalem and New York, Gefen, 1998), p. 178.
11. *The Link*, p. 7.
12. *The Link*, pp. 7–8.
13. David Hirst, *The Gun and the Olive Branch: The Roots of Violence in the Middle East* (New edition, London, Faber and Faber, 2003), p. 280. Hirst cites original Israeli sources.
14. Hirst, op. cit., pp. 280–1; Ben-Porat, op. cit., pp. 179–81.
15. Hirst, op. cit., pp. 281–2; *The Link*, passim.

## الفصل الرابع : العراق يدخل الساحة الفلسطينية

1. Black and Morris, op. cit., pp. 8–10.
2. Heller, op. cit., p. 10.
3. Black and Morris, op. cit., pp. 18–34.
4. Hirst, op. cit., pp. 233–4.
5. Heller, op. cit., pp. 85–93.
6. Farouk-Sluglett and Sluglett, op. cit., pp. 38–41.
7. (Pakistani) Brig. Gen. (Ret.) Syed Ali El-Edroos, *The Hashemite Arab Army 1908–1979: An Appreciation and Analysis of Military Operations* (Amman, Jordan, Publishing Committee, 1980), pp. 243–5.
8. El-Edroos, op. cit., pp. 246–7; p. 256.
9. El-Edroos, op. cit., pp. 258–63; p. 268; Heller, op. cit., pp. 302–3.
10. Michael B. Oren, *Six Days of War: June 1967 and the Making of the Modern Middle East* (New York Ballantine Books, 2002, 2003), pp. 4–5.

11. Oren, op. cit., p. 5.; El-Edroos, op. cit., p. 271.
12. See John K. Cooley, "The U.S. Pushes 'Regime Change' at its Peril," *International Herald Tribune*, November 18, 2003, p. 6. A personal account of the CIA's role in Syria in 1949 by an involved former CIA operative appears in Miles Copeland, *The Game of Nations: The Amorality of Power Politics* (London, Weidenfeld and Nicolson, 1969–70), pp. 28–49.
13. El-Edroos, op. cit., pp. 271–2.
14. Quoted in El-Edroos, op. cit., p. 272.
15. Heller, op. cit., p. 303. Although he disagrees with historian Avi Shlaim's dovish interpretations, Heller, like some other mainstream Jewish and Israeli historians, cites Shlaim's two volumes, *Collusion across the Jordan: King Abdallah, the Zionist Movement and the Partition of Palestine, 1921–1951* (Oxford, Clarendon, 1988) and *The Politics of Partition: King Abdallah, the Zionist Movement, the Zionists and Palestine, 1921–1951* (Oxford, Oxford University Press, 1990).

### الفصل الخامس : الولايات المتحدة وإسرائيل وإيران والأكراد العراقيون

1. AFP dispatch, Maseef Salahadin, Iraq, April 29, 2003.
2. Ezer Weizman, *The Battle for Peace* (New York, Bantam, 1981), p. 91.
3. See "U.S. 'Plans to Keep Bases in Iraq,'" *Guardian Weekly*, April 24–30, 2003, page 1.
4. Fromkin, op. cit., pp. 404–5.
5. Fromkin, op. cit., pp. 398–9.
6. Gordon Thomas, *Gideon's Spies: The Secret History of the Mossad* (New York, Thomas Dunne Books of St. Martin's Press, 1999), p. 42.
7. Black and Morris, op. cit., pp. 183–4.
8. David McDowall, *A Modern History of the Kurds* (London and New York, I. B. Tauris, 1996), p. 314.
9. Marion Woolfson, *Prophets in Babylon: Jews in the Arab World* (London and Boston, Faber and Faber, 1980), p. 218.
10. Yediot Aharonot, May 10, 1978, extracts quoted in Woolfson, op. cit., pp. 221–2; conversations with author's private sources.
11. Edmund Ghareeb, *The Kurdish Question in Iraq* (Syracuse University Press, 1981), pp. 142–3.
12. Lee Dinsmore, "The Forgotten Kurds," *The Progressive*, April 1977, p. 39.
13. Kevin Alan Brook, "The Genetic Bonds Between Kurds and Jews," untitled online newsletter found at www.barzan.com, undated. The article also contains references to genetic and anthropological studies by researchers at the Hebrew University of Jerusalem and elsewhere, and a bibliography of other articles and books supporting the supposed genetic affinity of Kurds and Jews.
14. G. H. Sedan, "Consulate Attack Marks Low Point in Israeli–Kurdish Relations," Jewish Telegraph Agency, published by *Jewish News of Greater Phoenix*, February 26, 1999, p. 2.

15. Ghareeb, op. cit., pp. 138–9, quoting what may have been the original source, the newspaper *Al-Ahad*, Beirut, August 10, 1969. I have confirmed most of these details in various conversations over the years with U.S. and other officials involved.
16. Henry Kissinger, *Years of Renewal* (New York, Simon and Schuster, 1999), pp. 576–87.
17. Private memorandum, November 2003.
18. Author's reporting notes for the *Christian Science Monitor*, April 1975.

## الفصل السادس : كيف رفعت الـ C.I.A صدام لأعلى

1. Al-Ahram, September 27, 1963, quoted in Batatu, op. cit., p. 986.
2. Tariq Ali, *Bush in Babylon* (London and New York, Verso, 2003), pp. 77–86.
3. "James H. Critchfield, Colonel, United States Army, Central Intelligence Agency Official," obituary, Arlington National Cemetery Website, April 23, 200, online.
4. Batatu, op. cit., pp. 685–6.
5. Batatu, op. cit., pp. 983–5; "How West Helped Saddam Gain Power and Decimate the Iraqi Elite," by Mohamoud A. Shaikh, Muslimedia August 16–31, 1997, online.
6. Critchfield obituary; Andrew and Patrick Cockburn, *Out of the Ashes: The Resurrection of Saddam Hussein* (London, Verso, 2000), quoted online in a blog by Tim Buckley, December 26, 2000.
7. Stephen Dorril, MI-6, *Inside the Covert World of Her Majesty's Secret Intelligence Service* (New York and London, Simon and Schuster, 2000), pp. 681, 689.
8. Critchfield obituary.
9. Con Coughlin, *Saddam: The Secret Life* (London, Pan Macmillan, 2002), pp. 41–2.
10. Quoted by Coughlin, op. cit., p. 43.
11. Farouk-Sluglett and Sluglett, op. cit., pp. 97–8.
12. Aburish, Said, *Saddam Hussein: The politics of Revenge* (London, Trafalgar, 2000), pp. 60–4.
13. The foregoing is drawn from "The Influence of the Peripheral Arab States on Arab–Israeli Wars," by Israeli analyst Dov Tamari, published by the Jaffee Center for Strategic Studies, Tel Aviv University, undated; my own personal notes from the period and from the excellent book of the Israeli historian Michael B. Oren, *Six Days of War: June 1967 and the Making of the Modern Middle East* (New York, Ballantine, 2003), pp. 1–127, passim, especially p. 2 (the Aref–Nasser meeting in February 1967).
14. Oren, op. cit., p. 321.
15. Farouk-Sluglett and Sluglett, op. cit., pp. 99–101.

## الفصل السابع : حقبة صدام الأولى :
## العلاقات مع الولايات المتحدة و أعمال الحرب مع إسرائيل

1. Oren, op. cit., p. 10.
2. Aburish, op. cit., pp. 73–4.
3. Aburish, op. cit., pp. 76–8; Sluglett and Sluglett, op. cit., pp. 113–15.
4. Farouk-Sluglett and Sluglett, op. cit., pp. 119–23.

5. Biographic sketch of Saddam Hussein by British Embassy in Baghdad, November 15, 1969, Public Record Office, London, FCO 17/871, summarized by National Security Archive (NSA), Washington, DC, online, December 20, 2003.
6. Jackob Nimrodi (English spelling on title page), *My Life's Journey* (in Hebrew), (Or Yehuda, Israel, Ma'ariv Book Guild, 2003), in two volumes. The first volume basically recites his earlier military career in Etzel and the Palmach during the War of Independence, and his adventures as a Jewish Agency and Mossad representative unofficially accredited to the Shah's court in Tehran; the second, his business coups and successes, especially in the arms trade and in development projects inside and outside Israel. Nimrodi claims that the Israeli military censor held up the book's publication for a long period due to the sensitive nature of many of his disclosures. As of this writing in early 2004, the memoirs had not been published in English.
7. Samuel Segev, *The Iranian Triangle: The Untold Story of Israel's Role In The Iran–Contra Affair* (New York, Macmillan, Free Press, 1988), pp. 2–3; Black and Morris, op. cit., p. 328; Nimodi, op. cit., Vol. I, passim.
8. Black and Morris, op. cit., pp. 206–9.
9. Coughlin, op. cit., pp. 79–82.
10. Black and Morris, pp. 255–6. For extensive background to the events of "Black September" 1970, see John K. Cooley, *Green March, Black September: The Story of the Palestinian Arabs* (London, Frank Cass, 1973).
11. Cooley, op. cit., pp. 110–14.
12. El-Edroos, op. cit., pp. 445–6, 450–1, 452–6; Cooley, op. cit., pp. 112–21. The Washington sequences are drawn from personal interviews and from Walter Isaacson, *Kissinger: A Biography* (New York, Simon and Schuster, 1992), pp. 292–9.
13. Aburish, op. cit., pp. 90–1.

## الفصل الثامن : حقبة صدام الثانية : مسرحيات السلطة والحرب، ١٩٧٠ ـ ١٩٨٠

1. Ofra Bengio, "Crossing the Rubicon? Iraq and the Arab–Israeli Peace Process," in *MERIA* journal, Tel Aviv, Vol. 2, No. 1, March 1998, hereinafter referred to as Bengio.
2. Andrew and Leslie Cockburn, *Dangerous Liaison: the Inside Story of the U.S.–Israeli Covert Relationship* (New York, Harper Perennial, HarperCollins, 1992), pp. 169–70. The late Archibald Roosevelt expressed these thoughts in his memoirs, *For Lust of Knowing* (Boston, Little Brown, 1988), p. 448, and expanded on them in a personal interview with the author during a private presentation to invited guests at a London club in 1983.
3. El Edroos, op. cit., pp. 485–9.
4. El-Edroos, op. cit., p. 488.
5. Oren, op. cit., p. 315.
6. See Cooley in the *Monitor* and Hoagland in the *Post*, issues of July 5, 1973.
7. Black and Morris, op. cit., pp. 300–3. This quote is on p. 303.
8. Interview with Antoine Touma, ABC News representative in Damascus, 1980.

Touma served at the time in an anti-aircraft unit of the Syrian army near Latakia, which came under fire during the engagement.
9. Black and Morris, op. cit., pp. 305–13.
10. Farouk-Sluglett and Sluglett, op. cit., pp. 172–3.
11. Aburish, op. cit., pp. 162–4; personal interviews in 1979 and 1980.
12. Aburish, op. cit., pp. 171–6.
13. Farouk-Sluglett and Sluglett, op. cit., pp. 151–2.
14. Aburish, op. cit., pp. 187–91; author's private interviews in Amman, Jordan, 1981–85 and 1995.

## الفصل التاسع : حقبة صدام الثالثة : الهزيمة والتحدى، ١٩٨٠ ـ ١٩٩٠

1. John K. Cooley, *Payback: America's Long War in the Middle East* (London and New York, Brassey's, 1991) foreword by Pierre Salinger.
2. National Security Archive Update, *The Saddam Hussein Sourcebook*, December 18, 2003, online, p. 3.
3. Segev, op. cit., pp. 4–6.
4. A photocopy of the letter appears on p. 424 of Nimrodi's memoirs, published in two volumes in Hebrew by Maariv Book Guild, Or Yehuda, Israel, vol. 1.
5. Segev, op. cit., pp. 7–11 and Nimrodi's memoirs, passim.
6. The scientist now lives in Britain. His brother, a prominent Arab editor, is my source. At the time of the attack, I was a temporary Senior Associate at the Carnegie Endowment for International Peace in Washington, and helped to prepare a disapproving report on the attack for the Arms Control Association.
7. Black and Morris, op. cit., pp. 332–4; Donald Neff, "Israel Bombs Iraq's Osirak Nuclear Research Facility," in *Washington Report On Middle East Affairs*, newsletter, June 1995, pp. 81–2.
8. Gerald Westerby, *In Hostile Territory: Business Secrets of a Mossad Combatant* (New York, Harper Business, 1998), pp. 25–32.
9. Neff, op. cit., pp. 81–2.
10. Alan Friedman, *Spider's Web: Bush, Saddam, Thatcher and the Decade of Deceit* (London and Boston, Faber and Faber, 1993), pp. 4–5.
11. National Security Archive (NSA) Update, NSSM 4–82, mention on p. 3.
12. NSA Update, NSDD 114, Documents 28, 32, 36, 44, 58, pp. 3–4; Friedman, pp. 27–8.
13. NSA Update, Documents 47, 48 and 61, p. 5; Friedman, op. cit., p. 29; author's interviews in London with senior oil company sources in 1984.
14. Friedman, op. cit., pp. 29–30
15. Cooley, *Payback*, pp. 115 and 119–21. For much more elaborate detail and the inside story from an Israeli viewpoint, see Samuel Segev, op. cit., passim, especially pp. 167–83.
16. NSA Update, Documents 44 and 58, p. 4.
17. Aburish, op. cit., pp. 24–241.
18. NSA Update, pp. 6–7.

19. Loretta Napoleoni, *Modern Jihad: Tracing the Dollars Behind the Terror Networks* (London and Sterling, Va., Pluto, 2003), p. 185.
20. Napoleoni, op. cit., pp. 55–6.
21. Bengio, op. cit., pp. 4–5, and a series of FBIS (Foreign Broadcast Information Service) transcripts, May–August 1989 and April 3 and May 8–9, 1990.

## الفصل العاشر : من القدس إلى واشنطن : تقوية وتأكيد التحالف

1. Black and Morris, op. cit., pp. 519–21; author's interview with Jalal Talabani, head of the Patriotic Union of Kurdistan, London, April 1991.
2. See Cooley, *Payback*, p. 125, p. 229.
3. Black and Morris, op. cit., pp. 517–18.
4. Gemini News Service, London, "A Big Boost for Suppliers," undated, reprinted by World Press Review, Stanley Foundation, New York, April 1991 and 2003 (brochure), pp. 21–2.
5. Cooley, *Payback*, pp. 185–7.
6. Cooley, *Payback*, pp. 188–90, and private conversation with Glaspie in Jerusalem, March 1992 (subsequent to publication of *Payback*).
7. Author's own notes and reports to ABC Radio News from Cairo, August 10, 1990.
8. U.S. News and World Report, *Triumph Without Victory: The Unreported History of the Persian Gulf War* (New York, Times Books, Random House, 1992), pp. 131–5.
9. Cooley, *Payback*, pp. 216–18; conversation with Ze'ev Schiff, Tel Aviv, February 2004.
10. *U.S. News*, pp. 247–50.
11. Cooley, *Payback*, p. 215.
12. Uri Dan, "Saddam's Head," *Jerusalem Post*, March 18, 1999, online, pp. 1–2.; Leslie Susser, "Target: Saddam," The Jerusalem Report.com, December 17, 2003; pp. 1–2; Ze'ev Schiff, "The Assassination that never took place," *Haaretz*, December 17, 2003, online; Dan Baron, "Israel says 1992 accident came," *Jewish Telegraph Agency*, December 16, 2003.
13. Robin Wright, "America's Iraq Policy: How Did it Come to This?" *Washington Quarterly*, Summer 1998, online, p. 5; hereinafter as Robin Wright.
14. Hans Leyendecker, "In the Belly of the Beast," Sueddeutsche Zeitung, Munich, November 25, 1997, in *World Press Review*, February 1998, pp. 26–7.
15. Cockburn and Cockburn, *Out of the Ashes*, pp. 165–71.
16. Aburish, op. cit., pp. 340–9.
17. Quoted in Robin Wright, op. cit., pp. 9–10
18. Robin Wright, op. cit., p. 11, pp. 15–17.
19. My listing and characterization closely follows Elizabeth Drew, "The Neocons in Power," *New York Review of Books*, June 12, 2003, p. 1 of online text.
20. Quoted by Wilhelm Dietl, *Schwarzbuch Weisses Haus: Aussenpolitik mit dem Sturmgewehr* (The Black Book of the White House: Foreign Policy With An Assault Rifle), (Erfstadt, Germany, Area Verlag 2004), p. 31.

21. Drew, op. cit., pp. 2–3.
22. Quotations from the original document in Bill and Kathleen Christison, "Too many Smoking Guns to Ignore: Israel, American Jews and the War on Iraq," *Counterpunch* newsletter, January 25, 2003, p. 1 and passim; "U.S.–Israeli interests in Iraq," cooperative research.Org, pp. 19–20.
23. Julie Kosterlitz, "The Neoconservative Moment," *National Journal*, May 17, 2003, online, p. 3.

## الفصل الحادى عشر : نهاية اللعبة : دمقرطة العراق أم تقطيع أوصاله؟

1. M. J. Cohen and John Major, *History in Quotations* (London, Cassell, 2004), p. 942.
2. Richard A. Clarke, *Against All Enemies: Inside America's War on Terror* (New York, Free Press, Simon and Schuster, 2004), pp. 30–2.
3. Ron Suskind, *The Price of Loyalty: George W. Bush, the White House, and the Education of Paul O'Neill* (New York, Simon and Schuster, 2004), pp. 82–6.
4. Clarke, op. cit., pp. 95–6, in part quoting a report by Jason Vest in the *Village Voice*, November 27, 2001.
5. Suskind, op. cit., p. 129.
6. Suskind, op. cit., p. 172.
7. Suskind, op. cit., p. 71.
8. Karen Kwiatkowski, "In Rumsfeld's Shop: A Senior Air Force Officer Watches as the Neocons Consolidate their Pentagon Coups," The *American Conservative*, p. 2, online.
9. Seymour M. Hersh, "Selective Intelligence," *New Yorker*, May 12, 2003, online, posted May 5, 2003, pp. 1–2.
10. "United Defense," AIPAC brief, October 24, 2003, pp. 1–2, online.
11. Clarke, op. cit., p. 183.
12. Fareed Zakaria, "'Disarming Iraq': Lack of Evidence," *New York Times* book review, April 11, 2004, online, pp. 1–2.
13. Bill and Kathleen Christison, op. cit., p. 18, online.
14. Clarke, op. cit., p. 67.
15. Shai Feldman, "Dilemmas Facing the Second Sharon Government," *JCSS Strategic Assessment*, Vol. 5, No. 4, pp. 1, 3.
16. Maj. Gen. Amos Gilad, "A New Palestinian Agenda After Iraq?" *Jerusalem Issue Brief*, Vol. 2, No. 10, October 29, 2002, pp. 1, 4.
17. Maj. Gen. Ya'akov Amidror, "Israel's Strategy After the Iraq War," *Jerusalem Issue Brief*, Vol. 2, No. 24, April 16, 2003, pp. 1, 2, 5.
18. International Institute for Strategic Studies, *The Military Balance 2003–2004* (London, Oxford University Press for the IISS, 2003), p. 98, and daily news reports.
19. Michael Gordon, "U.S. Forces Defeat Saddam, Then Face Guerilla Attacks," and Timothy L. O'Brien, "At the UN, Bitterness Persists After the War," *The New York Times Almanac 2004*, pp. 17–19; news reports and personal interviews, winter and spring, 2003–2004.

20. Ari Shavit, "The Waiting Game," *Haaretz*, September 4, 2003, online. The author covered the Mashal episode and aftermath for ABC News in Amman.
21. Ronen Bergman, "New Boy at Mossad," *Yediot Aharonot*, April 22, 2003, online: a long and detailed article about the internal politics of Mossad.
22. Shomo Brom, "An Intelligence Failure?" *JCSS Strategic Assessment*, Vol. 6, No. 3, November 2003, pp. 8–9; BBC News Report, online, December 12, 2003.
23. *Jerusalem Post*, December 7, 1997, online; *Jane's Foreign Report*, December 14, 1998, pp. 1–2; *Washington Post*, December 6, 1997, p. A22; *Washington Times*, December 7, 1997, p. A6.
24. Ze'ev Schiff, "The Lesson of Iraq," *Haaretz*, April 2, 2004, online.
25. Amnon Barzilal, "U.S. Army Wants to Buy more Israeli Hunter Drones," *Haaretz*, July 8, 2003, online.
26. Cameron W. Barr, "U.S. Eyes Israeli Software as Training Tool for Forces in Iraq," *Christian Science Monitor*, September 29, 2003, online.
27. Richard Sale, "Pollard Recruiter Resurfaces in U.S.," *United Press International*, July 11, 2003, online.
28. James Bennet, "U.S. Military Studied Israel's Experience in Close-Quarter Fighting in Refugee Camps," *New York Times*, April 1, 2003, online, pp. 1–2.
29. Bennet, op. cit., p.2; Seymour M. Hersh, "Moving Targets," *New Yorker*, December 15, 2003, online, pp. 1–8, passim, online; John Borger, "Israel Trains U.S. Assassination Squads in Iraq," *Guardian Unlimited*, December 9, 2003, pp. 1–3 online.
30. Seymour Hersh, "Torture at Abu Ghraib," May 10, 2004; "Chain of Command," May 17, 2004; "The Gray Zone," *New Yorker*, May 10, 17, and 24, 2004; Dana Priest and Joe Stevens, "Secret World of U.S. Interrogation," *Washington Post*, May 11, 2004; Helena Cobban, "A Matter of Culpability in Iraq," *Christian Science Monitor*, May 13, 2004, online; "La rapport du CICR sur le traitement des prisonniers Irakiens," *Le Monde*, May 13, 2004, online; Susan Sontag, "Regarding the Torture of Others," *New York Times Magazine*, May 23, 2004, online; Eitan Feiner, "The Painful Lesson Israel Learned About Torture," *International Herald Tribune*, June 1, 2004, online; Yossi Melman, "All Evidence Refutes Claims of Israeli Involvement in Iraqi Prison Affair," *Haaretz*, May 19, 2004, online.
31. Seymour Hersh, "Plan B," *New Yorker*, June 28, 2004, online; Mathew Gutman, "Israeli Intelligence Agents Infiltrating Iran—Report," *Jerusalem Post*, June 20, 2004, online; "Five Kurdish Rebels Killed, Turkish Soldier Wounded in Clash," AFP from Diyarbakir, June 21, 2004.
32. IISS, Strategic Survey 2003/4, *An Evaluation and Forecast of World Affairs* (Oxford University Press for the IISS 2004), pp. 165–70.
33. William Pfaff, "Europe Should Take its Own Mideast Stand," *International Herald Tribune*, July 12, 2004, op-ed page.
34. The quotes and some of these ideas I owe to an edited extract from an updated version of David Hirst's classic, *The Gun and the Olive Branch*, the first edition of which appeared 25 years ago. The extract appeared in the *Observer*, Sunday September 21, 2003, online.
35. Given to me in an interview with Sadat in Cairo, October 1974.